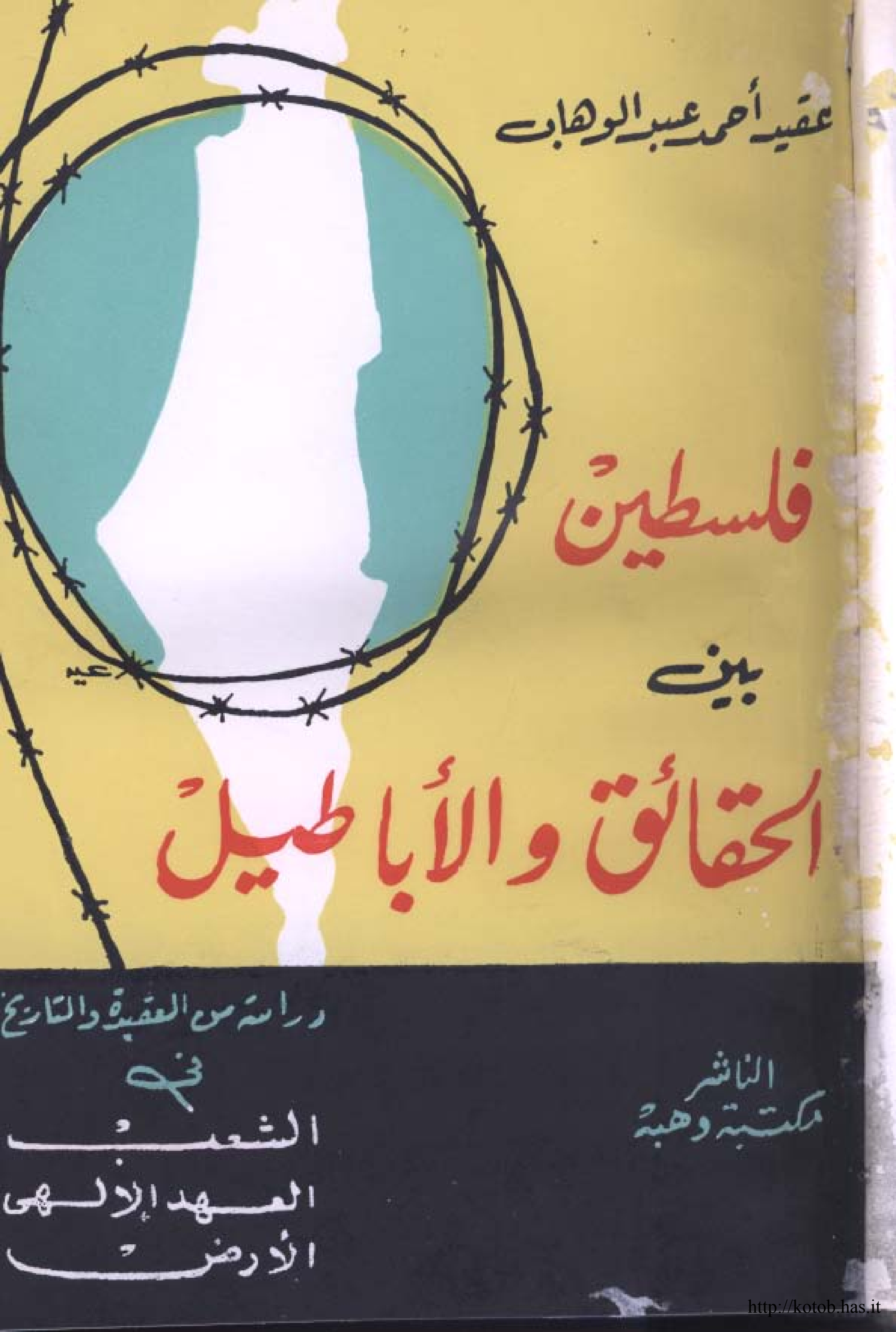


عقيد أحمد عبد الوهاب
فلسطين
بين
الحقائق والأباطيل
دراسة من العقيدة والتاريخ
في
الشعب
العهد الإلهي
الأرض
الناشر
مكتبة وهبة

مهندس أحمد عبد الوهاب

فلسطين
بين
الحقائق والأباطيل

الناشر : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين

الطبعة الأولى

ربيع الاول سنة ١٣٩٢ هـ
ابريل سنة ١٩٧٢ م

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٢/٣٠٦٩

مطبعة الاستقلال الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

بين الحق والباطل صولات وجولات ... تمتد طويلا عبر القرون ، وتأخذ لها أماكن للصراع مرة هنا ومرة هناك ..

وفى القرن العشرين اختار الباطل أرض فلسطين ميدانا للمعـارك ، وحشــد لذلك من ضروب القوى والامكانيات ما جعل الصراع يمتد عنيفا رهيبا ، ويبدى من الدلائل ما ينذر بامتداده طيلة العشرات من السنين .

ولقد تمخضت النتائج الأولى لهذا الصراع عن قيام دولة اسرائيل فى علم ١٩٤٨ ــ تلك الدولة التى جاءت بفعل محصلة قوتين متوازيتين تعملان فى اتجاه واحد هما :

الاستعمار والصهيونية .

ويمكن التدليل فى سهولة ويسر على صدق تلك الدعوى ، حين نتتبع دور كل منهما ، كما تكشف عنه الوثائق والأسانيد .

***

المخطط الاستعمارى :

فمن وجهة نظر الاستعمار نجد الأصوات الرسمية وغير الرسمية قد ارتفعت منذ قرن مضى قبل قيام دولة اسرائيل ، تطالب بالتمكين لـكيان يهودى غريب عن منطقة الشرق الأوسط العربية والحيوية ، من أن يزرع قرب التقاء القارات الكبرى بالعالم القديم ــ أى بفلسطين ــ حتى يكـون ذلك ركيزة من ركائز الاستعمار فى المنطقة . وفى هذا المضمون كتب توماس كلارك عام ١٨٦١ فى كتابه « الهند وفلسطين » (١) يقول : « ان بعث الأمة اليهودية سوف ينعش بنى اسرائيل ويعود علينا بأفضل المنافع قاطبـــة ولئن كانت الضرورة فيما مضى تقضى بالابقاء على مملكة تركيا كدولة محايدة والحفاظ على سلامة حدودها كخط دفاعى وحائل ــ **فمن المؤكد أن احتلال اليهود لفلسطين تحت حماية بريطانيا يجب أن يكون بمثابة الضرورة القصوى على الاطلاق .**

Thomas Clark ; INDIA and PALESTINE, Mauechestes, 1861.
(١) ملف وثائق فلسطين ــ القاهرة ــ ص ٥٣ ــ المرجع رقم ١١

واذا كانت بريطانيا تعتمد من جديد على تجارتها كحجر الزاوية فى عظمتها ، واذا كان أقرب مجرى للتجارة وأفضله يمر عبر محور القارات الثلاث الكبرى ، وبما أن اليهود يؤلفون شعبا تجاريا فى الجوهر — **فهل توجد بادرة أكثر طبيعية من زرعهم على طول ذلك الطريق العظيم للتجارة القديمة ؟ »** .

*

وفى مطلع القرن العشرين عقد فى لندن مؤتمر استعمارى ، هدفه تحديد الوسائل التى تستطيع بها دول الاستعمار — آنذاك — أن تضمن بقاء مستعمراتها فى قبضتها أطول فترة ممكنة ، حتى تستغل مواردها وخيراتها . وقد اشترك فى المؤتمر كبار العلماء فى التاريخ والاجتماع والزراعة والبترول والجغرافيا والاقتصاد . وفى عام ١٩٠٧ قدم المؤتمر توصية الى رئيس الوزراء البريطانى كامبل بنرمان (٢) جاء فيه :

« ان اقامة **حاجز بشرى ، قوى وغريب** ، على الجسر البرى الذى يربط أوربا بالعالم القديم ، ويربطهما معا بالبحر الأبيض المتوسط ، بحيث يشكل فى هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس ، **قوة عدوة لشعب المنطقة** وصديقة للدول الأوربية ومصالحها — هو التنفيذ العملى العاجل للسبل والوسائل المقترحة » .

*

وفى عام ١٩٢٠ كتب الكولونيل ماينر تزهاجن السكرتير العسكرى للورد اللنبى — مذكرة الى رئيس الوزراء لويد جورج جاء فيها :

« اننا نسير بحكمة زائدة مستهدفين السماح لليهود بانشاء وطنهم القومى فى فلسطين ، فقد حررنا العرب من النير التركى ولن نستطيع البقاء فى مصر الى الأبد . وستتطور القومية العربية الى مرحلة المناداة بالسيادة من المحيط الى الخليج ، ومما لا شك فيه أن السيادة العربية واليهودية ستصتدمان . واذا قدر لمشروع الهجرة اليهودية الى فلسطين النجاح ، فان الصهيونية ستتوسع على حساب العرب دون سواهم ، وسيبذل العرب قصارى جهودهم للقضاء على قوة فلسطين اليهودية ، وهذا يعنى سفك الدماء .

---

(٢) المرجع ١١ — ص ١٥٢

وبريطانيا تتحكم الآن فى الشرق الأوسط ، ونحن لا نستطيع أن نكون اصدقاء للعرب واليهود فى آن واحد ، **وانى اقترح منح الصداقة البريطانية لليهود وحدهم بتقدير أنهم الشعب الذى سيكون صديقنا المخلص الموالى فى المستقبل . ان اليهود مدينين لنا كثيرا وهم يحفظون لنا هذا الجميل** وسيكونون ثروة لنا — بعكس العرب .. **وسوف تكون فلسطين حجر الزاوية فى الشرق الأوسط .**

الآن دعنى اتكلم عن فلسطين بالنسبة الى مصر ، ففى حالة تطور السلاح من طائرات ودبابات سيكون الفصل فى المعركة للسلاح الأحدث . **ولذلك فانى أرى فى مصر العدو المسلح لليهود** ، وبتطور القوميتين العربية واليهودية الى مرحلة السيادة وبخسارتنا قناة السويس فى سنة ١٩٦٨ — أى بعد ٤٧ سنة — فان بريطانيا ستخسر مراكزها فى الشرق الأوسط . ولتقوية هذه المراكز اقترح ضم سيناء الى فلسطين ، ففى حالة ضم سيناء الينا فاننا نربح حدا فاصلا بين مصر وفلسطين ، ونثبت لبريطانيا مركزا قويا فى الشرق الأوسط مع اتصال سهل بالبحرين المتوسط والأحمر **وقاعدة استراتيجية** واسعة النطاق مع ميناء حيفا الممتاز الذى سنستعمله بموافقة اليهود .

ومن حسنات هذا الضم انه سيحبط أى محاولة مصرية لاغلاق القناة فى وجه ملاحتنا ، كما سيمكننا من حفر قناة تربط البحرين المتوسط والاحمر » (٣) .

*

ويتساءل هربرت سايد بوثام فى كتابه « بريطانيا العظمى وفلسطين » الذى نشر عام ١٩٣٧ (٤) عن ماهية المصالح البريطانية التى تنسجم مع خلق دولة يهودية بفلسطين أو « الى أى حد يتلاءم مثال تلك الدولة اليهودية مع مصالح الامبراطورية ؟ » — ثم يجيب على هذا التساؤل فيقول :

« ان اليهود وحدهم يمكنهم استعمار فلسطين ، وهم وحدهم يستطيعون بناء **مملكة مستقلة جديدة على البحر الأبيض المتوسط ترتبط بهذه البلاد (انجلترا) منذ البداية فى العمل الامبريالى ، وتكون فى آن واحد وقاية ضد الشرق الغريب ووسيطا بينه وبيننا** ، ومدنية تتميز عن مدنيتنا

(٣) المرجع ١١ — ص ٢٧٩
(٤) المرجع ١١ — ص ٦٣٧

لكنها متشربة بأفكارنا السياسية تقف فى المرحلة نفسها من التطور السياسى وتدشن حياتها الثانية كأمة تكن الوفاء وعرفان الجميل لهذه البلاد باعتبارها الأب الثانى لها » .

*

لقد كان هذا هو المخطط الاستعمارى تجاه فلسطين العربية : هدفه من قديم زرع جسم يهودى غريب عن المنطقة العربية ، يعمل كقاعدة استراتيجية تؤمن مصالح دول الاستعمار فى المنطقة ، ويعمل كرأس جسر لها يضمن السيطرة على القوى والامكانيات العربية .

* * *

المخطط الصهيونى :

ــ واذا أردنا تتبع العمل الصهيونى ومخططاته لوجدنا أنه يبدأ بداية ساخرة فقد كانت باريس تشهد فى عام ١٨٩١ محاكمة للضابط الفرنسى اليهودى الفريد دريفوس بتهمة الخيانة العظمى لبيعه أسرارا عسكرية لألمانيا ، وفى هذه الأثناء ذهب صحفى نمسوى يهودى يدعى تيودور هرتزل ، مراسلا لصحيفته ، لتغطية أنباء تلك القضية .

وفى هذا تقول المراجع التى تتعاطف مع الصهيونية :

« هناك استمع هرتزل الى هتاف عامة الشعب الفرنسى : ليسقط اليهود ــ كما استمع الى غير ذلك من الفاظ التحقير والاهانة .

ولقد هزته هذه المشاهد حتى اقتنع تماما بأن عالم الأمميين (تحقير يطلق على كل من عدا اليهود) لا يمكن الاطمئنان الى أنه سيترك اليهود يعيشون فى سلام . ولهذا كتب هرتزل الحل الذى رآه للمشكلة اليهودية فى كتيب بعنوان (الدولة اليهودية) ونشره عام ١٨٩٦ » (٥) .

وكان الحل الذى اقترحه هرتزل هو « **أن يمنح اليهود السيادة على جزء من الأراضى يمكنهم من أن يعيشوا حياتهم كأمة .**

وستتكفل وكالتان متخصصتان للقيام بهذا العمل هما (جمعية اليهود) ، (والشركة اليهودية) وستخول الجمعية السلطات للتفاوض مع الحكومة بكونها ممثلة للشعب اليهودى وسيكون هدفها خلق الدولة اليهودية ، اما الشركة فهى لتمويل هذه العمليات .

James Parkes : A HISTORY OF THE JEWISH PEOPLE.

(٥) المرجع رقم ١٩ ــ ص ١٨٤

وتساءل هرتزل هل ستكون الدولة فى فلسطين ام فى الارجنتين ؟

وقال ان الجمعية هى التى ستحدد .

ان الأرجنتين من أخصب بقاع العالم ومساحتها كبيرة وتعداد سكانها ضئيل وجوها معتدل ولاشك أن جمهورية الأرجنتين ستجنى مكاسب هائلة من وراء اعطائنا قطعة من الأرض .

اما فلسطين فلها ذكريات تاريخية ، وان مجرد ذكر اسم فلسطين يثير شعبنا ويحفزه واذا ما وافق السلطان (التركى) على اعطائنا فلسطين ، فاننا فى مقابل ذلك سنتعهد بتنظيم الأحوال المالية لتركيا ، وسنعمل على أن نظل مرتبطين بكل اوربا التى ستضمن بقاءنا » (٦) .



وتقول المصادر الاسرائيلية « ان هرتزل لم يكن يدرى شيئا عن اسلافه الصهاينة ابتداء من موسى هس الى احادها آم (أشير جتزبرج) ولم يعرف من الديانة اليهودية الا القليل ، كما انه لم يعرف اللغة العبرية . ورغم أن اغلب اليهود فى الغرب رأوا أن فكرته تدعو للسخرية الا انه استطاع أن يعقد مؤتمرا لمناقشتها حضره حوالى ٢٠٠ مندوب من يهود العالم فى مدينة بازل بسويسرا عام ١٨٩٧ وفى النهاية أقر المجتمعون برنامج بازل ، الذى يقضى بانشاء وطن لليهود فى فلسطين يقره القانون الدولى .

لقد كان هرتزل مقتنعا بأن الخطوة الأولى تتطلب العمل على كسب التأييد الدولى ، والحصول على موافقة الحكومة التركية (التى كانت فلسطين خاضعة لها آنذاك) وكان يرى ان الاستعمار يجب الا يبدأ الا بعد أن يتحقق هذا لكن آخرين وعلى رأسهم حاييم وايزمان كان يرى ضرورة بدء العمل فورا ، ولهذا انشأ صندوق الجباية اليهودى فى علم ١٩٠١ لشراء الأراضى بفلسطين .

ولقد تلقى هرتزل اقتراحات من الساسة البريطانيين منها ان استيطان اليهود يمكن ان يبدأ فى شبه جزيرة سيناء تحت الحماية البريطانية ، واقتراحا آخر باستيطان شرق افريقيا (فى اوغندا) ولما كان يرى ان الاقتراح الأول مستحيل » (٧) ، « فقد قبل هرتزل عرض بريطانيا لتأسيس وطن قومى يهودى فى أوغندا، ولكنه اضطر الى نبذ الفكرة

---

(٦) المرجع ١١ — ص ٧٥
(٧) المرجع ١٩ — ص ١٨٥

أمام سخرية الشعب الذى نظمه فى الحركة الصهيونية . وكان على رأس معارضى هرتزل — حاييم وايزمان الذى أصبح فيما بعد أول رئيس لدولة اسرائيل .

وفى ٢ نوفمبر ١٦١٧ كتب المستر بلفور وزير الخارجيـــة خطابا الى اللورد روتشيلد عرف بعد ذلك باسم تصريح بلفور .

ان الصورة الأولى للتصريح الذى كتبه المستر بلفور لم تكن تحتوى على كل التحفظات المعروفة ، ولكن هذه التحفظات اضيفت بتحريض رجل يهودى يصفه وايزمان بأنه عدو من الداخل ، — هذا الرجل هو السر ادوين مونتاجو وزير الدولة البريطانى لشئون الهند .

ولقد وافق حلفاء بريطانيا على التصريح **وبعد شهر من صدوره دخل الجنرال اللنبى القدس .**

لقد انخرط المتطوعون من اليهود فى جيوش الحلفاء وكونوا الفيلق اليهودى ، وكان أول مندوب ســـامى بريطانى الى فلسطين يهوديا هو السر هربرت صموئيل . وفى فلسطين حارب اليهود بل انهم تعلموا كيف يحاربون ، وكان خـــير معلم لهم الضـــابط الانجليزى وينجت الذى كان صهيونيا متحمسا اكثر من الصهاينة أنفسهم » (٨) .

* * *

الصهيونية ضد المصالح الحقيقية لليهود :

هذا — ولقد كان الوزير اليهودى البريطانى السر أدوين مونتاجو من أشد المعارضين لفكرة انشاء وطن قومى يهودى بفلســـطين وامكانية تطويره ليصبح دولة فى المستقبل ، وكان يرى فى ذلك خطرا على اليهود واليهودية ، كما كان يرى أن الصهيونية حركة متعصبة خبيثة لا تعمل من اجل المصالح الحقيقية لليهود ، ولكنها تعمل فى الواقع من اجل استغلالهم عن طريق السيطرة عليهم والتحدث باسمهم ، بصرف النظر عما تجره عليهم بعد ذلك من مشاكل مثل مشكلة الولاء المزدوج وغيرها من المشاكل والمتناقضات .

وتبين وثائق الحرب البريطانية لعـــام ١٩١٧ والتى كشفت وزارة الخارجية البريطانية النقاب عنها علم ١٩٦٧ — بعد مرور خمسين عاما — ان السر مونتاجو حاول أن يوقف الاتجاه الســـائد بين وزراء الحكومة

---

(٨) David Catarivas : ISRAEL, Vista Books, LONDON, 1964. pp. 55, 94, 99.

البريطانية لاصدار تصريح يشير الى انشاء وطن قومى يهودى بفلسطين — اذ قام فى ٢٣ أغسطس ١٩١٧ بتوزيع مذكرة على زملائه الوزراء اختار لها عنوانا هو : معاداة الحكومة الحاضرة للسامية — قال فيها :

« ان اختيارى لعنوان هذه المذكرة لايحمل معنى العداء وليس شجارا مع وجهة نظر معادية للســـامية قد يحملها بعض الزملاء .. انما أود أن أسجل رأيى وهو أن سياسة حكومة صاحب الجلالة معادية للسامية من حيث النتيجة ، وانها سوف تصبح صعيدا لتجمع المعادين للسامية فى كل بلد من بلدان العالم .

والدافع الذى حفزنى الى هذا الرأى هو المراسلات المتبادلة بين اللورد روتشيلد ومستر بلفور التى تسلمتها بالأمس .

ان خطاب لورد روتشيلد مؤرخ فى ١٨ يوليو ، ورد مســـتر بلفور سيؤرخ فى أغســـطس عام ١٩١٧ وأخشى ان يكون احتجاجى قد جاء متأخرا ، وثمة احتمال بأن الحكومة كانت ملتزمة عمليا حين كتب لورد روتشيلد خطابه وقبل أن أصبح عضوا فى الحكومة ، ذلك أنه من الواضح انه كانت هناك بعض المراسلات أو المحادثات قبل ذلك الخطاب ، الا اننى **باعتبارى الوزير اليهودى الوحيد فى الحكومة** أشعر بأنه يجدر بزملائى أن يمنحونى فرصة للتعبير عن وجهة نظر قد أنفرد بهـــا وحدى ، ولكننى أتمسك بها تمسكا شديدا ، ولابد لى أن أطلب السماح لى بالاعراب عنهـــا حينما تسنح الفرصة .

ان الصـــهيونية ما فتئت تبدو لى دائما مذهبا ســـياسيا خبيثا لايمكن ان يعتنقه أى مواطن مخلص للملكة المتحدة ، فاذا تطلـــع يهودى انجليزى الى جبل الزيتون واضحى يتحرق شوقا الى اليوم الذى يستطيع فيه ان ينفض تراب بريطانيا عن حذائه ويعــود الى احتراف الزراعة فى فلسطين يكون — كما تراءى لى دائما — قد اعترف بأهداف لاتتفق مع هويته البريطانية ، واعترف بأنه لم يعد صالحا للمشاركة فى الحياة فى بريطانيا العظمى ، أو لأن يعامل كمواطن انجليزى .

لقد كنت أفهم دائما ان الذين يمارســـون هذا المذهب انما كانوا مدفوعين الى ذلك بســـبب القيود المفروضة على اليهود ورفض منحهم الحرية فى روسيا . ولكن فى الوقت الذى تم فيه الاعتراف بهؤلاء اليهود ، باعتبارهم يهودا روسيين ومنحوا كافة حرياتهم ، يبدو أنه من غير المعقول ان تعترف الحكومة البريطانية رسميا بالصهيونية ، وان يخول مســـتر بلفور سلطة القول بأنه سوف يعاد تأسيس فلسطين لتكون الوطن القومى

الشعب اليهودى ، وأنا أعلم ما ينطوى عليه ذلك وان كنت أستنتج أنه يعنى **أن على المسلمين والمسيحيين أن يخلوا السبيل لليهود وانه يجب أن يتبوأ اليهود مراكز الأفضلية ويصبحوا مرتبطين ارتباطا خاصا بفلسطين كارتباط الانجليز بانجلترا** .. كما سيعامل اليهود من الآن فصاعد كأجانب فى كل بلد آخر غير فلسطين . بل لعل الجنسية أيضا لن تمنح الا بعد اختبار دينى . وثمة أربعة مبادىء اعرضها مع التأكيد :

١ — اذكر أنه لا توجد أمة يهودية . ان أفراد أسرتى الذين عاشوا فى هذا البلد عدة اجيال لايشتركون بأية صورة وبأى شكل مع أية اسرة يهودية فى أى بلد آخر فى رأى أو رغبة ، ولا يجمع بينهم أى شىء أكثر من الحقيقة الماثلة فى أنهم يعتنقون نفس الديانة بدرجات متفاوته . وان القول بأن اليهودى الانجليزى واليهودى المغربى ينتميان لأمة واحدة لايقل مجافاة الحقيقة عن القول بأن المسيحى الانجليزى والمسيحى الفرنسى ينتميان لأمة واحدة ، ولعلهما ينتميان لجنس واحد .

٢ — حين يقال لليهود أن فلسطين هى وطنهم القومى فسوف ترغب كل دولة فورا فى التخلص من مواطنيها اليهود ، وسوف تجدون فى فلسطين سكانا يطردون أهاليها الحاليين ويأخذون أحسن ما فى البلد ، يفدون اليها من كافة اركان الأرض ويتحدثون بكل لغة من لغات الأرض ، ولايستطيعون التفاهم مع بعضهم الا عن طريق المترجم .

اننى على اتم استعداد لحرمان كل صهيونى من الحقوق المدنية ، بل لعلنى اجد دافعا قويا لتحريم المنظمة الصهيونية باعتبارها غير قانونية ومنافية للمصالح القومية ولكنى لا اجد مناصا من أن طالب الحكومة البريطانية أن تكون على قدر كاف من التسامح بحيث ترفض الموافقة على نتيجة من شأنها أن تجعل من مواطنيها اليهود ضمنا ان لم يكن بنص القانون أغرابا وأجانب .

٣ — **اننى انكر أن لليهود اليوم علاقة بفلسطين** أو انها مكان صالح لهم كى يعيشوا فيه . صحيح ان فلسطين تلعب دورا كبيرا فى التاريخ اليهودى ، ولكن الأمر كذلك بالنسبة للتاريخ الاسلامى الحديث ، كما انها اصبحت بعد عهد اليهود تلعب دورا اكبر من أى بلد آخر فى التاريخ المسيحى .

اننى لا أنكر على اليهود فى فلسطين حقوقا استعمارية مساوية لغيرهم ممن يعتنقون أديانا أخرى **ولكن اعتبار الدين اختبارا لازما للحصول على اليهودية الوطنية يبدو أمرا لا يقره الا الذين تتسم نظرتهم الى حصة معينة فى تاريخ فلسطين بالتعصب وضيق الأفق ومن ثم فهم يطالبون لليهود بمركز لا حق لهم فيه .**

اذا كانت ذاكرتى لا تخوننى فان تعداد اليهود فى العالم يبلغ ثلاثة اضعاف العدد الذى تستطيع أن تستوعبه حتى لو طرد جميع السكان الموجودين بها حاليا ، اى أن ثلث عدد اليهود فقط هو الذى يستطيع العودة الى فلسطين وماذا يحدث للباقين ؟

٤ — اننى افهم بسهولة ان عددا غير قليل من غير اليهود فى انجلترا يرغبون فى التخلص منا — ولكن كما انه لايوجد اجماع بين المسيحيين الانجليز فى التفكير واسلوب الحياة ، فذلك هو الحال ايضا بين اليهود الانجليز . ومن دواعى سرورى أن التحامل ضد الزواج المختلط أخذ يتصدع ولكن عندما يصبح لليهود وطن قومى فسوف يترتب على ذلك بلا شك ازدياد الدافع الى حرماننا من حقوقنا كمواطنين بريطانيين زيادة هائلة ، وسوف تصبح فلسطين الحى اليهودى الجيتو للعالم .

لو كان الأمر بيدى لقلت للورد روتشيلد ان الحكومة مستعدة لعمل كل ما فى وسعها لتحصل لليهود فى فلسطين على الحرية الكاملة للاقامة والحياة على قدم المساواة مع سكان هذا البلد الذين يعتنقون أديانا أخرى ، ولايسعنى سوى ان اطلب من الحكومة الا تذهب لأبعد من ذلك » . (٩)

*

واستمر السر مونتاجو يواصل حملته ضد فكرة الوطن القومى اليهودى وخاصة بعد ما تردد من أن هدف الحكومة البريطانية من اصدار تصريح تبنى تلك الفكرة انما كان مناورة سياسية أريد من ورائها تدعيم قضية الحلفاء فى أمريكا عن طريق استخدام النفوذ الصهيونى المؤثر فيها ، ولهذا كتب الى زميله اللورد سيسل فى ١٤ سبتمبر ١٩١٧ يقول :

« لقد وطدت امرى على اكتشاف ما اذا كان الصهاينة لهم الأغلبية ، واذا كان الأمر كذلك هل هى أغلبية كبيرة بالنسبة لليهود فى المملكة المتحدة ؟

اذا أجرى بحث مفصل للتحقق من الرأى تجاه الصهيونية بين المسئولين عن بعض المؤسسات الكبرى مثل : مجلس الأوصياء لاغاثة الفقراء ، والجمعية البريطانية اليهودية التى تعالج بصفة اساسية المسائل الخاصة باليهود فى الشرق ، واللجنة الروسية اليهودية .. فانى اعتقد انه سيتبين ان العمل الخيرى الذى يمثل النشاط الطائفى الرئيسى

---

(٩) ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية — مركز دراسات الشرق الأوسط — القاهرة — ص ٢٠٥

الذى يقوم به اليهود فى بريطانيا ، تمارســــه غالبية راجحة من اليهود لم يعربوا عن أى عطف على الصهيونية ، أو من الذين عارضوها بالفعل .

ان أحد الأسباب التى ذكرت فى اثناء المناقشة التى جرت فى مجلس الوزراء (عما يدفع الحكومة البريطانية لاتخاذ اجراء فى موضـــوع الوطن القومى اليهودى) هو دعم قضية الحلفاء فى أمريكا . اننى لم اطلع عـلى نصوص البرقية التى ارسلتها الى امريكا غير انه من الواضح ان الرئيس ولسن لا يرغب فى اصـدار تصريح قاطع يحمل أى التزام حقيقى حاليا ، فهذا السبب اذن لا يعتد به ، ومن ثم اجدنى مضطرا الى ان اوكد مرة اخرى انه لايجب ان يستخدم أى متحدث باسم الحكومة البريطانية أى صيغة كلامية توحى بأن هناك شعبا يهوديا بالمعنى السياسى .. ان مثل هـــذا التصريح سيكون بمثابة صدمة قاسية يشعر بها اليهود البريطانيون » (١٠)

*

وفى ٩ أكتوبر ١٩١٧ وزع السر مونتاجو مذكرة على زملائه الوزراء البريطانيين تعالج موضوع الصهيونية ، وتنكر على الصهاينة استخدام الدين رداء يخفى اغراضهم السياسية . وكان مما جاء فيها :

« **لقد حصلت على قائمة تضم بعض الشخصيات البارزة المناهضــة** للصهيونية (بالمذكرة) **ويلاحظ انها تضم كل يهودى ذى شــأن فى الحياة العامة باستثناء لورد روتشيلد الحالى ومســتر هيربرت صموئيل وقلة** اخرى .. وهؤلاء جميعا من الرجال الذى يحيون حياة انجليزية فى الوقت الذى يعترفون فيه باخوانهم فى الدين ويقدمون لهم الخدمات سواء فى هذه البلاد أو خارجها .

انى ما زلت اعتقد بأنه يجب الا يكون هناك اية محاولات لاعادة قيام أمة يهودية ، وأظن أنى لست مخطئا اذا قلت ان نسبة تتراوح بين ٥٠ ، ٧٥٪ من الذين يدعون بالقوميين اليهود هم أما ملحدون واما مارقون عن الدين ، والغالبيــة العظمى بين الزعمــاء اليهود لا يهتمون مطلقا بالديانة اليهودية وان الظروف السائدة حاليا فى هذا الشأن حتى قبل قيام الامة اليهودية فعـلا كما يتمنى هؤلاء القوميون اليهــود ــ هى نفس الظروف التى كانت سائدة عندما كانت الدولة اليهودية حقيقة واقعة وكان الانبياء ورجال الدين فى خلاف ونزاع مستمر مع الملكة والدولة ، الأمر الذى أدى فى النهاية الى تدمير الدولة ــ وهذا هو ما سيتكرر حدوثه بالتأكيد اذا ما اقيمت دولة يهودية مرة أخرى » (١١) .

* * *

---

(١٠) المرجع السابق ص ٢٤٢

(١١) المرجع السابق ص ٢٦٤

ان احدا لايستطيع اذن انكار حقيقة القول بأن قيام دولة اسرائيل بفلسطين انما حدث نتيجة لمؤامرة استعمارية تستهدف منطقة الشرق العربي . أثارتها مغامرة صهيونية لو اخفقت فى اغتصاب فلسطين لذهبت تبحث عن فريسة اخرى قد تكون فى الأرجنتين أو أوغند أو استراليا وربما فى الولايات المتحدة الأمريكية .

الى هنا والحق واضح فى القضية الفلسطينية ، لا لبس فيه ولا ابهام — اذ يمكن تلخيص الموقف فى ان فلسطين تعرضت لغزو استعماى مسلح ، استولى على الأرض وانقض على المواطنين قتلا وتشريدا ، فأهلك من اهلك وطرد من بقى منهم حيا .

وليس فى هذا الموقف ما يثير الجدل ، لكن فيه الكثير مما يثير الأسى والغضب ، ويدفع النفوس الى التصميم على مقاومة العدوان .

بيد ان قوى الصهيونية — وهى تعلم جيدا زيف دعواها فى فلسطين — حرصت من أول يوم نشطت فيه للعمل ، على أن تغلف مطامعها السياسية برداء مخادع من العقيدة والتاريخ ، فدابت على القول بأن عودة اليهود الى فلسطين — لانشاء دولة اسرائيل — انما هو تحقيق لعهد الهى عاهد به الله الأب الأكبر ابراهيم واستأثر به الاسرائيليون دون غيرهم من ذرية ابراهيم الآخرين ، كما تستند تلك العودة الى حقوق تاريخية اكتسبوها نتيجة لاقامة آبائهم الأولين بها فترة فى غابر الزمان .



هذا — ويتحدث بن‌جوريون عن‌الصهيونية وفلسفتها فيرى‌انها تستمد وجودها وقوتها « من مصدر عميق عاطفى دائم ، مستقل عن الزمان والمكان ، وهو قديم قدم الشعب اليهودى ذاته — هذا المصدر هو : الوعد الالهى والأمل بالعودة .

ويرجع الوعد الى قصة اليهودى الأول الذى أبلغته السماء أن : سأعطيك ولذريتك من بعدك جميع أرض كنعان ملكا أبديا لك .

هذا الوعد بوراثة الأرض رأى الشعب اليهودى فيه جزءا من ميثاق دائم تعاهدوا مع الههم على تنفيذه وتحقيقه » (١٢) .

ان المغالطة فى هذا القول واضحة بادىء ذى بدء .

---

(١٢) الكتاب السنوى لحكومة اسرائيل ٥٣ — ١٩٥٤ ص ٦

فما كان ابراهيم صاحب العهد الالهى يهوديا ، ومن غير المعقول ان ينتسب الجد الى الحفدة والأبناء ، بل العكس هو الصحيح . ذلك ان كلمة (اليهودى) لم تعرف الا بعد السبى البابلى ، أى فى القرن السادس قبل الميلاد ، وهو الزمن الذى يتباعد عن زمن ابراهيم وذريته الأولين — اسماعيل واسحق ويعقوب — بأكثر من اثنى عشر من القرون .

وما علينا من ذلك الآن ، فليست هذه أول المغالطات واخطرها ، بل وراءها الكثير والكثير من الزيف والأباطيل .

ولما كانت الصهيونية تملك من وسائل الدعاية كل خطير ومؤثر ، فقد استطاعت النفوذ والتسلل الى بواطن الكثير من دوائر الفكر العالمى ، وعملت بذلك على طمس معالم الحق فى القضية الفلسطينية ، وجعلت الكثير من الطوائف غير اليهودية تعتقد بشرعية قيام دولة اسرائيل استنادا الى قصص ونبؤات تتحدث عنها الأسفار المقدسة .

وبذلك تمكنت الصهيونية من تغيير شكل القضية ، فبعد أن كانت قضية سياسية واضحة المعالم محددة الأبعاد والقوى والتيارات اذا بها تتحول عند أولئك الكثيرين الى قضية دينية يكتنفها الغموض نتيجة الانزلاق فى متاهات التأويل وتفسير النصوص المقدسة بما يتفق مع المطامع والغايات .

***

ان هذا الكتاب يمثل دراسة لقضية فلسطين ، تستهدف الكشف عما بها من حقائق وما لحق بها من أباطيل وهو دراسة لبعض من أخطر جوانبها التى كثيرا ما يدور حولها الجدل والنقاش ، وأعنى هنا جانبى : العقيدة والتاريخ .

ويقع هذا الكتاب فى سبعة فصول :

ويختص الفصل الأول بدراسة مركزة « للاسفار المقدسة »، باعتبارها المرجع الرئيسى الذى تستخرج منه النصوص والتأويلات .

وأما الفصل الثانى فيعرض بشىء من التفصيل « لابراهيم » — الجد الأكبر — وصاحب العهد الالهى الذى تثور حوله القضايا والمجادلات .

ويمثل الفصل الثالث عملية مسح « للتاريخ الاسرائيلى بفلسطين » ، مع شىء من الاسهاب فى سرد بعض القصص بغية التعرف على الفكر الاسرائيلى وتقييم الوجود الاسرائيلى الغابر بفلسطين تقيما حضاريا .

ويروى الفصل الرابع تاريخ شعوب الشرق القديم وحركتها مع التاريخ وعلاقة تلك الشعوب « بفلسطين » ، كما يتكلم فى موضوع : السامية والساميين ، ويبين مالحق به من مفاهيم خاطئة .

وفى مقارنة بين الوجود الحضارى لكل من العرب والاسرائيليين ، فان الفصل الخامس يعرض لشيء من « الحضارة العربية » ، كما يناقش دعوى الاسرائيليين فى موضوع (الحقوق التاريخية) وما يترتب على الأخذ بتلك النظرية من اضطراب فى نظام العالم ، رغم ما يعود على العرب من جراء هذا التطبيق .

ويناقش الفصل السادس موضوع « القضية بين الحق والقوة » فيبين وضوح الحق العربى فى القضية الفلسطينية ، وهو الذى ارتآه كثير من الأحرار ودافعوا عنه رغم ما أصابهم من عنت وبلاء .

كذلك يتحدث هذا الفصل عن وجهة نظر الاسرائيليين فى الحق ، ويبين أن ذلك دائما أمر نسبى يخضع للمطامع والأهواء — ويستشهد لذلك بقضية من أهم قضايا العقيدة اليهودية ، ألا وهى قضية المسيح .

فحين نستعرض أحدث مبتكرات الفكر الاسرائيلى فى قضية المسيح نجد تطاولا على الحق يفوق كل وصف ، وذلك حين يدعى ذلك الفكر المتعصب ، أن المسيح الذى جاء منذ أكثر من تسعة عشر قرنا مضت ، والذى يؤمن به أكثر من نصف سكان العالم من مسيحيين ومسلمين ، انما كان مسيحا دعيا ، دبر بخياله الواسع مؤامرة الصلب ،وكان هو مؤلف تلك الدراما ومخرجها وممثلها ، بالاضافة الى الممثلين الآخرين الذين استعملهم وفق هواه ، وبالأخص يهوذا الخائن ومجمع اليهود . لقد كان هؤلاء ضحايا للمسيح !.

نعم — هكذا يقول الفكر الاسرائيلى الحديث ، القادر على قلب الحقائق وتحويل الأبرياء الى مذنبين والعكس بالعكس .

واما عن القوة الاسرائيلية فقد تحدد موقعها من القوى الواعية والقوى الغشوم ، وذلك بمقارنتها بأنماط مختلفة من قوى التايخ ، القديم منها والحديث ، فظهرت لنا القوة الاسرائيلية دائما قوة غشوم .

ويعتبر الفصل السابع والأخير « اسرائيل .. والعرب .. والعالم » خاتمة تتجمع فيه خلاصة الكتاب على ضوء ماسبق من عروض ومناقشات، ثم يحدد موقف كل من : الاسرائيليين ،والعرب والعالم من قضية فلسطين، بعد أن تكشفت فيها بوضوح جوانب الحقائق والأباطيل .

*

انني أخاطب في هذا الكتاب العقل والضمير الانساني لمختلف العقائد والطوائف ، وخاصة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين ، راجيا أن يكون صوت الحق أقوى مما توارثه الكثير من الناس من تقاليد جاءت ثمرة للاقاصيص والروايات .

وفي هذا العمل لم أنفرد بجديد ، اذ أن أغلب مادته معلوم من قبل ، ولم يزد دوري فيه عن اعادة البناء والتأليف — ذلك أن الحقائق لا تؤلف ولكن يؤلف بينها ، ثم تعرض دائما للدراسة والتمحيص كي تبقى نقية بعد أن ينزاح عنها ماعساه يكون قد لحق بها من زيف وأباطيل .

*

هذا — ولقد حرصت قدر الطاقة على أن تكون مناقشة الموضوعات والقضايا الفرعية التي تندرج تحت فصول هذا الكتاب ، مدعمة دائما بالنصوص التي تنتسب الى أفراد أو هيئات لايمكن اتهامها من قريب او بعيد بممالأة العرب والعروبة ويتضح ذلك من القاء نظرة على قائمة المراجع التي يعتمد عليها الكتاب .

بل ان دراسة بعض الموضوعات الهامة مثل : الحضارة العربية — تتطلب أن يؤخذ في الاعتبار — بوعي وتبصر — آراء غير العرب من العلماء والباحثين .

ولهذا لم يخرج هذا الفصل — الخامس — عن ترديد لأقوال أولئك العلماء .

ان هذا الكتاب وهو يناقش هذه القضية الخطيرة — قضية فلسطين — لايقبل منه أن يلقى القول على سجيته ، مرة بالمنطق ومرات بالهوى والخيال . لكن ألزم اللوازم في عمل كهذا أن يركن دائما في مناقشاته الى وثائق وأسانيد .

ورغم ما في التزام هذا المبدأ من جهد ومشقة ، فلقد ألزمت نفسي أن يكون هذا الكتاب « كتاب نصوص » — حتى يكون في مجموعه ركيزة من ركائز الحق في القضية الفلسطينية .

*

لقد كثر الاستشهاد بالنصوص المقدسة — ولا حرج — اذ أن ذلك يتمشى مع طبيعة هذه الدراسة ، فقد نذكر النص مرة لبيان أحد الجوانب ، كما يذكر نفس النص مرة أخرى لبيان جانب آخر .

كذلك حرصت على أمانة النقل الا من بعض التغييرات الطفيفة فى كلمات الربط بين الجمـــل والفقـرات المختلفة التى يتطلبها نســـج الكلام .

وأرجو هنا أن يميز القارىء بين الفقرات المنقولة عن المراجع المختلفة — والتى تظهر دائما بين علامات الترقيم — وبين كلام المؤلف ، الذى غالبا ما يستخدم للربط بين تلك الفقرات والتعقيب عليها ، مع شىء من الشرح والتحليل .

وفيما عدا الكتب المقدســـة ، فقد رأيت أنه من الأفضـــل عند الاستشهاد بنص من أحد المراجع ، أن تذكر بيانات المرجع موجزة فى المرة الأولى فى ذيل الصفحة التى ذكر بها النص ، ثم اذا كانت هناك عودة لذات المرجع مرة أخرى ، فيكتفى بذكر رقمه المندرج بقائمة المراجع المذكورة فى آخر الكتاب .

*

والله أسأل أن تنكشف للناس الحقائق فيروها ببصائرهم ، وان يفرض الحق وجوده قويا، ولو بعد حين — وهو ما أومن به ايمانا لا يتزعزع، مهما توالت الهزائم وتكاثرت النكبات .

« ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لايخلف الله وعده ، ولكن اكثر الناس لايعلمون » .

أحمد عبد الوهاب

الفصل الأول



أسفار العهد القديم

تعتبر أسفار العهد القديم هى المرجع المقدس الذى يحرص الاسرائيليون على أن يستخرجوا من نصوصه وتأويلاته مايؤيد مطامعهم فى أرض فلسطين. ومن أجل ذلك كان من اللازم التعرف على هذه الأسفار بالقدر الذى يجعلنا على بينة من أمرها من حيث : مشتملاتها ، وكيفية تكوينها ، وتاريخها ، وتراجمها .

ولسوف نرجع فى هذا المجال الى أبحاث العلماء المتخصصين فى هذه الدراسات ، وهم الذين أنفقوا السنوات الطويلة فى بحثها ودراستها ، بل وانفقت اجيال متتابعة من أمثال أولئك العلماء قرونا عديدة فى هذا العمل الدقيق والهام ، ثم قامت دوائر المعارف العالمية مثل « دائرة المعارف الأمريكية » و « دائرة المعارف البريطانية » بجمع خلاصة تلك الأبحاث بين طياتها .

ولهذا سوف نرجع الى هاتين الدائرتين ، لنعرف منهما حقيقة أسفار العهد القديم — ونحن فى عملنا هذا انما نقصد مراجع علمية يعتبر قولها فى هذه القضية فوق مستوى الشبهات .

***

مقدمة وتعريف :

تقول دائرة المعارف الأمريكية : « يتكون العهد القديم — حسب عقيدة البروتستانت — من ٣٩ سفرا بخلاف ملحق يعرف بالأبوكريفا APOCRYPHA — أى الأسفار المحذوفة ، على حين تضيف الطوائف الأخرى مثل الكاثوليك والانجيليين والكنائس الأرثوذكسية تلك الاسفار المحذوفة وعددها ١٤ سفرا — الى أسفار العهد القديم ، وبذلك يصبح مجموع أسفاره ٥٣ سفرا .

والشائع بين اليهود هو أن الأسفار الخمسة الأولى Pentateuch المنسوبة لموسى تكون الجزء الأول من الأسفار وتعرف بالتوارة أو الناموس ، على حين تكون الكتب التاريخية الجزء الثانى وتعرف بكتب النبوات أو الأنبياء ، أما الجزء الثالث فيعرف بالكتب أى أن العهد القديم يتكون من : الناموس والأنبياء والكتب » (١) .

*

---

(١) « دائرة المعارف الأمريكية — "ENCYCLOPEDIA AMERICANA" طبعة ١٩٥٩ — الجزء الثالث — ص ٦١٢ — المرجع رقم (١٥)

كيف صارت كتب العهد القديم أسفارا مقدسة :

« لقد كان هناك نشاط أدبى بين الاسرائيليين منذ عهد مبكر ، فسجلوا تقاليدهم القبلية وقوانين الجماعة الاسرائيلية ، هذا بجانب الأغانى الشعبية وترانيم العبادة وما ينطق به الكهنة والأنبياء من كهانة ووحى . كذلك سجل الاسرائيليون حكمة الشيوخ وأقوالهم وسلوكهم والأحداث التاريخية الهامة . وواضح أن كل ماسجلوه لم يكن مختصا بالمسائل الدينية ، الا أنه **بعد أن استقرت حياة الطائفة الاسرائيلية بدأت تظهر بالتدريج — وعن غير قصد — عناصر من هذه الآداب اعتبرتها الطائفة ركائز لحياتها العقائدية ، وبهذا أعطيت هذه العناصر وقارا خاصا تفردت به وتحولت بذلك الى كتابات مقدسة . ولا شك أن الكتاب الأصليين لهذه الكتب لم يدر بخلدهم أن ماكتبوه وسجلوه سيكون له مثل هذه القداسة فى حياة الطائفة الاسرائيلية فى يوم من الأيام » (٢) .**

* * *

متى اكتسبت أسفار العهد القديم الصبغة القانونية :

« يتكون العهد القديم من ثلاثة أجزاء هى :

١ — الناموس : وهو يتكون من أسفار : التكوين — الخروج — اللاويين العدد — التثنية . .

٢ — الأنبياء : وهو ينقسم الى جزئين :

(أ) الأنبياء السابقين ويتكون من أسفار : يشوع — القضاة — صموئيل (الأول والثانى) — الملوك (الأول والثانى) .

(ب) الأنبياء المتأخرين ويتكون من أسفار : اشعياء — ارمياء — حزقيال — الاثنا عشر نبيا الأصاغر (هو شع — يوئيل — عاموس — عوبديا — يونان — — ميخا — ناحوم — حبقوق — صفنيا — حجى — زكريا — ملاخى) .

٣ — الكتب : وهى تتكون من :

(أ) المزامير — الأمثال — أيوب

(ب) راعوث — نشيد الانشاد — الجامعة — مراثى ارمياء — استير .

(جـ) دانيال — عزرا — نحميا — أخبار الأيام (الأول والثانى) .

---

(٢) المرجع ١٥ — ص ٦١٣

وقد اكتسبت كل من الأجزاء الثلاثة الرئيسية للعهد القديم صبغتها القانونية على مدى قرون طويلة بيانها كالآتى : —

اكتمل الناموس شرعيته حوالى عام ٤٠٠ ق . م . — والأنبياء حوالى عام ٢٠٠ ق . م وأما الكتب فكانت حوالى عام ٩٠ ميلادية » .(٣) .

هذا — واذا كانت تواريخ تلقى موسى للتواره تتراوح بين ١٢٩٠ و ١٢٥٠ ق . م ، كما يقدر ذلك المؤرخون ، صار من الواضح أن أسفار **« الناموس » التى وصلتنا قد استغرقت اكثر من ثمانية قرون ، حين اكتمل بناؤها وأخذت صورتها القانونية . ولا يختلف الحال كثيرا بالنسبة « للأنبياء » « والكتب » فكليهما استغرق قرونا عدة ليكتسب قانونيته .**

***

اللغات واللهجات التى كتبت بها أسفار العهد القديم :

« كتبت أسفار العهد القديم باللغة العبرية عدا بعض الكلمات والتعبيرات والأسماء ، كما جاء فى بعض اصحاحات الأسفار الآتية : التكوين ٣١ : ٤٧ ، وأرمياء ١٠ : ١١ أو مثل بعض الاصحاحات التى كتبت بأكملها او أجزاء منها وهى : فى سفر عزرا من اوائل الاصحاح الرابع ٤ : ٨ الى اواخر الاصحاح السادس ٦ : ١٨ ، وكذلك فى الاصحاح السابع ٧ : ١٢ — ٢٦ ، وفى سفر دانيال من ٢ : ٤ الى ٧ : ٢٨ — فكل هذه الاصحاحات والفقرات المشار اليها كتبت بالأرامية . لقد كانت العبرية هى لغة اسرائيل ويهوذا (المملكتين) حتى السبى البابلى ، ولكن يهود ما بعد السبى بينما احتفظوا بالعبرية لغة مقدسة فانهم كانوا يتكلون الأرامية ، وهى اللغة التى كانت سائدة آنذاك فى غرب آسيا . ومن المعلوم أن كلا من العبرية والأرامية تنتمى الى عائلة واحدة أو مجموعة متجانسة من اللغات تعرف بمجموعة اللغات السامية . وتنقسم هذه المجموعة الى :

(أ) مجموعة شرقية وهى : الأشورية — البابلية ، وتعرف بالاكدية .

(ب) مجموعة جنوبية غربية هى . العربية والاثيوبية .

(ج) مجموعة شمالية غربيةهى : الفينيقية والموآبية والعبريةوالأرامية والسوريانية .

---

(٣) المرجع ١٥ — ص ٦٢٣

ولذلك يعتبر العهد القديم كتابا غير متجانس ، اذ أنه مجموعة من الوثائق تكونت خلال فترة تزيد على الألف عام بواسطة رجال لهم تراث لغوى متعدد . ذلك أن اللغة العبرية التى كتبت بها أسفار العهد القديم هى فى الواقع لغة خليط فى أصلها وتطورها . ويعترف العهد القديم بأن يعقوب كان « ارامیا تائها » (تثنية ٢٦ : ٥) وكان اختيار الآباء السابقين لزوجات يتكلمن لسانا آخر (سفر التكوين ٢٤ : ١٠ ، ٤١ : ٤٥) له أثر كبير فى تطور اللغة وتنوع لهجاتها . ولا نقرر سوى الواقع عندما نقول أن اللغة العبرية لم تكن لغة نقية فتلك هى النتيجة التى تقررها الدراسات اللغوية لكتب العهد القديم » (٤) .

* * *

كيف وصلتنا أسفار العهد القديم :

« لم تصلنا أى نسخة بخط المؤلف الأصلى لكتب العهد القديم ، اما النصوص التى بين أيدينا فقد نقلتها الينا اجيال عديدة من الكتبة والنساخ. ولدينا شواهد وفيرة تبين أن الكتبة قد غيروا بقصد أو بدون قصد فى الوثائق والأسفار التى كان عملهم الرئيسى هو كتابتها ونقلها . وقد حدث التغيير بدون قصد حين أخطأوا فى قراءة أو سمع بعض الكلمات ، أو فى هجائها ، أو اخطأوا فى التفريق بين ما يجب فصله من الكلمات وما يجب ان يكون تركيبا واحدا . كذلك فانهم كانوا ينسخون الكلمة أو السطر مرتين ، واحيانا ينسون كتابة كلمات بل فقرات بأكملها . وأما تغييرهم فى النص الأصلى عن قصد فقد مارسوه مع فقرات بأكملها حين كانوا يتصورون أنها مكتوبة خطأ فى صورتها التى بين أيديهم . كما كانوا يحذفون بعض الكلمات أو الفقرات أو يزيدون على النص الأصلى فيضيفون فقرات توضيحية .. **وهكذا . ولا يوجد سبب يدعو للافتراض بأن وثائق العهد القديم (الأسفار) لم تتعرض للأنواع العادية من الفساد النسخى على الأقل فى الفترة التى سبقت اعتبارها أسفار مقدسة .**

لقد نشأت بين اليهود طائفة خصصت نفسها لرعاية هذه الوثائق عرفت بالكتبة كما يشير الى ذلك سفر عزرا (الذى رجع من سبى بابل وهو كاتب ماهر فى شريعة موسى — ٧ : ٦) ، ونحميا ٨ : ١٣ ، وقد سميت هذه الطائفة أخيرا بالسوفريم Sopherim أو الأسفاريين . ولم يكن عملهم مقصورا على النسخ ، بل كانوا حفاظا على الوثائق ومترجمين لها ، بل ومؤلفين بكل معنى الكلمة . وكان من نتيجة عملهم أن أخذ النص صورته القانونية ليترجم بعد ذلك الى اللغات الأخرى .

---

(٤) المرجع ١٥ — ص ٦١٥

وحين زاد الاحترام للأسفار فان جماعة الأسفاريين قد أدخلت على النص بعض التغييرات التى تبجل اسم اله اسرائيل ، أوتشوه اسماء معبودات الوثنيين ، كما كانوا ينقحون فقرات بدت لهم غير مفهومة ، وأحيانا يستخدمون أحدث ما صارت اليه اللغة بدلا من اللغة القديمة . فكل هذا ظاهر لدينا فى النص الذى نقلوه لنا .

وتعتبر فترة الأسفاريين الأولى من عام ٥٠٠ قبل الميلاد الى عام ١٠٠ ميلادية حيث اكتمل بناء النص العبرى القانونى لأسفار العهد القديم . ويرجح أن يكون هذا العمل قد قامت به مدرسة الشيخ المعمر أكيبا المتوفى عام ١٣٥ ميلادية . ثم تأتى فترة الأسفاريين الثانية وهى تمتد من عام ١٠٠ الى عام ٥٠٠ ميلادية ، وكان عملهم مختصا بتصحيف النص . وبعد ذلك جاءت طائفة المازوريتيين Masoretes أى النقليين — الذين ينقلون من السلف الى الخلف — وقد امتد عملهم من عام ٥٠٠ ميلادية حتى اختراع الطباعة . وقد عمل هؤلاء النقليون على مد النص بما ينقصه من علامات الترقيم والوقف والتشكيل ، كما صنفوا كثيرا من الحواشى والتفاسير وبعض الاحصائيات ، وذلك بغية جعل النص مفهوما للقراء » (٥) .

« ولقد ازدهرت مدارس طائفة النقليين لفترة حوالى أربعة قرون ، وأخيرا كانت الغلبة للنص الذى صنفته مدرسة طبرية بفلسطين ، على سائر المدارس الأخرى .

وفى القرن العاشر الميلادى كان يوجد فى طبرية عائلتان من النقليين هما : عائلة ابن اشير وعائلة ابن نفتالى . وأخيرا تغلب النص الذى صنعته عائلة ابن اشير واعتمدت قانونيته وخاصة من جماعة ابن ميمون فى القرن الثانى عشر الميلادى » (٦) .



وليس عجيبا ما تذكره دائرة المعارف الأمريكية عما فعله الكتبة الاسرائيليون بالنصوص الأصلية لأسفار العهد القديم على مدى قرون عديدة، حيث جرت اقلامهم بالتغيير والتبديل ، اذ أننا نجد فى أسفار العهد القديم الى الآن ما يدين أولئك الكتبة ويتهمهم بالكذب والتحريف والافتراء على الله ، بغية الربح ولو على حساب العقيدة . وفى هذا يقول وحى الرب على لسان النبى ارميا : « كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا . حقا انه الى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب .. ومن الصغير الى الكبير كل واحد مولع بالربح ، من النبى الى الكاهن كل واحد يعمل بالكذب — ارميا ٨ : ٨ — ١٠ » .

❊ ❊ ❊

(٥) المرجع ١٥ — ص ٦١٧ — ٦١٨
(٦) المرجع ١٥ — ص ٦٢١

تراجم أسفار العهد القديم :

« لقد كتبت نصوص العهد القديم بالعبرية عدا بعض الفقرات فى دانيال وعزرا وأرمياء (سبقت الاشارة اليها) اذ وجدت هذه بالأرامية . ولما رجع يهود السبى من بابل وجدوا أن الأرامية هى اللغة السائدة فى فلسطين فمن المحتمل أن بعض الكتب الحديثة للعهد القديم قد كتبت اصلا بالأرامية ثم ترجمت الى العبرية حيث وصلتنا بتلك اللغة وعلى أى حال فقد جاء وقت كانت العبرية لغة يصعب فهمها وخاصة بالنسبة لعامة الشعب عندما كانوا يشهدون طقوسا تجرى بها وقد ادى ذلك الى ضرورة ايجاد ترجمة بالأرامية ليفهمها الشعب . (نحميا ٨ : ٨) ومن هنا ظهرت التراجم لأسفار العهد القديم ، وان كانت لم تصلنا أى ترجمة ارامية من تلك التراجم الأولى» (٧)

*

النسخة السامرية :

« توجد ترجمة ارامية للتوراة (أسفار موسى الخمسة) يستخدمها السامريون وتعرف بالترجمة السامرية . ولقد كانت التوراة السامرية اصلا بالعبرية ولكنها مكتوبة بحروف سامرية. ولكن عندما فقد اللسان العبرى بين السامريين، رأوا انهم فى حاجة الى ترجمة باللغة الأرامية التى يفهمونها . ولقد بدأ تصنيفها فى مطلع القرن الأول الميلادى واستمر العمل بها حتى حلت اللغة العربية محل الأرامية فى القرن الحادى عشر » (٨) .

*

النسخة الاغريقية (السبعينية Septuagint) :

« عرفت النسخة الاغريقية للعهد القديم كترجمة من العبرية الى الاغريقية لينتفع بها اليهود المقيمون فى العالم الاغريقى ، وخاصة فى مصر والذين لم يعرفوا من العبرية الا القليل . وفى القرن الثالث قبل الميلاد كانت هناك ترجمة اغريقية لبعض كتب العهد القديم وخاصة للناموس ، ولذلك عملت محاولة لايجاد نسخة مقبولة جديدة ، عندما تكونت لجنة مراجعة أخرجت لنا النسخة التى تعرف باسم النسخة السبعينية ، وهى الترجمة الاغريقية للنسخة التى راجعها سبعون عالما (بالاسكندرية) . ولقد قبلت الكنيسة المسيحية النسخة السبعينية ولكنها مدت هذه التسمية لتشمل تراجم من العبرية الى الاغريقية لعدد من الكتب الأخرى هى : الجامعة — المكابين الأول والثانى عزرا الأول ، وبعض الأسفار الأخرى .

---

(٧) المرجع ١٥ — ص ٦١٨
(٨) المرجع ١٥ — ص ٦١٩

على أنه قد وجدت تراجم أخرى لأسفار العهد القديم من العبرية الى الاغريقية استحدثت بعد النسخة السبعينية . ذلك انه بعد ان وضعت مدرسة اكيبا الصورة القانونية الأخيرة للعهد القديم بالعبرية — وكان ذلك فى حوالى القرن الأول الميلادى — وجد كثير من اليهود ان النسخة السبعينية التى يتداولها المسيحيون ليست كافية فى نظرهم . ولذلك عملت تلك التراجم الاغريقية الأخرى من النسخة العبرية القانونية الأخيرة » (٩) .

❊

النسخة السوريانية Peshitta :

« وهى قد عملت لتخدم الطوائف اليهودية التى انتشر بينها هـذا اللسان الأرامى . وقد قبلتها الكنيسة المسيحية وراجعتها ، وصارت ابتداء من القرن الخامس الميلادى هى النسخة التى يأخذبها النصارى اليعاقبة والنسطوريون . ويبدو أن سفرى اخبار الأيام الأول والثانى قد فقدا من النسخة السوريانية الأصلية ، كما أن مخطوطات كثيرة منها تحتوى على كتب من الأسفار المحذوفة ، بل وبعض الكتب التى تعرف باسم الأسفار المكذوبة — Pseudepigraha " (١٠) .

❊

النسخة اللاتينية Vulgate :

« وجدت بعض التراجم للعهد القديم من الاغريقية الى اللاتينية ويرجع وجودها ابتداء من القرن الثانى الميلادى ويطلق عليها اسم النسخة اللاتينية القديمة . ولقد حاول جيروم — المتـوفى عام ٤٢٠ م . — مراجعة تلك النسخة من النصوص الاغريقية التى كانت فى متناول يده آنذاك ولكنه لم يكمل هذا العمل ، وقام بدلا من ذلك بعمل ترجمة جديدة من العبرية . وكان نتاج عمله النسخة المعروفة لنا باسم اللاتينية الأصلية Original Vulgate وهى الترجمة اللاتينية الشائعة لأسفار الكتاب المقدس » (١١) .

❊

النسخة القبطية :

« توجد فى أربع لهجات هى : الصعيدية وكان يتكلم بها فى مصر العليا ، والفيومية حول منطقة الفيوم ، والأخميمية فى منطقة طيبة ، والبحيرية فى

---

(٩) المرجع ١٥ — ص ٦١٩
(١٠) المرجع ١٥ — ص ٦١٩
(١١) المرجع ١٥ — ص ٦١٩

شمال الدلتا وجوار البحر المتوسط . واقدمها جميعا هى النسخة الصعيدية وترجع الى القرن الرابع الميلادى وأحدثها البحيرية ، وترجع الى القرن السابع الميلادى وكلها تراجم عن الاغريقية » (١٢) .

***

الأسفار المفقودة :

لقد رأينا أن هناك ما يعرف باسم ، الأسفار المحذوفة ، والأسفار المكذوبة — كذلك فان هناك عددا من الأسفار يعرف باسم الأسفار المفقودة . وفى هذا تقول دائرة المعارف الأمريكية : « يشير العهد القديم الذى نعرفه اليوم الى كتب وأسفار أخرى غير موجودة الآن وتشير اليها أسفاره مثل : العدد ٢١ : ١٤ ، ١٥ — يشوع ١٠ : ١٣ — صموئيل الثانى ١ : ٨ — الملوك الأول ١١ : ٤١ — أخبار الأيام الأول ٢٩ : ٢٩ — أخبار الأيام الثانى ٩ : ٢٩ ، ١٢ : ١٥ » .

والأسفار والكتب المفقودة والمشار اليها آنفا هى :

كتاب الحروب — وفيه يقول سفر العدد : « لذلك يقال فى كتاب حروب الرب واهب فى سوفة وأودية أرنون » .

سفر ياشر — وقد ذكره سفر يشوع : « فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من اعدائه . اليس هذا مكتوبا فى سفر ياشر » .

كذلك تكلم عنه سفر صموئيل الثانى : « ورثاداود بهذه المرثاة شاول ويوناثان ابنه . وقال الم يتعلم بنو يهوذا نشيد القدس . هوذا ذلك مكتوب فى سفر ياشر » .

سفر أمور سليمان — وهو مذكور فى سفر المملوك الأول : « وبقية أمور سليمان وكل ما صنع وحكمته اما هى مكتوبة فى سفر أمور سليمان » .

سفر أخبار صموئيل وناثان وجاد وغيرهم ويقول سفر أخبار الأيام الأول : « وأمور داود الملك الأولى والاخيرة أما هى مكتوبة فى سفر أخبار صموئيل الرائى وأخبار ناثان النبى وأخبار جاد الرائى » .

كذلك يقول سفر أخبار الأيام الثانى : « وبقية أمور سليمان الأولى والأخيرة اما هى مكتوبة فى أخبار ناثان النبى وفى نبوة اخيا الشيلونى وفى رؤى يعدو الرائى على يربعام بن نباط » .

---

(١٢) المرجع ١٥ — ص ٦١٩

« وأمور رحبعام الأولى والأخيرة اما هى مكتوبة فى أخبار شمعيا النبى وعدو الرائى عن الانتساب » .

***

فحص أسفار العهد القديم :

يقوم العلماء المتخصصون — منذ قرون مضت والى الآن — بفحص أسفار العهد القديم فحصا بعين الناقد البصير ، محاولين بذلك الوصول الى النصوص الأصلية التى غيرت منها الأحداث على مر العصور . ويعتبر عملهم هذا نوعا من النقد وان كان فى الواقع نقدا بناءا . اذ لايعقل أن يقوم اللاهوتيون الذين وهبوا حياتهم لخدمة تلك الأسفار ، بمحاولة النيل منها أو التعريض بها . وفى هذا تقول دائرة المعارف الأمريكية :

« ان الغرض من نقد النص هو اعادة بناء النص الأصلى للعهد القديم ، ويسمى هذا عادة بالنقد الأدنى لتمييزه عن النقد الأعلى الذى يتعلق بتساؤلات عن المؤلفين وتاريخ الكتابة وتحليل المصادر الأصلية والظروف التاريخية .. ونحن نعلم أن كتب العهد القديم قد كتبت بالعبرية عدا بعض الفقرات التى كتبت بالأرامية (سبقت الاشارة اليها) . وفى الأزمان القديمة كانت تلك اللغات تكتب بحروف ساكنة ، أما الحروف الصوتية فقد حفظت شفاها ثم استخدم لها فيما بعد حروف ساكنة معينة او علامات . كذلك فان بعض الحروف العبرية والأرامية متشابهة تماما فى الشكل والنطق ويصعب التمييز بينها ، كما أن لبعض الحروف اكثر من نطق صوتى واحد مثل الحروف ت،س،ك . كل هذه الخواص للغات الأصلية التى كتب بها أسفار العهد القديم ساعدت على ايجاد اخطاء فى نقل نصوصه الينا . **ولقد كتبت أسفار العهد القديم على طول الفترة من القرن الحادى عشر ق . م . الى القرن الأول ق . م . وأخذ صورته النهائية فى القرن الأول الميلادى ، ولم تصلنا أى نسخة بخط المؤلف الأصلى . على أن اقدم نسخة أصلية من كتب** العهد القديم هى كتاب اشعياء الذى اكتشف ضمن وثائق البحر الميت وعثر عليه عام ١٩٤٧ م . والذى يعتقد كثير من العلماء انه كتب فى القرن الأول أو الثانى ق . م .

وعلى مدى القرون الطويلة التى كتبت فيها أسفار العهد القديم نجد أن نصوصه قد نسخت مرارا واعيدت كتابتها باليد ، ولقد حدثت اخطاء فى عملية النسخ سببها عدم القدرة على قراءة احد النصوص قراءة صحيحة ، أو العجز عن سماع نقطه نطقا صحيحا حين كان يملى على الكاتب ، أو من تعب الكاتب نفسه أو عجزه عن فهم ما كان يكتبه ، أو حتى بسبب اهماله . ولقد كان يحدث أحيانا أن بعض المواد التى كتبت على هامش النص تضاف اليه .

ويمكن اثبات ان الأخطـــاء تسربت الى النص بمقـارنة اجزاء — فى النسخة العبرية — تتكلم عن شيء واحد فى مكانين مختلفين وعلى سـبيل المثال ما نجده فى : (صموئيل الثانى ٢٢ والمزمور ١٨) ، (المزمور ١٤ والمزمور ٥٣) ، أشعياء ٣٦ — ٣٩ والملوك الثانى ١٨ : ١٣ — ٢٠ : ١٩) ، وكذلك بمقارنة سفر أخبار الأيام الذى عمل كتوليفة من أسفار صموئيل والملوك .

ان كل هذه الفروق صـغيرة كانت أم كبيرة ترجح أن أحدها كان الأصلى وأن الباقى نقل عنه .

*

لقد ظهرت بعض نسـخ أصلية للعهد القديم قبل ظهور نسـخة المازوريتين العبرية (التى سوف نصطلح على تسميتها بالنسـخة العبرية الحديثة) ومن أهمها النسخة السـبعينية الاغريقية والنسخة الأرامية والنسخة السوريانية والنسخة اللاتينية ، وتختلف هذه النسخ احيانا عن النسخة العبرية الا أنه بمقارنة هذه النسخ معا يمكن الوصول الى النص العبرى الأصلى كما يتضح من الأمثلة الآتية : —

١ — فى سفر صموئيل الأول ١٤ : ٤١ نجد أن فقرة طويلة قد سقطت من النسخة العبرية الحديثة على حين بقيت تلك الفقرة فى النسـختين السـبعينية واللاتينية . وفى الترجمة الانجليزية التالية نجد أن الكلمات المائلة هى التى فقدت من النص العبرى :

And Saul said to the Lord, God of Israel, "*Whyhast thou not answered thy servant today. If the guilt be in me or Janathan my son, O Lord God of Israel, give Urim, but if the guilt be in thy people Israel,* give Thummim" **Jonathan and Saul were taken, and the people escaped.**

ولمعرفة السبب الذى من أجله اسقط الكاتب العبرى كل هذه الكلمات نقول أن«عينيه لابدقد قفزتا من كلمة اسرائيل قرب أول الفقرة الى كلمة اسرائيل قرب نهايتها ، وكان من نتيجة ذلك أنه حذف تلقائيا — دون أن يدرى — الكلمات الواقعة بينهما » (١٣) .

وانا لنجد أن تلك الكلمات قد حذفت من الترجمة الانجليزية المعروفة بنسخة الملك جيمس حيث تقرأ هذه الفقرة — بعد أضافة الكلمة المائلة — كالآتى :—

Therefore Saul said unto the Lord God of Israel, give a perfect *Lot*. And Saul and Jonathan were taken, but the people escaped.

---

(١٣) المرجع ١٥ — ص ٦١٩ — ٦٢٢

وكذلك حذفت تلك الكلمات من الترجمة العربية لنسخة البروتستانت حيث نقرؤها الى الآن هكذا :

(وقال شاول للرب اله اسرائيل هب صدقا . فأخذ يوناثان وشاول . أما الشعب فخرجوا) .

ومن الواضح أن حذف تلك الكلمات قد أفقد الفقرة معناها .

❋

٢ — وثمة نوع آخر من الأخطاء نجده فى المزمور ٤٩ : ١١ فالجزء الأول من الفقرة العبرية يمكن ترجمته الى الانجليزية كالآتى :

Their inwardness (qirbam) is their homes forever, their dwellingplaces to all generations.

واضح أن هذا الكلام لا معنى له . وقد ترجم فى نسخة الملك جيمس بتصرف — بعد اضافة الكلمات المائلة كالآتى :

Their inward thought *is that* their houses *shall continue* forever, *and* their dwelling places to all generations.

وهذه الكلمات المائلة غير موجوة فى النص العبرى على الاطلاق » .

وفى الترجمة العربية لنسخة البروتستانت تقرأ هذه الفقرة كالآتى :

(باطنهم ان بيوتهم الى الأبد مساكنهم الى دور فدور — المزمور ٤٩)

وتستطرد دائرة المعارف الأمريكية فتقول : « لكننا اذا رجعنا الى النسخة السبعينية والنسخة السوريانية والنسخة الأرامية ، لوجدنا أن هذه الفقرة يمكن ترجمتها الى الانجليزية كالآتى :

Their graves (qibram) are their homes forever, their dwelling places to all generations.

وواضح أن الخطأ النسخى نشأ عن تبادل الحرفين b&r كل مكان الآخر ، حيث تحولت الكلمة التى كتبت اصلا qibram الى كلمة « qirbam" (١٤) .

ويمكن ترجمة الفقرة الانجليزية المذكورة آنفا الى العربية كالآتى :

(قبورهم هى بيوتهم ومساكنهم الى دور فدور) . ولاشك أن هذا يعطى معنى مفهوما غير الذى تعطيه الفقرة ١١ من المزمور ٤٩ .

❋

« ولقد أكد اكتشاف وثائق البحر الميت (عام ١٩٤٧) ضرورة ادخال بعض التغييرات على النسخة العبرية الحديثة كما فى سفر اشعياء ٤٩ : ٢٤ حيث تستبدل كلمة البار المذكورة بها الى كلمة (الجبار) التى تتفق عليها النسخ السبعينية والسوريانية واللاتينية (وهى تقرأ فى الترجمة العربية لنسخة البروتستانت هكذا :

---

(١٤) المرجع ١٥ — ص ٦٢٢

هل تسلبه من الجبار غنيمة وهل يفلت سبى المنصور) .

ويرجح أن يكون خطأ الكاتب فى النسخة العبرية الحديثة بسبب تشابه كلمتى البار والجبار .

كذلك يرى أغلب العلماء ضرورة تهذيب فقرة من سفر عاموس ٦ : ١٢ والتى تقرأ هكذا :

هل تركض الخيل على الصخر أو يحرث عليه بالبقر — اذ أن عدم التوافق الموجود فى هذه الفقرة يمكن ارجاعه الى خطأ من الكاتب الاسرائيلى بسبب ضم كلمتين عبريتين كان يجب فصلهما ، وعلى هذا الأساس تكون قراءة النص بعد معالجته كالآتى : —

هل تركض الخيل على الصخر أو تحرث الثيران فى البحر » (١٥)

*

ونكتفى بهذا القدر من الأمثلة التى ساقتها دائرة المعارف الأمريكية لتبين بوضوح مقدار الاختلاف الواقع بين النسخ المختلفة للعهد القديم ، والذى لايجد القارىء أى صعوبة فى التحقق منه بنفسه .

* * *

ولنذهب الآن الى دائرة المعارف البريطانية نستفتيها الرأى فى أسفار العهد القديم مكتفين بعنصر واحد من عناصر الدراســـة فى مثل هذه الموضوعات — وهو التقويم التاريخى للأحداث . ولقد اخترت هذا العنصر بالذات لأنه حديث أرقام ، وأحاديث الأرقام تكون دائما من المسائل التى لاتحتاج الى شرح أو تأويل ، ذلك أن الشروح والتأويلات غالبا ما تحكمها اهواء المفسرين واتجاهاتهم .

*

تقول دائرة المعارف البريطانية : « **ان التقويم التاريخى لأحداث العهد القديم قد صار لاعتبارات كثيرة أمرا غير موثوق فيه . فقبل قيام المملكة لم تكن الظروف تسمح بعمل تقويم تاريخى يعتمد عليه . وفى واقع الأمر فان تاريخ الأحداث القديمة قد أضـــيف بعد قرون عديدة من وقوعها ، ودرجة الدقة فيها مظهرية فقط .. وحتى بعد تكوين المملكة فان الأخطاء تسربت الى الأرقام بحيث صار الخطأ فى تواريخ الأحداث نحو بضع عشرات من السنين .**

فالتقويم التاريخى لأحداث الفترة القديمة التى تبدأ من خلق الأنسان حتى خروج بنى اسرائيل من مصر — يعتمد عــلى ما يعرف باسم روايات الكهنة لأسفار موسى الخمسة . أن الأرقام هنا فى الغالب — أن لم تكن

---

(١٥) المرجع ١٥ — ص ٦٢٢

دائما — هى ارقام مصطنعة . ومن الملاحظات البارزة فى هذا المجال ما نجده فى اختلاف الأرقام بين كل من النسختين السامرية والاغريقية وبين النسخة العبرية ، وذلك بالنسبة للفترة من بدء الخلق حتى مولد ابراهيم ، اذ تنخفض الأرقام فى النسخة السامرية بينما ترتفع فى النسخة الاغريقية .،

فالنسخةالعبريةتقدرللفترة منبدءالخلق حتى الطوفان ١٦٥٦ عاما ، بينمايبلغ تقديرها فى النسخة السامرية ١٣٠٧ عاما ، وفى النسخة الأغريقية ٢٢٦٢ عاما .

كذلك تقدر النسخة العبرية للفترة من الطوفان حتى دعوة ابراهيم ٣٦٥ عاما ، بينما هى فى النسخة السامرية ١٠١٥ عاما ، وفى النسخة الأغريقية ١١٤٥ عاما .

ان هـذه الأرقام ترجع الى أصـول بابلية ولـكنها عديمة القيمة التاريخية ، وحتى لو أخذنا بوجهة النظر التى تقدر عام ١٤٩١ ق . م . تاريخا لخروج الاسرائيليين من مصر — رغم أنه تاريخ مبكر اكثر من المحتمل — فان تاريخ بدء الخليقة يرجع الى عام ٤١٥٧ ق . م. حسب النسخة العبرية (والى عام ٥٣٢٨ ق . م . حسـب النسخة الاغريقية) . كذلك تكون بلبلة السن البشر قد حدثت فى بابل عام ٢٥٠١ ق . م . حسـب النسخة العبرية (وفى عام ٣٠٦٦ ق . م . حسب النسخة الأغريقية) . لكن الآثار القديمة للمصريين والبابليين تؤكد ظهور الانسان على وجه الأرض لفترة طويلة من الزمن قبل أى من التاريخين المذكورين لبدء الخليقة . كذلك تبين النقوش والكتابات القديمة للمصريين والبابليين ان اختلاف السنة البشر قد حدث قبل أى من التاريخين المذكورين بفترة طويلة . أن الأرقام المذكورة فى الاصحاحين الخامس والحادى عشر من سـفر التكوين لا تبين سـوى ما كان يتصوره كتبة الأسفار عن تواريخ تلك الأيام الغابرة . » . (١٦)

*

وبعد — ذلك بعض ما كان من أنباء أسفار العهد القديم وتاريخها وما جرى لها عبر القرون الطويلة .

* * *

---

(١٦) دائرة المعارف البريطانية —
ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA
طبعة ١٩٦٠ — الجزء الثالث — ص ٥١٠ — المرجع رقم (١٦)

الفصل الثانى



ابراهيـــم

الموطن والنسب :

تخبرنا أسفار العهد القديم بأن ابراهيم يأتى فى الجيل التاســـع لذرية سام بن نوح ، اذ أن العرق السامى يجرى هكذا :

« سام . أرفكشاد . شالح . عابر . فالج . رعو . سروج . ناحور . تارح . أبرام وهو ابراهيم ــ أخبار الأيام الأول ١ : ٢٤ ــ ٢٧ » .

ولقـــد كان تارح ــ والد ابراهيم ــ يعيـــش مع قبيلته فى موطنهم الأصلى بمدينة أور ــ بالعراق القديم ــ واذا به يقرر فجأة الذهاب الى أرض كنعان (فلسطين) ، وهو يرتحل اليها عبر طريق طويل مارا بحران ــ ــ مدينة القوافل ــ التى تقع حاليا بتركيا قرب الحدود السورية . وهناك يموت تارح :

« أخذ تارح ابرام ابنه ولوطا ابن هاران ابن ابنه وســــــارأى كنته امرأة ابرام ابنه فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا الى أرض كنعان . فأتوا الى حاران واقاموا هناك وكانت أيام تارح مئتين وخمسين ســـنة . ومات تارح فى حاران ــ تكوين ١١ : ٣١ ــ ٣٢ » .

وفى حران تلقى ابراهيم الأمر الالهى بالذهاب الى أرض كنعان ، كما تلقى البشرى بأنه سيكون مباركا وعظيما . فرحل ابراهيم بقبيلته من حران الى فلسطين وعمره آنذاك ٧٥ عاما .

« وقال الرب لابرام اذهب من ارضك ومن عشيرتك ومن بيت ابيك الى الأرض التى اريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اســـمك .. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض . فذهب ابرام كما قال له الرب وذهب معه لوط . وكان ابرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرجا من حاران ــ تكوين ١٢ : ١ ــ ٤ » .

* * *

ابراهيم وزوجه فى مصر :

« وحدث جوع فى الأرض . فانحدر ابرام الى مصر ليغترب هنـــاك .. وحدث لما قرب أن يدخل مصر قال لسارى امرأته انى قد علمت أنك امرأة حســـــنة المنظر فيكون اذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك . قولى انك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى

فحدث لما دخل ابرام الى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا . ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون . فصنع الى ابرام خيرا بسببها . وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد واماء واتن وجمال .

فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى امراة ابرام. فدعا فرعون ابرام وقال ماهذا الذى صنعت بى . لماذا لم تخبرنى أنها امراتك. لماذا قلت هى أختى حتى أخذتها لى لتكون زوجتى . والآن هو ذا امرأتك . خذها واذهب ..

فصعد ابرام من مصر هو وامراته وكل ماكان له ولوط معه الى الجنوب .

وكان ابرامغنيا جدا فى المواشى والفضة والذهب — تكوين ١٢ : ١٠—١٩، ١٣ : ١ — ٢ .

وغنى عن البيان أنه حسب هذا القصص المقدس ، فقد أخذ فرعون سارة زوجة له ، وكان بينهما مايكون بينالأزواج. ولقد دفع فرعون الى ابراهيم ثمن تمتعه بسارة : بقرا وحميرا وجمالا وعبيدا . وكان ذلك مصدر غنى لنبى الله ابراهيم .

*

وكادت تتكرر نفس المأساة لابراهيم حين تعرضت زوجه سارة لمحاولة سطو على عرضها من أبيمالك ملك جرار بفلسطين — لكن ارادة الله تدخلت ومنعت ذلك الملك أن يمس المرأة .

وقد عنف ابيمالك ابراهيم كثيرا على انكاره الزوجية بسارة ،وماترتب على ذلك من محاولة اغتصابها . ولم يجد ابراهيم ما يعتذر به سوى أن يقول أن سارة فى حقيقتها أخته بنت أبيه ، ولكنها ليست بنت أمه ، ولما كانتهذه الأخت غير شقيقة لابراهيم فقد اتخذها زوجة له :

« وانتقل ابراهيم ... وتغرب فى جرار . وقال ابراهيم عن سارة امراته هى أختى . فأرسل ابيمالك ملك جرار وأخذ سارة . فجاء الله الى ابيمالك فى حلم الليل وقال له ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها فانها متزوجة ببعل . ولكن لم يكن ابيمالك قد اقترب اليها .

قال ياسيد أأمة بارة تقتل . ألم يقل هو لى أنها أختى وهى أيضا نفسها قالت هو أخى . بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت هذا .

فقال له الله فى الحلم أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا . وأنا أيضا أمسكتك عن أن تخطىء الى . لذلك لم أدعك تمسها . فالآن رد امرأة الرجل فانه نبى فيصلى لأجلك فتحيا ..

ثم دعا ابيمالك ابراهيم وقال له ماذا فعلت بنا وبماذا أخطأت اليك حتى جلبت على وعلى مملكتى خطية عظيمة . أعمالا لا تعمل عملت بى ..

فقال ابراهيم انى قلت ليس فى هذا الموضع خوف الله البتة . فيقتلوننى لأجل امراتى .

وبالحقيقة هى أختى ابنة أبى . غير أنها ليست ابنة أمى . فصارت لى زوجة . وحدث لما أتاهنى الله من بيت أبى أنى قلت لها هذا معروفك الذى تصنعين الى . فى كل مكان تأتى اليه قولى عنى هو أخى — تكوين ٢٠ : ١—١٣»

وتقرر توراة موسى أن زواج الأخ بأخته سواء كانت شقيقة أم لم تكن انما هو زنى عقوبته القتل أمام أعين الناس :

« اذا أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه ورأى عورتها ورأت عورته فذلك عار . يقطعان أمام أعين شعبهما . قد كشف عورة اخته يحمل ذنبه — لاويين ٢٠ : ١٧ »

***

العهـــد والأرض

ابراهيم يستوطن ارض كنعان :

تخبرنا الأســـفار أن اقامة ابراهيم فى أرض كنعان كانت نتيجة لرغبة لوط ابن أخيه فى الاقامة بالأردن . فلقد حدثت مخاصمة بين رعاة كل منهما ، اضطر معها ابراهيم الى التدخل حتى يضمن حسن العلاقة مع ابن أخيه. من أجل ذلك اقترح ابراهيم على لوط أن يختار من الأرض مايشاء ، وآنذاك سيرحل عنها ابراهيم الى أرض أخرى . فاختار لوط أرضا خصبة فى الأردن، تكسوها الخضرة والزرع المثمرة كمصر جنة الله فى أرضه :

« قال ابرام للوط لاتكن مخاصمة بينى وبينك وبين رعاتى ورعاتك لأننا نحن اخوان اليست كل الأرض أمامك . اعتزل عنى أن ذهبت شمالا فأنا يمينا وان يمينا فأنا شمالا . فرفع لوط عينيــه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقى .. كجنة الرب كأرض مصر .. فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن وارتحل لوط شرقا فاعتزل الواحد عن الآخر .

ابرام سكن فى أرض كنعان ولوط سكن فى مدن الدائرة ونقل خيـــامه الى سدوم . تكوين ١٣ : ٨ — ١٢ » .

***

العهد الالهى :

وبعد أن استقر ابراهيم فى أرض كنعان ، جاءه وعد الهى بأن تكون له ولنسله تلك الأرض . وحتى ذلك الوقت كان نسل ابراهيم بظهر الغيب ، اذ أنه مازال عقيما .

« وقال الرب لابرام بعد اعتزال لوط عنه . ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا . لأن جميع الأرض التى أنت ترى أعطيها لك ولنسلك الى الأبد واجعل نسلك كتراب الأرض . حتى اذا استطاع أحد أن يعد تراب الأرض فنسلك أيضا يعد . قم امش فى الأرض طولها وعرضها لأنى لك أعطيها .

فنقل ابرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التى فى حبرون — تكوين ١٣ : ١٤ — ١٨ » .

ومن الأمور الواضحة هنا أن أرض الموعد لاتضم أرض الاردن التى سكنها لوط وذريته من بعده وهم الموابيون والعمونيون — لكن أرض الموعد يمكن تحديدها بمنطقة تقع فى مرمى البصر لابراهيم ، أو أنها على أكثر تقدير منطقة يحددها نشاط ابراهيم وتجواله فى الرعى والتجارة .

❋

ثم جاء وحى الله لابراهيم فى الرؤيا يبشره بذرية كثيرة ، ويقطع معه ميثاقا :

« **بعد هذه** الامور صار كلام الرب الى ابرام فى الرؤيا قائلا . لا تخف يا ابرام أنا ترس لك فقال ابرام أيها السيد الرب ماذا تعطينى وأنا ماض عقيما ومالك بيتى هو اليعازار الدمشقى .. انك لم تعطنى نسلا .. فاذا كلام الرب اليه قائلا . لا يرثك هذا بل الذى يخرج من أحشائك هو يرثك ثم أخرجه الى خارج وقال انظر الى السماء وعد النجوم ان استطعت أن تعدها وقال له هكذا يكون نسلك . فآمن بالرب فحسبه له برا .

وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها ..

فى ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام . ميثاقا قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات — تكوين ١٥ : ١ — ١٨ » .

ومن المعلوم أن العهد أو الميثاق انما يكون شريعة بين طرفين أو أكثر ، يحدد لكل موقفه أمام الآخر بالنسبة لما تم توثيقه والتعاقد عليه . وعلى هذا فان مانحن بصدده ليس عهدا ولكنه وعد . وعلى أى حال فسوف نترك الكلام عن هذا العهد الالهى الآن حتى تزيدنا الأسفار من أمره وضوحا حين نتكلم عن « تجديد العهد » بعد قليل .

وواضح أن أرض الموعد هنا يقصد بها مساحة تمتد من نهر الفرات شرقا الى نهر مصر غربا وهذا الأخير هو مايعرف باسم وادى العريش . وهو مجرى (خور) يسير فيه الماء أثناء المطر ، يبدأ قرب منتصف الطرف الشمالى الشرقى لشبه جزيرة سيناء وينتهى عند العريش .

ولقد أردت من هذا الاستطراد أن أزيل كل لبس قد يحدث عند الكلام عن « نهر مصر » حتى لايفهم أحد — خطأ — أن المقصود هو « نهر النيل » اذ لاعلاقة اطلاقا بين الاثنين سوى اشتراكهما فى اللفظ فقط .

***

تحقق البشرى ومولد اسماعيل :

تزوج ابراهيم من هاجر المصرية ، التى ما أن حملت منه حتى دبت الغيرة فى قلب زوجته الأولى سارة ، فاضطهدتها حتى « هربت من وجهها . فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية . .

وقال لها ملاك الرب تكثيرا اكثر نسلك فلا يعد من الكثرة .
وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا وتدعين اسمه اسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك . وانه يكون انسانا وحشيا . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع اخوته يسكن . .

فولدت هاجر لابرام ابنا ، ودعا ابرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر اسماعيل وكان ابراهيم ابن ست وثمانين سنة — تكوين ١٦ : ٦ — ١٦ » .

*

تجديد العهد :

بعد مولد اسماعيل بثلاثة عشر عاما جاء الوحى لابراهيم يجدد له العهد — ويبينه اذ يجعل من ابراهيم وذريته أمما تؤمن بالله الواحد رب العالمين ، ثم يقرر الختان علامة لذلك الميثاق ، لايبطلها الا من تحلل من عهد الله — فاستحق بذلك القتل :

« ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لابرام وقال له : أنا الله القدير سر امامى وكن كاملا . فاجعل عهدى بينى وبينك واكثرك كثيرا جدا .

فسقط ابرام على وجهه وتكلم الله معه قائلا . أما أنا فهو ذا عهدى معك وتكون أبا لجمهور من الأمم فلا يدعى اسمك بعد ابرام بل يكون اسمك ابراهيم .

واقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا لأكون الها لك ولنسلك من بعدك . وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون الههم .

وقال الله لابراهيم وأما أنت فتحفظ عهدى أنت ونسلك من بعدك . يختتن منكم كل ذكر فتختتنون فى لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بينى وبينكم . فيكون عهدى فى لحمكم عهدا أبديا — وأما الذكر الأغلف الذى لايختتن فى لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها أنه قد نكث عهدى .

وقال الله لابراهيم ساراى امرأتك لاتدعو اسمها ساراى بل اسمها سارة وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا ..

فأخذ ابراهيم اسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته .. وختن لحم غرلتهم فى ذلك اليوم عينه كما كلمه الله .

وكان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن .. وكان اسماعيل أبن ثلاثة عشر سنة حين ختن — تكوين ١٧ » .

ويمكن اجمال عناصر العهد الالهى لابراهيم فى الآتى :

١ — عهد الله بين ابراهيم وبين نسله من بعده ، أن يكون الخالق العظيم لهم ربا والها ، له عليهم حق العبادة والسلوك حسب شريعته ، فيكونون بذلك هم عبيده الذين ينعمون بشرف التعامل معه ويتقلبون فى نعمائه .

٢ — وبناء على ذلك فقد أعطى الله أرض كنعان لابراهيم ولنسله من بعده لتكون لهم ملكا أبديا .

وهنا نلاحظ أن أرض الموعد تقل كثيرا هذه المرة عما سبق ترديده من أنها الأرض التى تمتد من نهر الفرات شرقا الى نهر مصر (وادى العريش) غربا .

ولما كان الكلام عن أرض الموعد قد تأكد هذه المرة بأن المقصود بها أرض كنعان ، فلا معنى بعد ذلك للكلام عن تلك الأرض الواسعة (نهر الفرات — نهر مصر) —والتى جاء ذكرها قبل ذلك بأكثر من ثلاثة عشر عاما .

وعلى ذلك فسوف تكون مناقشتنا لأرض الموعد باعتبارها أرض كنعان ولا شىء أكثر من ذلك .

٣ — وقد جعل الختان علامة للعهد بين الله ، وبين ابراهيم ونسله الذى سيكون شعوبا كثيرة وليس شعبا واحدا . وكان اسماعيل هو أول نسل ابراهيم الذين صدقت فيهم البشرى وصدق فيهم حفظ العهد .

***

ذرية ابراهيم :

عرفنا مما سبق أن ابراهيم رزق بولده البكر اسماعيل من زوجه هاجر .

كذلك رزق ابراهيم بولده الثانى اسحق من زوجه سارة .

« وفعل الرب لسارة كما تكلم . فحبلت وولدت لابراهيم ابنا فى شيخوخته .. ودعا ابراهيم اسم ابنه المولود الذى ولدته سارة اسحق .

وكان ابراهيم ابن مائة سنة حين ولد له اسحق ابنه — تكوين ٢١ : ٤ » .

وبذلك يكون لابراهيم وعمره ١٠٠ عام ولدان : الأول بكره اسماعيل من هاجر المصرية الذى ولدته وعمر ابراهيم آنذاك ٨٦ عاما .

*

والثانى ولده اسحق الذى ولدته سارة بعد مولد اسماعيل بنحو ١٤ عاما

ثم اتخذ ابراهيم زوجة ثالثة تدعى قطورة ، وأنجب منها أبناء كثيرين ، كانوا آباء لقبائل وشعوب استقرت فى فلسطين والاردن وشبه الجزيرة العربية وكان منهم المديانيون الذى أصهر اليهم موسى .

« وعاد ابراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة فولدت له : زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا .

وولد يقشان شبا وددان .

وكان بنو ددان اشوريم ولطوشيم ولأميم .

وبنو مديان عيفة وعفر وحنوك وابيداع والدعة .

جميع هؤلاء بنو قطورة — تكوين ٢٥ : ١—٤ » .

ومن الواضح هنا — وحسبما تذكره هذه الفقرات الأولى من الاصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين — أن قبائل كثيرة قد خرجت من ابراهيم وقطورة ، لم تذكر لنا الأسفار من أنسابها سوى النذر اليسير .

*

كذلك كان لابراهيم سرارى أنجب منهم ذرية تحمل اسمه وتشارك فى مجده .

« واما بنو السرارى اللواتى كانت لابراهيم فأعطاهم ابراهيم عطايا وصرفهم عن اسحق ابنه شرقا الى أرض المشرق وهو بعد حى — تكوين ٢٥ : ٦ »

* * *

حقيقة الذبيح ابن ابراهيم

نقرأ فى الأسفار أن الله أراد أن يمتحن ابراهيم ليظهر مقدار ثقته فيه، والرضا بقضائه ، فألقى اليه الأمر الالهى بذبح ابنه — وحيده — الذى جاء قرة عين لأبيه ، وأعطاه ابراهيم كل حبه . وفى هذا تقول الأسفار :

« وحدث بعد هذه الامور أن الله امتحن ابراهيم فقال له يا ابراهيم

فقال هأنذا فقال خذ ابنك وحيدك الذى تحبه اسحق واذهب الى أرض المريا واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك .

فبكر ابراهيم صباحا وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه واسحق ابنه وشقق حطبا لمحرقة وقام وذهب الى الموضع الذى قال له الله . وفى اليوم الثالث رفع ابراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد . فقال ابراهيم لغلاميه اجلسا أنتما هاهنا مع الحمار . أما أنا والغلام فنذهب الى هناك ونسجد ثم نرجع اليكما . .

فلما أتيا الى الموضع الذى قال له الله بنى هناك ابراهيم المذبح ورتب الحطب وربط اسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب . ثم مد ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه . فناداه ملاك الرب من السماء وقال ابراهيم ابراهيم . فقال لاتمد يدك الى الغلام ولا تفعل به شيئا لأنى علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى .

فرفع ابراهيم عينيه ونظر واذا كبش وراءه ممسكا فى الغابة بقرنيه . فذهب ابراهيم وأخذ الكبش واصعده محرقة عوضا عن ابنه .

ونادى ملاك الرب ابراهيم ثانية من السماء وقال بذاتى أقسمت يقول الرب . انى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطىء البحر . ويرث نسلك باب أعدائه . ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض . من أجل انك سمعت لقولى .

ثم رجع ابراهيم الى غلاميه . فقاموا وذهبوا معا الى بئر سبع . وسكن ابراهيم فى بئر سبع — تكوين ٢٢ : ١—١٩ » .

ويمكن تلخيص قصة الذبيح فيما يلى :

— أراد الله أن يمتحن ابراهيم فأمره بذبح ابنه وحيده الذى يحبه .

ــ ولقد استسلم ابراهيم لأمر الله ، وجدفى تنفيذه بكلما أوتى من عزم

وحين بلغ الأمر غايته وظهر صدق ايمان ابراهيم ــ أمام نفسه وأمام الخلق ــ فان رحمة الله تداركت الوالد والولد . واستبدل الذبيح الانسان بآخر حيوان .

ــ ومن أجل ذلك أجزل الله العطاء لابراهيم ، فوعده بالخير والبركة له ولنسلهمن بعده ــ ولا شــك أن أول من يتحقق فيهم ذلك الوعد الالهى هم الذبيح بن ابراهيم وذريته .

وحين نسأل عن شخصية الذبيح ، فان القصةتجيب بوضوح :

ــ ان الذبيح هو الابن الوحيــد لابراهيم وقد تأكد ذلك من تكرار : « ابنك وحيدك » ثلاث مرات .

ــ وأن القصة تقرر كذلك أن الذبيح هو اسحق الذى التصق اسـمه بلفظ « ابنك وحيدك » وهنا يبرز عدد من الملاحظات نجملها فى الآتى :

ــ عرفنا مما سبق أن اسماعيل يكبر أخاه اسحق بأربعة عشر عاما .

وعلى ذلك يكون لابراهيم ابن وحيد فى احدى الحالتين الآتيتين :

الأولى ــ أن تكون قصــة امتحان ابراهيم قد جرت حوادثها فى فترة الأربعة عشر عاما التى امتدت من بعد مولد اسماعيل حتى قرب مولد اسحق. وفى هذه الحالة يكون الذبيح هو اسماعيل الابن الوحيد لابراهيم والذى لابد وأن يحبه كل الحب .

الثانية ــ أو أن تكون حادثة الذبيح قد جرت لاســحق بشرط وفاة أخيه الأكبر اسماعيل وبذلك يكون اسحق هو الابن الوحيد لابراهيم .

لكنا نعلم أن اسماعيل عاش حياة طويلة بلغت ١٣٧ عاما .

« وهذه سـنو حياة اسـماعيل مائة وسـبع وثلاثون سـنة ــ تكون ٢٥ : ١٧ » .

كذلك فان كلا من اسماعيل وأخيه اسـحق قد حضرا وفاة والدهما ابراهيم واشتركا فى دفنه :

« وأسلم ابراهيم روحه ومات بشيبة صالحة .. ودفنه اسـحق واسماعيل ــ تكوين ٢٥ : ٨ ــ ٩ » .

واذا تكون الحالة الثانية ممتنعة الحدوث . وتكون قصة الذبيح قد جرت حوادثها بعد أن ولد اسماعيل ونما وصار انيس أبيه ، ولكن قبـل مولد اسحق .

— ولقد رزق ابراهيم بولده البكر اسماعيل بعد طول عناء ، وتردد محير بين اليأس والرجاء وما دام الأمر كذلك ، فمن الطبيعى أن يتعلق قلب ابراهيم بولده هذا الوحيد .

واذا أضفنا الى ذلك ما كان من أمر اسماعيل نفسه ، اذ أنه نشأ قوى البنية مقاتلا ممتازا ، وصيادا ماهرا — فان ذلك مما يزيد من حب أبيه اليه.

فلقد كانت بشارة الملاك لأمه قبل مولده : « انه يكون انسانا وحشيا يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه — تكوين ١٦ : ١٢ » .

وبعد أن كبر اسماعيل واشتد عوده ، نجد الأسفار تقول فيه : « وكان الله مع الغلام فكبر .. وكان ينمو رامى قوس — تكوين ٢١ : ٢٠ » .

* * *

كذلك فانا نجد عدة مناسبات تبين لنا مدى تعلق ابراهيم بابنه اسماعيل وعلى سبيل المثال :

١ — بعد ثلاثة عشر عاما من مولد اسماعيل ، ظهر الرب لابراهيم يؤكد له العهد ويجعل الختان له علامة ، ويبارك ابراهيم والصالحين فقط من نسله ثم يبشره باسحق وليدا من سارة .

ولما كان اسماعيل شغل أبيه الشاغل ، فقد اغتنم ابراهيم تلك الفرصة ، وأخذ يدعو الله أن يكلأ اسماعيل برعايته . فاستجاب له الله ووعده خيرا فى اسماعيل :

« وقال الله لابراهيم ساراى امرأتك .. أباركها وأعطيك أيضا منها ابنا .. وقال ابراهيم ليت اسماعيل يعيش أمامك فقال الله .. قد سمعت لك فيه — تكوين ١٧ : ١٥ — ٢٠ »

٢ — وبعدأن ولدت سارة اسحق فانها حرضت ابراهيم على طرد هاجر وابنها اسماعيل . ومع أن ابراهيم كان له آنذاك ولدان — اسماعيل واسحق — وكان يمكن أن يتعزى بولده اسحق حين يفارقه اسماعيل ، الا أن كلام سارة أغضب ابراهيم كثيرا ، وساءه أشد الاستياء لأنه كان موجها ضد مستقبل ابنه الذى يحبه اسماعيل :

« ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لابراهيم يمزح . فقالت اطرد هذه الجارية وابنها . لأن ابن الجارية لا يرث مع ابنى اسحق . فقبح الكلام جدا فى عينى ابراهيم لسبب ابنه — تكوين ٢١ : ٩ — ١١ » .

٣ — يذكر « التلمود » شذرات عن حياة اسماعيل وعلاقته بأبيه ، الذى كان يتردد على بيت ابنه فى موطنه البعيد — بالجزيرة العربية — بين الحين والحين ، ليطمئن عليه ، ويقوم أمر بيته حين يرى به عوجا .

وفى هذا يقول التلمود : « لقد عاش اسماعيل مع أمه فترة من الزمن فى برية فاران ثم رحلا الى مصر حيث تزوج اسماعيل وأنجب هناك أربعة أولاد وبنتا واحدة . لكنه سرعان ما عاد الى البرية موطنه المفضل حيث بنى الخيام لنفسه ولعائلته وشعبه فقد باركه الله وجعله مالكا للكثير من قطعان الماشية والأغنام .

وحدث بعد عدة سنوات أن استسلم ابراهيم لرغبة كانت تتملكه دائما لزيارة ابنه اسماعيل . فأخبر سارة بذلك ثم بدأ رحلته على جمل (١) .

ولما وصل الى مسكن ابنه اسماعيل وجده خارجا يصطاد ووجد زوجته التى لم تكن تعرف حماها فعاملته بجفاء ، ورفضت تقديم الماء والطعام اليه . فقال لها ابراهيم :

« عندما يعود زوجك، صفى له مظهرى ثم قولى‌له : جاءنا رجل عجوز من أرض الفلسطينيين وهو يطلب منك أن تستبدل وتد خيمتك بآخر أصلح منه ، ثم ركب ابراهيم دابته وانصرف . ولما عاد اسماعيل وقصت عليه زوجته الخبر ، أيقن اسماعيل أن الزائر كان أباه ابراهيم ، وأن زوجته لم تحسن معاملته ، فطلقها وتزوج بأخرى » .

ويذكر التلمود أن القصة تكررت ثانية بعد نحو ثلاث سنوات ، ولكن فى تلك المرة كانت زوجة اسماعيل الجديدة كريمة مع حماها . ولما رجع اسماعيل الى بيته وعلم ما حدث سر كثيرا بزوجته ثم « أخذ زوجته وعائلته وسافر لزيارة والده ، وبقوا معه هناك فى أرض فلسطين عدة أيام » . (٢)

ولاشك ان القصة على هذا النحو تعطى دلالات هامة منها :

ـ أن ابراهيم كان شديد التعلق بابنه اسماعيل ـ رغم استقرار حياته مع سارة وابنها اسحق ، وكان اسماعيل هو الابن المقرب الى قلب أبيه .

ـ كذلك نعلم ان موطن اسماعيل كان بعيدا عن أرض الفلسطينيين بحيث لو ظهر فيه رجل منهم لكان غريبا . ولقد كان ذلك الموطن فى الصحراء العربية المجاورة لفلسطين حيث الجمل هو وسيلة الانتقال الرئيسية .

---

(١) من المهم أن نذكر النص الانجليزى لهذه الفقرة نقلا عن الترجمة الانجليزية للتلمود ، للكاتب اليهودى بولانو ، وهو كالآتى :

«Abraham, yielding to a longing which had always possessd him, determined to visit his son, and informing Sarah of his intention he started off alone, upon a camel».

المرجع رقم ١٨ ص ٥٣ ، ٥٤ . . . H. Polano : THE TALMUD ...

(٢) المرجع ١٨ ص ٥٤

وكل هذا يتفق تماما مع ما تذكره المراجع العربية من هجرة اسماعيل الى الحجاز واستقراره هناك ، ثم دوام الصلة بينه وبين أبيه حتى أواخر أيامه .

من كل ذلك يتضح أن اسماعيل كان هو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يخاطب فيه ابراهيم فيقال له : « ابنك وحيدك الذى تحبه » .

*

ولاشك أن رغبة سارة فى حرمان اسماعيل من حقوقه الطبيعية فى ابيه ابراهيم انما هو أمر يرفضه ذو الضمائر السليمة وأولهم ابراهيم ، كما ترفضه شريعة الرب التى جاء بها موسى لبنى اسرائيل فيما بعد والتى تقول :

« اذا كان للرجل امرأتان احدهما محبوبة وأخرى مكروهة فولدتاله بنين المحبوبة والمكروهة فان كان الابن البكر للمكروهة فيوم يقسم لبنية ما كان له لايحق له ان يقدم ابن المحبوبة بكرا على ابن المكروهة البكر . بل يعرف ابن المكروهة بكرا ليعطيه نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده لانه أول قدرته له حق البكورية . — تثنية ٢١ : ١٥ — ١٧ » .

فلو تصورنا جدلا أن سارة كانت هى الزوجة المحبوبة ، بينما كانت هاجر هى المكروهة ، لفاز مع ذلك اسماعيل بكر ابراهيم من هاجر بالنصيب الأوفى فى كل ما يتعلق بابيه .

*

كذلك فان يعقوب قد تزوج الاختين ليئةوراحيل ، كما تزوج — بطريقة تناظر تماما ما حدث لابراهيم — جاريتهما زلفة وبلهة ، وكما أنجب يعقوب من الاختين فانه أنجب كذلك من الجاريتين ومن هؤلاء النسوة الأربعة جاء بنو اسرائيل ليشتركوا جميعا فى بناء الكيان الاسرائيلى :

« فلما رأت راحيل انها لم تلد ليعقوب .. أعطته بلهة جاريتها زوجة فدخل عليها يعقوب فحبلت بلهة وولدت ليعقوب ابنا .. دعت اسمه دانا .. وولدت ابنا ثانيا ليعقوب .. دعت اسمه نفتالى .

ولما رأت ليئة أنها توقفت عن الولادة أخذت زلفة جاريتها وأعطتها ليعقوب زوجة فولدت زلفة .. ليعقوب ابنا .. دعت اسمه جادا .. وولدت ابنا ثانيا ليعقوب .. دعت اسمه اشير — تكوين ٣٠ : ١ — ١٣ » .

وعلى ذلك فان أى محاولة لحصر ميراث ابراهيم — الروحى والمادى — فى ولده اسحق وذريته مع تجريد اسماعيل وبنيه من ذلك الميرات ، انما هو تعصب ممقوت من صنع البشر ، وافتراء على ما فى الأسفار المقدسة من نصوص ومعانى .

*

٤ — تطالعنا بعض الفقرات التى تحكى بشارات سبقت مولد كل من اسماعيل واسحق . وبدراســـة هذه الفقرات نجد أنها تنبىء بما يمكن ان يحدث للأخوين فى مستقبل حياتهما . فبالنسبة لاسماعيل نجد ملاك الرب قد بشر هاجر اثناء حملها بوليدها المنتظر :

« وقال لها ملاك الرب تكثيرا اكثر نسلك فلا يعد من الكثرة . وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى وتلدين ابنا . وتدعين اسمه اسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك .. وأمام جميع اخوته يسكن — تكوين ١٦ » .

ونلاحظ هنا أن البشرى لم تذكر شيئا عن ذرية لاســـماعيل فى المستقبل بل تكلمت عن نسل لهاجر ، واخوة لاسماعيل . ومادامت هاجر قد حملت من ابراهيم بوليدها البكر اسماعيل ، فانها يمكن ان تحمل منه ذرية أخرى يتكاثر منها نسل هاجر .

ولا يوجد فى تلك البشرى ما يمنع حدوث مكروه لاسماعيل — مثل موته أو قتله قبل أن يكبر وتكون له ذرية .

فلو حدث بعد مولد اسماعيل ان جاء الوحى لابراهيم يأمره بذبح ابنه هذا — ما كان هناك تناقضـــا بين ما اخبرت به السماء قبل مولد اسماعيل وبعد مولده ، وليس امام ابراهيم آنذاك الا الرضا بأمر الله والشروع فى تنفيذه دون تردد . وذلك ما حدث فعلا من ابراهيم .

أما بالنسبة لاسحق فانا نجد أن البشرى التى تلقاها ابراهيم قبل مولد هذا الابن بعام ، قد بشرته كذلك بذرية لاسحق ينجبهم فيما بعد :

« قال الله .. سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق . وأقيم عهدى معه عهدا أبديا لنسله من بعده .. عهدى اقيمه مع اسـحق الذى تلده لك سارة فى هذا الوقت فى السنة الآتية — تكوين ١٧ : ١٩، — ٢١ » .

فكيف اذا ينبىء وحى السماء ابراهيم بذرية لاسحق — قبل مولده — ويقام معها عهد الله ، ثم يعود وحى السماء ليطلب من ابراهيم أن يذبح ابنه اسحق وهو لازال بعد صبيا لم يتزوج وينجب ذرية .

ولو حدث ذلك الموقف لتشـكك ابراهيم فى ذلك الذى يأتيه بخبر السماء لما يبدو من التناقض الواضح ، ولتردد ابراهيم فى التنفيذ خاصة وان الأمر يتعلق بموت ابنه وحيده وكيف ؟ قتلا بيد الوالد ابراهيم ؛

حاشا ان يتناقض وحى السماء . انما يأتى التناقض حين تتدخل شهوات البشر . والحق الذى نراه واضحا من خلال دراستنا لأسفار العهد القديم ، يجعلنا نقطع بان الذبيح هو اسماعيل بن ابراهيم .

فلقد كان هو الابن البكر الوحيد آنذاك لابراهيم ، ولما نما واشتد عوده قبل أن يبلغ الرابعة عشر من عمره ، امتحن الله به اباه ابراهيم .

ولقد كانت رحمة الله مع ابراهيم واسماعيل فاجتازا تلك التجربة الشاقة بسلام ، وحين ظهر الرب لابراهيم وكان عمره ٩٩ عاما ، ودعا الله من اجل ولده اسماعيل وقال :

« ليت اسماعيل يعيش أمامك » — فاستجاب له الله وقال له :

« قد سمعت لك فيه . ها أنا اباركه واثمره وأكثره كثيرا جدا . اثنى عشر رئيسا يلد وأجعله امة كبيرة — تكوين ١٧ : ١٨ ، ٢٠ » .

وجدير بالذكر ان نسخة الملك جيمس الانجليزية من الكتاب المقدس تصف ذرية اسماعيل فى هذه الفقرة بأنها ستكون :

« أمة عظيمة — a great nation »

وفرق كبير بين الأمة العظيمة والأمة الكبيرة ، اذ أن كل الأمم ترجو ان تكون عظيمة بصرف النظر عما وراء ذلك من كثرة أو قلة .

*

— واذا اعتبرنا الكشف عن حقيقة الذبيح من الأمور الهامة التى اضطرنا الى مناقشتها بشىء من الاسهاب — فلاشك أن الاهم من ذلك ، وهو ما دعانا لهذه المناقشة ، هو معرفة الاتجاه الذى اختطه لأنفسهم كتبة الأسفار من الاسرائيليين ، حين قرروا حصر تركة ابراهيم وكل ما يتعلق بها من تراث مادى وروحى فى ذرية يعقوب بن اسحق بن ابراهيم — ثم طرد كل من سواهم من ذرية ابراهيم حتى لايكون لهم شرف القسمة فى بيت ابراهيم خليل الله .

ونستطيع الآن أن نقطع يقينا بأن كلمة « اسحق » قد اضيفت عقب « ابنك وحيدك » وذلك بمراجعة التلمود الذى يذكر هذه الفقرة خالية من كلمة اسحق ، وهى تقرأ هكذا :

«And the word of the Lord came unto Abraham, saying : Take now thy son whom thou Lovest, and offer him for a burnt-offering upon one of the mountains which I will tell thee of»

ويمكن ترجمتها كالآتى :

وكان كلام الرب الى ابراهيم ـ « والآن خذ ابنك وحيدك الذى تحبه واصعده محرقة على احد الجبال الذى اقول لك » (٣) .

***

وليس عجيبا اذا ان يضيف الكتبة الاسرائيليون كلمة « اسحق » الى الكلمات :

« ابنك وحيدك الذى تحبه » كى يستقر فى الاذهان ان الذبيح هو اسحق . فلقد كانت تلك عادتهم التى مارسوها كما قرر ذلك العلماء ومنهم اولبريت حين قال :

« ان الميل الذى كان سائدا بين الكتبة ومصنفى الكتب فى الشرق القديم ـ للاضافة بدلا من الحذف ، قد أثر تأثيرا مباشرا على اعمال العلماء الأقدمين الذين أخرجوا لنا التوراة . ومما يجدر ذكره فى هذا المقام ما أخبرنى به صديق الراحل العالم وينر الذى كان حجة زمانه فى معرفة مصادر توراة موسى اذ قال : انه يعتقد ان مالا يزيد عن ثلث الشريعة المنسوبة لموسى هو ماجاء به فعلا ، وأما الثلثان الآخران فقد تكونا نتيجة للشروح والحواشى التى اضيفت اخيرا » . (٤)

*

وقد يعجب القارىء لذلك ولعل عجبه يزول حين يقرأ ما تقوله أسفار العهد القديم فى وصف أولئك الكتبة :

« كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا . انه الى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب ـ ارميا ٨ : ٨ »

آه من قلم الكتبة الكاذب .. كم طمس من الحق ، وكم اضاف وكم حذف ..

* * *

ابراهيم وأرض الموعد

لقد عاش ابراهيم فى فلسطين غريبا بين سكانها ومالكيها الأصليين ، لم يمتلك فيها موضع قدم . حتى اذا فاجأه موت زوجه سارة ، انطلق يبحث عن مقبرة يمتلكها ليوارى فيها جثمان زوجته وموتى بيته من اللاحقين . وفى هذا كلم ابراهيم بنى حث ليشترى منهم مقبرة ، لكنهم لما كانوا يوقرونه كرجل صالح يعيش بينهم فقد فوضوه ان يختار أفضل مقابرهم هبة منهم دون مقابل .

---

(٣) المرجع ١٨ ـ ص ٥٤

(٤) W.F. Albright : FROM THE STONE AGE TO CHRISTIANITY.
ص ٨٠ ـ المرجع رقم (٢٠)

« كانت حياة سارة مئة وسبعة وعشرين سنة .. وماتت .. فأتى ابراهيم ليندب سارة ويبكى عليها وقام ابراهيم من امام ميته وكلم بنى حث قائلا أنا غريب ونزيل عندكم اعطونى ملك قبر معـــكم أدفن ميتى من امامى .

فأجاب بنوحث ابراهيم قائلين له . اسمعنا ياسيدى انت رئيـس من الله بيننا فى افضل قبورنا ادفن ميتك . لايمنع احد منا قبره عنك حتى لاتدفن ميتك . فقام ابراهيم وسجد لشعب الأرض لبنى حث وكلمهم قائلا ان كان فى نفوسكم ان ادفن ميتى من امامى فاسمعونى والتمسوا لى من عفرون بن صوحر ان يعطينى مغارة المكفيلة التى له التى فى طرف حقله بثمن كامل .

فأجاب عفرون الحثى ابراهيم فى مســـــامع بنى حث .. قائلا . لا ياسيدى اسمعنى . الحقل وهبتك اياه . والمغاره التى فيه لك وهبتها .. ادفن ميتك ..

فســـجد ابراهيم امام شعب الأرض وكلم عفرون قائلا .. ليتك تسمعنى . اعطيك ثمن الحقل خذ منى فأدفن ميتى هناك .

فأجاب عفرون قائلا .. الارض باربع مئة شاقل فضة ما هى بينى وبينك فادفن ميتك فسمع ابراهيم لعفرون ووزن الفضة التى ذكرها .

بعد ذلك دفن ابراهيم سارة امرأته فى مغارة حقل المكفيلة .. فوجب الحقل والمغارة التى فيه لابراهيم ملك قبر عند بنى حث — تكوين ٢٣ » .

تلك هى القصة الكاملة لامتلاك ابراهيم موطنا لموتاه فى أرض الموعد — أرض كعنان — ان صح اعتبار مقابر الموتى ملكا يتوارثه الأحياء ويتنازعون امتلاكه .



ويرى نفر من العلماء ان عملية بيع المغارة بالكيفية التى تمت بها ، انما كانت تمثل فى الواقع صفقة رابحه لمالكها الأصلى عفرون الحثى . وفى هذا يقول هاريسون :

« ان اكتشاف القانون الحثى القديم فى تركيا قد القى ضوءا على عملية بيع مغارة المكفيلة . فمن الواضح أن تلك الصفقة قد كلفت ابراهيم ثمنا باهظا ، ذلك ان القانون الحثى كان يحتم على مشترى الملكية بأكملها ان يقدم بعض الخدمات الالزامية عند انتقال الأرض . اما اذا كان المباع هو جزء من الملكية فان تلك الالتزامات — التى لانعرف ماهيتها — تسقط

عن المشترى ولهذا فقد كانت رغبة ابراهيم ان يشترى جزءا من ملكية عفرون ، حتى يتجنب تلك الالتزامات . لكن عفرون رأى من صالحه ان يلح على ابراهيم كى يقبل الصفقة كلها حتى يجبره على القيام بتلك الالتزامات، وهذا ما حدث اذ أعلنت الصفقة أمام الجمهور ، ودفع الثمن فضة موزونة حسب النظام المعمول به آنذاك » (٥) .

* * *

حقيقة مفهوم الوعد بالأرض :

تقرر اسفار العهد القديم ان ابراهيم تلقى وعودا واضحة كل الوضوح بأنه شخصيا سوف يمتلك كل أرض كنعان ، هذا بالاضافة الى تملك نسله لها ملكا ابديا . ولسوف نعيد كتابة هذه النصوص مرة أخرى :

« وقال الرب لابرام بعد اعتزال لوط عنه . ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى انت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا لأن جميع الأرض التى انت ترى لك اعطيها ولنسلك الى الأبد ..

قم امش فى الأرض طولها وعرضها لانى لك اعطيها » .

« ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لابرام وقال له انا الله القدير سر امامى وكن كاملا فاجعل عهدى بينى وبينك واكثرك كثيرا جدا ..

واعطى لك ولنسلك من بعدك ارض غربتك كل ارض كنعان ملكا ابديا » .

ولقد عرفنا مما سبق ان نصيب ابراهيم من ارض كنعان لم يكن سوى مقبرة للموتى اشتراها بماله الخاص بعد مفاوضات مع ملاكها الأصليين . وبذلك يمكن القول بأن ابراهيم لم يمتلك شيئا فى ارض كنعان، باعتبار ان المقابر ليست الا مستقرا للموتى لايستفيد منه الأحياء .

*

ويتفق هذا القول وهذا المفهوم مع ما تقره أسفار العهد الجديد :

---

(٥) R. K. Harrison: ARCHAEOLOGY OF THE OLD TESTAMENT
ص ٣٢ — المرجع رقم (٢١)

« ظهر الله المجد لأبينا ابراهيم — وقال له اخرج من ارضك ومن عشـــيرتك وهلم الى الأرض التى اريك فخـــرج حينئـــذ من ارض الكلدانيين وسكن فى حاران ومن هناك نقله بعد ما مات ابوه الى هذه الأرض التى انتم ساكنون فيها . ولم يعطه فيها ميراثا ولا وطأة قدم .

— اعمال الرسل ٧ : ١ — ٥ » .

ولنا أن نسأل : هل اعطى ابراهيم شيئا من أرض كنعان ؟

والجواب هنا قاطع بأن ابراهيم لم يمتلك شيئا فى ارض كنعان سوى مقبرة اشتراها بماله الخاص .

*

وكذلك كان الحال مع اسحق ابن ابراهيم الذى تقول الأسفار انه تلقى وعدا الهيا بتملك ارض كنعان حيث « ظهر له الرب وقال لاتنزل الى مصر .. تغرب فى هذه الأرض فأكون معك وأباركك . لأنى لك ولنسلك اعطى جميع هذه البلاد — تكوين ٢٦ : ٢ — ٣ » .

لكنا نعلم من الأسفار كذلك ان اسحق بن ابراهيم قد عاش فى أرض كنعان غريبا متجولا لم يمتلك فيها موضع قدم . وكانت ثروته تتركز فى العبيد والمواشى وما تغله الأرض التى يزرعها من محاصيل . ولأن اسحق لم يتملك من الأرض شيئا فقد تعرض للطرد والأذى من جانب ســكانها الأصليين :

« وزرع اسحق فى تلك الأرض فأصاب فى تلك السنة مئة ضعف .. فحسده الفلسطينيون .. وجميع الآبار التى حفرها عبيد ابيه .. ابراهيم . طمها الفلسطينيون وملأوها ترابا . وقال ابيمالك لاســحق اذهب من عندنا لأنك صرت اقوى منا جدا .

فمضى اسحق من هناك ونزل فى وادى جرار واقام هناك — تكوين ٢٦ : ١٢ — ١٧ » .

*

وكذلك كان الحال مع يعقوب بن اسحق وحفيد ابراهيم ..

فالأسفار تقول أنه حدث فى بعض الأيام أن دعا اسحق ابنه يعقوب وهو شـــــاب لم يتزوج بعد ، وأوصاه أن يتخذ له زوجة من بنات خاله لابان بالعراق ، ثم دعا له بالبركة والخير وقال له :

« الله القدير يباركك ويجعلك مثمرا ... ويعطيك بركة ابراهيم لك ولنسلك معك . لترث ارض غربتك التى اعطاها الله لابراهيم .

— تكوين ٢٨ : ٣ — ٤ » .

ومما يجب ملاحظته هو أن اسحق لم يدع فى هذا القول بما يفيد تملكه شيئا فى أرض كنعان ، لأن هذا كان واقع الأمر ، على عكس ما تقوله الأسفار بعد ذلك وتنسب لاسحق ملكية الأرض .

*

ثم تتكرر الرواية مرة أخرى ، فنعلم أن يعقوب فى ذهابه الى العراق « صادف مكانا وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت .. ورأى حلما واذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء .. وهو ذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب اله ابراهيم ابيك واله اسحق .

الأرض التى أنت مضطجع عليها اعطيها لك ولنسلك — تكوين ٢٨ : ١١ — ١٣ » .

وكذلك بعد أن عاد يعقــوب بازواجه وأولاده من العراق ظهر له الله « وباركه وقال له الله .. لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اســمك اسرائيل . وقال له الله القدير . اثمر واكثر ..

والأرض التى اعطيت ابراهيم واسحق لك اعطيها . ولنسلك من بعدك — تكوين ٣٥ : ٩ — ١٢ » .

ورغم ذلك فان الشيء الذى تؤكده الأسفار هو أن يعقوب وبنيه عاشوا فى أرض كنعان غرباء مستضعفين لم يمتلكوا فيها شيئا ، وأن اقامتهم فى أى بقعة منها كانت مرتبطة برضاء اهلها وموافقتهم . ويتضح ذلك من قصــة اغتصاب دينة ابنة يعقوب . فلقد حدث أن خرجت دينة ذات يوم فرآها « شكيم بن حمور الحوى رئيس الأرض وأخذها واضــطجع معها وأذلها . وتعلقت نفسه بدينة .. وأحب الفتاة ولاطف الفتاة .

فكلم .. أباه قائلا خذ لى هذه الصبية زوجة .. فخرج حمور ابو شكيم الى يعقوب ليتكلم معه ..

فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر وتكلموا . لأنه قد نجس دينة أختهم فقالوالهما لانستطيع أن نعطى أختنا لرجل اغلف ان صرتم مثلنا . بختنكم كل ذكر نعطيكم بناتنا .

فحسن كلامهم فى عينى حمور وفى عينى شكيم .. فأتى حمور وشكيم ابنه الى باب مدينتهما وكلما اهل مدينتهما قائلين :

هؤلاء القوم مسالمون لنا . فليسكنوا فى الأرض ويتجروا فيها وهو ذا الأرض واسعة الطرفين امامهم . نأخذ لنا بناتهم زوجات ونعطيهم بناتنا .. لنصير شعبا واحدا . بختننا كل ذكر كما هم مختونون .

الا تكون مواشيهم ومقتناهم وكل بهائهم لنا .

فسمع لحمور وشكيم ابنه جميع الخارجين من باب المدينة ــ تكوين ٣٣ : ١٨ ــ ٢٠ » .

*

ولم يحدث ان امتلك يعقوب شيئا فى أرض كنعان سوى قطعة أرض صغيرة اشتراها بماله الخاص ، لينصب فيها خيمته ويقيم عليها مذبحا لله :

« أتى يعقوب سالما الى مدينة شكيم التى فى أرض كنعان .. وابتاع قطعة الحقل التى نصب فيها خيمته من يد بنى حمور ابى شكيم بمئة قسيطة واقام هناك مذبحا ودعاه ايل اله اسرائيل ــ تكوين ٣٣ : ١٨ ــ ٢٠ » .

ولقد كانت تلك كل علاقة يعقــــوب بالأرض حتى رحل عنها بقبيلته الصغيرة الى مصر ايام سلطان ابنه يوسف ، الى ان توفاه الله ودفن فى مغارة المكفيلة بأرض كنعان ، تنفيذا لوصية قد أوصى بنيه بها :

« وفعل له بنوه وهكذا كما اوصاهم . حمله بنوه الى أرض كنعان ودفنوه فى مغارة حقل المكفيلة التى اشتراها ابراهيم مع الحقل ملك قبر من عفرون الحثى .. ثم رجع يوسف الى مصر هو واخوته ــ تكوين ٥٠ : ١٢ ــ ١٤ » .

* * *

نتائج محددة :

ونصل من ذلك كله الى نتائج محدده منها :

١ ــ أن ابراهيم لم يتلق وعدا بتملك أرض كنعان ، وأن ما نجده فى أسفار العهد القديم هو من صنع الكتبة الاسرائيليين الذين لم يراعوا الدقة فيما خلفوه من كتابات . اذ أن الواقع التاريخى ينفى حدوث تلك الملكية لابراهيم فى أى وقت من الأوقات ، الأمر الذى يفرض على أصحاب العقائد السماوية رفض حدوث أى وعد الهى لابراهيم بتملك الأرض ، اذ لو كان حدث ذلك الوعد لكان واجب التحقيق .

٢ ــ أو أن ابراهيم تلقى وعدا بتملك الأرض ولكن مفهوم تلك الملكية يجب أن يخرج عن الاطار المادى لتملك الأشياء . ولكى لا يتعارض ماتقوله الأسفار المقدسة مع الحقيقة فانه يجب تأويلها بأن ملكية أرض كنعــان لا تعنى سوى اتخاذها مهوى تتعلق به القلوب ، ومزارا تحج اليه النفوس ، باعتبارها بقعة مقدسة شهدت تجليات الهية ، ونزل فيها الوحى الى رجال الله القديسين من عبيده الأنبياء والصالحين .

٣ ـ وفى جميع الحالات والتأويلات فان كل ما يتعلق بالوعد الالهى لابراهيم مشروط بصدق العقيدة وصالح العمل . بحيث اذا امتنع ذلك الشرط امتنع تحقيق الوعد بمفاهيمه المادية والروحية على السواء . ويتضح ذلك تماما من قول الله لابراهيم :

« سر أمامى وكن كاملا . فاجعل عهدى بينى وبينك »

***

العرب والاسرائيليون فى أسفار العهد القديم

رأينا فيما سبق أن نسل ابراهيم ينحصر فى أربعة فروع تأتى من نسائه الكثيرات وهم :

اسماعيل بن هاجر وهو بكر أبيه وله حق البكورية ، كما رأينا سلفا ، واسحق بن سارة ، وابناء قطورة ، وبنو السرارى اللاتى كن لابراهيم .

وبعد أن نقرر أنه لايمكن اسقاط حق أى من هؤلاء فى المشاركة فيما يكون لابراهيم ، فانا نجد فى الأسفار المقدسة ما يقص علينا أخبار فرعين متميزين من نسل ابراهيم هما : الاسماعيليون والاسرائيليون . ولسوف نعرض بايجاز الصورة العامة لكل منهما .

*

الاسماعيليون :

رغم أن اخبار اسماعيل مقتضبة فى أسفار العهد القديم ، فان اخبار ذريته كثيرة تملأ تلك الأسفار ويضرب بها المثل فى الحكمة والفهم والثروة والتجارة والقوة .

ولقد انجب اسماعيل اثنى عشر رئيسا ـ أو اثنى عشر أميرا حسب نسخة الملك جيمس الانجليزية ـ استقروا فى مدنهم وحصونهم ، هم وذرياتهم على مساحة واسعة تمتد شمالا من مصر الى العراق ، وتشمل فى جنوبها اغلب شبة الجزيرة العربية :

« وهذه اسماء بنى اسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم . نبايوت بكر اسماعيل وقيدار وادبئيل ومبسام . ومشماع ودومة ومسا . وحدار وتيما ويطور ونافيش وقدمة .

هؤلاء بنو اسماعيل وهذه اسماؤهم بديارهم وحصونهم . اثنا عشر رئيسا حسب قبائلهم وهذه سنو حياة اسماعيل مئة وسبع وثلاثون سنه واسلم روحه انضم الى قومه . وسكنوا من حويلة الى شور التى أمام مصر حينما تجيء نحو أشور — تكوين ٢٥ : ١٣ — ١٨ » .

*

والاسماعيليون هم الذين اشتروا يوسف عندما كان اخوته يتآمرون عليه لقتله ، وهم الذين جاءوا بيوسف الى مصر حيث كان له فيما بعد شأن عظيم استفاد منه الاسرائيليون كثيرا . وفى ذلك تقول الأسفار ان اخوة يوسف « اخذوه وطرحوه فى البئر .. ثم جلسوا ليأكلوا طعاما فرفعوا عيونهم ونظروا واذا قافلة اسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها الى مصر . فقال يهوذا لاخوته .. تعالوا فنبيعه للاسماعيليين ..

واجتاز رجال مديانيون فسحبوا يوسف واصعدوه من البئر وباعوا يوسف للاسماعيليين بعشرين من الفضه فأتوا بيوسف الى مصر ..

وأما المديانيون فباعوه فى مصر الى فوطيفار خصى فرعون رئيس الشرط — تكوين ٣٧ : ٢٤ — ٣٦ » .

لكن كاتب السفر يعود بعد ذلك ليقول ان الاسماعيليين هم الذين باعوه لفوطيفار :

« وأما يوسف فانزل الى مصر واشتراه فوطيفار خصى فرعون .. من يد الاسماعيليين الذين انزلوه الى هناك — تكوين ٣٩ : ١ » .

*

ويضرب سليمان المثل بجمال مساكن قيدار ابناء اسماعيل فيقول : « أنا سوداء وجميلة يا بنات اورشليم كخيام قيدار — نشيد الانشاد ١ : ٥ » .

*

وفى مرثاة لحزقيال على مدينة صور نجده يذكر فضل التجار العرب من الاسماعيليين — أبناء قيدار — فى تنشيط ثرواتها : « العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك بالخرفان والكباش والأعتدة فى هذه كانوا تجارك . تجار شبا ورعمة هم تجارك بأفخر كل انواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك — حزقيال ٢٧ : ٢١ — ٢٢ » .

*

وعرف عن الاسـماعيليين وفرة غناهم وكثرة ذهبهم . ففى احدى الحروب التى انقض فيها الاسرائيليون على المديانيين ، طلب منهم قائدهم الغنائم التى أخذوها فكانت مقادير كبيرة من حلى الذهب . « وقال لهم جدعون اطلب منكم طلبة أن تعطونى كل واحد اقراط غنيمته لانه كان لهم اقراط ذهب لأنهم اسماعيليون .

فقالوا اننا نعطى وفرشوا رداء وطرحوا عليه كل واحد أقراط غنيمته وكان وزن اقراط الذهب التى طلب الفا وسبع مئة شاقل ذهبا ما عدا الأهله والحلق وأثواب الأرجوان التى على ملوك مديان وماعدا القلائد التى فى اعناق جمالهم — قضاة ٨ : ٢٤ — ٢٦ » .

وجدير بالذكر أنه من هذه الفقرات وأمثالها — كما رأينا فى قصة بيع يوسف منذ قليل — قرر الباحثون أن المديانيين والاسماعيليين شعب عربى واحد .

*

ويهتف اشعياء فى نبوءاته باسم نبى عربى يظهر فى العرب الاسماعيليين — أبناء قيدار — الذين استوطنوا البرية — بلاد العرب (اشعياء ٢١) .

وينهض الله عزيمته فيجعله رجل حرب مغوار ، يهزم به الـكفر والكافرين ، ويخزى به المشركين من عبدة الأصنام والتماثيل .

وللنبى شريعة جديدة تنتظرها أمم الأرض ، ومن تعاليمه يقيم المؤمنون لله صلوات وتسـبيحات جديدة ، ويفد الحجيج الى بلاد العرب المقفرة ليذكروا اسم الله فوق رؤوس الجبال ، ويفتح الله بهذا النبى على العرب الممالك والأمصار ، ويسيرهم فى طرق خير لم يعرفوها من قبل ، ويخرجهم من الظلمات الى النور ، ويهديهم اليه صراطا مستقيما .

ثم هو أولا وأخيرا عبد الله ومختاره ومصطفاه :

« هوذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى سرت به نفسى وضعت روحى عليه فيخرج الحق للأمم ..

لا يكل ولا ينكسر حتى يضـع الحق فى الأرض وتنتظر الجزائر شريعته ..

انا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك عهدا للشـعب ونورا للأمم لتفتح عيون العمى ، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين فى الظلمة ..

غنوا للرب اغنية جديدة تسبيحه من أقصى الأرض ايها المنحدرون فى البحر وملؤه والجزائر وسكانها .

لترفع البرية ومدنها صوتها ، الديار التى سكنها قيدار . لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا . ليعطوا للرب مجدا ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر .

الرب كالجبار يخرج . كرجل حروب . ينهض غيرته . يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه ..

اسير العمى فى طرق لم يعرفوها .. اجعل الظلمة امامهم نورا والمعوجات مستقيمة . يخزى خزيا المتكلون على المنحوتات القائلون للمسبوكات أنتن آلهتنا ..

الرب قد سر من اجل بره . يعظم الشريعة ويكرمها .. — أشعياء ٤٢ » .

*

ويجب أن يكون معلوما أن « رجل الحرب » صفة من صفات القوة والجلال التى يدعى بها الله فى الصلوات والتضرعات ، كما قال موسى فى تسبيحه :

« هذا الهى فأمجده . اله ابى فارفعه . الرب رجل الحرب . الرب اسمه — خروج ١٥ : ٢ — ٣ » .

و « رجل الحرب » يختلف تماما عن « رجل الدماء » اذ أن الاخير يعنى رجل الشر والمظالم والطغيان .

*

ولقد ظهر فى قبيلة مسا — الأمير السابع من ابناء اسماعيل — حكماء مثل أجور ولموئيل الذين حفظت حكمتهم ووحيهم فى سفر الأمثال :

« كلام أجور ابن متقية مسا . وحى هذا الرجل الى اثيئيل ..

كل كلمة من الله نقية .. لاتزد على كلماته لئلا يوبخك فتكذب .. اثنين سألت منك فلا تمنعهما عنى قبل ان أموت ابعد عنى الباطل والكذب — امثال ٣٠ » .

« كلام لموئيل ملك مسا . علمته اناه أمه ..

ليس للملوك أن يشربوا خمرا ولا للعظماء المسكر . لئلا يشربوا أو ينسوا المفروض ويغيروا حجة كل بنى المذلة .

افتح فمك لأجل الأخرس فى دعوى كل يتيم . افتح فمك . اقض بالعدل وحام عن الفقير المسكين — امثال ٣١ » .

*

ان هذه هى الصورة العامة للاسماعيليين فى أسفار العهد القديم . وهى صورة طيبة ولاشك .

***

الاسرائيليون :

لانجد ذكرا لقبيلة اسرائيل قبل ان يظهر فيهم موسى . فقد كان أبوهم اسرائيل كما يقول عن نفسه — « اراميا تائها » ، وكانت اسرائيل غنما متبدده . وحتى بعد أن بدأ يتبلور الكيان الاسرائيلى على يد موسى فقد بقيت تلك هى الصورة العامة لاسرائيل على مر العصور — غنما متبددة — ولم يحدث تغيير لذلك سوى بضع عشرات من السنين ايام داود وسليمان حين بدأ هناك نوع من الاستقرار . ولا يهمنا أن نعرف موضعهم بين الشعوب بقدر ما تهمنا معرفة موقفهم امام الله ، نظرا لارتباط هذا الموقف بعهد الله لابراهيم وذريته ، وعلاقة ذلك العهد بأرض الموعد . ونجد فى أسفار العهد القديم تقريرا مفصلا عن موقف اسرائيل امام الله ، سوف نعرض بايجاز صورا منه على فترات متباعدة تفصل بين كل فترة وأخرى بضع قرون .

❋

اسرائيل على عهد موسى (حوالى عام ١٢٩٠ — ١٢٥٠ ق. م.) :

تعرض موسى كثيرا للمواقف الحرجة بل والخطرة أمام الله بسبب سلوك بنى اسرائيل . ولولا تضرعات موسى وصلواته الى ربه لكان الوجود الاسرائيلى ذكرى عابرة فى التاريخ .

« قال الرب لموسى اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذى اصعدته من أرض مصر . زاغوا سريعا عن الطريق الذى اوصيتهم به صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التى اصعدتك من أرض مصر .

وقال الرب لموسى رأيت هذا الشعب واذا هو شعب صلب الرقبة . فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم وافنيهم ..

فتضرع موسى أمام الرب الهه وقال لماذا يارب يحمى غضبك على شعبك الذى اخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة لماذا يتكلم المصريون قائلين اخرجهم بخبث ليقتلهم فى الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض. ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك ..

فندم الرب على الشر الذى قال انه يفعله بشعبه — خروج ٣٢ : ٧ — ١٤ » .

❋

واستمر ذلك هو موقف اسرائيل حتى نهاية عهد موسى . وهو موقف الشعب المتمرد على موسى وحركته التحريرية ، لدرجة التفكير فى ثورة مضادة تخلع موسى من قيادة الاسرائيليين ، وتعود بهم الى مصر — أرض ذلهم وعبوديتهم — حيث هناك الشبع والمرعى الوفير :

« واللفيف الذى فى وسطهم اشتهى شهوة . فعاد بنو اسرائيل أيضا وبكوا وقالوا من يطعمنا لحما . قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجانا والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم . والآن قد يبست أنفسنا . ليس شيء غير أن اعيننا الى هذا المن — عدد ١١ : ٤ — ٦ »

*

« وقال الرب لموسى حتى متى يهيننى هذا الشعب وحتى متى لايصدقوننى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم انى اضربهم بالوبا وابيدهم .

فقال موسى .. الرب طويل الروح كثير الاحسان يغفر الذنب والسيئة لكنه لايبرىء بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء الى الجيل الثالث والرابع — عدد ١٤ : ١ — ١٨ » .

* * *

اسرائيل حتى عهد داود وسليمان (حوالى ١٠٠٠ — ٩٢٥ ق . م .) :

« جربوا وعصوا الله العلى وشهاداته لم يحفظوا بل ارتدوا وغدروا مثل آبائهم . انحرفوا كقوس مخطئة . أغاظوه بمرتفعاتهم واغاروه بتماثيلهم .

سمع الله فغضب ورذل اسرائيل جدا ورفض مسكن شيلو الخيمة التى نصبها بين الناس وسلم للسبى عزه وجلاله ليد العدو . ودفع الى السيف شعبه وغضب على ميراثه . مختاروه أكلتهم النار وعذاراه لم يحمدن . كهنته سقطوا بالسيف وارامله لم يبكين — مزمور ٧٨ » .

*

« أخطأنا مع آبائنا ، اسأنا وأذنبنا . آباؤنا فى مصر لم يفهموا عجائبك لم يذكروا كثرة مراحمك اختلطوا بالأمم وتعلموا اعمالهم وعبدوا اصنامهم فصارت لهم شركا .. وتنجسوا بأعمالهم وزنوا بأفعالهم .

فحمى غضب الرب على شعبه وكره ميراثه واسلمهم ليد الأمم وتسلط عليهم مبغضوهم وضغطهم اعداؤهم فذلوا تحت يدهم .

مرات كثيرة انقذهم اما هم فعصوه بمشورتهم وانحطوا بأثمهم — مزمور ١٠٦ » .

❋

اسرائيل على عهد نحميا وعزرا (حوالى عام ٤٥٨ — ٤٤٥ ق . م .) :

قال عزرا فى صلاته : « اللهم انى اخجل وأخزى من أن ارفع يا الهى وجهى نحوك لأن ذنوبنا قد كثرت فوق رؤسنا وآثامنا تعاظمت الى السماء .

منذ أيام آبائنا نحن فى اثم عظيم الى هذا اليوم .

ولأجل ذنوبنا قد دفعنا نحن وملوكنا وكهنتنا ليد ملوك الأراضى للسيف والسبى والنهب وخزى الوجوه كهذا اليوم ..

والآن فماذا نقول يا الهنا بعد هذا لأننا قد تركنا وصاياك ..

وبعد كل ما جاء علينا لأجل اعمالنا الرديئة وآثامنا العظمة . لأنك قد جازيتنا يا الهنا اقل من أثمنا وأعطيتنا نجاة كهذه . أفنعود ونتعدى وصاياك ..

أيها الرب الله اسرائيل أنت بار لأننا بقينا ناجين كهذا اليوم . ها نحن أمامك فى آثامنا لأنه ليس لنا أن نقف أمامك من أجل هذا — عزرا : ٩ » .

❋

وقال الكهنة فى صلاتهم عن بنى اسرائيل : « عصوا وتمردوا عليك وطرحوا شريعتك وراء ظهورهم وقتلوا انبيائك الذين اشهدوا عليهم ليردوهم اليك وعملوا اهانة عظيمة . فدفعتهم ليد مضايقيهم فضايقوهم وفى وقت ضيقهم صرخوا اليك وأنت من السماء سمعت وحسب مراحمك الكثيرة أعطيتهم مخلصين خلصوهم من يد مضايقيهم ولكن لما استراحوا رجعوا الى عمل الشر قدامك فتركتهم بيد اعدائهم فتسلطوا عليهم ثم رجعوا وصرخوا اليك وأنت من السماء سمعت وانقذتهم حسب مراحمك الكثيرة واشهدت عليهم لتردهم الى شريعتك . واما هم فبغوا ولم يسمعوا لوصاياك واخطأوا ضد احكامك .. واعطوا كتفا معاندة وصلبوا رقابهم ولم يسمعوا فاحتملتهم سنين كثيرة واشهدت عليهم بروحك عن يد انبياءك فلم يصغوا فدفعتهم ليد شعوب الأراضى — نحميا ٩ : ٢٦ — ٣٠ — » .

❋ ❋ ❋

اسرائيل أيام يحيى والمسيح (حوالى عام ٣٠ م .) :

« فى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية .. فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون الى معموديته قال لهم : يا أولاد الافاعى من اراكم ان تهربوا من الغضب الآتى . فاصنعوا اثمارا تليق بالتوبة . ولا تفتكروا ان تقولوا فى انفسكم لنا ابراهيم أبا . لأنى اقول لكم ان الله قادر ان يقيم من هذه الحجارة اولادا لابراهيم .

والآن قد وضعت الفأس على اصل الشجر . فكل شجرة لاتصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار — متى ٣ : ١ — ١٠ » .

*

لقد كان شغل الاسرائيليين الشاغل على مر العصور هو تعلقهم باسم ابراهيم ، واستعلائهم بسبب ذلك عن بقية خلق الله . وفى محاوراتهم الكثيرة مع المسيح أفهمهم خطأ تلك النظرية العنصرية ، وأنهم قد يكونون أولادا لابراهيم بالجسد لكن اعمالهم وشرورهم تجعلهم فى ميزان الحق ابناء للشيطان . وعندئذ لن يغنى عنهم ابراهيم من الله شيئا ، وتؤول بذلك أمورهم الى الخزى والبوار :

« قال يسوع لليهود الذين آمنو به انكم ان ثبتم فى كلامى فبالحقيقة تكونون تلاميذى — وتعرفون الحق والحق يحرركم .

أجابوه اننا ذرية ابراهيم ولم نستعبد لأحد قط .. أجابهم يسوع .. أنا عالم انكم ذرية ابراهيم لكنكم تطلبون ان تقتلونى لأن كلامى لاموضع له فيكم .. انتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم — اجابوا وقالوا له ابونا هو ابراهيم . قال لهم يسوع لو كنتم اولاد ابراهيم لكنتم تعملون اعمال ابراهيم . ولكنكم الآن تطلبون ان تقتلونى وانا انسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله هذا لم يعمله ابراهيم . انتم تعملون اعمال ابيكم .

فقالوا له اننا لم نولد من زنا . لنا اب واحد وهو الله .

فقال لهم يسوع .. انتم من اب هو ابليس وشهوات ابيكم تريدون ان تعملوا . ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت فى الحق ..

فأجاب اليهود وقالوا له السنا نقول حسنا انك سامرى وبك شيطان — يوحنا ٨ : ٣١ — ٤٨ » .

*

واستمرت الأمور تسير على هذا المنوال من كبرياء عن الحق وجحود به ، ولذلك لم يجد المسيح بدا من ان يسوق اليهم نذيره الأخير ، ويصب عليهم اللعنات ، ويفتح لهم ابواب الخراب .

« ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبورا مبيضة تظهر من خارج جميلة وهى من داخل مملؤة عظام اموات وكل نجاسة . هكذا انتم ايضا من خارج تظهرون للناس ابرارا ولكنكم من داخل مشحونون رياء واثما .

ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين وتقولون لو كنا فى أيام آبائنا لما شاركنا فى دم الأنبياء . فانتم تشهدون على انفسكم انكم ابناء قتلة الأنبياء فاملؤا نتم مكيال آبائكم .

ايها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم ..

يا اورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين اليهاكم مرة اردت أن اجمع اولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا .
هوذا بيتكم يترك لكم خرابا ..

ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل — متى ٢٣ : ٢٧ — ٣٨ ، ٢٤ : ١ » .

*

مما سبق نجد أن الأسفار المقدسة تقرر ان الصورة العامة للاسرائيليين على مدى القرون الطويلة ليست وللأسف الشديد — سوى صورة شعب صلب الرقبة ، ناكر للجميل ، كثيرا ما سفك دماء الأبرياء والمستضعفين ، وسلك الكثيرون منهم سلوك « الحيات أولاد الأفاعى » .

لقد حرص الاسرائيليون على مر العصور ، على ترديد القول بانتسابهم لابراهيم ، طمعا فى امتلاك أرض كنعان تحقيقا لعهد الهى صدر من الله لابراهيم وذريته .

ويهمنا الآن أن نعرف ما اذا كان عطاء الله للاسرائيليين متوقفا فقط على اعتبارهم ذرية ابراهيم ، أم أن ذلك العطاء وتحقيق العهد من جانب الله — بامتلاك أرض كنعـــان مثلا — مرتبط أولا وقبل كل شيء بتحقيق الاسرائيليين لالتزاماتهم التى تضمنها ذلك العهد ، والتى تتلخص فى ضرورة صيرورتهم طائفة دينية ، تؤمن بالله ورسله ، وتحفظ الشريعة ، وتعمل الصالحات .

ان هذا هو ما نستبينه من دراستنا لما تذكره — بل وتجمع عليه — الكتب المقدسة عند اصحاب العقائد السماوية ، من اليهود والمسيحيين والمسلمين — عن عهد الله للاسرائيليين .

***

٥ — فلسطين

عهد الله وميثاقه مع بنى اسرائيل

أمر الله موسى أن يعلم بنى اسرائيل — وهم لم يزالوا بعد تحت نير العبودية فى مصر — أن تحقيق العهد الالهى لابراهيم وذريته متوقف على ايمانهم بالله ، وما يترتب على ذلك الايمان من طهر فى العقيدة والسلوك .

« كلم الله موسى وقال له أنا الرب . وأنا ظهرت لابراهيم واسحق ويعقوب بأنى الاله القادر على كل شيء . وأمابإسمى يهوه فلم أعرف عندهم . وأيضا أقمت معهم عهدى أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التى تغربوا فيها . وأنا أيضا قد سمعت أنين بنى اسرائيل الذين يستعبدهم المصريون وتذكرت عهدى لذلك قل لبنى اسرائيل أنا الرب وأنا اخرجكم من تحت اثقال المصريين وانقذكم من عبوديتهم .. وأتخذكم لى شعبا وأكون لكم الها .. وأدخلكم الى الأرض التى رفعت يدى أن اعطيها لابراهيم واسحق ويعقوب .. فكلم موسى هكذا بنى اسرائيل ولكن لم يسمعوا لموسى من صغر النفس ومن العبودية القاسية — خروج ٦ : ٢ — ٩ » .

*

وعقب خروج بنى اسرائيل من مصر تلقى موسى الوصايا العشر ، وكان ذلك هو العهد الالهى لموسى وبنى اسرائيل ، وميثاقه الذى واثقهم به .

« قال الرب لموسى أكتب لنفسك هذه الكلمات . لأننى بحسب هذه الكلمات قطعت عهدا معك ومع اسرائيل . وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء . فكتب على اللوحين كلمات العهد : الكلمات العشر — خروج ٣٤ : ٢٧ — ٢٨ » .

« ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلا :

أنا الرب الهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية . لا يكن لك آلهة أخرى أمامى .

لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق ومما فى الأرض من تحت ... لا تسجد لهن ولا تعبدهن . لأنى أنا الرب الرب الهك اله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى ، وأصنع احسانا الى ألوف من محبى وحافظى وصاياى .

لا تنطق باسم الهك الرب باطلا ..

اذكر يوم السبت لتقدسه .. لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل مافيها واستراح فى اليوم السابع ..

أكرم أباك وأمك ..

لا تقتـــل ..

لا تزن ..

لا تسرق ..

لا تشهد على قريبك شهادة زور ..

لا تشته بيت قريبك ..

لا تشته امرأة قريبك ولا عبـــده ولا أمته ولا ثوره ولا حمـــاره ولا شيئا مما لقريبك — خروج ٢٠ : ١ — ١٧ » .

*

وتبين التوراة — بما لايدع مجالا للشك أو الانحراف فى التأويل — أن تحقيق عهد الله لبنى اسرائيل متوقف فقط على تحقيق عهدهم معه — ســـبحانه .

أما فى حالة نقضهم العهد ونكثهم الميثـاق فانهم يتعرضون لأشـــد الضربات ، ومن بينها اقتلاعهم من أرض كنعان وتشريدهم بين الأمم أذلة صاغرين ، بل وتحميل الذرية الاسرائيلية خطايا آبائهم السابقين ومعاقبتهم عليها — دون أدنى اعتبار لكونهم ذرية ابراهيم .

« اذا سلكتم فى فرائضى وحفظتم وصاياى وعملتهم بها : أعطى مطركم فى حينه وتعطى الأرض غلتها .. فتأكلون خبزكم للشـــبع وتسكنون فى أرضكم آمنين . وأجعل سلاما فى الأرض فتنامون وليس من يزعجكم .. والتفت اليكم وأثمركم وأكثركم وأفى ميثاقى معكم .. وأسير بينكم وأكون لكم الها وأنتم تكونون لى شعبا ..

لكن أن لم تسمعوا لى ولم تعملوا كل هذه الوصـــايا . وان رفضتم فرائضى وكرهت أنفسكم أحكامى فما عملتم كل وصاياى بل نكثتم ميثاقى فانى أعمل هذه بكم :

أسلط عليكم رعبا .. وأجعــل وجهى ضـــدكم .. أصير سماءكم كالنحاس . وأرضكم كالحديد فتفرغ باطلا قوتكم وأرضكم ..

أجلب عليكم سيفا ينتقم نقمة الميثـــاق .. أذريكم بين الأمم وأجرد وراءكم السيف .. والباقون منكم ألقى الجبانة فى قلوبهم فى أراضى أعدائهم .. فتهلكون بين الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم . والباقون منكم يفنـــون بذنوبهم فى أراضى أعدائكم . وأيضا بذنوب آبائهم معهم يفنون — لاويين ٢٦ : ٣ — ٣٩ » .

*

— وكما رأينا منذ قليل فلقد كانت صيحة يوحنا المعمدان فى بنى اسرائيل أن يطرحوا جانبا عقيدة العنصرية والاستعلاء على بنى البشر ممن خلقهم الله ، اعتمادا على بنوة جسدية لابراهيم وبنيه ، وذلك فى قوله لهم:

« لاتفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا ابراهيم أبا لأنى أقول لكم أن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لابراهيم » .

— كذلك أنكر المسيح على الظلمة من بنى اسرائيل القول ببنوتهم لابراهيم ، فبصرف النظر عن حقيقة تلك البنوة جسدا ، الا أنهم فى ميزان الحق قد أحالتهم خطاياهم الى أبناء للشيطان .

« قال لهم يسوع : لو كنتم أولاد ابراهيم لكنتم تعملون أعمال ابراهيم .. أنتم من أب هو ابليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت فى الحق لأنه ليس فيه حق » .

— وبين المسيح أن طريق الخلاص وميراث ملكوت الله ليس حكرا على بنى اسرائيل باعتبارهم ذرية ابراهيم واسحق ويعقوب ، ولكنه بميزان الحق والعدل — ميزان الله — يرفض أهل الظلم والخطيئة ، ومنهم الظالمين من ذرية ابراهيم ، ثم يقبل بعد ذلك كل من عداهم من الصالحين .

« قال له واحد : ياسيد . أقليل هم الذين يخلصون . فقال لهم . اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق . فانى أقول لكم أن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرون ..

حينئذ تبتدئون تقولون أكلنا قدامك وشربنا وعلمت فى شوارعنا .
فيقول أقول لكم لاأعرفكم من أين أنتم . تباعدوا عنى ياجميع فاعلى الظلم .
هناك يكون البكاء وصرير الاسنان متى رأيتم ابراهيم واسحق ويعقوب وجميع الأنبياء فى ملكوت الله وأنتم مطروحون خارجا . ويأتون من المشارق ومن المغارب ومن الشمال ومن الجنوب ويتكئون فى ملكوت الله .
— لوقا ١٣ : ٢٣ — ٢٩ »

*

— ويبين القرآن أن عهد الله لابراهيم وذريته لا ينال خـــيره الظالمين منهم .

« واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال انى جاعلك للنـــاس اماما ، قال ومن ذريتى ، قال لا ينال عهدى الظالمين » (البقرة : ١٢٤) .

— وكان عهد الله لبنى اسرائيل وتحقيق ما فيه من خيرات ، مرتبط أولا واخيرا بصدق وفائهم به :

« ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبـا وقال الله انى معكم لئن أقمتم الصـــلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برســـلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا ، لأكفرن عنكم سيآتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعـــد ذلك منكم فقد ضـــل سواء السبيل » . (المائدة : ١٢)

« لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل وأرسلنا اليهم رسلا ، كلما جاءهم رسول بما لاتهوى انفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون . وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ، ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصـــموا كثير منهم ، والله بصير بما يعملون » . (المائدة : ٧٠ ، ٧١)

*

— وبدهى أن من ينكث العهد العظيم — عهـــد الله — لابد أن تصيبه اللعنة والبوار ، فهذا ماتقرره الكتب المقدسة ، وتتفق عليه كل الاتفاق .

« الكلام الذى صار الى ارميا من قبل الرب قائلا : اسمعوا كلام هذا العهد وكلموا رجال يهوذا وسكان أورشليم . فتقول لهم هكذا قال الرب اله اسرائيل .

ملعون الانسان الذى لايسمع كلام هذا العهد الذى أمرت به آباءكم يوم أخرجتهم من أرض مصر .. قائلا اسمعوا صوتى واعملوا به حسب كل ما آمركم به فتكونون لى شعبا وأنا أكون لكم الهـــا . لأقيم الحلف الذى حلفت لآبائكم أن أعطيهم أرضا تفيض لبنا وعســـلا كهذا اليوم ، فأجبت وقلت آمين يا رب .

فقال الرب لى .. انى أشهدت على آبائكم اشهادا يوم أصعدتهم من ارض مصر الى هذا اليوم مبكرا ومشهدا قائلا اسمعوا صوتى . فلم يسمعوا ولم يميلوا أذنهم بل سلكوا كل واحد فى عناد قلبه الشرير . فجلبت عليهم كل كلام هذا العهد الذى أمرتهم أن يصنعوه ولم يصنعوه ..

قد نقض بيت اسرائيل وبيت يهوذا عهدى الذى قطعته مع آبائهم . لذلك هكذا قال الرب . هأنذا جالب عليهم شرا لا يستطيعون أن يخرجوا منه ويصرخون الى فلا أسمع لهم — أرميا ١١ : ١ — ١١ » .

« فبما نقضهم ميثـــاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنـــة منهم الا قليلا منهم ، فاعف عنهم واصفح ، ان الله يحب المحسنين » .
(المائدة : ١٣)

*

ومن المتفق عليـــه والمقرر — نصـــا وعقلا — أن اللعنة حين تنزل بالاسرائيليين فانها لاتلحق الا بالظالمين منهم ، وهى تفرق بين خيـــارهم وشرارهم ، اذ أنهم ليسوا فى ميزان الحق سواء .

« ليسوا ســـواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليـــوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ، وأولئك من الصالحين . ومايفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله بالمتقين » . (آل عمران : ١١٣ — ١١٥)

***

بعد هذا الذى رأيناه ، نستطيع أن نقرر بحق أن بنوة الاسرائيليين لابراهيم ليست صكا يتم بموجبه تحقيق العهد الالهى لابراهيم وذريته ، وأن تلك البنـــوة لم تكن — ولن تكون — عاصما لهم فى يوم من الأيام عن انزال العقاب الالهى بهم جزاء جرائمهم وخطاياهم .

وعلى ذلك فان أى قول بأن « اليهود بسبب آبائهم بقوا أعزاء عند الله (٦) هو قول مردود ليس له من نصوص الكتب المقدسة وتأويلاتها أى مرتكز أو دليل .

---

(٦) انظر ما يقال عن « موضـــوع تبرئة اليهود من دم المســـيح » — الفصل السادس — من هذا الكتاب .

كذلك فان القول بحقوق دينية للاسرائيليين فى فلسطين ، حفظها لهم عهد الله لابراهيم وبنيه السابقين ، انما هو كذب على الحق ، ومغـــالطة كبرى ، وأسطورة لاتتردد الا بين الجهلة أو المتجهلين .

***

وبعد — لئن كان لأحد أن يتذرع بنسبه لابراهيم طمعا فى تملك أرض فلسطين ، فان هذا النفر لايمكن أن يكون من الاسرائيليين لما سبق بيـــانه، ولأكثر من سبب من الاسباب . ومن بين هذه الأسباب :

١ — ان عهد الله لابراهيم مشروط : « سر أمامي وكن كاملا فاجعل عهدى بينى وبينك » . ولا يمكن لعاقل أن يعتبر « القتلة أولاد الأفاعى » من الكاملين ، ولا يمكن لأحد أن يدعى أن يهود اليوم خير من آبائهم وخاصة بعد أن نزع المسيح منهم ملكوت الله وجردهم من كل ميزة تفردوا بهـــا فى سالف الأيام وذلك فى قوله لهم : ان ملكوت الله ينزع منـــكم ويعطى لأمة تعمل اثماره .

٢ — وان أولاد ابراهيم الذين ينـــالهم الوعد الالهى هم نسل كثير « كنجوم السماء وكالرمل الذى على شـــاطىء البحر » . لكنا نجد الفرع الاسرائيلى من ذرية ابراهيم قد عاش طيلة حياته قليلا محدودا ، ليس له فى الكثرة العددية أدنى نصيب . واذن لايحق لهذا الفرع الضئيل أن يحتكر ميراث ابراهيم أو يحاول التفرد به .

٢ — ولقد نص الوعد الالهى — كما نقرأه فى الأسفار — على تملك نسل ابراهيم لأرض كنعان زمنا طويلا ، بولغ فيـــه كل المبالغة حتى امتد الى « الأبد » .

ولا يجد المرء صعوبة فى التدليل على أن الكتبة الاسرائيليين لم يراعوا الدقة فى كتاباتهم واستخدموا لفظ «الأبد» كيفما اتفق ، وهو الأمر الذى خلف كثيرا من الفوضى والتناقضات .

ومن أمثلة ذلك ماسبقت الاشارة اليه فى أخبار « راعوث الموآبية » التى ولدت « عوبيد وعوبيد ولديسى ويسى ولد داود » .

واذا طبقنا ماتقوله التوراة عن سلالة الموآبيين من أنه « لايدخل عمونى ولا موآبى فى جماعة الرب حتى الجيل العاشر لايدخل منهم أحد فى جماعة الرب الى الأبد » لوجدنا أن داود الذى يأتى فى الجيل الثالث لراعوث الموآبية يجب أن يخرج من جماعة الرب، بل وسليمان ابنه كذلك. وبذلك طرد الكتبة الاسرائيليون كبار أنبيائهم من جماعة الرب ، بسبب نظرتهم العنصرية الضيقة الى الناس : هذا موآبى وذاك عمونى .. وآخر عربى ورابع كوشى ... الخ .

واذا صرفنا النظر عما فى القول بأبدية تملك الأرض من أخطاء ، ونظرنا الى الاسرائيليين باعتبارهم — جدلا — يمثلون سلالة خاصة تنحدر من نسل ابراهيم — لوجدنا أن الواقع التاريخى يؤكد تحقق الوعد الالهى فى تملك العرب الاسماعيليين لأرض كنعان — بل وللمنطقة الكبيرة التى تمتد من النيل الى الفرات — أكثر من تحققه فى الاسرائيليين .

فقد امتلك العرب أرض كنعان وماجاورها ، واستوطنوها قرونا طويلة وصبغوها بصبغة عربية لاتزال تمتد راسخة الأقدام الى اليوم ، على حين لم يزد نصيب الاسرائيليين من ذلك عن حكم بعض أجزاء من فلسطين لبضع عشرات من السنين . ثم تلى ذلك عهود من الفوضى والانحلال وهذه سرعان ما انتهت بانهيار الكيان الاسرائيلى ومحو آثاره من تلك الأرض — والتاريخ شاهد على ذلك .

ويمكننا القيام بعملية مسح سريع للتاريخ الاسرائيلى بفلسطين ، لنتبين منه حقيقة علاقة الاسرائيليين بها ، والصور المختفة التى ظهرت بها تلك العلاقة .



الفصل الثالث

التاريخ الاسرائيلي بفلسطين

التاريخ الاسرائيلى بفلسطين

مقـــدمة :

يقول جيمس باركس فى كتابه : تاريخ الشعب اليهودى ، « لايمكن القول بأن تاريخ اليهود هو تاريخ عنصر من العنـــاصر البشرية ، ذلك أن اليهود لم يكونوا من أصل نقى منذ بدء تاريخهم ، كما أنهم فى شتاتهم بين الأمم اكتسبوا منها كثيرا من الخواص الجسمانية والنفسية والذهنية . ومن الخطأ الاعتقاد بأنهم لم يقبلوا متهودين من عقائد وأجناس أخرى .

ولقد كانت المجموعات المختلفة من اليهود ــ فى الواقع ــ أجزاء من مختلف الحضارات والثقافات » .(١) .

***

وينقسم التاريخ الاسرائيلى بفلسطين الى المراحل الآتية :

١ ــ اسرائيل تحت قيادة موسى ويشوع :

أخرج موسى بنى اسرائيل من مصر وعبر بهم ســيناء فى طريقه الى فلسطين ، حتى يجد لهم بين ربوعها مكانا آمنا ينعمون فيه بحرية العقيدة، فيعبدون الاله الواحد ، اله آبائهم ابراهيم واسحق ويعقوب .

لكن ما أن عرف الاسرائيليون أن عليهم اقتحام فلسطين بالقوة حتى تذمروا على الله وعلى نبيه ، فسخط الله عليهم وشردهم فى البرية أربعين عاما يتيهون بين الفيافى والقفار ، حتى يفنى **ذلك الجيل المتقاعس :**

« وكلم الرب موسى وهارون قائلا حتى متى أغفر لهذه الجمـــاعة الشريرة والمتذمرة على . قد سمعت تذمر بنى اسرائيل الذى يتذمرونه على . قل لهم لأفعلن بكم كما تكلمتم فى أذنى . فى هذا القفر تسقط جثثكم .. لن تدخلوا الأرض التى رفعت يدى لأسكنكم فيهـــا ماعدا كالب بن يفنه ويشوع بن نون . وأما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة فانى ســأدخلهم فيعرفون الأرض التى احتقرتموها .. تحملون ذنوبكم أربعين ســـنة فتعرفون ابتعادى . أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا بكل هذه الجمـــاعة الشريرة المتفقة على ــ عدد ١٤ : ٢٦ ــ ٣٥ » .

---

(١) المرجع ١٩ ص ٧ .

بل أن موسى نفسه قد حرمت عليه أرض فلسطين فلم يحظ منها ولو بموطىء قدم . وكان فى يوم وفاته أن قال له الله : « اصعد الى جبل عباريم .. الذى فى أرض موآب .. وانظر أرض كنعان .. من قبالتها ولكنك لاتدخل الى هناك — تثنيه ٣٢ : ٤٩—٥٢ » .

*

« وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا . موسى عبدى قد مات فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت، وكل الشعب الى الأرض .. تشجع جدا لكى تتحفظ للعمل حسب كل الشريعة التى أمرك بها موسى عبدى .. لاترهب ولا ترتعب — يشوع ١ : ١—٩ » .

ولقد استطاع يشوع أن يقود القبائل الاسرائيلية ويقتحم بها بعض الأجزاء الشرقية والجنوبية من فلسطين ويستولى على بعض المدن مثل اريحا وعاى .

وتقول الأسفار أن عملية الغزو المسلح هذه على يد يشوع قد صاحبتها معجزات حين استخدم «تابوت عهد الرب» وفق طقوس خاصة .

« قال يشوع للشعب تقدسوا لأن الرب يعمل غدا فى وسطكم عجائب . وقال يشوع للكهنة احملوا تابوت العهد واعبروا أمام الشعب — يشوع ٣ : ٥ — ٦ » .

*

وكان من عادة الاسرائيليين حين يقتحمون احدى المدن ان يوقعوا بها القتل والتخريب ويسوقوا الموت لكل نفس حية حتى البهائم والاطفال .

فعلوا ذلك باريحا فقد « صعد الشعب الى المدينة كل رجل مع وجهه واخذوا المدينة وحرموا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف .. واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها انما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها فى خزانة بيت الرب ..

وحلف يشوع فى ذلك الوقت قائلا ملعون قدام الرب الرجل الذى يقوم ويبنى هذه المدينة اريحا — يشوع ٦ : ٢٠ — ٢٦ » .

*

وبالمثل فعل الاسرائيليون بعاى :

« وكان لما انتهى اسرائيل من قتل جميع سكان عاى فى الحقل .. بحد السيف حتى فنوا ان جميع اسرائيل رجع الى عاى وضربوها بحد السيف . فكان جميع الذين سقطوا فى ذلك اليوم من رجال ونساء اثنى عشر الفا جميع اهل عاى ..

لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها اسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذى امر به يشوع وأحرق يشوع عاى وجعلها تلا ابديا خرابا الى هذا اليوم .

وملك عاى علقه على الخشبة الى وقت المساء . وعند غروب الشمس أمر يشوع فأنزلوا جثته عن الخشبة وطرحوها عند مدخل باب المدينة — يشوع ٨ : ٢٤ — ٢٩ » .

❋

وفعل الاسرائيليون نفس الشيء بكل اعدائهم الذين تمكنوا منهم :

« وكان لما اخرجوا اولئك الملوك الى يشوع دعا كل رجال اسرائيل وقال لقواد رجال الحرب الذين ساروا معه تقدموا وضعوا ارجلكم على اعناق هؤلاء الملوك فتقدموا ووضعوا ارجلهم على اعناقهم . فقال لهم يشوع لاتخافوا ولا ترتعبوا . تشددوا وتشجعوا . لأنه هكذا يفعل الرب بجميع اعدائكم الذين تحاربونهم .

وضربهم يشوع بعد ذلك وقتلهم وعلقهم على خمس خشب ..

واخذ يشوع مقيده فى ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم ملكها هو وكل نفس بها . لم يبق شاردا وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك اريحا ..

ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل اسرائيل معه الى لبنة .. فضربها بحد السيف وكل نفس بها لم يبق بها شاردا وفعل بملكها كما فعل بملك اريحا ..

ثم اجتاز يشوع وكل اسرائيل معه من لبنة الى لخيش ونزل عليها وحاربها .. وضربها بحد السيف وكل نفس بها حسب كل ما فعل بلبنة .

... ...

فضرب يشــوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها لم يبق شاردا بل حرم كل نسمة كما أمر الرب اله اسرائيل ـ يشوع ١٠ : ٢٤ ـ ٤٠ » .

*

لكن كثيرا من المدن الهامة اســتعصت على الاسرائيليين ومن بينها مدينة يبوس التى استولى عليها داود بعد ذلك بنحو مائتين وخمســين عاما واتخذها عاصمة له :

« اما اليبوسيون الساكنون فى اورشليم فلم تقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا فى اورشــليم الى هذا اليوم ـ يشوع ١٥ : ٦٣ » .

لكنا نقرأ بعد ذلك فى الأســفار أن مدينة يبوس كانت غريبة تماما بالنسبة للاسرائيليين ، ولم تكن لهم فيها موضع قدم الى ان جاء داود :

« وفيما هم عند يبوس .. قال الغلام لسيده تعال نمل الى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها .. فقال له سيده لانميل الى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بنى اسرائيل هنا . نبيت فى جبعة أو الرامة ـ قضاة ١٩ : ١١ ـ ١٣ » .

*

وعلى كل فان علاقة الاسرائيليين بأرض فلسطين ايام يشوع لم تتعد قيامهم بعملية تخلل لبعض اجزائها ، وتمكنهم من العيش وسط شعوبها . وكان على الاسرائيليين بعد يشــوع ان يستمروا فى اعمال الحرب ضد الشعوب الفلسطينية حتى ترسخ اقدامهم وينجز كل سبط من اســباط اسرائيل مهمة الغزو التى حددها يشوع بالقرعة لكل منهم .

*

وكان قبل موت يشوع ان دعا « جميع اسرائيل وشيوخه ورؤســاءه وقضاته وعرفاءه وقال لهم . انتم قد رأيتم كل ما عمل الرب الهكم بجميع اولئك الشعوب من اجلكم لأن الرب الهكم هو المحارب عنكم .

وانظروا قد قسمت لكم بالقرعة هؤلاء الشعوب الباقين ملكا حسب اسباطكم ..

الرب الهكم هو ينفيهم من امامكم ويطردهم من قدامـــكم فتملكون ارضهم كما كلمكم الرب الهكم فتشددوا جدا لتحفظوا وتعملوا كل المكتوب فى سفر شريعة موسى ..

ولكن اذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب اولئك الباقين معكم وصاهرتموهم ودخلتم اليهم وهم اليكم . فاعلموا يقينا ان الرب الهـــكم لايعود يطرد اولئك الشعوب من امامكم فيكونون لكم فخا وشركا وسوطا .. حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة .

لم تسقط كلمة واحدة من جميع الكلام الصالح الذى تكلم به الرب عنكم .

ويكون كما انه اتى عليكم كل الكلام الصالح الذى تكلم به الرب الهكم عنكم كذلك يجلب عليكم الرب كل الكلام الردىء حتى يبيدكم عن هـذه الأرض الصـــالحة .. حينما تتعدون عهد الرب الهكم الذى امركم به وتسيرون وتعبدون آلهة أخرى — يشوع ٢٣ » .

وتبرز هنا نقطتان هامتان :

الأولى — أن اقامة الاسرائيليين بفلسطين مرتبطة منذ بدئها بصـــدق العقيدة وحسن السلوك حتى اذا ما نقضوا العهد ، وانحرفوا عن الصراط المســتقيم ، انزل الله بهم غضـــبه ، واقتلعهم من الأرض وجعلهم هزؤا بين الشعوب ومثلا سيئا .

الثانية — انه بصرف النظر عما يقال فى حقيقة مفهوم الوعد الالهى لابراهيم ، وفى أبنائه الذين يحق لهم اقتسام ميراثه فى كل صوره الروحية والمادية — وحتى لو سلمنا جدلا — ان أولئك الأبناء هم بنو اسرائيل وحدهم واسقطنا من عداهم من ذرية ابراهيم ، لوجدنا من كلام يشوع ان الوعد الالهى قد تحقق فى ايامه وانتهى الأمر :

« لم تسقط كلمة واحدة من جميع الكلام الصالح الذى تكلم به الرب عنكم . الكل صار لكم » وما على الاسرائيليين منذ أيام يشـــوع حتى أيام المسيح الا ان يعلموا — كما قال لهم يسوع :

« بالكيل الذى تكيلون يكال لكم » أو كما قال لهم يشوع : كما أنه أتى عليكم الكلام الصالح .. وهكذا يجلب عليكم الرب كل الكلام الردىء حتى يبيدكم عن هذه الأرض الصالحة حينما تتعدون عهد الرب الهكم » .

ثم جاء المسيح وكان بينهم وبينه ما كان وقد عرفنا — مما سبق — نذيره اليهم بنزع ملكوت الله منهم واعطائه لأمة تعمـــل اثمارة ، فلم يبق لهم بعد ذلك أن ينتظروا تحقيق وعود .

***

٢ ــ عصر القضاة :

يمتد هذا العصر بعد يشوع الى ما يزيد على مائتى عام ولقد عاش فيه الاسرائيليون بين الشعوب الفلسطينية بكيان ممزق ، كثيرا ما تعرض للقهر والعبودية واكثر من هذا أنهم انتكسـوا فى عقيدتهم ، فرجعوا عن التوحيد ــ الذى كان كل ميزتهم أيام موسى ــ الى عبادة الأصنام وقبيح العادات . ولقد ظهر فيهم رعاة لهم عرفوا باسم القضاة ــ حاولوا ردهم عن طرق الضلال والضياع ، الا ان جهودهم ذهبت سدى .

ويلخص سفر القضاة حال الاسرائيليين فى تلك الفترة فيقول :
« فعل بنو اسرائيل الشر فى عينى الرب وعبدوا البعليم وتركوا الرب اله آبائهم الذى اخرجهم من أرض مصر وساروا وراء آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها واغاظوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروث فحمى غضب الرب على اسرائيل فد فعهم بأيدى ناهبين نهبوهم وباعهم بيد أعدائهم حولهم ولم يقدروا بعد على الوقوف أمام اعدائهم فضاق بهم الأمر جدا .

وأقام الرب قضاة فخلصوهم من يد ناهبيهم ولقضـاتهم ايضا لم يسمعوا بل زنوا وراء آلهة أخرى ..

وحينما اقام الرب لهم قضاة كان الرب مع القاضى وخلصهم من يد اعدائهم كل ايام القاضى وعند موت القاضى كانوا يرجعون ويفسدون اكثر من ابائهم .. لم يكفوا عن افعالهم وطريقهم القاسية فحمى غضب الرب على اسرائيل وقال من اجل ان هذا الشعب قد تعدوا عهدى فأنا ايضـا لا اعود اطرد انسانا من امامهم من الأمم الذين تركهم يشوع عند موته .
ــ قضاة ٢ : ١١ ــ ٢١ » .

*

ولقد بلغت الفترة التى عاشها الاسرائيليون فى ذل واستعباد ما يزيد على السبعين عاما :

« سكن بنو اسرائيل فى وسـط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين واتخذوا بناتهم لأنفسهم نسـاء واعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتم ..

فحمى غضـب الرب على اسرائيل فباعهم بيد كوشان .. فعبـد اسرائيل كوشان رشعتايم ثمانى سنين ــ قضاة ٣ : ٥ ــ ٨ » .

« وعبد بنو اسرائيل عجلون ملك مواب ثمانى عشر سنة ــ قضاة ٣ : ١٤ » .

« وعاد بنو اسرائيل يعملون الشر .. فباعهم الرب بيد يابين ملك كنعان .. وكان له تسع مئة مركبة من حديد وهو ضايق بنى اسرائيل بشدة عشرين سنة ــ قضاة : ١ ــ ٣ » .

« وعمل بنو اسرائيل الشر فى عينى الرب فدفعهم الرب ليد مديان سبع سنين .

فاعتزت يد مديان على اسرائيل . بسبب المديانيين عمل بنو اسرائيل لأنفسهم الكهوف التى فى الجبال والمغاير والحصون .

واذا زرع اسرائيل كان يصعد المديانيون والعمالقة وبنو المشرق .. وينزلون عليهم ويتلفون غلة الأرض .. ولا يتركون لاسرائيل قوت الحياة ولا غنما ولا بقرا ولا حميرا لأنهم كانوا يصـــعدون بمواشـيهم وخيامهم ويجيئون كالجراد فى الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد .. فذل اسرائيل جدا من قبل المديانيين ـ قضاة ٦ : ١ ـ ٦ » .

وعــاد بنو اسرائيل يعملون الشر فى عينى الرب وعبــدوا البعـــليم والعشتاروث وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بنى عمون وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبدوه .

فحمى غضب الرب على اسرائيل وباعهم بيد الفلسطينيين وبيد بنى عمون . فحطموا وارضضوا بنى اسرائيل فى تلك السنة ثمانى عشرة سنة جميع بنى اسرائيل الذين فى عبر الأردن فى أرض الاموريين الذين فى جلعاد .. فتضايق اسرائيل جدا ـ قضاة ١٠ : ٦ ـ ٩ » .

*

هذا ـ ولقد اشتهر من بين قضاتهم : دبورة (امرأة نبية ـ قضــاة ٤ : ٤) ، وجدعون ، ويفتاح الجلعادى (وهو ابن امرأة زانية ـ قضــاة ١٠ : ١) ، وشمشون (صاحب دليلة) ، وصموئيل النبى .

***

٣ ـ عصر الملوك :

شاول : عاش الاسرائيليون غنما متبددة ، ولم تستطع عوامل الخطر وانعدام الأمن التى أحاطت بهم من كل جانب أن توحد صفوفهم وبلغ بهم الانحلال والتردى غايته ، حتى ان حادثة زنى بسرية احدهم تتسبب فى حرب طاحنة بين سبط بنيامين وبقية اسباط اسرائيل ، يسقط فيها من كلا الجانبين ـ حسب الأعداد التى تذكرها الأسفار ـ مايزيد على الأربعين الف رجل !

ونلخص القصة بلغة الأسفار فنقول :

« كان رجل لاوى .. اتخذ له امرأة سرية من بيت لحم يهوذا . فزنت عليه سريته وذهبت من عنده الى بيت ابيها .. فقام رجلها وسار وراءها ليطيب قلبها ويردها ومعه غلامه وحماران . فأدخلته بيت ابيها . فلما رآها ابو الفتاة فرح بلقائه .

ثم بكر .. فى اليوم الخامس للذهاب هو وسريته وغلامه .. فعبروا وذهبوا وغابت لهم الشمس عند جبعة التى لبنيامين . فمالوا الى هنـاك لكى يدخلوا ويبيتوا .. فى ساحة المدينة .. واذا برجل شيخ جاء من شغله من الحقل .. فقال ..السلام لك .. لاتبيت فى الساحة . وجاء به الى بيته .. وفيما هم يطيبون قلوبهم اذا برجال المدينة رجال بنى بليعـال احاطوا بالبيت .. وكلموا الشيخ قائلين اخرج الرجل الذى دخل بيتك فنعرفه (نضاجعه) . فخرج اليهم صاحب البيت وقال لهم بعدما دخل هذا الرجل بيتى لاتفعلوا هذه القباحة . هوذا ابنتى العذراء وسريته دعونى اخرجهما فاذلوهما وافعلوا بهما ما يحسـن فى أعينكم واما هذا الرجل فلا تفعلوا به هذا الأمر القبيح . فلم يرد الرجال أن يسمعوا له . فأمسك الرجل سريته واخرجها اليهم خارجا فعرفوها (زنوا بها) وتعللوا بها الليل كله الى الصباح وعند طلوع الفجر اطلقوها .

فجاءت المرأة عند اقبال الصباح وسقطت عند باب بيت الرجل حيث سيدها هناك الى الضوء . فقام سيدها فى الصباح وفتح ابواب البيت وخرج للذهاب فى طريقه واذا بالمرأة سريته ساقطة على باب البيت ويداها على العتبة . فقال لهاقومى نذهب . فلم يكن مجيب فأخذها على الحمار .. ودخل بيته وأخذ السكين وامسك سريته وقطعها مع عظامها الى اثنتى عشرة قطعة وارسلها الى جميع تخوم اسرائيل — قضاة ١٩ » .

« وارسل اسباط اسرائيل رجالا الى جميع اسباط بنيامين قائلين ماهذا الشر الذى صار فيكم . فالآن سلموا القوم بنى بليعال الذين فى جبعة لكى نقتلهم .. فلم يرد بنو بنيامين أن يسمعوا لصوت اخواتهم بنى اسرائيل .

فاجتمع بنو بنيامين .. لكى يخرجوا لمحاربة بنى اسرائيل — قضاة ٢٠ : ١٢ — ١٤ »

*

وقتل الآلاف فى تلك الحرب من كلا الجانبين :

« خرج بنو بنيامين من جبعة واهلكوا من اسرائيل فى ذلك اليوم اثنين وعشرين الف رجـل .. وخرج بنيامين للقائهم .. فى اليوم الثانى واهلك من بنى اسرائيل ايضا ثمانية عشر ألف رجل .. وصعد بنو اسرائيل على بنى بنيامين .. واهلك بنو اسرائيل من بنيامين فى ذلك اليوم خمسـة وعشرين ألف رجل ومائة رجل .. ورجعوا أمام بنى اسرائيل فى طريق البرية ولكن القتال أدركهم .. فسقط من بنيامين ثمانية عشر ألف رجل فداروا وهربوا الى البرية .. فالتقطوا منهم فى السكك خمسة آلاف . وقتلوا منهم الفى رجل .. ورجع رجال بنى اسرائيل الى بنى بنيامين وضربوهم بحد السيف من المدينة بأسرها حتى البهائم حتى كل ما وجد وايضا جميع المدن التى وجدت احرقوها بالنار — قضاة ٢٠ » .

وازداد الأمر سوءا وهدد بنيامين بالانقراض حين قرر بقية اسباط اسرائيل الا يزوجوهم « وحلفوا .. قائلين لا يسلم احد منا ابنته لبنيامين امرأة » .

وبعد أن هدأت نفوس بقية اسباط اسرائيل تفتقت اذهان شيوخهم عن حيلة يستطيعون بها الاحتفاظ بنسل لبنيامين فى الوقت الذى يبرون بقسمهم ، وكان ذلك بدعوة رجال بنيامين الى اختطاف الكنعانيات والزواج بهن :

« فقال شيوخ الجماعة .. قد انقطعت النساء من بنيامين . وقالوا ميراث نجاة لبنيامين ولا يمحى سبط من اسرائيل ونحن لانقدر أن نعطيهم نساء من بناتنا .

ثم قالوا هوذا عيد الرب فى شيلوه .. امضوا واكمنوا فى الكروم .. فاذا خرجت بنات شيلوه ليدرن فى الرقص فأخرجوا أنتم من الكروم واخطفوا لأنفسكم كل واحد امرأته من بنات شيلوه .. ففعل هكذا بنو بنيامين واتخذوا نساء حسب عددهم من الراقصات اللواتى اختطفوهن .
فى تلك الأيام لم يكن ملك فى اسرائيل — كل واحد عمل ما حسن فى عينية — قضاة ٢١ » .



ومنذ أمد بعيد امتلأت أرض فلسطين وما حولها بالممالك ، من قبل أن يكون للاسرائيليين فيها موطىء قدم . فلقد عرف هذا منذ عهد ابراهيم . وعرف الاسرائيليون ذلك عن كثب حين بدأ احتكاكهم بتلك الممالك أيام موسى ، الذى جاء بعد ابراهيم بنحو ٤٠٠ عام .

ففى أثناء تجوالهم فى الصحراء بقيادة موسى « ارسل موسى رسلا من قادش الى ملك أدوم . هكذا يقول أخوك اسرائيل فقد عرفت كل المشقة التى اصابتنا . أن آباءنا انحدروا الى مصر وأقمنا فى مصر أياما كثيرة واساء المصريون الينا .. دعنا نمر فى أرضك لانمر فى حقل ولا فى كرم ولا نشرب ماء بئر . فى طريق الملك نمشى لانميل يمينا ولا يسارا حتى نتجاوز تخومك .

فقال له أدوم لاتمر بى لئلا أخرج للقائك بالسيف ..

فقال له بنو اسرائيل فى السكة نصعد واذا شربنا انا ومواشى من مائك ادفع ثمنه . لا شىء أمر برجلى فقط .

فقال لاتمر . وخرج أدوم للقائه بشعب غفير وبيد شديدة وأبى أدوم ان يسمح لاسرائيل بالمرور فى تخومه فتحول اسرائيل عنه .

ولما سمع الكنعانى ملك عراد الساكن فى الجنوب ان اسرائيل جاء فى طريق اتاريم حارب اسرائيل وسبى منهم سبيا — عدد ٢٠ : ١٤ — ٢١ ، ٢١ : ١ » .

*

ولقد كانت المملكة عبارة عن شعب يسكن رقعة من الأرض ، يقيم بها المدن والحصون . ويقوم على رأسه ملك يتولى القيادة وشئون الحكم فى الحرب والسلم . ولذلك كثرت الممالك حتى أن يشوع — خليفة موسى — استطاع أن يحارب واحدا وثلاثين ملكا ، ينتمى مواطنهم الى ستة شعوب :

« وهؤلاء هم ملوك الأرض الذين ضربهم يشوع ..

الحثيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون ،

ملك اريحا واحد . ملك عاى التى بجانب بيت ايل واحد . ملك اورشليم واحد .. ملك مجدو واحد . ملك قادش واحد ... ...

جميع الملوك واحد وثلاثون — يشوع ١٢ : ٧ — ٢٤ » .

*

ولقد نظر الاسرائيليون حولهم فوجدوا ان الشعوب الفلسطينية قد سبقتهم فى تنصيب الملوك واقامة الممالك ، واستطاعت بذلك أن تجمع شملها ، وتحافظ على كيانها . وهنا تطلعت نفوس الاسرائيليين الى شيء من ذلك .

« فاجتمع كل شيوخ اسرائيل وجاءوا الى صموئيل الى الرامة . وقالوا له هوذا انت شخت وابناك لم يسيرا فى طريقك (وكان صموئيل قد عينهما قاضيين) فالآن اجعل لنا ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب . فساء الأمر فى عينى صموئيل » .

ورغم ما قد يبدو لأول وهلة من صواب فكرة الملك والمملكة ، الا انها كانت فى الواقع نكسة اصابت الاسرائيليين ، لأنهم اختطوا لأنفسهم طريقا محفوفا بالمخاطر .

فعندما « صلى صموئيل الى الرب : فقال الرب لصموئيل اسمع لصوت الشعب فى كل ما يقولون لك . لأنهم **لم يرفضوك بل اياى رفضوا** حتى لا أملك عليهم .. ولكن اشهدن عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذى يملك عليهم .

فكلم صموئيل الشعب .. وقال هذا يكون قضاء الملك الذى يملك عليكم يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه . ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حرثه ويحصدون حصاده .. ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات . ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم .. ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم يستعملهم لشغله .. وأنت تكونون له عبيداً . فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب .

فأبى الشعب ان يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا لا بل يكون علينا ملك ..

فقال الرب لصموئيل اسمع لصوتهم وملك عليهم ملكا — صموئيل الأول ٨ » .

*

واختار صموئيل رجلا من اقل عشائر الاسرائيليين ومسحه ملكا عليهم ، وقد قوبل ذلك من أول يوم بالهزؤ والسخرية :

« والرب كشف اذن صموئيل قبل مجىء شاول بيوم قائلا . غدا فى مثل الآن ارسل اليك رجلا من أرض بنيامين فامسحه رئيسا لشعبى اسرائيل .

فتقدم شاول الى صموئيل .. وقال اين بيت الرائى ..

فأجاب صموئيل شاول وقال انا الرائى . اصعد امامى الى المرتفعة فتأكلا معى اليوم ..

فأجاب شاول وقال أما أنا بنياميني من أصغر أسباط اسرائيل وعشيرتى اصغر كل عشائر اسباط بنيامين . فلماذا تكلمنى بمثل هذا الكلام ..

فأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأسه وقبله وقال اليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيسا ..

وكان عندما ادار كتفه لكى يذهب من عند صموئيل ان الله اعطاه قلبا آخر .. واذا بزمرة من الأنبياء لقيته فحل عليه روح الله فتنبأ فى وسطهم .

ولما رآه جميع الذين عرفوه منذ امس وما قبله أنه يتنبأ مع الأنبياء قال الشعب الواحد لصاحبه ماذا صار لابن قيس . أشاول أيضا بين

الأنبياء .. ولذلك ذهب مثلا أشاول ايضا بين الأنبياء — صموئيل الأول ٩ ، ١٠ » .

*

وما لبث الاسرائيليون أن اكتشفوا من أول يوم انهم قد ضلوا بطلبهم اقامة مملكة له :

« وقال جميع الشعب لصموئيل صل عن عبيدك الى الرب الهك حتى لانموت لأنا قد اضفنا الى جميع خطايانا شرا بطلبنا لأنفسنا ملكا — صموئيل الأول ١٢ : ١٩ » .

*

وكان من عادة شـــاول ، حين ينزل عليه الوحى ، أن يتجرد من ملابسه :

« ارسل شاول رسلا لأخذ داود ولما رأوا جماعة الأنبياء يتنبأون وصموئيل واقفا رئيسا عليهم كان روح الله على رسل شاول فتنبأوا هم أيضا. واخبروا شاول .. فذهب الى هناك فكان عليه ايضا روح الله فكان يذهب ويتنبأ حتى جاء الى نايوت فى الرامة .

فخلع هو ايضا ثيابه وتنبأ هو ايضا امام صموئيل وانطرح عريانا ذلك النهار كله وكل الليل . لذلك يقولون اشـاول ايضا بين الأنبياء — صموئيل الأول ١٩ : ٢٠ — ٢٤ » .

*

ولكن سرعان ما قضى على ملك شاول بعد أن رفضه الله بسبب خطيئة اكتسبها . وعندئذ فارقه روح الله وحل عليه روح شرير كان لايهدأ الا اذا عملت له حفلة موسيقية تخصص فيها أحد خدمه ، وهو داود :

« قال صموئيل لشاول قد انحمقت . لم تحفظ وصية الرب الهك التى امرك بها لأنه الآن كان الرب قد ثبت مملكتك على اسرائيل الى الأبد . واما الآن فمملكتك لاتقوم — صموئيل الأول ١٣ : ١٣ — ١٤ » .

« وكان كلام الرب الى صموئيل قائلا . ندمت على أنى قد جعلت شاول ملكا لأنه رجع من ورائى ولم يقم كلامى — صموئيل الأول ١٥ : ١٠ » .

*

« وذهب روح الرب من عند شاول وبغته روح ردىء من قبل الرب ..

فأرسل شاول رسلا الى يسى يقول ارسل داود ابنك الذى مع الغنم .. فجاء داود الى شـــاول ووقف امامه فاحبه جدا وكان له حامل سلاح ..

وكان عندما جاء الروح (الردىء) من قبل الله على شاول أن داود أخذ العود وضرب بيده فكان يرتاح شـــاول ويطيب ويذهب عنه الروح الردىء ـ صموئيل الأول ١٦ : ١٤ ـ ٢٣ » .

*

وعرف عن شاول بذاءة لسانه ، فكان حين يوبخ ابنه يتعرض بالسفه لعورة أمه :

« فحمى غضب شاول على يوناثان (ابنه) وقال له يا ابن المتعوجـــة المتمردة اما علمت أنك قد اخترت ابن يسى لخزيك وخزى عورة أمك ـ صموئيل الأول ٢٠ : ٣٠ » .

*

ثم اصيب شاول بنوبات من الجنون كانت تعتريه كلما باغته الروح الشرير :

« وكان فى الغد أن الروح الردىء من قبل الله اقتحم شـــاول وجن فى وسط البيت ـ صموئيل الأول ١٨ : ١٠ » .

*

ولم يكن شاول ـ أول ملك فى اسرائيل ـ يملك على شعب مستقر فى أرض ذات حدود ، بل كان كل نصيبه من ذلك مجرد اسم فقط .. فقدكان الاسرائيليون يعيشون جماعات متناثرة بين شعوب فلسطين التى كثيرا ما قاتلتهم وانتصرت عليهم :

« وتجمع الفلسطينيون لمحاربة اسرائيل . ثلاثون ألف مركبة وســتة آلاف فارس وشعب كالرمل الذى على شاطىء البحر فى الكثرة .. ولما رأى رجال اسرائيل انهم فى ضنك . لأن الشعب تضايق . اختبأ الشعب فى المغاير والغياض والصخور والصروح والآبار . وبعض العبرانيين عبروا الأردن الى أرض جاد وجلعاد ـ صموئيل الأول ١٣ : ٥ ـ ٧ » .

*

ولم يكن ضعف الاسرائيليين وهزيمتهم يرجع الى تفوق اعدائهم كما ونوعا ، بقدر ما كان يرجع الى تخلف نوعية الاسرائيليين فنيا ، لدرجـة انهم حتى ذلك الحين لم يوجد بينهم أى صانع يستطيع صنع اســلحتهم وعدتهم ، أو حتى شحذها ، بل كانوا يلجئون فى ذلك العمل الى اعدائهم :

« خرج المخربون من محلة الفلسطينيين فى ثلاثة فرق .. ولم يوجد صانع فى كل أرض اسرائيل لأن الفلسطينيين قالوا لئلا يعمل العبرانيون سيفا أو رمحا . بل كان ينزل كل اسرائيل الى الفلسطينيين لكى يحد كل واحد سكته ومنجله وفأسه ومعوله ، وعندما كلت حدود الســكك والمناجل والمثلثات الأسنان والفؤوس ولترويس المناسيس .

وكان فى يوم الحرب أنه لم يوجد سيف ولا رمح بيد جميع الشعب الذى مع شاول ومع يوناثان — صموئيل الأول ١٣ : ١٧ — ٢٢ » .

❋

وفى احد المعارك بين الفلسطينيين والاسرائيليين قتل شاول وثلاثة من أبنائه ، وقطعت رأسه ، ومثل بجثته أسوأ تمثيل :

« وحارب الفلسطينيون اسرائيل فهرب رجال اسرائيل من امام الفلسطينيين وسقطوا قتلى فى جبل جلبوع .

فشد الفلسطينيون وراء شاول وبنيه وضرب الفلسطينيون .. أبناء شاول واشتدت الحرب على شاول .. فمات شاول وبنوه الثلاثة وحامل سلاحه وجميع رجاله فى ذلك اليوم معا .

ولما رأى رجال اسرائيل الذين فى عبر الوادى والذين فى عبر الأردن أن رجال اسرائيل قد هربوا وأن شاول وبنيه قد ماتوا وتركوا المدن وهربوا فأتى الفلسطينيون وسكنوا بها .

وفى الغد لما جاء الفلسطينيون ليعروا القتلى وجدوا شاول وبنيه الثلاثة .

فقطعوا رأسه .. وأرسلوا الى أرض الفلسطينيين فى كل جهة لأجل التبشير فى بيت اصنامهم وفى الشعب .. وسمروا جسده على سور بيت شان — صموئيل الأول ٣١ » .

❋ ❋ ❋

داود : مسح صموئيل داود بن يسى خلفا لشاول ، وقد تم ذلك بناء على أمر الهى :

« قال الرب لصموئيل .. املأ قرنك دهنا وتعال أرسلك الى يسى .. لأنى قد رأيت لى فى بنيه ملكا ..

فأخذ صموئيل قرن دهن مسحه فى وسط اخوته . وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعدا — صموئيل الأول ١٦ » .

❋

كان داود كريما مع سـيده وملكه شاول رغم أن الأخير كان يجد فى الطلب لقتله بعد أن حقد عليه بسبب التفاف الاسرائيليين حوله — وفى احد المطاردات تمكن داود من شاول الا أنه لم يقتله توقيرا له بصفته مسيحا من قبل الله :

« أخذ شاول ثلاثة آلاف رجل .. وذهب يطلب داود ورجاله .. وكان هناك كهف فدخل شاول .. فقال رجال داود له هو ذا اليوم الذى قال لك عنه الرب هأنذا أدفع عدوك ليدك فتفعل به ما يحسن فى عينيك .. فقال لرجاله حاشا لى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى بمسيح الرب فأمد يدى اليه لأنه مسيح الرب — صموئيل الأول ٢٤ : ٢ — ٦ » .

*

وتفتق ذهن شاول عن حيلة ماكرة يقتل بها داود ، وذلك بتزويجه احدى بناته فى نظير مهر يعرض داود للمخاطر ، ألا وهو قتل ١٠٠ من الفلسطينيين وقطع أعضاء ذكورتهم والأتيان بغلفها للملك .

ومن العجيب والغريب أن تذكر الأسفار أن داود رحب بالفكرة وأتم التنفيذ وجاء بصيد ثمين هو ٢٠٠ غلفة من الفلسطينيين مهرا لزوجته :

« وميكال ابنة شاول أحبت داود فأخبروا شاول فحسن الأمر فى عينيه . وقال شاول أعطيه اياها فتكون له شركا وتكون يد الفلسطينيين عليه ..

وأمر شاول عبيده . تكلموا مع داود سرا قائلين هوذا قد سربك الملك .. فالآن صاهر الملك فتكلم عبيد شاول فى أذنى داود بهذا الكلام .

فقال داود هل هو مستخف فى أعينكم مصاهرة الملك وأنا رجل مسكين وحقير ..

فقال شاول هكذا تقولون لداود ليست مسرة الملك بالمهر بل بمئة غلفة من الفلسطينيين للانتقام من أعداء الملك ..

فأخبر عبيده داود بهذا الكلام فحسن الكلام فى عينى داود أن يصاهر الملك .

ولم تكمل الأيام حتى قام داود وذهب هو ورجاله وقتل من الفلسطينيين مئتى رجل وأتى داود بغلفهم .. لمصاهرة الملك .

فأعطاه شاول ميكال ابنته امرأة — صموئيل الأول ١٨ : ٢٠ — ٢٧ » .

قد يسمع الانسان عن بعض القبائل التى توصف بالتخلف والهمجية ، أنه حين يرغب أحد الشبان فى الزواج فان عليه أن يذهب الى الغابة ويقتل أحد السباع ثم يأتى بجلده أو ذيله ويقدمه مهرا لعروسه .

أما أن يقتل داود ــ مسيح الله ــ مئتى رجل ويأتى بغلفهم مهرا لابنة شاول ــ مسيح الله كذلك ــ فان هذه فعلة لايمكن أن تمر دون تأمل وتفكير يقطع يقينا بسقم خيال كتبة الأسفار المقدسة .

*

واستمر شاول فى محاولاته لقتل داود والتخلص منه ، ولذلك لم يجد الأخير بدا من الهرب . بعيدا عن سطوة عدوه . ولم يجد له من ملجأ يحتمى به هو وأتباعه الا بين الفلسطينيين أعداء الاسرائيليين ، حيث بقى داود عندهم لاجئا لأكثر من عام :

« وقال داود فى قلبه انى سأهلك يوما بيد شاول فلا شىء خير لى من أن أفلت الى أرض الفلسطينيين فييأس شاول منى فلا يفتش على بعد . .

فقام داود وعبر هو والست مئة رجل الذين معه الى أخيش بن معوك ملك جت . . وأقام داود . . هو ورجاله كل واحد وبيته ، داود وامرأتاه . . فأخبر شاول أن داود قد هرب الى جت فلم يعد أيضا يفتش عليه . .

وكان عدد الأيام التى سكن فيها داود فى بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر . ــ صموئيل الأول ٢٧ : ١ــ٧ » .

*

وفى تلك الفترة تذكر لنا الأسفار أن دواد ورجاله كانوا يعيشون على السطو على الشعوب والقبائل المجاورة أصحاب الأرض الأصليين ، فيغزونها بعنف وقسوة ، ويقتلون كل نفس حية حتى لايبقى من يخبر بمذابحهم :

« وصعد داود ورجاله وغزوا الجشوريين والجرزيين والعمالقة لأن هؤلاء من قديم سكان الأرض وضرب داود الأرض ولم يبق رجلا ولا امرأة وأخذ غنما وبقرا وحميرا وجمالا وثيابا وجاء الى أخيش . . لم يستبق داود رجلا ولا امرأة حتى يأتى الى جت اذ قال لئلا يخبروا عنا قائلين هكذا فعل داود .

وهكذا عادته كل أيام اقامته فى بلاد الفلسطينيين

ــ صموئيل الاول ٢٧ : ٨ــ١١ » .



ويؤكد كتبة الأسفار أن هذه كانت عادة داود دائما حتى من قبل أن يتحول الى لاجيء فى بلاد الفلسطينيين ، فقد اعتاد على فرض الاتاوة على الناس ، واغتصاب أموالهم وثرواتهم بالقوة ثم استباحة دمائهم ان ابدوا شيئا من التبرم والضيق بأعمـال العصابات التى مارسها هو ورجاله ، وقصة نابال خير شاهد على ذلك .

وتتلخص القصة فى أن داود طمع فى شيء من خبز نابال وذبائحه فى نظير أنه لم يسلب شيئا من ممتلكاته من قبل ، فأرسل غلمانه ليستجدوه، لكن نابال رفض ذلك لأنه لم تكن له سابق معرفة أو علاقة بداود . فما كان من داود الا أن خرج على رأس جيش من ٤٠٠ محـارب يطلب قتـل نابال وأهله .

ولما علمت زوجته أسرعت بهدية ترد بها غضب داود . وبعـد فترة قصيرة مات نابال فأسرع داود الى أرملته الجميلة ابيجايل وضمها اليـه زوجة . وفى هذا تقول الأسفار :

« كان رجل فى معون وأملاكه فى الكرمل وكان الرجل عظيما جدا وله ثلاثة آلاف من الغنم والف من الماعز وكان يجز غنمه فى الـكرمل . واسم الرجل نابال واسم امرأته ابيجايل . وكانت المرأة جيـدة الفهم وجميلة الصـورة ..

فسمع داود .. أن نابال يجز غنمه . فأرسل .. عشرة غلمـان وقال .. ادخلوا الى نابال واسـألوا باسمى عن سلامته . وقولوا هكذا حييت وأنت سالم وبيتك سالم وكل مالك سالم .. حين كان رعاتك معنا لم نؤذهم ولم يفقد لهم شيء .. فليجد الغلمان نعمة فى عينيك لأننـا قد جئنا فى يوم طيب فاعط ما وجدته يدك لعبيدك ولابنك داود . فجاء الغلمان وكلموا نابال .. فأجاب نابال .. وقال من هو داود .. قد أكثر اليـوم العبيد (الشحاذون) الذين يفحصون كل واحد من أمام سـيده آآخـذ خبزى ومائى وذبيحى الذى ذبحت لجازى وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم .

فتحول غلمان داود الى طريقهم واخبروه حسب كل هذا الكلام .

فقال داود لرجاله ليتقلد كل واحد منكم سـيفه .. وتقلد داود ايضا سيفه . وصعد وراء داود نحو اربع مئة رجل ..

فأخبر ابيجايل امراة نابال غـلام من الغلمان قائلا .. انظرى ماذا تعملين لأن الشر قد أعد على سيدنا وعلى بيته ..

فبادرت ابيجايل وأخذت مئتى رغيف خبز وزقى خمر وخمسة خرفان وخمس كيلات من الفريك ومئتى عنقود من الزبيب ومئتى قرص من التين ووضعتها على الحمير .. وفيما هى راكبة على الحمار .. اذا بداود ورجاله منحدرون ..

وقال داود انما باطلا حفظت كل مالهذا فى البرية .. هكذا يصنع الله لأعداء داود .. ان أبقيت من كل ماله الى ضوء الصباح بائلا بحائط.

ولما رأت ابيجايل داود أسرعت .. وسقطت على وجهها وسجدت الى الأرض . وسقطت على رجليه وقالت على أنا ياسيدى هذا الذنب.. لم أر غلمان سيدى الذين أرسلتهم .. والآن هذه البركة (الهدية) التى أتت بها جاريتك الى سيدى فلتعط للغلمان السائرين وراء سيدى واصفح عن ذنب أمتك ..

فقال داود لأبيجايل . مبارك الرب اله اسرائيل الذى أرسلك هذا اليوم لاستقبالى .. لأنك منعتنى من اتيان الدماء وانتقام يدى لنفسى .. انك لولم تبادرى وتأتى لاستقبالى لما أبقى لنابال الى ضوء الصباح بائل بحائط .

فأخذ داود من يدها ما أتت به اليه وقال لها اصعدى بسلام الى بيتك ..

وبعد عشرة أيام ضرب الرب نابال فمات .. فأرسل داود وتكلم مع ابيجايل ليتخذها له امرأة .. وقامت ابيجايل وركبت الحمار .. وسارت وراء رسل داود وصارت له امرأة ـ صموئيل الأول ٢٥ » .

*

وقد لطخ كتبة الأسفار تاريخ داود ببقع سوداء كبيرة ترجع ـ حسب زعمهم ـ الى سلوكه وسياسته التى أقامها على مبدأ لا أخلاقى يقضى بأن « الغاية تبرر الوسيلة » بصرف النظر عما وراء ذلك . فلكى يحافظ داود على حياته فانه كا نعلى استعداد تام للحرب فى صفوف الفلسطينيين هو ورجاله كجنود مرتزقة ضد بنى جلدته من الاسرائيليين . ولما استنكر رؤساء الفلسطينيين ذلك بغضا منهم له بسبب عداوته القديمة ، كان داود يتوسل الى أحد ملوكهم ـ وهو أخيش ملك جت الذى عاش فى كنفه ـ أن يخرج معه للحرب ويعده بالنصر على أعدائه الاسرائيليين ويقول له :

« ستعلم ما يفعل عبدك .. ماذا وجدت فى عبدك من يوم صرت أمامك الى اليوم حتى لا آتى وأحارب أعداء سيدى الملك » .

وفى هذا تقول الأسفار :

« جمع الفلسطينيون جميع جيوشهم الى أفيق .وكان الاسرائيليون نازلين على العين فى يزرعيل .وعبر أقطاب الفلسطينيين مئات وألوفا وعبر داود ورجاله فى الساقة مع أخيش (ملك جت) .

فقال رؤساء الفلسطينيين ما هؤلاء العبرانيون . فقـــال أخيش لرؤساء الفلسطينيين أليس هذا داود عبد شاول ملك اسرائيل الذى كان معى هذه الأيام أو هذه السنين ولم أجد فيه شـــيئا من يوم نزوله الى هذا اليوم .

وسخط عليه رؤساء الفلسطينيين (وقالوا له) .. أرجع الرجل .. فلا ينزل معنا الى الحرب ..

فدعا أخيش داود وقال له .. انك أنت مستقيم وخروجك ودخولك معى فى الجيش صالح فى عينى لأنى لم أجد فيك شرا من يوم جئت الىاليوم وأما فى أعين الأقطاب فلست بصالح . فالآن اذهب وارجع بسلام ..

فقال داود لأخيش فماذا عملت وماذا وجدت فى عبدك من يوم صرت امامك الى اليوم حتى لا آتى وأحارب أعداء سيدىالملك (من الاسرائيليين).

فأجاب أخيش وقال لداود علمت أنك صالح فى عينى كملاك الله . الا أن رؤساء الفلسطينيين قالوا لا يصعد معنا الى الحرب . والآن فبكر صباحا مع عبيد سيدك .. فاذهبوا .

فبكر داود هو ورجاله لكى يذهبوا صـــباحا ويرجعوا الى أرض الفلسطينيين (ملجأهم) .

وأما الفلسطينيون فصعدوا الى يزرعيل (لمحاربة الاسرائيليين) ـ — صموئيل الأول ٢٩ » .

*

وتظهر لنا الأسفار داود فى صورة الرجل الذى لايترفع عن فعل أى شىء يرى فيه انقاذا لحياته ودفعا لخطر يتهدده ، فلقد تظاهر بالجنـــون أمام أخيش ملك جت — قبل أن يقيم عنده لاجئا — وصار يسيل لعـــابه ويأتى بحركات المخبولين ،حتى يقبلوه بينهم كانسان ضعيف لايخشىبأسه:

« وقام داود وهرب فى ذلك اليوم من أمام شاول وجـــاء الى أخيش ملك جت فقال عبيد أخيش له أليس هذا داود ملك الأرض .. فوضـــع داود هذا الكلام فى قلبه وخاف جدا من أخيش ملك جت .

فغير عقله فى أعينهم وتظاهر بالجنون بين أيديهم وأخذ يخربش على مصاريع الباب ويسيل ريقه على لحيته .

فقال أخيش لعبيده هو ذا ترون الرجل مجنونا فلماذا تأتون به الى. العلى محتاج الى مجانين حتى أتيتم بهذا ليتجنن على . أهذا يدخل بيتى.
صموئيل الأول ٢١ : ١٠–١٥ » .

*

هذا ، وبعد أن قتل شاول قام سبط يهوذا الذين ينتمى اليهم داود بمسحه ملكا عليهم :

« وأتى رجال يهوذا ومسحوا هناك داود ملكا على بيت يهوذا .
صموئيل الثانى ٢ : ٤ » .

لكن قائد جيش شاول سارع فأخذ ابن ملكه السابق ونصبه ملكا على بقية أسباط اسرائيل .

« أما ابنير .. رئيس شاول فأخذ اشبوشث بن شاول .. وجعله ملكا .. على كل اسرائيل .. وملك سنتين وأما بيت يهوذا فانما اتبعوا داود . وكانت المدة التى ملك فيها داود فى حبرون على بيت يهوذا سبع سنين وستة أشهر ..

وكانت الحرب طويلة بين بيت شاول وبيت داود — صموئيل الثانى ٢ : ٨–١١ ، ٣ : ١ » .

*

ولم يكن أيشبوشث ابن شاول رجلا يحسن السياسة ، فقد عنف ابنير قائد الجيش بسبب سرية لأبيه طمع فيها . وعندئذ قرر ابنير أن ينتقم لنفسه بضم أسباط اسرائيل تحت لواء داود وعزل ابن شاول من مملكته . ولقد استطاع ابنير أن يفعل ذلك ويثبت مملكة داود بسبب امرأة :

« وكان فى وقوع الحرب بين بيت شاول وبيت داود أن أبنير تشدد لأجل بيت شاول وكانت لشاول سرية اسمها رصفة .. فقال ايشبوشث لأبنير لماذا دخلت الى سرية أبى . فاغتاظ ابنير جدا من كلام ايشبوشث وقال .. اصنع معروفا مع بيت شاول أبيك مع اخوته ومع أصحابه ولم أسلمك ليد داود وتطالبنى اليوم باثم المرأة ..

كما حلف الرب لداود وكذلك أصنع له . لنقل المملكة من بيت شاول واقامة كرسى داود على اسرائيل ويهوذا — صموئيل الثانى ٣ : ٦-١١ »

*

ومن عجب أنه بعد أن قرر أبنير العمل فى صف داود وأرسل يخبره بذلك ، رحب داود على الفور الا أنه اشترط على ابنير ألا يريه وجهه الا بعد أن يرد عليه زوجته السابقة ميكال ابنة شاول ، كما رد اليه أسباط اسرائيل . وكانت ميكال قد احتجزها أبوها شاول من داود ، وزوجها لرجل آخر . ولقد رجعت ميكال الى داود وزوجها ويبكى حبه المغتصب:

« أرسل ابنير من فوره رسلا الى داود قائلا .. اقطع عهدك معى وهو ذا يدى معك لرد جميع اسرائيل اليك . فقال حقا . أنا أقطع معك عهدا الا أنى أطلب منك أمرا واحدا وهو أن لاترى وجهى مالم تأت أولا بميكال بنت شاول حين تأتى لترى وجهى وأرسل داود رسلا الى ايشبوشث بن شاول يقول اعطنى امرأتى ميكال التى خطبتها لنفسى بمئة غلفة من الفلسطينيين .

فأرسل ايشبوشث وأخذها من عند رجلها .. وكان رجلها يسير معها ويبكى وراءها فقال له ابنير .. ارجع فرجع — صموئيل الثانى ٣ : ١٢-١٦ »

*

وأخيرا بعد أن تم القضاء على ابن شاول خلا الجو لداود بعض الوقت فجاء اليه جميع أسباط اسرائيل .. ومسحوا داود على اسرائيل . كان « داود ابن ثلاثين سنة حين ملك ، وملك أربعين سنة . فى حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر . وفى أورشليم ملك ثلاثا وثلاثين سنة على جميع اسرائيل ويهوذا — صموئيل الثانى ٥ : ١-٥ » .

*

ولقد أنفق داود سنوات حكمه فى صراع مستمر فى الداخل والخارج . ولعل أقسى ماتعرض له هو تلك الثورة المسلحة التى قادها ضده ابنه ابشالوم بعد أن استطاع جمع الكثيرين من الاسرائيليين حوله . ولقد كانت حربا مريرة بين الأب وابنه حيث سار كل منهما على رأس جيش لمحاربة الآخر . وقد اضطر داود للهرب هو ورجاله من أورشليم الى الأردن . ودخل ابشالوم أورشليم منتصرا ، وهناك زنى بعشرة من سرارى أبيه مبالغة فى اذلاله . ولم تهدأ تلك الثورة الشعبية ضد داود الا بعد مصرع ابنه ابشالوم :

« لم يكن فى اسرائيل رجل جميل وممدوح جدا كابشالوم .. عند حلقه رأسه اذ كان يحلقها فى آخر كل سنة .. كان يزن شعر رأسه مئتى شاقل ..

وكان بعد ذلك أن أبشالوم اتخذ مركبة وخيلا وخمسين رجلا يجرون قدامه .

وكان ابشالوم يبكر ويقف بجانب طريق الباب وكل صاحب دعوى آت الى الملك لأجل الحكم كان ابشالوم يدعوه اليه ويقول .. أمورك صالحة ومستقيمة ولكن ليس من يسمع لك من قبل الملك . ثم يقول ابشالوم من يجعلنى قاضيا فى الأرض فيأتى الى كل انسان له خصومة ودعوى فأنصفه.

كان اذا تقدم أحد ليسجد له يمد يده ويمسكه ويقبله .

وكان أبشالوم يفعل مثل هذا الأمر لجميع اسرائيل .. فاسترق أبشالوم قلوب جميع رجال اسرائيل .. وأرسل ابشالوم جواسيس فى جميع أسباط اسرائيل قائلا اذا سمعتم صوت البوق فقولوا قد ملك ابشالوم فى حبرون ..

وكانت الفتنة شديدة وكان الشعب لا يزال يتزايد مع ابشالوم .

فأتى مخبر الى داود قائلا ان قلوب رجال اسرائيل صارت وراء ابشالوم .

فقال داود لجميع عبيده الذين معه فى أورشليم قوموا بنا نهرب لأنه ليس لنا نجاة من وجه ابشالوم . أسرعوا للذهاب لئلا يبادر ويدركنا وينزل بنا الشر ويضرب المدينة بحد السيف ..

فخرج الملك وجميع بيته وراءه . وترك الملك عشر نساء سرارى لحفظ البيت ..

وكانت جميع الأرض تبكى بصوت عظيم وجميع الشعب يعبرون وعبر الملك .. نحو طريق البرية ..

وأما داود فصعد .. باكيا ورأسه مغطى ويمشى حافيا وجميع الشعب الذين معه ..

وأما بشالوم وجميع الشعب ورجال اسرائيل فأتوا الى أورشليم .. فنصبوا لابشالوم الخيمة على السطح ودخل ابشالوم الى سرارى أبيه أمام جميع اسرائيل ..

وقال اخيتوفل لابشالوم دعنى أنتخب اثنى عشر الف رجل وأقوم وأسعى وراء داود هذه الليلة . فآتى عليـــه وهو متعب ومرتخى اليدين فأزعجه فيهرب كل الشعب الذى معه وأضرب الملك وحده وأرد جميـع الشـعب اليك .. فحسن الأمر فى عينى أبشـالوم وأعين جميع شـيوخ اسرائيل ..

وأحصى داود الشعب الذى معه .. وأرســل داود ثلثا بيد يوآب وثلثا بيد أبيشاى .. وثلثا بيد اتاى الجتى . وقال الملك للشعب انى أنا أيضا أخرج معكم .

فقال الشـعب لا تخرج .. الأصلح أن تكون لنا نجدة من المدينة . فقال لهم الملك ما يحسن فى أعينكم افعله .

وخرج الشعب (أتباع داود) الى الحقل للقاء اسرائيل وكان القتال فى وعر أفرايم . فانكسر هناك شعب اسرائيل أمام عبيد داود وكانت هناك مقتلة عظيمة فى ذلك اليوم قتل عشرون ألفا . وكان القتال هناك منتشرا على وجه كل الأرض ..

وكان ابشالوم راكبا على بغل فدخل البغل تحت أغصـــان البطمة العظيمة الملتفة فتعلق رأسه بالبطمة وعلق بين السماء والارض .. فأخذوا ابشالوم وطرحوه فى الوعر فى الجب العظيم وأقاموا عليـه رجمة .. من الحجارة . وهرب كل اسرائيل كل واحد الى خيمته .

— صموئيل الثانى ١٤ : ٢٥ — ١٨ : ١٧ »

*

وما كاد داود يأخذ طريقه عائدا الى أورشليم بعد القضاء على ثورة ابنه ، حتى ظهر له ثائر آخر يدعى شبع بن بكرى ، الذ استطاع أن يجمع حوله كل الاسرائيليين عدا ســـبط يهوذا . لكنه قتل أخيرا وعاد الملك لداود :

« واتفق هناك رجل لئيم اسمه شبع بن بكرى رجل بنيامينى فضرب بالبوق وقال ليس لنا قسم فى داود .. كل رجل الى خيمته يا اسرائيل .

فصعد كل رجال اسرائيل من وراء داود الى وراء شبع بن بكرى . وأما رجال يهوذا فلازموا ملكهم من الأردن الى أورشليم .

وجاء داود الى بيته فى أورشليم . وأخذ الملك النســاء السرارى العشر اللواتى تركهن لحفظ البيت وجعلهن تحت حجز وكان يعولهن ولكن لم يدخل اليهن .

فقال داود لأبيشـــاى الآن يسىء الينا شــبع بن بكرى أكثر من ابشالوم . فخذ أنت عبيد سيدك واتبعه لئلا يجد لنفسه مدنا حصــينة وينفلت من أعيننا . فخرج وراءه .. الجلادون والســعاة .. وجاءوا وحاصروه فى آبل بيت معكة وأقاموا مترسة حول المدينة ..

فقامت امرأة حكيمة من المدينة .. فتقدم اليها .. يوآب .. وقال .. ان رجلا .. اسمه شبع بن بكرى رفع يده على الملك داود . ســلموه وحده فأنصرف عن المدينة .

فقالت المرأة ليوآب هو ذا رأسه يلقى اليك من السور .. فقطعوا رأس شبع بن بكرى وألقوه الى يوآب فضرب بالبوق فانصرفوا عن المدينة كل واحد الى خيمته ــ صموئيل الثانى ٢٠ » .



وبجانب الاضطرابات الداخلية فقد كانت حروب داود مستمرة مع الشعوب الفلسطينية ومن جاورها ، وكثيرا ما تعرض فيها داود للقتل :

« وكانت أيضا حرب بين الفلســطينيين واسرائيل فانحدر داود وعبيده معه وحاربوا الفلسطينيين فأعيا داود ويشــبى بنوب الذى .. وزن رمحه ثلاث مئة شاقل نحاس ..

افتكر أن يقتل داود ، فأنجده ابيشاى بن صرويه فضرب الفلسطينى وقتله ..

ثم بعد ذلك كانت أيضا حرب فى جوب مع الفلسطينيين .. وكانت أيضا حرب فى جت ــ صموئيل الثانى ٢١ : ١٥ ــ ٢٠ » .



وتصور لنا الأسفار داود عنيفا فى حروبه ، يريق الكثير من الدماء دون مبرر ، وينكل بأعدائه وينزل بهم صنوفا من العذاب . وكان يعامل الأسرى معاملة وحشية فأحيانا يأمرهم فينبطحون أرضا ثم يقسم الموت بينهم ، اذ يأخذ حبلا يقيس بطوله مرتين عدد الذين أراد لهم الموت ، ثم يقيس بطوله مرة لمن قرر لهم الحياة ، عبيدا له .

وكثيرا ما كان داود يعذب أسراه بتقطيع بعضهم اربا بالمناشير والنوارج وبحرق البعض الآخر فى افران من الآجر :

« وضرب الموآبيين وقاسهم بالحبل اضجعهم على الأرض فقاس .. بحبلين للقتل وبحبل للاستحياء . وصار الموآبيون عبيدا لداود .
ــصموئيل الثانى ٨ : ٢ » .

« جمع داود كل الشعب وذهب الى ربة وحاربها وأخذها . وأخذ تاج ملكهم عن رأسه .. وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جدا .

واخرج الشـــــعب الذى فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرهم فى أتون الآجر .

وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون ــ صموئيل الثانى ١٢ : ٢٩ ــ ٣١ » .

❋

ولهذا عرف داود فى زمنه وبين عشيرته من الاسرائيليين أنه رجل دماء ، ففى أثناء ثورة ابشالوم خرج عليه رجل « من عشيرة بيت شاول اســـمه شمعى بن جيرا يسب .. ويرشق بالحجارة داود وجميع عبيد الملك ..

وكان يقول فى سبه : اخرج اخرج يارجل الدماء ..

وقد رد الرب عليك كل دماء بيت شاول الذى ملكت عوضا عنه وقد دفع الرب المملكة ليد ابشالوم ابنك وها أنت واقع بشرك لأنك رجل دماء .

فقال ابيشاى ابن صروية للملك لماذا يسب هذا الكلب الميت ســـيدى الملك .. فقال الملك .. دعوه يسب لأن الرب قال له سب داود ..

وقال داود لأبيشاى ولجميع عبيده هوذا ابنى الذى خرج من أحشائى يطلب نفسى (للقتل) فكم بالحرى الأن بنياميني . دعوه يسب لأن الرب قال له ــ صموئيل الثانى ١٦ : ٥ ــ ١١ » .

❋

ثم كانت بقعة سوداء كبيرة الصقها كتبة الأسفار بتاريخ داود حين ذكروا قصة غرامه بزوجة احد جنوده وقد رآها تستحم عارية ، فاستدعاها الى بيته وزنى بها . ولقد حبلت المرأة من داود فأسرع يســـــتدعى زوجها من الحرب لعله يأتيها فتضيع بذلك معالم الجريمة . لكن الجندى الشهم رفض النزول الى بيته تضامنا مع رفاقه جنود الجيش الذين يعانون مشـــــاق الحرب ولم يكن فى هذا ما يوقظ ضمير داواد عن غيه ، بل ان الأمر ازداد سوءا وتعاظمت الخطيئة حين قرر داود قتل الزوج ، فأرسل معه كتابا الى قائد الجيش يتآمر فيه على رجله المخلص ويطلب التخلص منه .

ولقد نفذ القائد أوامر سيده ، وقتل الجندى ، فأرسل داود وضم المرأة التى زنى بها الى نسائه . ومن عجب أن يذكر كتبة الأسفار أن هذه الزوجة هى التى ولدت لداود بعد ذلك ابنه سليمان حكيم زمانه :

« وكان عند تمام السنة .. أن داود ارسل يوآب وعبيده معه وجميع اسرائيل فأخربوا بنى عمون وحاصروا ربة واما داود فأقام فى اورشليم .

وكان فى وقت المساء أن داود .. تمشى على سطح بيت الملك فرأى .. امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة المنظر جدا ..

فأرسل داود رسلا عن المرأة فقال واحد اليست هذه بتشبع .. امرأة أوريا الحثى فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت اليه فاضطجع معها وهى مطهرة من طمثها ..

وحبلت المرأة فأرسلت واخبرت داود ..

فأرسل داود الى يوآب يقول ارسل الى اوريا الحثى .. فأتى اوريا اليه فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب .

وقال داودلأوريا انزلالى بيتك واغسل رجليك . فخرج اوريا .. ولم ينزل الى بيته . فأخبروا داود .. فقال داود لأوريا اما جئت من السفر . فلماذا لم تنزل الى بيتك .

فقال أوريا لداود ان التابوت والاسرائيل ويهوذا ساكنون فى الخيام وسيدى يوآب وعبيد سيدى (الملك) نازلون على وجه الصحراء وأنا آتى الى بيتى لاكل واشرب واضطجع مع امرأتى . وحياتك وحياة نفسك لاأفعل هذا الأمر ..

ودعاه داود فأكل امامه وشرب وأسكره .

وفى الصباح كتب داود مكتوبا الى يوآب وأرسله بيد أوريا !

وكتب فى المكتوب يقول اجعلوا اوريا فى وجه الحرب الشديدة . وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت .

وكان فى محاصرة يوآب المدينة انه جعل اوريا فى الموضع الذى علم ان رجال البأس فيه ومات اوريا .. فذهب الرسول .. واخبر داود .. فقال داود للرسول هكذا تقول ليوآب . لايسؤ فى عينيك هذا الأمر لأن السيف يأكل هذا وذاك ..

فلما سمعت امرأة اوريا انه قد مات .. ندبت بعلها . ولما مضت المناحه ارسل داود وضمها الى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا (ثمرة زناه السابق) .

وأما الأمر الذى فعله داود فقبح فى عينى الرب ـ صموئيل الثانى ١١ » .

*

وكان لابد من عقاب لتلك الجريمة الشنعاء ، بل أنها فى الواقع مجموعة متراكبة من الجرائم تشتمل على :

الغدر والتآمر والقتل والخسة والزنى ... ... الخ .

وجاء النذير لداود على لسان ناثان النبى يقول :

« هكذا قال الرب .. أنا مسحتك ملكا على اسرائيل وانقذتك من يد شاول واعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك فى حضنك .

لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر فى عينيه . قد قتلت اوريا الحثى بالسيف واخذت امراته لك امراة واياه قتلت بسيف بنى عمون .

الآن لا يفارق السـيف بيتك الى الأبد وآخذ نسـاءك امام عينيك واعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك فى عين هذه الشمس .

فقال داود لناثان قد اخطأت الى الرب . فقال ناثان لداود الرب ايضا قد نقل عنك خطيتك .. لاتموت . غير أن .. الابن المولود لك (ثمرة الزنا) يموت .. وضرب الرب الولد الذى ولدته امراة اوريا لداود فقتل . فسأل داود الله من أجل الصبى وصام .. ودخل مضطجعا على الأرض .. وكان فى اليوم السابع ان الولد مات ..

وعزى داود بتشـبع امراته ودخل اليها واضطجع معها فولدت ابنا فدعاه اسمه سليمان والرب احبه ــ صموئيل الثانى ١٢ : ٧ ــ ٢٤ » .

لقد جرت عادة المؤمنين حين يكسبون خطايا أن يصبيهم الندم ووخز الضمير ، ويودوا لو محيت خطاياهم من كل ذكرى ، وتباعدت بها المسافات والأبعاد . أما ان يحرص داود على استبقاء ابن الزنى ليحمل عارا ليس من صنعه ، ويعيش ذكرى حية لخطيئة ابيه ، فذلك مالا يفعله عامة الناس ، صغيرهم وكبيرهم فما بالنا بداود مسيح الله الذى حل عليه « روح الرب » منذ مسحه صموئيل حتى أواخر ايامه ، وهو الذى تذكر له الأسفار :

« وحى داود بن يسى وحى الرجل القائم فى العلا مسيح اله يعقوب ومرنم اسرائيل الحلو . روح الرب تكلم بى وكلمته على لسانى . قال اله اسرائيل ... ... صوئميل الثانى ٢٣ : ١ : ٣ » .

❋

ان ما تذكره الأسـفار عما فعله داود فى كبره لم يفعله ابنه امنون فى شبابه حين عشق اخته ثامار واحتال عليها حتى اغتصبها وهى بعد عذراء ، ثم ما لبث ان أبغضها وكره رؤية وجهها .

فقد « احصر امنون للسقم من أجل ثامار اخته لأنها كانت عذراء وعسر في عيني أمنون أن يفعل لها شيئا . (٣) وكان لأمنون صاحب اسمه يوناداب .. وكان يوناداب رجلا حكيما . فقال له لماذا يا ابن الملك انت ضعيف هكذا .. اما تخبرني . فقال له أمنون انى احب ثامار .. فقال يوناداب اضطجع على سريرك وتمارض واذا جاء أبوك ليراك فقل له دع ثامار أختى فتأتى وتطعمنى .. فآكل من يدها .

فاضطجع أمنون وتمارض فجاء الملك ليراه . فقال امنون للملك دع ثامار أختى فتأتى ...

فأرسل داود الى ثامار .. فذهبت ثامار الى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع ..

وقال أمنون اخرجوا كل انسان عنى فخرج كل انسان عنه . ثم قال أمنون لثامار ايتى بالطعام .. فأتت به أمنون أخاها الى المخدع .. فأمسكها وقال لها تعالى اضطجعى معى يا أختى .

فقالت له لا يا أخى لاتذلنى .. لاتعمل هذه القباحة اما انا فأين اذهب بعارى واما أنت فتكون كواحد من السفهاء ..

والآن كلم الملك لأنه لايمنعنى منك . (٤)

فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها .

ثم ابغضها أمنون بغضة شـــديدة جدا حتى ان البغضة التى ابغضها اياها كانت اشد من المحبة التى احبها اياها . وقال لها امنون قومى انطلقى .. بل دعا غلامه الذى يخـــدمه وقال اطرد هذه عنى خارجا واقفـــل الباب وراءها ـ صموئيل الثانى ١٣ » .

❊

وفى أواخر ايام داود ضعف جسمه ، واصابته رعشة من البرد ، فلم يجدوا شيئا يجلب له الدفء غير فتاة جميلة تكون له حاضنة ، تنام فى حضنه فتبعث الدفء فى اوصاله المرتعشة :

---

(٣) يبدو أن كاتب السفر قصد ان يقول أنه لو كانت ثامار امرأة لاستطاع أخوها أن يقيم معها علاقة جنسية مستترة لكن عذريتها حالت دون ذلك .

(٤) ان هذه الفقرة تستـوقف النظر اذ أنها تنبىء بامكانية زواج الأخ بأخته بنت أبيه ، وهو الأمر الذى حرمته شريعة موسى تحريما قاطعا وجعلت عقوبته الموت على رؤوس الأشهاد (لاويين ٢٠ : ١٧) .

« وشاخ الملك داود وتقدم فى الأيام وكانوا يد ثرونه بالثياب فلم يدفأ . فقال له عبيده ليفتشـــوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء فلتقف امام الملك ولتكن له حاضنة ولتضطجع فى حضنك فيدفأ سيدنا الملك .

ففتشـــوا على فتاة جميلة فى جميع تخوم اسرائيل فوجدوا ابيشج الشونمية فجاءوا بها الى الملك وكانت الفتاةجميلة جدا فكانت حاضنة الملك وكانت تخدمه ولكن الملك لم يعرفها (يعبث بها) . — الملوك الأول ١ : ١ — ٤ » .

*

واخيرا مات دواد ودفن فى التراب كما يموت ويدفن كل الناس .

***

سليمان : انجب داود من نسائه الكثيرات عددا من الأولاد والبنات منهم «بكره امنون من أخينوعم اليزرعيلية . وثانية كيلاب من ابيجايل امراة نابال الكرملى . والثالث أبشالوم ابن معكة بنت تلماى ملك جشور . والرابع أدونيا ابن حجيث . والخامس شفطيا ابن أبيصال . والسادس يثر عام من عجلة امراة داود .

هؤلاء ولدوا لداود فى حبرون .

ولم يكن لميكال بنت شـــاول ولد الى يوم موتها — صموئيل الثانى ٣ : ٢ — ٥ ، ٦ : ٢٣ » .

ثم تزوج داود من بثشبع امرأة أوريا الحثى التى ولدت له سليمان .

ويبدو أن بثشبع كان لها منزلة خاصة فى قلب داود منذ عرفها لأول مرة حتى نهاية حياته . ولقد كانت بثشبع تعلم ذلك ، ولهذا استطاعت أن تحصل من داود على وعد بتوريث المملكة لابنها سليمان ، واقصاء من بقى حيا من أخوته الآخرين عن الحكم . ولقد وثق داود وعده لبثشبع بقســم غليظ .

لكن أدونيا انتهز فرصة ضعف أبيه فى أيامه الأخيرة ، وأعلن توليــه المملكة . وهنا تحركت بثشبع ومن شـــايعها من الحاقدين على أدونيا ، واستطاعت انتزاع المملكة لابنها سليمان :

« ثم أن أدونيا ابن حجيث ترفع قائلا أنا املك . وعد لنفسه عجلات وفرسانا وخمسين رجلا يجرون امامه .

ولم يغضبه ابوه قط قائلا لماذا فعلت هكذا .

وهو أيضا جميل الصورة جدا وقد ولدته أمه بعد أبشالوم (الذى قتل فى ثورته ضد أبيه) :

« فذبح أدونيا غنما وبقرا ومعلوفات .. ودعا جميع اخوته بنى الملك وجميع رجال يهوذا عبيد الملـــك . وأما ناثان النبى وبنايا هو والجبابرة وسليمان أخوه فلم يدعهم .

فكلم ناثان بثشبع . أم سليمان قائلا اما سمعت ان ادونيا ابن حجيث قد ملك .. تعالى أشير عليك مشورة فتنجي نفسك ونفس ابنك سليمان .. أدخلى الى الملك داود وقولى له اما حلفت انت ياسيدى الملك لأمتك قائلا أن سليمان ابنك يملك بعدى وهو يجلس عـــلى كرسى فلماذا ملك أدونيا . وفيما أنت متكلمة هناك مع الملك أدخل انا وراءك وأكمل كلامك . فدخلت بثشبع .. الى المخدع وكان الملك قد شاخ جداً وكانت ابيشـــج الشونمية تخدم الملك فخرت بثشبع وســجدت للملك .. فقــالت له .. وبينما هى متكلمة .. اذا ناثان النبى داخل وقال ناثان ياســـيدى الملك أأنت قلت ان أدونيا يملك بعدى .. لأنه نزل اليوم وذبح ثيرانا .. ودعا جميع بنى الملك ورؤساء الجيش وابياثار الكاهن وهاهم يأكلون ويشربون امامه .. واما انا عبدك وصادوق الكاهن .. وسليمان عبدك فلم يدعنا .

فأجاب الملك وقال ادع لى بثشبع . فدخلت .. فحلف الملك وقال .. كما حلفت لك بالرب اله اسرائيل قائلا ان سليمان ابنك يملك بعدى .. كذلك افعل هذا اليوم ــ الملوك الأول ١ : ٥ ــ ٣٠ » .

وهكذا تحولت وراثة المملكة لصالح سليمان .

*

وقبل أن يموت داود فانه قرب ابنه سليمان منه ، وأسر اليه ببعض الوصايا ، منها ما هو خير ويتعلق بحفظ شريعة موسى والاستقامة مع الله ، ومنها ما دون ذلك كالتحريض على مواصلة الانتقام من اعدائه الذين سببوا له بعض المتاعب فى حياته مثل شمعى بن جيرا ، الذى سبه ذات يوم بأنه رجل دماء ، رغم ما بدا فى ذلك الوقت من تسامح داود معه :

« ولمــا قربت ايام وفاة داود اوصى ســـليمان ابنه قائلا .. احفظ شعائر الرب الهك اذ تســـير فى طرقه وتحفظ فرائضه ووصايا واحكامه وشهاداته كما هو مكتوب فى شريعة موسى لكى تفلح فى كل ما تفعل وحيثما توجهت ..

هوذا معك شمعى بن جيرا البنياميني .. وهو لعننى لعنة شديدة يوم انطلقت الى محانيم وقد نزل للقائى الى الأردن فحلفت له بالرب قائلا انى لا أميتك بالسيف .

والآن فلا تبرره لأنك أنت رجل حكيم فاعلم ما تفعل به واحدر شيبته بالدم الى الهاوية ــ الملوك الأول ٢ : ١ ــ ٩ » .

*

ولهذا بدأ سليمان حكمه بالانتقام من أعدائه ، وأولهم أخوه الأكبر أدونيا ومن شايعه مثل يوآب قائد الجيش وابياثار الكاهن وغيرهم . ولقد حدث ان طلب ادونيا من بثشبع أم سليمان أن تتوسط له لدى ابنها الملك كي يزوجه احدى السرارى الجميلات ، فكان رد سليمان على ذلك قتل أدونيا ومن معه :

« وجاء أدونيا .. بثشبع ام سليمان : فقالت اللسلام جئت . فقال للسلام . ثم قال . لى معك كلمة : فقالت تكلم . فقال انت تعلمين ان الملك كان لى وقد جعل جميع اسرائيل وجوههم نحوى لأملك فدار الملك وصار لأخى لأنه من قبل الرب صار له .

الآن اسألك سؤالا واحد فلا تردينى فيه .. قولى لسليمان الملك لأنه لا يردك أن يعطينى ابيشج الشونمية امرأة .. فقالت بثشبع حسنا . انا أتكلم عنك الى الملك .

فدخلت بثشبع الى الملك .. وقالت انما اسألك سؤالا واحدا صغيرا . لاتردنى .. فقال لها الملك اسألى يا امى لأنى لا أردك . فقالت (له) فأجاب الملك سليمان وقال لأمه ولماذا أنت تسألين أبيشج الشونمية لأدونيا . فاسألى له الملك لأنه أخى الأكبر منى ؟ . وحلف سليمان الملك بالرب قائلا .. انه اليوم يقتل ادونيا .. فبطش به فمات .

ـ الملوك الأول ٢ : ١٣ ـ ٢٥ » .

*

وبعد أن استقرت الأمور لسليمان بدأ يهتم بالعمارة والتشييد ، فأقام بيتا للرب وقصورا لنسائه ، واستعان فى ذلك بالعمال المهرة من لبنان لعدم وجود أى من امثالهم بين الاسرائيليين .

واقتضى ذلك العمل تسخير الالآف من البشر لمدة ٢٠ عاما :

« ارسل سليمان الى حيرام (ملك صور) يقول . أنت تعلم داود ابى أنه لم يستطع أن يبنى بيتا لاسم الرب الهه بسبب الحروب التى أحاطت به .. والآن فقد أراحنى الرب الهى من كل الجهات .. وهأنذا قائم على بناء بيت لاسم الرب الهى ..

والآن فأمر أن يقطعوا لى ارزا من لبنان يكون عبيدى مع عبيدك واجرة عبيدك أعطيك اياها حسب كل ماتقول لأنك تعلم أنه ليس بيننا احد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين . وسخر الملك سليمان من جميع اسرائيل وكانت السخر ثلاثين الف رجل ..

وكان لسليمان سبعون الفا يحملون احمالا وثمانون الفا يقطعون فى الجبل ــ الملوك الأول ٥ » .

« وبعد نهاية عشرين سنة بعد ما بنى سليمان البيتين بيت الرب وبيت الملك .. أعطى حينئذ الملك سليمان حيرام عشرين مدينة فى أرض الجليل فخرج حيرام من صور ليرى المدن التى اعطاه اياها سليمان فلم تحسن فى عينيه ــ الملوك الأول ٩ : ١٠ ــ ١٢ » .

*

ولقد بلغ ضلال كتبة الأسفار مداه حين يذكرون عن سليمان أنه فى نهاية عهده قد ضل ضلالا بلغ به حد الكفر ، اذ كان يبنى النصب للمعبودات الوثنية ويقدم لها القرابين ، ارضاء لنسائه الكثيرات اللاتى وصل عددهن ١٠٠٠ امرأة :

« وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون (زوجته) موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات . من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى اسرائيل لاتدخلوا اليهم وهم لايدخلون اليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم . فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة .

وكانت له سبع مئة من النساء والسيدات وثلاث مئة من السرارى فأمالت نساؤه قلبه . وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة اخرى ولم يكن قلبه كاملا مع الرب الهه كقلب داود ابيه .

فذهب سليمان وراء عشتورث الاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين . وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ولم يتبع الرب تماما كداود ابيه .

حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذى تجاه اورشليم ، ولمولك رجس بنى عمون . وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يقدن ويذبحن لآلهتهن ــ الملوك الأول ١١ : ١ ــ ٨ » .

*

ونتيجة لذلك الكفر المفترى على سليمان فقد استحق غضب الله وعقابه ، فبدأت ضده الثورات والقلاقل تمهيدا لتمزيق المملكة وبعثرتها :

« فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب اله اسرائيل الذى

تراءى له مرتين (حين جاءه الوحى) وأوصاه فى هذا الأمر أن لايتبع آلهة اخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب .

فقال الرب لسليمان من اجل ان ذلك عندك ولم تحفظ عهدى وفرائضى التى أوصيتك بها فانى أمزق المملكة عنك تمزيقا وأعطيها لعبدك ..

وأقام الرب خصما لسليمان هدد الأدومى ..

وأقام الله له خصما آخر رزون بن اليداع ..

ويربعام بن ناباط .. عبد لسليمان .. رفع يده على الملك — الملوك الأول ١١ » .

*

وهكذا نجد أن المملكة الصغيرة التى اقامها الاسرائيليون فى أجزاء من فلسطين والتى لم تضم اليها فى يوم من الأيام السهل الساحلى الممتد حول غزة وعسقلون واشدود ويافا — سرعان ما بدأت فى التمزق والانهيار ، ولم تعمر أكثر من بضع عشرات من السنين .

***

٤ — السبى والضياع :

يقول باركس : « ان القبائل الاسرائيلية لم تستطيع أن تقيم فيما بينها وحدة سياسية لها قيمة — فى أى يوم من الأيام — الا اذا كانت قد أفلتت من قبضة كل من مصر والعراق القديم .

فبعد مرور الألف الثانى من قبل الميلاد كانت كل من هاتين الامبراطوريتين تعانى الضعف وعندئذ ظهر شاول ثم تبعه داود حيث استولى على مساحة من الأرض ، واقام جيشا ، ونظم ادارة .

ولقد كانت المملكة التى اقامها داود قصيرة العمر ، فقد انقسمت بمجرد موت ابنه سليمان الى قسمين : أحدهما — المملكة الجنوبية أو مملكة يهوذا ، وقد اتخذت اورشليم التى استولى عليها داود من اليبوسيين — عاصمة لها ، وانتسب اليها اليهود فيما بعد . والثانية — المملكة الشمالية او مملكة اسرائيل ، وقد صارت السامرة عاصمة لها ، وانتسب اليها السامريون .

ولقد كان من النادر وجود صفاء بين هاتين الولايتين الصغيرتين ، بل كانتا غالبا فى عداء سافر .

وعلى أى حال فقد استطاعتا البقاء فترة من الزمن ، لسـبب واحد فقط ، وهو أن أى من الامبراطوريات القديمة لم ترغب فى مد حدودها على حسابها » . (٥)

*

ورغم أن الاسرائيليين كانوا يعلمون من شريعة موسى وأقوال من جاء بعده من الأنبياء ، أن وجودهم فى فلسطين مرتبط اساسا بسلامة العقيدة وحسن السلوك ، الا أن تلكما المملكتين الصـغيرتين سارتا من أول يوم فى طريق الكفر والوثنية .

فقد ملك يربعام — عبد سليمان — على مملكة اسرائيل التى ضـمت عشرة اسباط ، وكانت هي الأعزنفرا والأكثر مساحة ، فما كان منه الا أن استغل رغبة الاسرائيليين الدفينة فى عبادة العجول والذهب « وعمل عجلى ذهب وقال لهم .. هوذا آلهتك يا اسرائيل الذين اصعدوك من ارض مصر . ووضع واحدا فى بيت ايل وجعل الآخر فى دان ..

والزمان الذى ملك فيه يربعام هو اثنتان وعشرون سنة — الملوك الأول ١٢ : ٢٨ ، ١٤ : ٣٠ ».

أما رحعبام — ابن سليمان — فقد ملك على سبطين فقط فى مملكة يهوذا التى كانت ضعيفة العدد ضئيلة المساحة ، وتردى هو الآخر وشـعبه فى متاهات الكفر والضلال :

« وكان رحبعام ابن احدى واربعين سنة حين ملك وملك سبعة عشر سنة .. وعمل يهوذا .. الشر فى عينى الرب واغاروه اكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم التى اخطأوا بها .. فعلوا كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى اسرائيل — الملوك الأول ١٤ : ٢١ — ٢٤ » .

*

وتؤكد الأسفار راى الباحثين — ومنهم باركس — فى أن الصورة التى كان يظهر بها الوجود الاسرائيلى منذ قدم الى فلسطين ، قد ارتبطت على مر العصور بالحالة فى كل من مصر والعراق القديم ، وبالعلاقات بينهما . كذلك كانت عوامل الحقد والبغضاء بين المملكتين سببا فى التعجيل بنهايتهما .

ففى عهـد تجهـلات بلاسر الثالث (٧٤٥ — ٧٢٧ ق . م) بدات الامبراطورية الأشورية فى توسيع حدودها . وما أن جاء عام ٧٣٨ ق . م حتى كان منحيم حاكم اسرائيل يدفع الجزية لملك الاشـور ، ويستغل عمالته للأشوريين فى تثبيت سلطانه :

---

(٥) المرجع ٢١ — ص ١٠ ، ١١

« ملك منحيم بن جادى على اسرائيل فى السامرة عشر سـنين .. فجاء فول ملك أشور على الأرض فأعطى منحيم لفول ألف وزنة من الفضة لتكون يداه معه ليثبت المملكة فى يده — الملوك الثانى ١٥ : ١٧ — ١٩ » .

وبعد موت منحيم ملك ابنه فقيحا عوضا عنه لمدة عامين ، الى أن قتله أحد رجاله ويدعى فقح ابن رمليا ، وملك على اسرائيل بدلا منه . « وفى ايام فقح ملك اسرائيل جاء تغلث فلاسر ملك اشور وأخذ عيون وآبل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالى وسباهم الى أشور . — الملوك الثانى ١٥ : ٢٩ » .



وفى ذلك الوقت تحول العداء بين المملكتين الى حرب سافرة خرج فيها ملك اسرائيل مع حليفه ملك ارام لمحاربة ملك يهوذا :

« حينئذ صعـد رصين ملك ارام وفقح بن رمليا ملك اسرائيل الى اورشليم للمحاربة فحاربوا آحاز (ملك يهوذا) ولم يقدروا أن يغلبوه . فى ذلك الوقت أرجع رصين ملك ارام أيلة للاراميين وطرد اليهود من ايلة وجاء الأراميون الى ايلة واقاموا هناك الى هذا اليوم — الملوك الثانى ١٦ : ٥ — ٦ » .

وازاء ذلك الموقف فقد سارع ملك يهوذا الى ملك أشور يستنجد به ، على ملك اسرائيل وحليفه ملك ارام بعد أن تعهد بدفع الجزية للأشوريين من ذهب الهيكل وفضته ، وجعل نفسه عبدا لملكهم :

« أرسل أحاز رسلا الى تغلث فلاسر ملك أشور قائلا أنا عبدك وابنك . اصعد وخلصنى من يد ملك أرام ومن يد ملك اسرائيل القائمين على .

فأخذ آحاز الفضة والذهب الموجودة فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك وأرسلها الى ملك أشور هدية . فسمعله ملك أشور — الملوك الثانى ١٦ : ٧ — ٩ » .



ولقد حاول هوشع — آخر ملوك اسرائيل — التمرد على سلطان أشـور بمساعدة ملك مصر الا أن مؤامرته لم تفلح ، ودفع هو وشعبه الثمن غاليا :

« ملك هوشع بن ايلة فى السامرة على اسرائيل تسع سنين .. وصعد عليه شلمنا سر ملك أشور (فى ذلك الوقت) فصار له هوشع عبدا ودفع له جزية .

وجد ملك أشور فى هوشع خيانة لأنه ارسل رسلا الى سوا ملك مصر ولم يؤد جزية الى ملك أشور حسب كل سنة فقبض عليه ملك أشور وأوثقه فى السجن .

وصعد ملك أشور على كل الارض وصعد الى السامرة وحاصرها ثلاث سنين » .

❋

وأخيرا جاء الطوفان البشرى الذى اجتاح مملكة اسرائيل ايام سرجون الثانى (٧٢٢ — ٧٠٥ ق . م) وسبى كل شعبها الى اشور حيث ذابوا فى غيرهم من الشعوب :

« فى السنة التاسعة لهوشع اخذ ملك اشور السامرة وسبى اسرائيل الى اشور واسكنهم فى حلح وخابور نهر جوزان وفى مدن مادى .

وكان ان بنى اسرائيل اخطأوا الى الرب الههم .. فغضب الرب جدا على اسرائيل ونحاهم من امامه ولم يبق الاسبط يهوذا وحده ..

فسبى اسرائيل من ارضه الى اشور الى هذا اليوم — الملوك الثانى ١٧ » .

❋

وهكذا كان عام ٧٢١ ق . م حاسما فى التاريخ الاسرائيلى ، اذ فيه انقطع خبر عشرة من اسباط اسرائيل (اكثر من ٨٥٪ منهم) ، وتحولوا الى ذكره عابرة أو غابرة فى التاريخ .

لقد كانت تلك هى النهاية التى تذكرها الأسفار عن ضياع مملكة اسرائيل . وأما مملكة يهوذا — فرغم أنها استطاعت أن تقاوم عوامل فنائها فترة من الزمن بعد انتهاء مملكة اسرائيل ، الا أن ذلك لم يغير من مصيرها المنتظر شيئا — فقد انتهت هى الأخرى الى سبى وضياع .

ولما كانت اورشليم عاصمة ليهوذا ، وبها الهيكل — بيت الرب — الذى بناه سليمان فلسوف نذكر بشىء من التفصيل بعض ما تعرضت له يهوذا وعاصمتها وهيكلها من أحداث .

ففى بداية عهدها الأنفصالى — ايام رحبعام بن سليمان أول ملك فيها — تعرضت لغزو المصريين :

« فى السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر (من الأسرة ٢٢) الى اورشليم . وأخذ خزائن بيت الرب بيت الملك وأخذ كل شىء وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان . فعمل الملك رحبعام عوضا عنها أتراس نحاس — الملوك الأول ١٤ : ٢٥ — ٢٧ » .



كذلك كان العداء سافرا بين المملكتين وكانت الحرب بينهما ساخنة منذ أول يوم :

« وكانت حرب بين رحبعام (ملك يهوذا) ويربعام ــ الملوك الثانى ١٥ : ٦ ــ ٧ » .

وفى الحرب بين المملكتين كانت كل منهما تلجأ الى حليف قوى ــ غريب عن الاسرائيليين ــ تستعديه على أختها ، بعد أن تقدم له الهدايا مشفوعة بمراسم الذلة والخضوع .

فحين تعرضت يهوذا للغزو من جانب اسرائيل ، أسرع آسا حاكم الأولى الى ملك الأراميين يستنجد به ويغريه بالذهب والفضة للوقوف بجانبه :

« وكانت الحرب بين آسا (ملك يهوذا) ويعشا ملك اسرائيل كل ايامهما . وصعد بعشا ملك اسرائيل على يهوذا وبنى الرامة لكى لايدع احدا يخرج أو يدخل الى آسا ..

واخذ آسا جميع الفضة والذهب الباقية فى خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ودفعها ليد عبيده وأرسلهم الملك آسا الى بنهدد .. ملك أرام الساكن فى دمشق قائلا ..

هوذا قد ارسلت اليك هدية من فضة وذهب فتعال انقض عهدك مع بعشا ملك اسرائيل فيصعد عنى .

فسمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التى له على مدن اسرائيل وضرب عيون ودان وآبل بيت معكة وكل كنروت مع كل أرض نفتالى .

ولما سمع بعشا كف عن بناء الرامة وأقام فى ترصة ــ الملوك الأول ١٥ : ١٦ ــ ٢١ » .

*

وفى جميع تلك الحروب كانت أورشليم والهيكل ، والذهب ــ الذى يبدو أن معينه لم يكن لينضب ــ هم الضحية أمام الغزاة الغالبين :

« صعد حزائيل ملك أرام وحارب جت وأخذها . ثم حول حزائيل وجهه ليصعد الى اورشليم فأخذ يهوآش ملك يهوذا جميع الأقداس التى قدسها .. آباه ملوك يهوذا وأقداسه وكل الذهب الموجود فى خزائن بيت الرب وبيت الملك وأرسلها الى حزائيل ملك أرام فصعد عن أورشليم ــ الملوك الثانى ١٢ : ١٧ ــ ١٨ » .

*

وفى تحد من يهوذا لاسرائيل ، ما لبث ان تحول الى مواجهة ساخنة كانت نتيجتها أن هزمت فيها الأولى وجلبت الخراب على اورشليم :

« ارسل أمصيا (ملك يهوذا) رسلا الى يهوآش .. ملك اسرائيل قائلا هل نتراء مواجهة .. فصعد يهوآش ملك اسرائيل وتراءيا مواجهة هو وأمصيا ملك يهوذا .. فأنهزم يهوذا امام اسرائيل وهربوا كل واحد الى خيمته .

وأما امصيا ملك يهوذا .. فأمسكه يهوآش ملك اسرائيل فى بيت شمس وجاء الى اورشليم وهدم ســـور أورشليم .. واخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك والرهناء ورجع الى السامرة ـ الملوك الثانى ١٤ : ٨ ـ ١٤ » .



وفى عهد سنحاريب ملك أشور (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق . م .) حاول حزقيا ملك يهوذا التمرد على سلطان أشور بالتحالف مع أعداء الأشوريين ، ولكنه جلب الخراب على مملكته اذ اجتاحتها جيوش الأشوريين وحاصرت أورشليم حتى اضطر حزقيا الى دفع فدية حرب من ذهب الهيكل وفضته :

« ملك حزقيا .. ملك يهوذا .. وعصى على ملك شور ولم يتعبد له .

وفى السنة الرابعة عشر للملك حزقيا صعد سنحاريب ملك أشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأرســـل حزقيا ملك يهوذا الى ملك أشور .. يقول قد اخطأت . ارجع عنى ومهما جعلت على حملته .

فوضع ملك أشور على حزقيا .. ثلاث مئة وزنة من الفضة وثلاثين وزنة من الذهب .

فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك .

فى ذلك الزمان قشر حزقيا الذهب عن ابواب هيكل الرب والدعائم التى كان قد غشاها .. ودفعه لملك اشور ـ الملوك الثانى ١٨ : ١ ـ ١٦ » .



ولقد كانت تجربة منسى بن حزقيا اقسى من تجربة ابيه ، فقد اقتاده الاشوريون بالسلاسل الى بابل :

« لكن منسى أضل يهوذا وسكان اورشليم ..

فجلب الرب عليهم رؤســـاء الجند الذين لملك أشور فأخذوا منسى بخزامة وقيدوه بسلاسل نحاس وذهبو به الى بابل - اخبار الأيام الثانى ٣٣ : ٩ - ١١ » .

*

وأخـــيرا تلقت يهوذا الضربات الثقيلة : ضربة من مصر أعجزتهـــا اولا ، ثم ضربة من العراق قضت عليها نهائيا ، ووضعت بذلك خاتمة تعسة للملكة التى اشترك فى اقامتها شاول وداود وسليمان .

ففى عهد يوشيا ملك يهوذا « صعد فرعون نخوملك مصر على ملك أشور الى نهر الفرات فصعد الملك يوشيا للقائه فقتله فى مجدو حين رآه .

واركبه عبيده ميتا من مجدو وجاءوا به الى أورشليم فأخذ شـــعب الأرض يهوآحاز بن يوشيا ومسحوه وملكوه عوضا عن أبيه .. وملك ثلاثة اشهر فى اورشليم .. وأسره فرعون نخو فى ربلة فى أرض حماة لئلا يملك فى اورشليم .

وغرم الأرض بمئة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب

وملك فرعون نخو الياقيم بين يوشيا عوضا عن .. أبيه وغير اسمه الى يهوياقيم وأخذ يهوآحاز وجاء الى مصر فمات هناك .

ودفع يهوياقيم الفضة والذهب لفرعون الا أنه قوم الأرض . لدفع الفضة بأمر فرعون ..

فطالب شعب الأرض بالفضة والذهب ليدفع لـرعون نخو - الملوك الثانى ٢٣ : ٢٩ - ٣٥ » .

*

وفى عهد نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق . م) ملك بابل ، خضعت له يهوذا ، وكان ملكها « يهوياقيم عبدا ثلاث سنين ثم عاد فتمرد عليه . فأرسل الرب عليه غزاة الكدانيين وغزاة الأراميين وغزاة بنى عمون وأرسلهم على يهوذا ليبيدها » . وقد حوصرت أورشليم ثم سقطت فى عام ٥٩٦ ق.م ويرى البعض ان يهوياقيم مات فى هذه الاثناء ميتة طبيعية ، بينما يرى آخرون أنه ذبح والقيت جثته خارج الأسوار . وقد خلفه ابنه يهوياكين ولم يدم حكمه اكثر من ثلاثة اشهر:

« فى ذلك الزمان صعد عبيد نبوخذ ناصر ملك بابل الى اورشـــليم فدخلت المدينة تحت الحصار وجاء نبوخذ ناصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها فخرج يهوياكين ملك يهوذا الى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساءوه وخصيانة وأخذه ملك بابل . وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب التى عملها سليمان .. وسبى كل اورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف سبى وجميع الصناع والأقيان لم يبق أحدا الا مساكين شعب الأرض وسبى يهوياكين الى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه واقوياء الأرض سباهم من اورشليم الى بابل ..

وملك ملك بابل متنياعمه عوضا عنه وغير اسمه الى صدقيا .. وعمل الشر فى عينى الرب .. وتمرد على ملك بابل ــ الملوك الثانى ٢٤ » .

« وفى السنة التاسعة لملكه جاء نبوخذ ناصر ملك بابل وهو وكل جيشه على اورشليم ونزل عليها وبنى عليها ابراجا حولها . ودخلت المدينة تحت الحصار الى السنة الحادية عشر للملك صدقيا .. واشتد الجوع فى المدينة ولم يكن خبز لشعب الأرض .

فثغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلا ... وكان الكلد انيون حول المدينة مستديرين فتبعت جيوش الكلدانيين الملك فادركوه فى برية اريحا وتفرقت جميع جيوشه عنه .

فأخذوا الملك واصعدوه الى ملك بابل الى ربلة وكلموه بالقضاء عليه . وقتلوا بنى صدقيا أمام عينيه وقلعوا عينى صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاءوا به الى بابل » .

كانت هذه هى المرحلة الأولى للسبى البابلى الذى اكتمل بعد ذلك حين « جاء بنوزرادان رئيس الشرط عبـد ملك بابل الى أورشليم وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت اورشـــليم وكل بيوت العظماء احرقها بالنار وجميع اسوار اورشليم مستديرا هدمها كل جيوش الكلدانيين ... وبقية الشعب الذين بقوا فى المدينة والهاربون الذى هربوا الى ملك بابل وبقية الجمهور ... لكن رئيس الشرط ابقى مساكين الأرض كرامين وفلاحين .

فسبى يهوذا من ارضه واما الشعب الذى بقى فى أرض يهوذا الذين أبقاهم نبوخذ نصر ملك بابل فوكل عليهم جدليا بن أخيقام ، وهو اليهودى العميل الذى لما قابله بقية من رؤســـاء جيش يهوذا « حلف جدليا لهم ولرجالهم وقال لاتخافوا من عبيد الكلدانيين اسكوا الأرض وتعبدوا لملك بابل فيكون لكم خير » .

لكنه قتل « وايضا اليهود والكلدانيين الذين معه فى المصفاة فقام جميع الشعب من الصغير الى الكبير ورؤساء الجيش وجاءوا الى مصر لأنهم خافوا من الكلدانيين — الملوك الثانى ٢٥ » .

*

وهكذا انقرضت مملكة يهودا فى حوالى عام ٥٨٦ ق . م . وأخذ شعبها سبايا الى أرض بابل .

وقد فر من بقى منهم الى مصر هربا من بطش الكلدانيين واستقبلتهم مصر كعادتها مع كل اللاجئين اليها — بالترحاب وانزلتهم فى تانيس ومنف واسوان . وكان النبى ارميا من بين المهاجرين الى مصر .

ولا غرابة فى ذلك فلقد كانت مصر دائما هى خير مأوى لليهود كما اعترف بذلك كثير منهم ، ومن بينهم الكاتب اليهودى هيوشونفيلد الذى يقول: « من قديم الزمن ، كانت مصر هى الملجأ لليهود الهاربين من الاضطرابات السياسية فى فلسطين ، فاليها هرب الكثيرون من خراب اورشليم على يد البابليين فى القرن السادس قبل الميلاد ، وهو الحادث الذى تعرض له اليهود مرة ثانية عام ٧٠ م (عندما خربها الرومان على يد تيطس) فنعلم من المؤرخ (اليهودى) يوسفيوس أن اللاجئين اليهود تدفقوا على مصر مرة ثانية ابان تلك الكارثة وبينهم نحو ٦٠٠ من الشيوخ (الغيورين) ، ويمكننا القول بأن عددا من النذيرين ، وصلوا الى الاسكندرية وأقاموا لهم طائفة هناك . » (٦) .

***

٤ — حركة عزرا للاصلاح الدينى :

« فى عام ٥٤٨ ق . م . سمح كورش الفارسى قاهر بابل ، للشعوب التى سبيت فى الامبراطورية البابلية بالعودة الى وطنها .

ولقد كان الغرض الذى من اجله عاد يهود السبى من بابل دينيا صرفا .

وفى عام ٥١٥ ق . م جدد الهيكل وأعيد افتتاحه ، ولكن يبدو أن الكهنة والشعب قد انغمسوا سريعا فى عاداتهم القديمة ، حتى كان القرن الخامس ق . م . حين عاد الرجلان (نحميا وعزرا) ، واللذان كان عملهما متميزا . وان كنا لانعرف من الذى رجع أولا ، بيد أنه من المرجح أن يكون نحميا . لقد كان نحميا موظفا فى البلاط الفارسى ، فجدد اسوار اورشليم ومبانيها ، ثم تبعه عزرا الذى حمل معه مرسوما من ملك فارس يخوله سلطة على الذين يعتنقون اليهودية فى ولاية يهوذا وما حولها .

ولقد كان لعزرا ثلاثة اهداف :

---

(١) المرجع رقم ٢٢ — ص ٢٤٩
Hugh Schonfield : THE PASSOVER PLOT.

الأول — تجديد العهد بين الشـــعب والهه ، مثل العهد الذى تلقاه آباؤهم فى سيناء ولذلك فقد احضر معه نسخة مراجعة من التوراة ، قرئت فى مسامع الشعب ، وترجمت الى الأرامية التى حلت محل العبرية بعد أن فقد اللسان العبرى بين الاسرائيليين .

والثانى — تطهير الشعب من خطاياه التى كانت سببا فى عقابه وسبيه . وشمل ذلك أيضا تطهير الهيكل وطقوس العبادة مما علق بها ، فقد ملأ سليمان الهيكل بمعبودات الوثنيين ارضاء لزوجاته . ولقد كانت اباحية تلك الزوجات الكافرات تعنى السماح بالدعارة بين كلا الجنسين ، ووأد البنين ، وممارسة كل طقوس الأخصاب التى تخصصت فيها الشعوب المجاورة .

والثالث — جعل الشعب يمارس عقيدته فى حياته اليومية .

لقد حول عزرا خبرات السبى فى بابل الى ثورة دينية نشطة ، ورغم انه اهتم كثيرا بالهيكل والكهانة ، الا أن شغله الشاغل كان حياة الشعب ، وتغليفها بالعقيدة الدينية » . (٧)

« والحق اننا لانعرف الا القليل عن نوع الحكومة فى ولاية يهوذا . فقد كان نحميا حاكما عينه الفرس . وكان لديه تفويضا له قوة النفاذ ، لكن عزرا لم يكن من الحكام .

ومن المصادر اليهودية يمكن القول بأن قيادة الأمة قد آلت الى طبقة من كبار الكهنة وهم جمع صغير من العائلات الثرية » . (٨)

« حتى اذا كان عام ٣٣٢ ق . م مر الاسكندرية بولاية يهوذا — أو مقاطعة اليهودية فى طريقه الى مصر ، وكان مروره بداية عصر لها ، فبعد موته عام ٣٢٣ ق . م. اقتسم قواده الامبراطورية وخضعت يهوذا للبطالسة الذين حكموا مصر . واستمرت تبعية يهوذا لحكام مصر نحو قرن . وفى هذه الاثناء غرقت الطبقة الثرية من اليهود فيما يعرف بالهللينية — وهى الثقافة والحضارة ونظام الحياة الاغريقية — هذا بينما بقى غالبية الشعب اليهودى مخلصين لعقيدتهم .

وعند نهاية القرن الثالث ق . م ادار حكام سوريا اعينهم نحو الجنوب وقام انتيوخس الكبير (٢٢٣ — ١٨٧ ق . م) بهزيمة بطليموس الرابع (٢٠٣ — ١٨١ ق . م) فى معركتين عامى ٢٠٠ ، ١٩٨ ق . م . لكن قوة روما منعته أن يجنى ثمار نصره كاملا واضطرته الى دفع ضريبة كبيرة حتى يحتفظ بعرشه ، فدفع الجزية بعد نهب ثروات المعابد والهياكل ومن بينها هيكل اورشليم .

---

(٧) المرجع ١٩ — ص ١٣ — ١٥
(٨) المرجع ١٩ — ص ١٧

ولقد رحب الحزب الهلليني من اليهود بذلك الأمر الذى أغضب عامة الشعب ، وجعله يثير الشغب والقلاقل لمدة نصف قرن حتى استقرانتيوخس ابيفانس (١٧٥ — ١٦٣ ق . م) الى قرار نهائي وهو انه لكى يستتب السلام فلابد من محو اليهودية كعقيدة ، وفرض الحياة الهللينية على كل الشعب .

ولقد بلغ الفساد بعائلات كبار الكهنة حدا كبيرا لدرجة انهم اصبحوا على استعداد لقبول ذلك ، بل انهم شاركوا فى نهب عوائد الهيكل وثرواته» .

***

٥ — ثورة المكابيين الدينية :

« رغم أن ضباط انتيوخس تمكنوا من تدنيس الهيكل بقرابين لحم الخنزير الا أن كثيرا من عامة الشعب رفضوا ذلك وقبلوا حكم الاعدام . وعندما وصل الضباط الى احدى المدن ليجبروا الشعب على تقديم الذبائح النجسة ، فان الكاهن المحلى متاثياس . قتل كلا من الموظف السورى واليهودى الذى كان يجهز القربان ، وبصيحة حرب لجأ هو وأولاده الخمسة الى التلال المجاورة ومعهم بعض الرجال والسلاح ، ثم رفعوا راية العصيان عام ١٦٧ ق . م ضد مطالب حكام سوريا . وفى السنة التالية مات متاثياس ،وانتقلت القيادة الى ابنه يهوذا ، الذى عرف باسم ، المكابى ، — أى المطرقة — ومنه عرف الثائرون باسم المكابيين .

ولا شك أن اهمية هذه الحركة ترجع الى كونها حركة شعبية قامت على معتقدات دينية ، اكثر من انها سمحت باستقلال يهوذا بعض الوقت .

ان أرض يهوذا من النوع الذى يمكن من شن حرب العصابات بنجاح ، ذلك أن وديانها العميقة وشعابها الضيقة وجوانبها الشرقية القاحلة من جبال وصحارى كل ذلك يمكن قوة صغيرة ثائرة من ايقاف وصد قوات أكبر منها فى العدد والعدة . ولهذا استطاع يهوذا المكابى هزيمة القوات السورية التى ارسلت ضده ، وحصل على الحرية الدينية عام ١٦٢ ق . م وعندئذ فكر فى الاستقلال السياسى، الا انه لم يتخير الوقت المناسب . فقد كان حكام سوريا أقوياء ، بينما أصاب الضعف تنظيمه الداخلى بسبب انصراف الشعب عنه بعد أن حصل على الحرية الدينية وسئم الحرب . وفى احدى المعارك قتل يهوذا المكابى عام ١٦٠ ق . م . وتولى القيادة بعده اخوه يوناثان واستمرت حرب العصابات .

وفى عام ١٥٧ ق . م ساد السلام ولكن تحت حماية السوريين الذين حصل يوناثان منهم على اعتباره ملكا صغيرا ضمن الممتلكات السورية . والأهم من ذلك أن آخر رؤساء الكهنة من الهلينيين مات عام ١٥٤ ق.م، وعندئذ استطاع يوناثان أن يحصل من حكام سوريا لنفسه على لقب رئيس الكهنة عام ١٥٢ ق . م رغم أنه لم يكن من البيوت التى اختصت بالكهانة .

ولقد قتل يوناثان عام ١٤٣ ق . م فى مؤامرة وخلفه أخ آخر هو سمعان ، الذى استطاع أن يجعل الكهانة وراثية فى بيته لكنه قتل كذلك مع ولدين له عام ١٤٣ ق . م ، وخلفه ابنه الثالث يوحنا هركانوس .

ولقد كان هركانوس الأول (١٣٤ — ١٠٤ ق . م) قانعا بالقابه وعمل خلال ثلاثين عاما من حكمه على مد حدوده . وفى عام ١٢٨ ق . م تركه حكام سوريا يحقق طموحه باستخدام جيش من المرتزقة ، فاستولى على السامرة وخربها ، وهدم هيكلها المقام على جبل جرزيم ، ومد حدوده الجنوبية الى أدوم وأجبر شعبها على اعتناق اليهودية ، كما أجبر الذكور على الختان .

ولقد كان سلوكه مع الأدوميين بالاضافة الى عوامل أخرى سببا فى الصراع الذى قام بينه وبين الفريسيين الذين سبق أن ساندوا المكابيين فى أول ثورتهم ، لكنهم مالبثوا أن انصرفوا عنهم عندما تحولت غايات المكابيين من المجال الدينى الى المجال لسياسى .

وبعد موت هركانوس تولى أحد ابنائه ويدعى ارستوبولس واستمر فى سياسة أبيه من اجبار الناس على الختان ، ولكنه توفى فى نفس العام فقامت ارملته سالومى بفك اسر اخيه ياناى الذى كان قد اودعه السجن ، ثم تزوجته وجعلته رئيسا للكهنة وملكا على الولاية .

لقد جاء المكابيون الى السلطة عندما ركبوا موجة الحماس الدينى التى اجتاحت الشعب ، لكن هذا الحماس مالبث أن تضاءل بالتدريج حتى تحول الى حقد وكراهية ، حين رأى الشعب أن المنصب المقدس لرئيس الكهنة أصبح يتولاه اشخاص غير جديرين به ، ولا يختلفون كثيرا عن افراد تلك الطبقة الهللينية من اليهود الذين سبق ان ثار الشعب ضدهم ايام متاثياس .

ولقد كان من بين اعداء يناى فى الخارج العرب الانباط فى شرق الأردن بينما كان الفريسيون اعداؤه فى الداخل ، ولهذا طلب من زوجته قبل موته ان تقيم سلاما مع الفريسيين . ولقد فعلت ذلك واستطاعت ان تحكم لمدة نحو عشر سنوات (٧٦ — ٦٧ ق . م) بينما تمتع ابنها هركانوس الثانى

بلقب رئيس الكهنة . وبعد موتها فان ابنها الأصغر ارستوبولس بدأ حربا أهلية ضد اخيه ، وتبع ذلك فترة من الاضطراب التام حيث كان هركانوس يجد فى طلب المعونة من انتيباس ابن حاكم ادوم ، وكان هذا الرجل ذا طموح وشخصية قوية ولكن قبل ان يقدم الأخير معونته ، ظهرت روما على المسرح حين غزت سوريا ، وتدخلت فى النزاع فقضى القائد الرومانى بومبى لصالح هركانوس ، بيد انه لم يمنحه الا لقب رئيس الكهنة فقط ، بينما منح انتيباس لقب حاكم اليهودية .

ولقد سبب ارستوبولس بعض الاضطرابات حتى مات مسموما عام ٤٩ ق . م . وفعل ابنه انتيوخس مثله فاعدمه الرومان عام ٣٧ ق . م بسبب تواطئه مع الفرس وقبوله منهم لقب الملك . ولقد عاش هركانوس الثانى حتى عام ٣٠ ق . م رغم انه فقد وظيفته عام ٤٠ ق . م ومنذ ذلك الحين صار لقب رئيس الكهنة يمنح فقط للحاكم الفعلى لليهودية .

وأخيرا فقد انتقل الحكم السياسى الى عائلة انتيباس (الأدومى) الذى عينه قيصر حاكما على اليهودية عام ٤٧ ق . م وفى نفس الوقت عين ابنه هيرودس — الكبير — حاكما على الجليل ثم اضيفت اليه السامرة فيما بعد . وكانت زوجة انتيباس اميرة من العرب الانباط ، ولقد ورث عنها — هيرودس — كثيرا من الثراء . وفى عام ٤٠ ق . م تسلم هيرودس لقب الملك. ونظرا لأن نصفه أدومى ونصفه عربى فلم يتقبله الرعايا اليهود بارتياح رغم أنه اظهر عبقرية فى الحكم والادارة .

وقد اعاد هيرودس بناء الهيكل ببذخ ملحوظ ، وبنى قيصرية التى جعلت قصر للحاكم الرومانى فيما بعد ، كذلك فانه اعاد بناء السامرة وسماها سبسطيا تكريما للامبراطور . وقد توفى عام ٤ ق . م ومنحه التاريخ لقب ، الكبير .

ولقد صدق القيصر على ماكان قد اقترحه هيرودس قبل وفاته من تولى اولاده من بعده ، فعين اكبرهم ارخيلاوس حاكما على اليهودية ، وعين هيرودس انتيباس حاكما على الجليل وبيريا ، وعين هيرودس فيليبس على أرض الأمم .

ولقد بقى الأخيرين فى منصبيهما حتى وفاتهما ، الا أن ارخيلاوس لطخ حكمه بكثير من الدماء مما اضطر قيصر الى نفيه الى فينا عام ٦ ميلادية .»

***

٦ ـ الشتات الطويل :

« رجعت اليهودية والسامرة وأدوم الى أيدى الحكام الرومان ،وكفت اورشليم عن أن تكون عاصمة للاقليم (فلسطين) الذى صار يحكم من قصر هيرودس فى قيصرية .

لقد تتابع الحكام الرومان على فلسطين وكان همهم استتباب الأمن والنظام الذى كان يتعرض للاضطراب . فلقد احتكر الرومان اليهود لشكهم وحيرتهم ، ووجد اليهود أن الرومان يحقرون عقيدتهم باستمرار ، وبدأت حوادث الاثارة والشغب ومن بينها السطو على أحد صغار الموظفين بجوار احدى القرى فما كان من الرومان الا أن عاقبوا القرية بأكملها . وفى أثناء ذلك مزق احد الجنود صفحة من التوراة وعندئذ انقلب حادث الأمن هذا الى غضبة دينية .

ولقد أرسلت روما الحكام الواحد تلو الآخر حتى كان جسيوس قلورس الذى اثارت قسوته وجشعه كل يهودى . ولم تكن استجابته ازاء ذلك الا مزيدا من القسوة والعنف وفى مدة حكمه (٦٤ ــ ٦٦ م) ذهب بالشعب الى نقطة اللاعودة . فاستولى المتطرفون من اليهود على الهيكل ، واوقفوا الذبائح اليومية التى كانت تقدم باسم الامبراطور .

وعندما فشلت قوات الحاكم فى استعادة النظام ، فان مبعوث روما فى سوريا تحرك جنوبا بجيش قوامه ٣٠ ألف مقاتل . وبعد نجاح اولى فى الجليل بدء الزحف جنوبا الا ان الشتاء اتعبه فاضطر للانسحاب بعد أن هزم فى الوديان الضيقة بين اورشليم والسهل الساحلى . وفى فبراير ٦٧ جاء الى اليهودية جندى خبير فى شخص فسبا شيان واستمر لمدة عام يبسط نفوذ روما على الاقليم ، وكان على وشك الزحف على اورشليم فى صيف ٦٨ الا أن انتحار الامبراطور نيرون شغله بأمور أخرى فقد حاول اربعة من القواد تولى السلطه فى روما ، ولكن فى يونيه ٦٩ ظهر واضحا أن فسبا شيان قد لقى القبول وصار هو الامبراطور . ولهذا ترك الحرب ضد اليهودية وعهد بذلك الى ابنه تيطس الذى قضى بقية العام فى تجنيد ٦٥ الف مقاتل . وفى ١٠ مايو ٧٠ حوصرت اورشليم ، ووقف تيطس امام حوائط الهيكل ووجه نداء الى الثوار يدعوهم الى الاستسلام ، ولكنهم رفضوا . ومع ذلك فقد حاول انقاذ الهيكل من التدمير الا أن جهوده ذهبت سدى ، وفى ٢٩ أغسطس تم تدميره بعد أن التهمته النيران .

ولقد بقيت بعض جيوب المقاومة بين الخرائب والاطلال حتى ٢٦ سبتمبر . وأخيرا استسلمت اورشليم كلها بعد حصار دام ١٣٩ يوما .

وفى ١٦ أبريل ٧٣ قضى على آخر الثوار حين استسلمت اخر ثلاث قلاع كانت بأيديهم . ولقد بيع آلاف اليهود عبيدا فى الامبراطورية الرومانية بينما هرب من استطاع منهم الى اماكن متفرقة .

وقرب نهاية عهد الامبراطور تراجان (٩٨ — ١١٧ م) قام باحدى الغزوات فى اجزاء من الامبراطورية الفارسية . وعندما عبر الفرات ، فان يهـــود بابل وقد اثارهم رؤية جيوش الرومان فانهم ثاروا خلفه يريدون الانتقام لهدم الهيكل وخراب أورشليم ، كما دعوا طوائف اخرى غيرهم الى الثورة ضد الرومان . ومضى وقت طويل قبل ان يعود الهدوء .

ولمـا خلف هادريان (١١٧ — ١٣٨ م) تراجان فانه أثار اليهـــود فى انحاء الامبراطورية ، حين اقام معبدا رومانيا للاله جوبيتر عـــلى انقاض الهيكل . وبدات القلاقل من جديد .

واخيرا اقتنع الامبراطور أن دين اليهودية هو عـــدوه الأخير ، وأن الأقلية اليهودية هى مصدر القلاقل والاضطراب . ولذلك قرر محو اليهودية كعقيدة ، وأبطل الختان وممارسة أى من الشعائر الدينية .

وكانت النتيجة الطبيعية هى زيادة القلاقل ، وقاد الربيون الثورة كخلفاء للفريسيين . وقد قيل ان شيخهم المعمر اكيبا الذى ناهز التسعين عاما فى ذلك الوقت كان المحرك الحقيقى لتلك الثورة التى تولى قيـــادتها العسكرية باركوشبا الذى دعى المسيح المنتظر . وازدادت ثورة الشعب الا ان مقاومته كانت يائسة .

وكما حدث فى الماضى فان طبيعة الاقليم ساعدت فى الفترة الأولى على تحقيق بعض الانتصارات المتوالية على القـــوات الرومانية ، الا أن الثوار اجبروا فى النهاية على الحصار داخل قلعة بيثار فى جنوب اورشليم لمـدة عامين .

وعندما قضى عليهم نهائيا ، فان كلمتى : اليهودية ، واورشليم ، قد محيتا تماما من القاموس الرومانى وأعيد تسمية الاقليم باسم فلســطين ، واقيمت عاصمته ايليا كابيتالينا على انقاض اورشليم وحرم دخولها على اليهود » (٩) .



(٩) المرجع ١٩ — ص ١٧ — ٣٩

ذلك هو التاريخ الاسرائيلى بفلسطين ، وتلك هى خطوطه الدقيقة .

والحق ان الانسان ليعجب حين يجد الاسرائيليين يتكلمون عن مملكتهم القديمة فى فلسطين أى مملكته هـذه .. بل أى ممالك وملوك كانوا ؟! ..

لقد تكلمت الأسفار عن مملكة الاسرائيليين وملوكهم ، فعرفنا من المآسى والمخازى ما يندى له الجبين ..

فلقد كانت مملكة : فوضى واضطراب — قتل ودماء وغدر ومظالم — جنس وتهتك ورذيلة — وأسوأ من ذلك كله ما اصطبغت به فى أغلب عهدها من وثنية وكفر وانحطاط فى العقيدة ...

ولقد ظهر امامنا الملوك الاسرائيليون — وخاصة القدامى منهم الذين أسسوا المملكة وتلقوا وحى الله — وهم على هيئة : قادة عصابات وقطاع طرق — أهل نزوة وسكر وعربدة — عملاء ومأجورين — معتوهين ومجانين — بل وكفرة مرتدين ... و ... و ... وماذا تقدم مملكة الفوضى والاضطراب لركب الانسانية السائر عبر التاريخ فى طريق التقدم والحضارة ؟

اسألوهم ان كانوا ينطقون !

لقـد جعل الاسرائيليون أنفسهم عبئـا على الانســانية ، بسبب ما يمثله الفكر الاسرائيلى من اسـتعلاء وتعصب وانغلاق . ونتج عن ذلك ما جلبوه على انفسهم ، بل وعلى غيرهم ، من المآسى والكوارث .



لقد تكفل الفيلسوف والمؤرخ الفرنسى جوستاف لوبون برسم الصورة العامة للاسرائيليين وتاريخهم بفلسـطين ، وذلك فى الفصل الذى اختصهم فى كتابه : « الحضارات الأولى » حين قال : (١٠)

« لم يجاوز قدماء الاسرائيليين اطوار الحضارة السفلى التى لاتكاد تميز من طور الوحشية ، وعندما خرج هؤلاء البدويون الذين لا أثر للثقافة فيهم من باديتهم ليستقروا بفلسطين وجدوا أنفسهم أمام أمم قوية متمدنة منذ زمن طويل ، فكان امرهم كأمر جميع العروق الدنيا التى تكون فى احوال مماثلة ، فلم يقتبسوا من تلك الأمم العليا سوى أخس ما فى حضارتها ، أى لم يقتبسوا غير عيوبها وعاداتها الضارية ودعارتها وخرافاتها ، فقربوا لجميع آلهة آسية ، قربوا لعشتروت ولبعل ولمولك من القرابين ما هو اكثر جـدا مما قربوه لاله قبيلتهم ..

---

١٠) فى الفقرات المقتطفة من هذا المرجع اضطررت آسفا لاستبدال كلمة « اليهودى أو اليهود » بكلمة الاسرائيلى أو الاسرائيليين أو بنى اسرائيل ، وذلك حتى لانخلط بين اليهودى الأوربى أو الامريكى أو الافريقى الذى اتخذ هو — أو آباؤه — اليهودية عقيـدة ، وبين اليهودى القـديم الذى ربط علاقته بالعقيدة بنسبه الجسدى باسرائيل وبنيه .

وكانوا يعبدون عجولا معدنية ، وكانوا يضعون ابناءهم فى زرعان محمرة من نار مولك ، وكانوا يحملون نساءهم على البغاء المقدس فى المشـــارف .

واثبت الاسرائيليون عجزهم التام العجيب عن الأتيان بأدنى تقدم فى الحضارة التى اقتبسوا أحط عناصرها .

والاسرائيليون بعد أن جمعوا ثروات وفق غرائزهم التجارية القوية لم يجدوا بينهم بنائين ومتفننين قادرين على شيد مبان وقصور فاضطروا الى الاستعانة على ذلك بجيرانهم الفنيقيين على الخصـــوص ، كما تدل عليه التوراة .

والاسرائيليون قد اقتصرت معارفهم على تربية الســـوائم وعلى فلح الأرض وعلى التجارة بوجه خاص . وما كان فلاح الاسرائيليين ليدوم غير هنيهة مع ذلك ، فقد أسفرت غرائزهم فى النهب والسلب ، وقد اســـفر تعصبهم عن عدم احتمال جميع جيرانهم لهم ، فلم يشق على هؤلاء الجيران أن يستعبدوهم .

واذا كان بنوا اسرائيل متمردين على الفنون تمردا مطلقا ، ولم يكن لهم غير ميل هزيل الى حياة المدن ، فأنهم لم يقيموا معابد وقصور الا عن غرور . والذى كان بنوا اسرائيل يفضلونه بعد الذبح والتقتيل هو السكون تحت شجر العنب والتين ، على حسب تعبيرهم .

وكان بنو اسرائيل اقل من أمة حتى زمن شـــاول ، كانوا اخلاطا من عصابات جامحة تقوم حياتها على الغزو والفتح وانتهاب القرى الصـــغيرة حيث تقضى عيشا رغيدا دفعة واحدة فى بضعة أيام ، فاذا مضت هذه الأيام القليلة عادت الى حياة التيه والبؤس ..

وهناك عدد غير قليل من الأقوام الصـــغيرة كالأدوميين والعمونيين والاسماعيليين يرجعون اصلهم الى ابراهيم ، ويزعم العبريون أنهم وحدهم ذرية ابراهيم الشرعيون مع اعترافهم بقرابة الآخرين لهم ..

وقد ظل الاسرائيليون حتى آخر مرحلة من تاريخهم فى أدنى درجة من الحضارة قريبين من دور التوحش الخالص .

ولم يجاوز الاسرائيليون طبائع أمم الزراع والرعاة الا قليلا جـــدا ، وخضع الاسرائيليون لنظام رعائى ، ولم يـــكادوا يدخلون دائرة التطور الاجتماعى ..

واذا لم تخرج الصناعة في بلاد اليهودية عن أدنى الأطوار البدائية ، امكننا أن نبصر من ذلك حال الفنون في تلك البلاد ، أو عدم وجود هذه الفنون فيها على الأصح ، لما كان من عدم وجود أي شيء يتجلى فيه ذلك هنا لك .

ولاتجد شعبا عطل من الذوق الفني كما عطل بني اسرائيل .

اذن لا ينبغي أن نتحدث عن وجود شيء من فن النحت أو التصوير لدى بني اسرائيل ، وقل مثل هذا عن فن البناء عندهم ، فانظر الى هيكلهم المشهور (هيكل سليمان) الذي نشر حوله الكثير من الأبحاث المملة تجده بناء أقيم على الطراز الأشوري المصري من قبل بنائين من الأجانب كما تدل عليه التوارة . ولم تكن قصور ذلك الملك غير نسخ دنيئة من القصور المصرية أو الأشورية .

ولم يمارس العبريون من الفنون الجميلة سوى الموسيقى التي هي فن جميع الشعوب البدائية ، وكانوا شديدي الحب لها فيمزجون بها ملاذهم وتمريناتهم العسكرية واعيادهم الدينية .

وعلى ما كان من ممارسة بني اسرائيل للحرب باستمرار ، لم تصبح الحرب فناولا علما عندهم ، فكانت تعوزهم التعبئة . وماكان ليكتب لهم فوز الا بضرب من الصولة المشابهة لغارة البدويين المعاصرين . وبنو اسرائيل اذ كانوا جبناء خوفا بطبيعتهم لم يبدوا مرهوبين الا بما كان يحاول القاؤه زعماؤهم فيهم من حماسة مؤقتة .

جاء في سفر الملوك : « فسمع شاول وجميع اسرائيل كلام الفلسطيني (جليات) هذا فارتا عوا جدا » .

ولما سار جدعون الى المديانيين خاطب جنوده بقوله : «من كان خائفا مرتعدا فليرجع وينصرف ، فتركه من هؤلاء اثنان وعشرون ألفا من اثنين وثلاثين ألفا ليعودوا الى منازلهم .»

ويعرف جميع قراء التوارة وحشية الاسرائيليين التي لاأثر للرحمة فيها ، وما على القارىء ، ليقنع بذلك ، الا أن يتصفح نصوص سفر الملوك التي تدلنا على أن داود كان يأمر بحرق جميع المغلوبين وسلخ جلودهم ونشرهم بالمنشار .

وكان الذبح المنظم بالجملة يعقب كل فتح مهما قل . وكان الأهالي الأصليون يوقفون فيحكم عليهم بالقتل دفعة واحدة فيبادون باسم يهوه .

وسفاح ذوى القربى ، الزنا بالأخت والزنا بالأم ، واللواط (زنا الذكر بالذكر) والمساحقة (زنا الأنثى بالأنثى) ومواقعة البهائم من اكثر الآثام التى كانت شائعة بين ذلك الشعب ..

وأريد لدى بنى اسرائيل ، كما عند كل شعب ذى غلمة ، خلط افظع الملاذ بالطقوس المقدسة وموافقة الشريعة على هذه الملاذ ، فغدت ضروب البغاء تكريما لعشتروت ، وعد الانهماك فى السكر على بسط الأزهار وتحت ظلال شجر الزيتون فى الليالى الرطيبة نوعا من العبادة التى لم تفتأ تمارس آنئذ فى فلسطين على الرغم من غضب الأنبياء ..

والنظافة هى الترف الأول الذى حاول المشـــترعون نشره بين بنى اسرائيل فلاقوا كبير أذى فى الوصول الى ذلك . والنظافة كانت أمرا ضروريا لذلك الشعب الوخيم اكثر مما لأى شعب آخر ، وذلك لكيلا تقرضه القروح والجرب والقوباء والجذام . وآية تراث بنى اسرائيل المستقلة عن مواعيد يهوه المشكوك فيها هى الدم الفاسد الذى من شأنه أن يستربنو اسرائيل بالأمراض الجلدية على الدوام .

واذا أريد تلخيص مزاج بنى اسرائيل النفسى فى بضع كلمات كما يستنبط من اسفارهم ، وجد انه ظل على الدوام قريبا جدا من حال اشد الشعوب بدائية .

فقـــد كان الاسرائيليون عندئذ مندفعين غفلا سذجا جفاة كالوحوش والأطفال ، وكانوا مع ذلك عاطلين فى كل وقت من الفنون التى يتجلى فيها سحر صبا الناس والشعوب .

واذا أريد وصف المجتمع الاسرائيلى من ناحية النظم أمكن تلخيصه فى كلمتين وهما : نظام رعائى مع طبائع المدن الآسيوية الهرمة وذوقها وعيوبها وخرافاتها .

ويعرب حزقيال عن ذلك الرأى فى الاصحاح السادس عشر حين يذكر ظهور الشعب الاسرائيلى الحقير وأوائله الهزيلة وما عقب استقراره بفلسطين من الحميا ، فيقول مخاطبا تلك الأمة العاقة قائلا باسم يهوه :

« وفى جميع ارجاسك وفواحشك لم تذكرى أيام صباك ... واذ كنت لم تشبعى زنيت مع بنى أشور ولم تشبعى .. فلذلك أقضى عليك بما يقضى على الفاسقات وسافكات الدماء وأجعلك قتيل حنق وغيرة . » (١١)

***

(١١) اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى — جوستاف لوبون — نقله الى العربية عادل زعيتر — الناشر عيسى الحلبى — القاهرة — ١٩٧٠ — ص ٢٠ — ٥٨ .

الفصل الرابع



فلسطين عربية

مقدمة :

بعد أن خرج موسى ببنى اسرائيل من مصر ، وطوف بهم فى سيناء ، بدأ يستعد للزحف على فلسطين محاولا غزوها بالقوة حتى يهيىء للاسرائيليين مكانا بين سكانها الأصليين ،من أجل ذلك ارسل موسى الرسل ليتجسسوا الأرض وقال لهم :

« انظروا الأرض ما هى والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف . قليل أم كثير . وكيف هى الأرض التى هو ساكن فيها أجيدة أم ردية . وما هى المدن التى هو ساكن فيها أمخيمات أم حصون . وكيف هى الأرض أسمينة أم هزيلة . أفيها شجر أم لا ؟ » .

ولقد ذهب الجواسيس لأداء مهمتهم وعادوا يقدمون الى موسى تقريرا يقولون فيه : « قد ذهبنا الى الأرض التى ارسلتنا اليها وحقا انها تفيض لبنا وعسلا وهذا ثمرها . غير أن الشعب الساكن فى الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جدا .

وأيضا قد رأينا بنى عناق هناك . العمالقة ساكنون فى أرض الجنوب والحيثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون فى الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن ..

جميع الشعب الذى رأينا فيها أناس طوال القامة . وقد رأينا هناك الجبابرة بنى عناق من الجبابرة فكنا فى أعيننا كالجراد وهكذا كنا فى اعينهم — عدد ١٣ » .

ولقد كان لهذا التقرير وقع الصاعقة على رؤوس الاسرائيليين لدرجة أنهم فكروا فى خلع موسى من قيادتهم واحلال رئيس آخر يرجع بهم فى سلام الى مصر بعيدا عن مخاطر الحرب وأهوالها . وفى ذلك الموقف « رفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة . وتذمر على موسى وعلى هارون جميع بنى اسرائيل .

وقال لهما كل الجماعة ليتنا متنا فى أرض مصر أو ليتنا متنا فى هذا القفر . ولماذا أتى بنا الرب الى هذه الأرض لنسقط بالسيف . تصير نساؤنا واطفالنا غنيمة اليس خير لنا أن نرجع الى مصر .

فقال بعضهم لبعض نقيم رئيسا ونرجع الى مصر — عدد ١٤ : ١—٤ » .

*

ونريد الآن أن نعرف من هم سكان فلسطين الاصليون من الشعوب التى سمتها الأسفار : العمالقة والأموريون والكنعانيون . . .

ولهذا سوف نقوم بجولةبين شعوب الشرق الأوسط القديم ، نستكشف فيها اصل هذه الشعوب وحركتها مع التاريخ .

***

الســاميون :

يقول موسكاتى : « لقد استخدم لفظ « الساميين » لأول مرة فى اوربا عام ١٧٨١ حين كتب شليزر يقول :

« من البحر المتوسط الى نهر الفرات ، ومن وادى الرافدين الى الجزيرة العربية سادت — كما هو معروف جيداً — لغةواحدة . وعلى هذافالسومريون والبابليون والعبرانيون والعرب كانوا شعبا واحدا . ولقد تكلم الفينيقيون كذلك هذه اللغة التى أسميها اللغة السامية » (١) .

ويقول موسكاتى : « لابد أن شليزر أخذ هذا الاسم من الاصـــحاح العاشر لسفر التكوين الذى يتكلم عن نوح وابنائه : سام وحام ويافث . ومن سلالة سام تأتى اشور وارام وعابر . وفيهم تذكر التوراة أنهم اسلاف الاشوريين والاراميين والعبرانيين . ومن هنا جاء لفظ الســـاميين ، لهذه الشعوب ، ولفظ ، السامية ، للغاتهم » (٢) .

لكن فيليب حتى وآخرون يقولون : « ان التفسير التقليدى والمألوف الذى يذهب الى أن الساميين قد انحدروا من كبير ابناء نوح — سام — لاتؤيده الأبحاث العلمية الحديثة » (٣) .

*

(١) Sabatino Moscati : THE SEMITES IN ANCIENT HISTORY. ص ١٥ — المرجع رقم (١٧) .

(٢) المرجع ١٧ — ص ١٥ .

(٣) تاريخ العرب — للدكتور فيليب حتى وآخرين — ص ٨ المرجع رقم (٣) .

الساميون عرب :

يوضح موسكاتى نظريته فى الساميين فيقول : « اذا أخذنا بالتعريف الحديث لكلمة الشعب لوجدنا انه مجموعة من الناس قد تتكون من عناصر واجناس مختلفة لكنها تتجانس فيما بينها وتكون شخصية لها خصائصها المميزة بسبب : الموقع الجغرافى واللغة والعوامل التاريخية والثقافية .

فاذا طبقنا هذا المقياس - للشعب - على الشعوب المتكلمة باللغات السامية فانا نجد أن العامل الأول وهو الموقع الجغرافى قد تحقق فعلا حيث سكنت هذه الشعوب منطقة سامية واحدة تمتد من شبه الجزيرة العربية جنوبا الى وادى الرافدين وسوريا شمالا . ذلك ان مجموعات الشعوب التى سكنت هذه المنطقة موزعة حسب مناطق اقامتها كالآتى :

البابليون والاشورين فى بلاد الرافدين ، والاراميون والعبريون وغيرهم فى سوريا ثم العرب فى شبه الجزيرة العربية .

هذا مع العلم بأن الاحباش فى اثيوبيا يعتبرون نتيجة لاحدى حركات الهجرة اليها من شاطىء الجنوب العربى .

وبالنسبة للعامل الثانى وهو اللغة ، فرغم تعدد اللهجات السامية الا أنها جميعا متقاربة بدرجة كبيرة .

واذا نظرنا الى الحركة التاريخية لشعوب هذه المنطقة وعلاقاتها ببعضها أى الى العامل الثالث نجد أنها تسير فى اتجاه واحد يتكرر على مر العصور، وهو حركة هجرة من قلب شبه الجزيرة العربية الى المناطق المجاورة .

وعلى ذلك فان الساميين هم سكان شبه الجزيرة العربية فى أول عصور التاريخ ، وقد عاشوا فى تجانس لغوى واجتماعى وعنصرى « وكانوا بدوا رحلا وجهتهم الطبيعية البحث عن أرض خصبة لرعيهم . وقد دفعهم ذلك طوال احقاب مختلفة للهجرة الى الوديان الخصبة : شرقا الى وادى الرافدين وغربا الى الشام . على أن خصائص الساميين كشعب - باعتبار العوامل الجغرافية واللغوية والتاريخية - انما تنطبق تماما على بدو شبه الجزيرة العربية الذين لا يزالون يحتفظون بجميع خصائصهم السامية الأصلية نقية ، حيث عزلتهم الصحراء وحفظت عنصرهم ولغتهم . فاللغة العربية على سبيل المثال تعتبر احسن نموذج اصلى للغات السامية » (٤) .



(٤) المرجع ١٧ - ص ٢٨-٤٢ .

ويتفق فيليب حتى مع موسكاتى فيما انتهى اليه من أن الرأى الراجح هو أن شبه الجزيرة العربية تعتبر مهد الجنس السامى ، فهو يقول بعد استعراض هجرات الساميين من شبه الجزيرة الى وادى الرافدين وسوريا ، انه : « بمقارنة تاريخ الهجرات المذكورة آنفا ودراستها ، بدت لبعض علماء السامية الفكرة التى تقول بأن شبه الجزيرة العربية كانت على مدى احقاب متعاقبة تبلغ الواحدة منها الف عام تقريبا ، تزدحم بالسكان كخزان هائل امتلأ فلم يجد محيصا عن افاضة ما زاد عن سعته .

ويجب أن نلاحظ بشأن هذه الهجرات ، أنه فى كل حالة تقريبا ، كانت اللغة السامية اقوى على البقاء ، وكان هذا عاملا بعيد الأثر » (٥) .

*

كذلك يتفق فيليب حتى مع موسكاتى فيما ذكره عن اللغة العربية ، اذ يقول :

« ان العرب بين الشعبين الباقيين اللذين يمثلان الجنس السامى قد احتفظوا اكثر من اليهود بالميزات الطبيعية والخاصيات العقلية لهذا الجنس . واما لغتهم (العربية) فعلى الرغم من انها احدث اللغات السامية آدابا ، فانها قد احتفظت بخصائص اللسان السامى الأصلى ، بما فى ذلك التصريف ، أكثر مما احتفظت العبرية وأخواتها من اللغات السامية الأخرى . ومن هنا كانت اللغة العربية احسن مدخل لدراسة اللغات السامية .

كذلك بلغت الديانة السامية كمالها الطبيعى فى الاسلام .

ولقد اصبحت لفظة ، سامى ، فى أوربا وأمريكا تعنى ، يهودى ، قبل أى شىء آخر ولعل مصدر ذلك هو كثرة انتشار اليهود فى هاتين القارتين » (٦) .

*

ولاشك أن القول الشائع باعتبار أن لفظ الساميين يعنى اليهود ، انما يدل على جهل فاضح ، فلو تصورنا أن اليهود وهم اصحاب العقيدة اليهودية ، يمثلون فى نفس الوقت شعبا واحدا متجانسا نقيا — وهو فرض تلفظه الحقائق العلمية والتاريخية — لماعنى ذلك اكثر من اعتبارهم احد الفروع الضئيلة للعرق السامى — وهو العرق الذى نشأ أصلا فى شبه الجزيرة العربية ثم انتشر منها ، ويحق له بعد ذلك أن يحمل اسم موطنه فيعرف بالعرق العربى القديم ويعرف الساميون بأنهم العرب القدماء .

* * *

---

(٥) المرجع ٣ — ص ١٣
(٦) المرجع ٣ — ص ٨

الساميون فى العراق القديم

الاكديون :

« يبدأ التاريخ المكتوب لأول شعب مستقر فى الجزء الجنوبى من العراق وهم السومريون حوالى عام ٢٦٠٠ ق . م وقد تعايشت معهم شعوب أخرى ، منهم الساميون الذين تركزوا فى منطقة اقتراب نهرى دجلة والفرات حول مدن اكشك وكيش قرب المكان اقيمت عليه مدينة بابل فيما بعد .

ويرجح ان يكون قدوم هؤلاء السومريون الى العراق واستقرارهم فى دلتا الرافدين قد حدث حوالى عام ٤٠٠٠ ق . م . نتيجة لهجرة من القوقاز أو من الجبال الشرقية . وقد صحبهم فيها العيلاميون الذين دخلوا معهم بعد ذلك فى صراع طويل .

وحوالى عام ٢٣٥٠ ق . م . قام فى بلاد الرافدين أول عرش سامى نعرفه من مصادر مباشرة وهو عرش الاكديين الذى اسسه سرجون العظيم واسس عاصمته اكد .

ويقال ان هذا العمل جاء نتيجة لغزو سامى مباشر من الخارج ، بينما الرأى الراجح هو أن سرجون بعد أن حصل على وظيفة فى خدمة اورزبابا ملك كيش ، استطاع ان يخلعه عن العرش ويملك بدلا منه . ثم اخذ على عاتقه اخضاع المنطقة السومرية .

وقد اسس بذلك أول امبراطورية فى وادى الرافدين ، وتغلب لذلك العنصر السامى واللغة السامية التى انتشرت طوال فترة العرش الاكدى حوالى قرنين من الزمان (من ٢٣٥٠ — ٢١٥٠ ق . م .) حتى شملت العراق القديم كله .

لكن هذا العرش السامى تعرض لغزو الجوتيين وهم شعب من القوقاز، وقد استمر ذلك اكثر من قرن . وفى اثنائه انتعشت المدن واللغة السومرية » .

*

الأموريون :

« ثم تعرضت الحدود الغربية للبلاد لضغط مستمر من اعراب شبه الجزيرة العربية ، تكلمت عنهم آثار الملوك وسموا بالأموريين أى « الغربيين » وقد يعنى ذلك اسم قبيلة أو مجموعة قبائل سامية غربية تخللت العراق . ثم نتج عن هذا الضغط والتداخل تأسيس عدة مدن وولايات يغلب عليها العنصر السامى » (٧) .

« وكان من أهم هذه المدن أيسن التى اسسها الحاكم الاكدى لمدينة مارى ، وكذلك لارسه التى حكمها احد الأموريين » .

وفى الفترة ما بين ٢١٠٠ — ١٨٠٠ ق . م . كانت اغلب دويلات هذه المدن تحت حكم الأموريين وحوالى ١٨٣٠ ق . م . صارت مدينة بابل مركزا لدولة أمورية « وكذلك مدينة اشور التى احتلها الأموريون حوالى عام ١٧٥٠ ق . م .

وقد استطاع الأموريون أن يخلفوا الاكديين فى الأجزاء الشمالية الغربية من العراق القديم كما تبين ذلك وثائق مدينة مارى التى اكتشفت فى الفترة ٣٥ — ١٩٣٨ » (٨) .



الأراميون :

« كذلك كان للأراميين ضلع فى تاريخ العراق القديم كما تبين ذلك الوثائق التاريخية فقد ورد اسم ، ارام ، ليدل على مدينة أو ولاية فى احد نقوش الملك نارام سن الذى يرجع تاريخه الى القرن الثالث والعشرين ق . م .

كذلك ذكرت بعض اللوحات التى يرجع تاريخها الى حوالى ٢٠٠٠ ق . م . اسم مدينة أودويلة ارام ، وأنها تقع قرب اشنونه على الجزء الجنوبى لنهر دجلة .

---

(٧) المرجع ١٧ — ص ٤٨—٥٤

(٨) المرجع ١٩ — ص ١٥٢

ويرجح أن هؤلاء الارامبين كانوا عربا رحلا ، تخللوا العراق القديم واقاموا به مدنا ودويلات . وقد استطاعوا أن ينصهروا مع السكان الأصليين كعادتهم حتى كان عام ٦٢٦ ق . م حين استطاع قائد كلدانى من اصل ارامى ان يستولى على الحكم ويعيد للساميين ما بدأه سرجون منذ اكثر من الف عام .

وجدير بالذكر أن الأرامبين غزوا سوريا كما غزوا العراق فى نفس الفترة من التاريخ » (٩) .

*

« وعلى ذلك يكون التكوين العام لاستيطان الساميين بلاد الرافدين مبنيا على عدة هجرات للشعوب السامية التى خرجت من شبه الجزيرة العربية . وقد حدثت تلك الهجرات فى أزمان متفاوتة يفصل بعضها البعض مآت السنين .

فحوالى ٢٥٠٠ق م ظهر الأكديون ، ثم الأموريون فى حوالى ٢٠٠٠ق.م ثم الاراميون فى حوالى ١٢٠٠ ق . م ، وفى كل مرة كان يصحب هذا الغزو السامى استيلاء على السلطة » (١٠) .

* * *

الساميون فى سوريا الكبرى

الكنعانيون :

« الرأى الراجح هو أن بدء ظهور الساميين فى سوريا الكبرى كان حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م. وقد سمى الغزاة بالكنعانيين . وتشير كلمة « كنعان » كما ظهرت فى المراجع الأولى — الى المنطقة الساحلية التى سميت فيما بعد « فينيقيا » ، حسبما تبينه الدراسة اللغوية .

فاللفظ الاكدى لكلمة كنعان ، يعنى الأرجوان ، تماما كالمعنى الذى تعطيه الكلمة الاغريقية ، فنيك ، والتى اشتق منها الاسم : فينيقيا . فلقد كانت صناعة صبغة الأرجوان واحدة من اهم الصناعات التى تميزت بها هذه المنطقة .

ويقول موسكاتى : أن كلمة ، كنعان ، التى كثر ترديدها فى أسفار العهد القديم ، قد استخدمت لتدل على معنيين مختلفين : الأول — المنطقة الساحلية وسكانها ، وهى تعنى تقريبا فنيقيا وسكانها الفنيقيين .

---

(٩) المرجع ١٧ — ص ٦٩
(١٠) المرجع ١٧ — ص ٧٣ .

أما الثانى فهو بوجـه عام المنطقة الواقعـة غرب نهر الأردن ومستوطنيها من الشعوب قبل ظهور الاسرائيليين . ولقد صار هذا المعنى هو الأكثر شيوعا » (١١) .

*

الأموريون :

« وتشير مراجع مارى الى انه حوالى عام ٢٠٠٠ق.م كانت بعض الممالك فى الجزء الشمالى من سعوريا ذات طابع مماثل لنظيرتها التى ظهرت فى العراق القديم ونسبت الى الغزاة الغربيين أو الأموريين .

ويرجح انتشار هذه الممالك الأمورية فى الأجزاء الجنوبية من سوريا والتى تشمل فلسطين كما ظهر من تلك المراجع ومن بعض المصادر المصرية القديمة » (١٢) .

*

الأراميون :

« وكما تخلل الأراميون العراق القديم فانهم تخللوا سوريا كذلك ، وازدهر حينئذ عدد من دويلات المدن مثل دمشق وحماه .

وبجانب الأراميين فى سوريا وخاصة فى جزئها الجنوبى ـ فلسطين ـ فقد عاشت مجموعات من الشعوب الأخرى منهم المديانيون ، والأدوميون ، والموآبيون ، والعمونيون وغيرهم .

ولقد كان لهذه الشعوب فضل السبق على الاسرائيليين فى المجال السياسى ، اذ استطاعت تلك الشعوب ان تقيم لهـا ممالك كانت قوة سياسية وتنظيمية قاتلت الاسرائيليين الذين استغرقوا وقتا طويلا لكى يوحدوا صفوفهم ويقيموا لهم مملكة . ويجب الاعتراف بأن الضغط الذى عاناه الاسرائيليون من الممالك المجاورة كان أحد الدوافع الرئيسية من أجل اقامة مملكة لهم .» (١٣) .

*

---

(١١) المرجع ١٧ ـ ص ٨٠ـ٨٣ .
(١٢) المرجع ١٧ ـ ص ٨٤ـ٨٥ .
(١٣) المرجع ١٧ ـ ص ٩٦ـ٩٧ .

« وعلى ذلك يكون استيطان الساميين فى سـوريا الكبرى قد تمثل فى ثلاث هجرات تفصل كل واحدة عن الأخرى عـدة قرون : الأولى — هجرة الكنعانيين حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م. والثانية هجرة الأموريين حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م ثم الثالثة هجرة الأراميين وبعض الأقليـات الاخرى فى حوالى عام ١٢٠٠ ق.م. » (١٤) .

***

الساميون فى شبه الجزيرة العربية

عرفنا مما سبق أن شبه الجزيرة العربية تعتبر مهد الجنس السامى وأنها كانت تمثل خزانا بشريا هائلا يفيض كل بضـعة قرون فيلقى الى حدوده البعيدة بمجوعات من المهاجرين أو المستوطنين الجدد . وقد رأينا منهم فى العراق القديم الاكديون والأموريون والأراميون . ورأينا منهم فى سوريا الكبرى وما حولها الكنعانيون والاموريون والأراميون ، بجـانب المديانيين والموآبيين والعمونيين وغيرهم .

على أن هناك شعوبا سامية أخرى بقيت فى شبه الجزيرة العربية — الوطن الأم . وتركت آثارا ونقوشا تشير الى بقايا حضارة قديمة . وفى هذا يقول موسكاتى : « ابتداء من حوالى القرن الخامس قبل الميلاد بدا يظهر على الحوائط الصخرية فى شبه الجزيرة العربية آلاف من النقوش هى عبارة عن كتابة للغة الشمال مستخدمة حروف لغة الجنوب العربى ، ذلك أن كلا من اللغة والحروف التى تكتب بها تختلف نوعا من مكان الى آخر ، الا انها تكون بوجه عام وحدة مترابطة .

وتؤكد الاكتشافات الحديثة ذلك وخاصة بعثة ريكمنز ، وتعرف هذه النقوش المنتشرة فى وسط شـبه الجزيرة العربية وشمالها بالنقـوش الثمودية — وذلك نسبة الى قبيلة ثمود التى تكلم عنها القرآن ، وكما هو مذكور ضمن هذه النقوش ذاتها .

ولقد أدت سعة انتشار النقوش الثمودية فى شبه الجزيرة العربية الى قيام حوار بين العلماء عما اذا كانت ثمود قبيلة واحدة أم مجموعة من القبائل تحمل ذلك الاسم وتستخدم تلك اللغة .

(١٤) المرجع ١٧ — ص ١٠١ .

وعلى أى حال فان انتشـــار النقوش الثمودية على تلك الصورة انما يدل على وجود وحدة ثقافية وفكرية سادت بين قبائل تلك المناطق لفترة من الزمن » (١٥) .

❋

ويذكر فيليب حتى ماهو معروف من تقسيم عرب شـــبه الجزيرة الى فرعين هما :

« أولا — العرب البائدة ، ومنهم عاد وثمود ، وقد ورد ذكرهما فى القرآن .
ثانيا — العرب الباقية .

وثمود قوم عرفهم التاريخ فقد ذكرتهم الخطوط الاســـفينية فى مدونات سرجون الثانى وعرفهم أيضـــا كتاب اليـــونان والرومان باسم ثموداى والتحق بجيش بيزنطة فى القرن الخامس للميلاد فيلق من "الخيالة الثمودية . أما بنو عاد فقيل أنهم سكنوا حضرموت القديمة .

ثم يعود النسابون فيقسمون العرب الباقية الى دوحتين مختلفتين : العرب العرباء او العاربة (عرب الجنوب) ، والعرب المستعربة أو المتعربة (عرب الشمال) . فالعرباء فى رأيهم هم أهـــل اليمن الذين نسلوا من قحطان ، وهم سكان البـــلاد الأصليون . أما المستعربة فالحجـــازيون والنجديون والأنباط وأهل تدمر وجميعهم من سلالة عدنان وهـــو من سلالة اسماعيل » (١٦) .

ويقول سيديو : « استقر بنو قحطان باليمن فأقاموا دولة ســـبأ ودولة حمير ..

وكان أهل المدن فى اليمن يتكلمون بلغة حمير التى تعلمها بنو قحطان من أجدادهم وكان ظهور العرب المستعربة بعد بنى قحطان بزمن طويل .

ومما يروى أنه أوحى الى ابراهيم أن يقيم فى مكة معبدا مقدســـا ، فغادر سورية متمثلا اوامر الله القادر . وهبط الى بلاد العرب حيث بنى الكعبة التى غدت محل تعظيم العرب مدة طويلة . وأوجبت أعمال البيت اقامة الاب ابراهيم بالحجاز عدة سنوات واعانه عليها ابنه اسماعيل .

واذا عدوت بنى قحطان وبنى اسماعيل وجدت بلاد العرب تشـــمل فى غابر الأزمان على بقية من العروق الفطرية تغشى أخبارها طبقة كثيفة من الغموض .

---

(١٥) المرجع ١٧ — ص ١٢٥—١٢٦ .
(١٦) المرجع ٣ — ص ٣٩ .

وكل ما يعلم أو يفترض (وهو فرض ضعيف لم يقطع بصحته) هو أن قوم عاد جابوا - غالبيين - بقيادة شداد ولقمان بلاد العراق والهند قبل الميلاد بأكثر من ألفى سنة .. واستولوا على مصر فى ذلك الحين باسم الرعاة أو الهكسوس ..

ويظهر ان العمالقة الذين يعدون من فصيلة الهكسوس قد انتشروا فى العصور الخالية فى جميع أجزاء بلاد العرب .. وكانت خاتمة الطواف أن تجمعوا فى شمال جزيرة العرب مع الأدوميين والموآبيين والعمونيين واستولوا على سهول بلاد الحجر العربية ، وعلى سهول بلاد العرب الصحراوية المجاورة لفلسطين وسورية ودمشق فحالوا دون دخول العبريين (الاسرائيليين) أرض كنعان » (١٧) .

***

أسماء شعوب لا يعرف لها أصل

العبريون :

لا يزال العلماء مختلفين حتى الآن فى الأصل الذى جاءت منه هذه التسمية ، وكل ما يقال فيها لا يعدو كونه مجرد فروض وتخمينات ، تقوم فى أغلبها على ما تذكره أسفار العهد القديم من أحداث وأنساب .

فمن الآراء الشائعة ما يقال أن اللفظ : « عبرى » جاء من « عبر النهر »، أى انه اشتق او نسب الى مكان ، اتفق على أنه « عبر نهر الفرات » الموطن الأصلى لابراهيم وآبائه . ويستند أصحاب هذا الرأى على ما يذكره سفر يشوع :

« قال يشوع لجميع الشعب . هكذا قال الرب اله اسرائيل : آباؤكم سكنوا فى **عبر النهر** منذ الدهر . تارح أبو ابراهيم وأبو ناحور وعبدوا آلهة أخرى .

فأخذت ابراهيم أباكم **من عبر النهر** وسرت به فى كل أرض كنعان واكثرت نسله وأعطيته اسحق ..

---

(١٧) تاريخ العرب العام - للمستشرق الفرنسى سيديو - المرجع رقم (٢) - ص ٢٣-٣٥ .

فالآن أخشوا الرب واعبدوه .. وانزعوا الآلهة الذين عبدهم آباؤكم في **عبر النهر** وفى مصر واعبدوا الرب ــ يشوع ٢٤ : ٢ــ٣ ، ١٤ » .

كذلك يذكر سفر التكوين ابراهيم باسم : « ابرام العبرانى » (تكوين ١٤ : ١٣) .

وبناء على هذا الرأى فان كلمة : عبريين ــ تعنى سلالة ابراهيم العبرانى الذى جاء من عبر النهر ، كما تعنى سلالة غيره من ذرية تارح أبيه ، ونخص منهم المؤآبيين والعمونيين الذين ينسبون الى لوط حفيد تارح .

*

وهناك رأى ثان يقول بأن العبريين ينسبون الى عابر الذين ينحدر من سام بن نوح ــ وهذا الرأى مبنى على ما يذكره سفر التكوين من أنساب تقول :

« سام أبو كل بنى عابر .

بنو سام : عيلام وأشور وار فكشاد ولود وأرام .

وبنو أرام : عوص وحول وجاثر وماش .

وأرفكشاد ولد شالح ، وشالح ولد عابر .

ولعابر ولد ابنان : اسم الواحد فالج ــ لأن فى أيامه قسمت الأرض .

واسم اخيه يقطان (يقال أنه قحطان) .

ويقطان ولد : الموداد وشالف وحضرموت ويارح وهدورام واوزال ودقلة وعوبال وأبيمايل وشبا وأوفير وحويلة ويوباب ــ تكوين ١٠ : ٢١ــ٢٩ »

والغريب فى هذا الرأى ان ينسب ابراهيم العبرانى الى جده الخامس عابر ، وكان الأولى أن ينسب الى جده الأكبر والثامن سام بن نوح .

*

ثم هناك رأى ثالث يقول بأن العبريين تعنى بنى اسرائيل الذين عاشوا عدة قرون تائهين جوالين ، فأبوهم اسرائيل يصف نفسه بأنه كان : «أراميا تائها » .

وهم قد عبروا بين الشعوب وعبروا الصحارى والوديان والانهار ــ وفى هذا يقول سفر يشوع المشار اليه منذ قليل :

« أقمتم فى القفر أياما كثيرة . ثم أتيت بكم الى أرض الأموريين الساكنين فى **عبر الأردن** فحاربوكم ودفعتهم بيدكم ..

ثم **عبرتم الأردن** وأتيتم الى اريحا .. فالآن اخشوا الرب واعبدوه ..

فأجاب جميع الشعب وقالوا حاشالنا أن نترك الرب لنعبد آلهة أخرى .. الرب الهنا هو الذى حفظنا فى كل الطرق التى سرنا فيها وفى جميع الشعوب الذين **عبرنا فى وسطهم** — يشوع ٢٤ : ٧ — ١٧ »

❋

ومن الواضح الآن أن الاخذ بأى من الرأيين : الأول والثانى — انما يعنى اشتراك عدد كبير من الشعوب فى تلك التسمية التى اختص بها الاسرائيليون انفسهم — وهو الشىء الذى لم يوجد مايؤيده حتى الآن .

ومهما يكن من رأى فقد شاع استخدام كلمة : العبريين لتعنى الاسرائيليين — اصطلاحا فقط — بصرف النظر عن امكانية ردها الى اصل مقبول أم لا ، وان كانت فى هذه الحالة تتفق وما انتهى اليه الرأى الثالث .

هذا — ولقد اخذت الوثائق والكشوف التاريخية الحديثة تدعو الى احتمال وجود صلة بين العبريين ومن عرفوا فى التاريخ باسم « العبيريين Apiru او الخبيريين Khapiru » وفى هذا يقول أولبريت :

« لقد لعب هؤلاء العبيريون دورا عجيبا تذكره النقوش الاسفينية المدونة فى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد ، كذلك تذكره وثائق الحثيين والعمارنة (بمصر) للقرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد .

فنجدهم فى كل من العراق القديم وسوريا جندا مرتزقة لا وطن لهم ، يغيرون على البلاد ويقع منهم أسرى ، يعتقلون أو يعملون عبيدا فى البيوت . كذلك يرد ذكرهم فى فلسطين مكتوبا بالحروف الكنعانية المستخدمة فى أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد كغزاة مغيرين وثوارا ضد النفوذ المصرى يتحالفون أحيانا مع الأمراء الكنعانيين .

واليوم أصبحت غالبية العلماء تميل الى القول بأن العبيريين هم العبريون رغم وجود بعض المعارضة لذلك .. والى أن ينحسم الموقف نهائيا فاننا مقتنعون بأن العبيريين هم العبريون ، اذ أن ذلك يتمشى مع تاريخهم التقليدى ويحل كثيرا من المشاكل »(١٨) .

❋ ❋ ❋

---

(١٨) المرجع ٢٠ — ص ٢٤٠ .

الهكسوس :

يظهر الهكسوس فى التاريخ المصرى القديم كحادث عارض غشى ذلك التاريخ بغلالة قاتمة طيلة قرن ونصف من الزمان .

يقول هاريسون : « ما أن ضعفت القوة السياسية المصرية للدولة الوسطى ابان حكم الاسرتين الثالثة عشر والرابعة عشر حتى استطاعت بعض العناصر الأجنبية أن تغزو مصر وتستولى على الحكم .

تلك العناصر هى ماتعرف فى التاريخ القديم باسم : الهكسوس وأغلب الظن أنهم شعب خليط من عناصر سامية أسيوية أو سامية غربية ، كما تدل على ذلك أسماء افرادها مثل يعقوب وغيره ، وهى أسماء كنعانية .

ولقد تم احتلالهم مصر على مراحل : « اذ يبدو أن مجموعة متقدمة منهم احتلت منطقة الدلتا حوالى ١٧١٥ ق.م. ثم تبعتها الحشود الباقية حوالى عام ١٦٨٠ ق.م. حيث قضت على كل أثر للمقاومة المصرية .

ولقد كان تفوقهم الحربى يرجع غالبا الى استخدام العربة الحديدية التى يجرها الحصان وكذلك الى استخدام الأقواس الأسيوية كسلاح للقتال .

ولقد اقام الهكسوس ابان احتلالهم لمصر عددا من دويلات المدن فى أرض كنعان ، وبنوا حصونا فى اريحا وشكيم (نابلس) وغيرها .

ومع نمو التجارة فى فلسطين وسوريا فقد نمت كذلك طبقة من النبلاء الذين احتكروا الثروة وساهموا فى تطوير الحركات الثقافية والفنية .

ولقد تمتع الهكسوس بنفوذ قوى فى منطقة الشرق الأوسط ، كما تدل على ذلك الآثار المسجلة لبعض حكامهم الأقوياء — مثل خيانا — والتى وجدت فى أقطار متباعدة مثل كريت والعراق القديم .

ولقد اختار الهكسوس افاريس ذات الموقع الاستراتيجى فى دلتا النيل وجعلوها عاصمة حكموا منها مصر زهاء ١٥٠ عاما . وقد اكتشفت اخيرا قلاعها الضخمة ، ووجد أنها تتمشى فى نمطها مع طريقة الهكسوس فى بناء الحصون الدفاعية .

ومن الأشياء الهامة بالنسبة لهذه الحقبة من التاريخ هو اكتشاف عمود أثرى يرجع الى حوالى عام ١٣٢٠ ق.م. وقد أقيم بناء على أوامر فرعون مصر رمسيس الثانى ، وذلك تخليدا لذكرى مرور ٤٠٠ عام على تأسيس افاريس ، وهذا يعنى ان بدء حكم الهكسوس لمصر كان فى حوالى عام ١٧٢٠ ق.م.

وموقع أفاريس فى مصر حاليا هو مدينة « صان الحجر » (بمحافظة الشرقية) ، وقد عرفت هذه المدينة باسم ، افاريس ، فيما قبل عام ١٥٠٠ ق. م. ، ثم ، بيت رمسيس ، فيما بين ١٣٠٠ — ١١٠٠ ق. م. ، ثم باسم تانيس بعد ١١٠٠ ق. م.

هذا ويذكر سفر العدد — من الكتاب المقدس — مدينة أفاريس باسم صوعن (عدد ١٣ : ٢٢) »

ويستطرد هاريسون فيقول : « ان الربط بين حبرون وصوعن الذى يورده سفر العدد ، يعطينا انطباعا بأن بعض العبريين كانوا يساهمون فى مشاريع الهكسوس ، وأنهم كانوا بمصر عندما أسست أفاريس .

وثمة صلة اخرى بين العبريين ومصر يتحدث عنها سفر التكوين (١٥ : ١٣) ، وتختص باستعباد نسل ابراهيم (من الاسرائيليين) فى مصر لمدة ٤٠٠ عام .

فاذا ربطنا بين ذلك وبين ما ورد فى سفر العدد ، صار من المؤكد وجود صلة بين زمن رحلات الآباء (ابراهيم ويعقوب) وفترة سلطان أفاريس .

وحيث أن المصريين كانوا دائما يناصبون العناصر التى اغتصبت أرضهم العداء ، فان قصة وصول يوسف الى مركز القوة لا يمكن حدوثها الا فى فترة حكم الهكسوس .

كذلك تبين قصة يوسف أن أرض جاسان (التى سكنها الاسرائيليون بمصر) كانت قرب عاصمة حكم المصريين ، وان العبرانيين كانت لهم قدم فى البلاط الملكى . وثمة مظهر آخر من مظاهر الصلة بين هجرة آباء اسرائيل الى مصر وفترة حكم أفاريس هو ما تذكره قصة يوسف عن قيامه بشراء الأرض لفرعون مصر أيام المجاعة . ولقد كان من شأن هذا الاجراء أن قضى على طبقة الاقطاعيين والنبلاء وخلق طبقة جديدة من عبيد الأرض . وهذا يماثل حالة الاضطراب الاجتماعى الذى كان سائدة بفلسطين أيام حكم الهكسوس .

وفى ضوء ما تقدم فانه يمكن القول بأن دخول يعقوب وذريته الى مصر حدث حوالى عام ١٧٠٠ ق.م. أيام حكم أولئك الأجانب الساميين .

لكن قبضة الهكسوس على مصر ما لبثت أن أصابها الضعف وخاصة فى مصر العليا حين ثار سيكننر امير طيبة ضد ابوفيس حاكم افاريس فى حوالى عام ١٦٠٠ ق. م.

ولقد استمرت مقاومة المصريين لحكم الهكسوس وخاصة تحت قيادة احمس ، وما أن حل عام ١٥٦٠ ق. م. حتى كانت عاصـــمة حكمهم قد خربت وفى العشر سنوات التالية لذلك تم طرد الغزاة المكروهين من منطقة الدلتا ، حتى اضطروا فى النهاية للانسحاب الى أرض كنعان .

ولقد بدأ أحمس الأول ما يعرف فى التاريخ المصرى القديم بعهـــد الدولة الحديثة ، والذى يعتبر من أهم عهود التاريخ المصرى على الاطلاق وقد استمر من ١٥٧٠ — ١١٥٠ ق. م.

وتشير مخلفات الملكة حتشبسوت الى اصلاحاتها التى حاولت القيام بها بعد طرد الهكسوس فتقول : « ولقد أعدت بناء ما خرب وأكملت ما كان ناقصا ، حيث كان الاسيويون فى أفاريس الوجه البحرى وكان البرابرة فى وسطهم » .

وقد اعاد سيتى الأول بناء أفاريس ، وفى عهد الأسرة التاسعة عشر نقل رمسيس الثانى عاصمة ملكه من طيبة الى أفاريس ،، (١٩) .

*

مما سبق يتبين أن غزو الهكسوس لمصر بدأ باحتلال الدلتا حوالى عام ١٧١٥ ق. م. وقد أقاموا فيها عاصمة حكمهم أفاريس . ثم كانت هجرة اسرائيل وبنيه الى مصر حوالى عام ١٧٠٠ ق.م. أى اثناء حكم الهكسوس الذين تم احتلالهم لمصر حوالى عام ١٦٨٠ ق.م.

وكان الاسرائيليون قد استقروا آنذاك حول العاصمة افاريس .

ومما يلفت النظر فى هذا المقام ما يقصه القرآن من أنباء الحكم فى مصر ايام يوسف بن يعقوب ، فنعلم أن حاكمها قد لقب (بالملك) ولم يعرف باسم « فرعون » وهو اللقب الذى ذكره القرآن مرارا لحاكم مصر أيام موسى ، حيث كان هذا اللقب خاصا بالملوك المصريين — مما يؤيد القول بأن مصر فى ذلك الحين كانت تخضع لحكم أجنبى مثل حكم الهكسوس الذين جعلوا من أنفسهم ملوكا :

---

(١٩) المرجع ٢١ — ص ٣٥ — ٣٩ ، ١٢٧ .

« قال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم » (يوسف : ٥٤ ، ٥٥) .

ولقد استمرت اقامة الاسرائيليين فى مصر طيبة طوال فترة حكم الهكسوس، ولكن لما قضى على ذلك الحكم الغازى وتولى الحكم فى عهد الدولة المصرية الحديثة فراعين مصريين ، بدأ نجم الاسرائيليين فى الأفول ، وتحول فيما بعد الى اضطهاد بلغ مداه فى عهد أحد الفراعين — ويرجح أنه منبتاح بن رمسيس الثانى — الى أن أخرجهم الله من مصر على يد نبيه موسى .

*

هذا — ولم تكن مصر هى البلد الوحيد من بلدان الشرق الأوسط الذى تعرض لغزو الهكسوس ، فقد سيطروا كذلك على سوريا وجزئها الجنوبى فلسطين . كذلك تعرض العراق القديم لغزو أجنبى فى ذات الفترة من التاريخ وان كانت العناصر التى قامت به ليست من أصول سامية كالهكسوس ولكنها على الأرجح عناصر قوقازية احتلت شمال بابل حوالى منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد ثم بسطت نفوذها على جنوب العراق ، واستمرت تحكم نحو ٤٥٠ عاما .

ولقد نتج عن حالة الاضطراب السياسى هذه التى عمت بلدان الشرق الأوسط فى تلك الحقبة من الزمن ، أن توقفت كتابة تاريخ الحضارة فى كل من مصر والعراق ، وساد الظلام التاريخى لبضعة قرون وفى هذا يقول أولبريت :

« لقد توقف تسجيل التاريخ فى كل من مصر وبابل بعد أن كان تياره يجرى متدفقا طيلة اثنا عشر قرنا من الزمان أو يزيد .. وقد وجد أن النقوش المصرية التى كانت تستخدم فى تدوين التاريخ قد توقفت منذ عام ١٥٨٠ ق.م. كذلك فان النقوش البابلية توقفت تماما بعد سقوط بابل عام ١٥٣٠ ق.م. واستمر ذلك حتى حوالى عام ١٤٠٠ ق.م .

وأما النقوش الاشورية فانها قد توقفت منذ عام ١٧٢٠ ق.م. ولم تبدأ الا حوالى عام ١٥٠٠ ق.م. هذا بالاضافة الى عدم وجود مدونات لامبراطورية الحيثيين القديمة . وخلاصة القول هنا أن كارثة ما قد حلت بتلك الامبراطوريات القديمة ، وأوقفت كتابة التاريخ بتسجيل النقوش والآثار » . (٢٠)

---

(٢٠) المرجع ٢٠ — ص ٢٠١ .

واذا أخذنا في الاعتبار ما يذكره التاريخ عن قوم عاد الجبارين الذين سكنوا شبه الجزيرة العربية ، وقال عنهم سيديو أنهم غزوا مصر باسم الهكسوس ، وغزوا كذلك الحبشة والعراق والهند حوالى الألف الثانى قبل الميلاد ، صار من الأرجح أن تكون الكارثة التى حلت بامبراطوريات الشرق القديمة — والتى أشار اليها أولبريت — قد أسهمت فيها عاد بنصيب كبير .

*

ويذكر لنا القرآن من أخبار عاد وثمود ما نعلم منه انهم شعوب اشتهرت بالقوة وشدة البطش ، وكانت لهم حملات حربية حالفهم فيها النصر . ولقد أصابوا حظا من العلم فأقاموا المصانع وشيدوا المدن العظيمة، وبنوا القصور وعاشوا فى رغد من العيش .

ولقد أرسل الله اليهم رسلا ينذرونهم عاقبة الكفر والطغيان فما استجابوا لهم ، بل ما زادهم ذلك الا غرورا . وعندئذ جاءهم العذاب الأليم :

« كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان اجرى الا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . ان هذا الا خلق الأولين وما نحن بمعذبين . فكذبوه فأهلكناهم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وان ربك لهو العزيز الرحيم » (الشعراء ١٢٣ — ١٤٠) .

« والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره . واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . » (الاعراف : ٧٣ — ٧٤)

والحق أن قصة عاد وثمود هى قصة أغلب أمم الأرض حين تنال حظا من العلم وجانبا من القوة ، فيدفعها ذلك الى التكبر والغرور ، وتقيم لها آلهة باطل تعبدها ، ليس من الضرورى أن تكون مجسدة قد صنعت من حجارة ومسبوكات كما تفعل الأمم البدائية — بل انها غالبا ما تكون آلهة مستترة ، تعرف بين الناس بأسمائها وجبروتها ، ويكون لها منهم دعاتها ومبشروها .

وفى عصرنا هذا تعرف آلهة بأسماء شتى منها : الهوى — المال — الجنس — السيطرة أو البغى ، وتكون النتيجة الحتمية لعبادتها والغرق فى مستنقعاتها ، هى التحطيم والانهيار للأفراد والجماعات ، شعوبا ودولا على السواء .

* * *

والآن ونحن نأتى الى نهاية هذا الفصل فانا نقف قليلا لنلتقط أنفاسنا بعد هذه الجولة الخاطفة التى ألقينا فيها نظرات سريعة على شعوب الشرق الأوسط القديم وحركتها منذ فجر التاريخ ، ثم بعد ذلك نستجمع خلاصة القول فى هذا الموضوع فنقول :

ان شبه الجزيرة العربية هى الوطن الأم الذى غذى منطقة الشرق الأوسط بالقوى البشرية على مر العصور . وبصرف النظر عما يثار من جدل حول صحة الانساب التى يذكرها سفر التكوين عن سام بن نوح وذريته ، فلا شك أن شعوب شبه الجزيرة العربية — سواء منها ما استقر فيها أو ما كانت تقذف به بين الحين والحين الى حدودها الشمالية ، الشرقية والغربية مثل : القحطانيين ، عاد العمالقة ، ثمود ، الاكديين ، الكنعانيين ، الفينيقيين ، الأموريين ، الأراميين ، المديانيين ، الموآبيين ، العمونيين ...

كل هذه شعوب عربية ..

وما دامت الجزيرة العربية تعتبر فى رأى العلماء هى مهد الجنس السامى ، فالأولى ان يقال أن الساميين عرب بدلا من القول بأن العرب ساميون .

وبدهى أن منطقة الشرق الأوسط التى اتسعت لهذه الشعوب واصطبغت بصبغتها ، انما هى منطقة عربية خالصة ، لا تظهر فيها العناصر الغريبة الا على الصورة التى تظهر بها النباتات الطفيلية وسط المساحات الواسعة من الحقول الزراعية .

وما دام الأمر كذلك — وانه لكذلك — فلا مفر من التسليم بأن فلسطين عربية من قبل أن يظهر فيها الاسرائيليون ومن بعد أن ظهروا على أرضها ثم طردوا منها .

وما الإسرائيليون فى حقيقتهم منذ عرف لهم اسم — الا شعب سامى مخلط ، يقول فيه وحى الله على لسان حزقيال النبى :

« هكذا قال السيد الرب لأورشليم : أبوك اموري وأمك حثية ـ حزقيال ١٦ : ٣ » .

وما الدور الذى لعبه الاسرائيليون على مسرح فلسطين بأكثر أهمية من الدور الذى يلعبه أحد الممثلين على مسرح يقدم مسلسلات تاريخية ، حتى ولو كان ذلك الممثل بطل المسرحية . ففى جميع الأحوال لا يحق لهذا الممثل ان يطالب بامتلاك المسرح واغتصاب ايراداته . فما بالنا اذا كان هذا الممثل قد أقصى عن المسرح منذ زمن بعيد ، ولم تبق له من علاقة به سوى ذكرى تعلق بالخيال .

* * *

لقد جرت مناظرة بين أرنولد توينبى المؤرخ الانجليزى وياكوف هرتزوج سفير اسرائيل فى كندا حول موضوع : العلاقات العربية الاسرائيلية وسياسة اسرائيل بالنسبة للاجئين العرب . (٢١) .

وكان من بين ما أثير فى تلك المناظرة ما تدعيه اسرائيل من حق تاريخى فى فلسطين ، وهى الدعوى التى عرف عن توينبى وغيره من المتخصصين فى مثل تلك الدراسات ـ رفضها بالحجج والأسانيد ، وتقرير بطلانها .

قال السفير :

« سيدى الأستاذ : لنعد الى مسألة الارتباطات التاريخية التى كنت أشير اليها . لقد رددت الصحف قولك : ان ليس لاسرائيل حق تاريخى ـ فهل أورد بعض حقائق تتعلق بهذا الأمر . أولا ــ ان الاقامة اليهودية فى أرض اسرائيل (فلسطين) لم تنقطع طوال التاريخ بل كانت اقامة متصلة . الأمر الثانى ــ ان العودة لاسرائيل أمر جوهرى فى عقيدتنا الدينية وفى صلواتنا وأعيادنا وفى كل وجه من وجوه آمالنا القومية ..

وقد رد عليه الأستاذ توينبى فقال :

« لقد أثار السفير نقطة تتعلق بحق اليهود فى فلسطين .. ولكن الآن ماذا عن هذا المطلب اليهودى ؟

---

(٢١) عقدت هذه المناظرة فى قاعة هيلل بمونتريال بكندا يوم الثلاثاء ٣١ يناير ١٩٦١ وطبعت بمطبعة أطلس بالقاهرة ـ ص ٢٥ ــ ٢٧ .

هناك شيء فى القانون ، بل أعتقد فى كل أشـــكال القانون ، يقول بسقوط الحق نتيجة التقادم . فاذا أخذنا مثلا عام ١٣٥ الميلادى باعتباره التاريخ الذى قام فيه الرومان بطرد الجانب الأكبر من سـكان فلسطين اليهود — فاذا أخذنا هذا التاريخ وقلنا أن سقوط الحق لا ينطبق حتى على هؤلاء الذين غادروا البلاد فى ذلك التاريخ ، ماذا يحدث بالنسـبة لمدينة كمونتريال ؟ لقد كان هنود الالجونكوين يسكنونها منذ ثلاثمائة أو أربعمائة سنة على الأكثر . فهل يقال كذلك بضرورة عودة مونتريال اليهم ؟ وبعودة انجلترا لأهل ويلز ؟ » .

وهنا رد السفير بما يتفق وما تدعيه اسرائيل — بصرف النظر عما يصيب العالم من فوضى واضطراب نتيجة تطبيق المقاييس الاسرائيلية — فقال :

« نعم » .

ولقد عجب الأستاذ توينبى لهذه الاجابة ، فقال مستنكرا :

« أحقـا ؟ .

اذن فعليك أن ترحل خمسـين مليونا من الانجليز ، وتجعل منهم لاجئين » .

*

ان العرب لو قبلوا المنطق الاسرائيلى الذى يدعى حقوقا تاريخيـة نتجت عن اقامة او حكم تم فى غابر الأزمان — لكان عليهم أن يطالبوا بأراضى كثيرة من دول العالم ومنها أسبانيا وأجزاء من فرنسا وايطاليا .. .. الخ.

فلقد استوطن العرب أسـبانيا وحكموها أكثر من سـبعمائة عام ، وأقاموا بها حضارة سـجلها التاريخ ، واعترف بدورها فى حفظ التراث الانسانى ، وفى ارساء قواعد العلوم الحديثة وتطويرها ، وهو الأمر الذى أشعل بعد ذلك ما يعرف فى التاريخ المعاصر باسم الثورة العلمية .

فبعـد أن انقضت — الى غير رجعة — قرون الظلام والتعصب ، نجد كثيرا من أهل العلم والفضل من غير العرب ، يشيدون بالحضارة العربية ويعددون مآثرها على العالم .

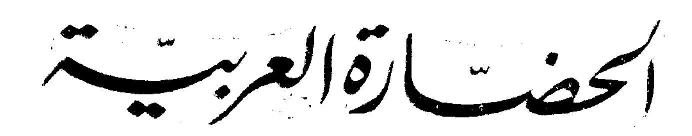
واذا كان العالم المتحضر اليوم على استعداد لقبول المنطق الاسرائيلى الذى يقوم على ادعاء حقوق تاريخية يبرر بها احتلاله العسكرى لأرض فلسطين العربية ، فما على العالم الا ان يقارن بين وجود الشعب الاسرائيلى فى فلسطين ـ كما رأيناه فى الفصل السابق ـ وبين وجود الشعب العربى فى أسبانيا وجنوب أوربا ، وحضارته التى نشرها فى الشرق والغرب ـ كما سنرى فى الفصل القادم ـ ثم يحكم العقل والضمير ليقرر : أى من الشعبين أحق بالعودة للاقامة فى الأرض التى استوطنها وحكمها قديما آباؤه وأجداده .

كل ذلك بالاضافة الى ضرورة مراعاة عوامل اخرى ـ غير الوجود الحضارى ـ مثل : عدالة تطبيق مبدأ « سقوط الحق بالتقادم » ، والتأكد من شخصية مدعى الميراث بوصفهم ينحدرون فعلا من أصلاب أجدادهم الأصليين .

ان كل هذه المبادىء العادلة ليست قطعا فى جانب الاسرائيليين .

***

الفصل الخامس



الحضـــارة العربيــة

مقـــدمة :

طلع العرب على العالم بحضارة ازدهرت عدة قرون ، فتمكنوا خلال ازدهارها من بسط نفوذهم على مناطق كثيرة تمتد من اقصى الشرق الى أقصى الغرب .

ثم أصاب العرب ما أصاب غيرهم من أصحاب الحضارات السابقة ، حين تكالبت عليهم عوامل الضعف والانحلال فى الداخل ، وتمكنت عوامل الفرقة والتناحر من تقويض بناء وحدتهم الداخلى ، وعندئذ تمكن منهم الأعداء المتربصون بالخارج .

ولم يكن ذلك كل ما أصاب العرب ، فهو قليل اذا ما قورن بما أصاب حضارتهم . فقد عمد الكثيرون الى طمس معالمها ،وتجريدها من كل مزية، ونشر المزاعم الباطـلة والأراجيف حولهـــا ، والأدهى من ذلك والامر أن تعرضت مآثر الحضارة العربية للنهب والسطو ، فانتسـبت زورا الى غيرهم ، واكتملت بذلك أو كادت أن تكتمل عملية طمس المعالم لذلك الوجه العربى المشرق .

لكن العالم لم يعدم على مر السنين من يحيا فيه من اهل العـــلم والفضل ، فيردون الحق الضائع الى أهله ، ويشهدون بالمآثر والفضـــائل الي غيرهم ولو كان ذلك الغير ممن لا يشـــــاركونهم الوطن أو الجنس أو الفــكر .

وكذلك وجدت الحضارة العربية من يعترف بها وبفضلها على العالم ، ويعمل جاهدا لكشف مآثرها وبيان خطورة أمرها .

والحق أن خطورة الحضارة العربية لا ترجع الى كونها قد استمرت عدة قرون قريبة العهد من عصرنا الحالى ، بقدر ما ترجع الى ارســـائها أغلب القواعد والعمد التى يقوم عليها البناء الشامخ للحضارة الحديثة .

ونريد فى هذا الفصل أن نعرف شيئا عن الحضارة العربية ومآثرها ، معتمدين ــ كما هى العادة ــ على مصادر غير عربية ، اجتمع لأصحابها من كريم خصال العلم والفضل ، ما يجعل لهم القول الفصل فى هذا المقام .

* * *

الصورة العامة للحضارة العربية ومحاولات طمسها :

يقول المستشرق الفرنسي سيديو : « لقد قصد نسيان العرب ، وانكار ما كان لهم من تأثير فى الحضارة الحديثة ، دام دوام القرون الوسطى .. واليوم ترى اسم العرب يمحى حتى تحت اسم الشرقيين .. والترك ، وحتى تحت اسم الهنود . وهو اذا ما ذكر فللاهانة والازدراء .

ان الخلفاء كانوا فى القرن التاسع من الميلاد سادة امبراطورية واسعة رائعة .. تقضي بالعجب ، وان خلفاء بغداد كانوا يرسلون وفودا وهدايا الى الامبراطور شارلمان والى عاهل الصين وانهم كانوا مثال العظمة الحقيقية بنظمهم الصالحة ، وعنايتهم بالآداب والعلوم . وان ما شيد من المدارس فى ارجاء دولتهم كان يوقد مصباح الحضارة .. ناشرا آثار الفن العربى الرائعة فى كل مكان ، عاملا على تجديد الدم فى عروق العالم الهرم .

ولم يكن دون ذلك فى تقدم العلوم تأثير مدرسة بغداد ، التى كانت متوسطة بين مدرسة الاسكندرية والمدرسة الحديثة ، فهيأت لهذه المدرسة الحديثة اكتشافاتها .

ونحن مدينون للعرب فى الحقل العلمى ، ونعترف مع ذلك بأن مترجمينا كانوا يتلهون بتشويه ما يقتبسونه من التعابير تشويها غريبا الى الغاية ، فينم ما اتخذ من الاصطلاحات على الجهل والارتباك ..

أفليس من الفضائح الا يكون لدينا نبذ من فلكي العرب فى القرن العاشر ومن جاء بعدهم والا نستطيع أن نظفر بنسخة كاملة من كل ما الفوه ؟

وأنكى من ذلك الا نعرف بالضبط ، ماذا تحتويه النثارات المبعثرة فى بعض مكتبات أوربه ، ومن المحزن الا تلاقى الجهود التى تبذل لتحقيق هذه الأمانى غير تشجيع قليل . وذلك فى هذا الزمن الذى غيرت المؤلفات الحديثة فيه ما عد ثابتا من المذاهب والعقائد تغييرا أساسيا .

فلقد حل الوقت الذى توجه فيه الانظار الى تاريخ تلك الأمة التى كانت مجهولة الأمر فى زاوية من آسيه ، فارتقت الى أعلى مقام فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون .

ولا يزال العرب محافظين على طبائع اسلافهم .. وهم على ما يظهر ذوو فتوة خالدة ، يقدرون على القيام بجليل الأعمال عندما يؤمنون بمبدأ جديد . وهم أحرار ، كرام ، شم الأنوف ، غضاب ، مقاديم . والعربى نشيط ويعود نشاطه الى وجوب كسب عيشه بنفسه ، وهو صبور .. ومحب للحرية . والحرية هى الأمر الوحيد الذى اتفق له أن يتمتع به وهو محارب ، ويحارب حاقدا على كل من يحاول استعباده ..

ونرى العرب متماثلين فى أمور العزة والشرف ، لتماثل أحوالهم ومشاعرهم » (١)

حقا لقد « كان العرب وحدهم حاملين لواء الحضارة فى القرون الوسطى ، فدحروا بربرية أوربه التى زلزلتها غارات قبائل الشمال ، وسار العرب الى منابع فلسفة اليونان الخالدة ، فلم يقفوا عندما اكتسبوه من كنوز المعرفة ، بل وسعوه ، وفتحوا أبوابا جديدة لدرس الطبيعة .

قال دوهومبلد فى كتابه « الكون » : كان العرب مستعدين بما يقضي بالعجب ، ليمثلوا دور الوسيط ويؤثروا فى الأمم القاطنة فيما بين نهر الفرات ونهر الوادى الكبير ، وفى القسم الجنوبى من أفريقية الوسطى . والعرب كانوا ذوى نشاط منقطع النظير ، وهذا النشاط هو آية دور ممتاز فى تاريخ الدنيا .

والعرب على عكس بنى اسرائيل ذوى التعصب وعدم التسامح ، كانوا راغبين فى مصاهرة الأمم المغلوبة ، من غير جحود بخلقهم القومى ، وذكريات وطنهم الأصلى » .

والعرب « لم يألوا جهدا فى انماء جميع فروع المعارف البشرية فى زمن اهملت أوربة فيه العلوم والآداب على العموم ، وفيما كان شارلمان يحاول احياء الذوق العلمى الأدبى على غير جدوى ، كان الخلفاء (العباسيون) يدنون منهم أعلم علماء الأقطار التى جمعوها تحت سلطانهم ، آمرين بترجمة أهم الكتب من اليونانية ، مقيمين أوسع المبانى لتكون مكتبات غنية ومدارس عامة ، فأكب الناس فضلا عن دراسة القرآن وتفاسيره ، على دراسة كتب أرسطو ، وبقراط ، وجالينوس ، وذيسقوريدس ، واقليدس ، وارشميدس ، وأبولونيوس ، وبطليموس .. وغيرهم ، التى نقل العرب كثيرا منها الينا رأسا قبل أن نجد اصولها اليونانية . وأقام الخلفاء مجامع للموضوعات التى لا يقدر على معالجتها سوى الأساتذة الماهرين ، وشيدوا تلك المدرسة المشهورة التى تم على يدها أجمل آثار علم الفلك فى القرون الوسطى .

ولا نرى أن نسهب فى بيان درجة الكمال التى انتهت اليها الفنون الميكانيكية فى ذلك الدور فيكفى لتمثلها أن نرجع البصر الى الساعة المائية التى أرسلها هارون الرشيد الى شارلمان فوصل الينا وصفها ، والهدايا التى قدمت الى عاهل الصين ، فهى تغنينا عما جاء فى كتب المؤرخين من تفاصيل جميع العجائب المماثلة التى إشتمل عليها قصر الخلفاء ببغداد » .

---

(١) المرجع ٢ — ص ١٢ — ١٥ ، ٣٢ .

« ويجب أن نعترف بأننا لم نبحث فى معظم كتب العرب الموجودة فى مكتباتنا (الأوربية) فضلا عن عدم حيازتنا لجميع مؤلفات مشاهير العلماء .. ويكفى أن نلقى نظرة على مؤلفات مونتوكلا ، وديربيلو ، وادوارد برنارد ، لندرك أننا لم نبين سوى جزء زهيد الى الغاية من أعمال العرب ، باستنادنا الى الوثائق الثابتة .

وقد استند الى جهلنا ما فى الشرق من المخطوطات المهمة فى الادعاء بأن العرب لم يكادوا يرتقون الى مستوى النظريات اليونانية . وزعم مثل هذا لا يقف أمام سلطان النقد .

ونحن اذ نرى شـــوق العرب الى العلم قد حفزهم الى النهوض بمختلف فروع المعارف البشرية ، طلبا للحقيقة وحدها ، لا يسعنا سوى الأعجاب المطلق بجهود الشعب العربى الذى أدى بمثاله النبيل الى بعث الآداب والفنون فى أوربه » . (٢)

*

وتقول الباحثة الألمانية الدكتورة سيجريد هونكه فى مقدمة كتابها : (٣) « شمس الله على الغرب » :

« من خطل الرأى أن ننظر الى أوربا على أنها هى فقط العالم الحديث، ومن الحماقة أن نقول ان تاريخ أوربا هو تاريخ هذا العالم . وذلك لأنه مما لا شك فيه أن سائر القارات التى يتكون منها عالمنا هذا ، ساهمت وتساهم فى تكييف الأحداث العالمية التى تخضع لها شعوب المعمورة ..

أما اليوم فقد شاء الله أن تزول هذه الغشاوة عن أعيننا ، وأن يتسع صدرنا للحقيقة ، فلا نغمط الشعوب الأخرى التى ساهمت فى ايقاظ الوعى الانسانى ، وبعث ثقافة انسانية رفيعة أثرت وتؤثر حتى يومنا هذا ، لا فى أوربا فقط بل فى مختلف أرجاء العالم المتحضر . وشـــاء الله ان يظهر من الأوربيين من يجرؤ وينادى بهذه الحقيقة ، فلا نغمط العرب حقهم فى أنهم حملوا رسالة عالمية ، وأدوا خدمة انسانية للثقافة البشرية قديما وحديثا ان هذا النفر من الأوربيين المنصفين ، لا يأبه من تحدى أولئك المتعصبين الذين أعماهم تعصبهم .. فحاولوا جهد طاقتهم طمس معالم هذه الحضارة العربية ، أو التقليل من شأنها .

---

(٢) المرجع ٢ — ص ٣٨٣ — ٣٨٧ ، ٤٠٢ — ٤٠٣
(٣) ترجمه وحققه الدكتور فؤاد حسنين على ، ونشر بالعربية تحت اسم : « فضل العرب على أوربا » — المرجع رقم ٦

ان أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية ، وان الدين الذى فى عنق أوربا وسائر القارات الأخرى للعرب كبيرا جدا . وكان يجب على أوربا أن تعترف بهذا الصنيع من زمن بعيد لكن التعصب .. أعمى عيوننا وترك عليها غشاوة ، حتى أننا نقرأ ثمانية وتسعين كتابا من مائة ، فلا نجد فيها اشارة لفضل العرب وما أسدوه الينا من علم ومعرفة اللهم الا هذه الاشارة العابرة الى أن دور العرب لا يتعدى دور ساعى البريد الذى نقل اليهم التراث اليونانى . أما العربى فلم يأت بجديد ولم يحقق رسالة .

ان النهضة العلمية الحديثة كشفت الغطاء عن حضارات الشرق القديم .. وأن هذا الشرق العربى القديم هو وطن الوحى ومبعث الفنون والعلوم والآداب . واذا ما انتقل الباحث الى بيزنطة لينفذ منها الى المسيحية فى العصور الوسطى فالعصور الحديثة ، ازداد شكه فى اليونان والرومان ، وأيقن أن أوربا بأثينا وروما لا تستحق كل هذه العناية وأن ما يحاول المغرضون خلعه عليها ، ما هو الا سراب لا يقوى على البقاء أمام شمس الشرق العربى .

انها سبة أن يعلم أهل العلم من الأوربيين ان العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الانسانية من قبل وان هذه النهضة فاقت كثيرا ما تركه اليونان أو الرومان ، ولا يقررون هذا .

ان العرب ظلوا ثمانية قرون طوال يشعون على العالم علما وفنا وأدبا وحضارة ، كما اخذوا بيد أوربا وأخرجوها من الظلمات الى النور ونشروا لواء المدنية أنى ذهبوا فى أقاصى البلاد ودانيها ، سواء فى آسيا أو أفريقيا أو أوربا ، ثم تنكر أوربا على العرب الاعتراف بهذا الفضل ؛

ان المذاهب الانسانية الحديثة أصبحت غير مذاهب العصور الوسطى ، وشعار الأوربى اليوم محاولة فهم عدو الأمس وتحويله الى صديق ، وذلك بالاعتراف له بمكانته العالمية ، وما أسداه للأوربيين وغيرهم من معرفة ، وألا يسعى الأوربى جاهدا الى طمس هذه المكانة واخفاء معالمها ..

ثم لا يفوتنا أن نذكر أن هؤلاء العرب ، والذين ذكرهم هيرودت ، والذين بسطوا سلطانهم على شعوب كثيرة مهدوا للمغلوبين للاندماج فى المجتمع العربى لغة وأدبا وعلما ودينا . وأصبح الخلق العربى والطبيعة العربية والثقافة العربية والعقيدة الاسلامية مثالا يحتذى .. ان هذا الكتاب يهدف .. الى تقديم شكر كان يجب ان يقدم الى العرب منذ عصور قديمة فالألمان يدينون للعرب بالشىء الكثير » .

***

الفتوحات العربية :

يقول فيليب حتى « كانت الحادثتان الخطيرتان فى أواخر العصور القديمة هما : الهجرات الجرمانية التى أسفرت عن تقويض الامبراطورية الرومانية العريقة ، والفتوحات العربية التى دكت صروح الدولة الفارسية الى الأساس ، وزعزعت أركان الامبراطورية البيزنطية .

فلو قام فى الثلث الأول من القرن السابع الميلادى أحد ، وتكهن بأن دولة خاملة الذكر وضيعة الجانب ، تخرج من مجاهل جزيرة العرب ، ثم تنقض على الدولتين العظيمتين المعروفتين فتقوض الدولة الواحدة — دولة آل ساسان — وتظفر بأملاكها ، ثم تقتطع من ولايات الثانية — بيزنطة — أزهى مقاطعاتها ، نقول لو صدرت مثل هذه النبوءة من فم انسان فى ذلك العصر لحكم عليه بالجنون .

والواقع أن هذا ما حدث فعلا . فبعد الرسول تغيرت طبيعة بلاد العرب الجدباء ، وأخذت تنشىء رجالا أبطالا ، يندر وجود من يشاركهم فى أى صقع كان ، فكأن أعجوبة حلت فيها . فالحملات العسكرية التى قام بها خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وسعد بن أبى وقاص فاتحين بها العراق ، وفارس ، وسورية ، ومصر ، هى من أعظم الحملات التى يرويها تاريخ الحروب المدون ، وقد كشفت عن نبوغ قوادها وتفوقهم فى أساليب القتال ، وخلدت أسماءهم مع أسماء نابليون ، وهانيبال ، ويوليوس قيصر ، والاسكندر » . (٤)

« ان عظمة الجيش العربى لم تقم على قوة السلاح أو جودة التنظيم ، بل كانت ثمرة القوة المعنوية الروحية ، التى كان الايمان والدين قد عززاها فى نفسه » . (٥)

ولقد «كان سكان الشام وفلسطين — وهم ساميون — وسكان مصر .. يعتبرون العرب الفاتحين قوما من بنى جنسهم ، تربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام الأجانب الغاصبين فالفتوحات الاسلامية من هذه الوجهة ، هى عند التحقيق انقلاب اجتماعى سياسى ، استرد به الشرق الأدنى مجده السامى الغابر ، وجاء الاسلام مهيبا بالشرق الى النهوض من كبوته ، بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب ولنذكر ان الجزية التى فرضها الفاتحون العرب على أبناء البلدان المنسلخة عن فارس وبيزنطة — كانت أقل مما كان يفرض عليهم فى ظل الحكومات السابقة .

---

(٤) المرجع ٣ — ص ١٩٣
(٥) المرجع ٣ — ص ٢٣١

لقد انفتح أمام الأمم المغلوبة باب الحرية ، فصاروا يمارسون عقائد أديانهم دون ازعاج »

« انفحت أمام الغزاة سهول العراق الخصبة .. وقد رحب الفلاحون الآراميون بالفاتحين ترحيبا لا يقل عن ترحيب الفلاحين السوريين وذلك لأسباب متشابهة ، اذ كان العراقيون الساميون يحسبون أسيادهم الايرانيين أجانب ممقوتين ، ويرون الفاتحين أقرباء لهم . ولم يطب العيش لأهل العراق وهم نصارى اذ ذاك فى ظل الفرس وهم اتباع زرادشت » .

*

« ولم تجب الجزية الا على الرجال الأصحاء العقلاء فلم توضع على امرأة ، أو صبى ، ولا مجنون ولا عبد ولا سابل أو سائل ، ولا راهب أو شيخ .

وقد وجبت الجزية على جميع الذميين ولما كانت أحكام الشريعة المحمدية لا تسرى عليهم ، فقد فوض الى رؤسائهم الروحيين أمر الاشراف على قضاياهم ، حسبما تفرضه شرائع أديانهم . تلك حال خاصة بهم ، وفيها شىء من مزايا الاستقلال الذاتى فى الأحوال الشخصية . ولقد سلم سلاطين الترك لأهل الذمة بأصول هذا الوضع الخاص » . (٦)

*

واذا كانت الحرية هى المطلب الذى جاهد الانسان من أجله على مدى الأيام فان حرية الفكر والعقيدة كانت دائما فى القمة التى سعى جاهدا للوصول اليها ، كى ينعم فوق رباها بتفتح العقل وانطلاق الفكر ، وراحة الضمير . وفى هذا السبيل احتملت المشاق ، وبذلت التضحيات ، وأريقت الدماء وازهقت الأرواح .

ولقد اشتهر العرب بتسامحهم الدينى فى زمن كان أصحاب العقيدة الواحدة يذيقون أبناء عقيدتهم من صنوف الأذى والعذاب ما تقشعر لذكره الأبدان ، بل ان هذا الاضطهاد الدينى لا يزال يمارس تحت سمع العالم وبصره حتى اليوم .

. يقول سيديو فى فتح القدس على عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب « رضى صفرونيوس (البطريرك) بتسليمها على أن يتسلمها الخليفة بنفسه . ويجيب عمر البطريرك الى طلبه ويبدى عمر فى تلك الرحلة من البساطة والكرم الشىء الكثير . وينال سكان ايلياء حرية الضمير كاملة ، وتحترم كنائسهم ، وتفرض عليهم جزية فقط » . (٧)

---

(٦) المرجع ٣ — ص ١٩٤ ، ٢١٠ ، ٢٢٩

(٧) المرجع ٢ — ص ١٤٠

وتقول « وثيقة الأمان » التى بعث بها عمر الى البطريرك صفرونيوس عام ٦٣٧ م :

« أما بعد ، فهذا عهد منى أنا عمر بن الخطاب أعطى للشيخ الوقور بطريرك الأمة الملكية صفرنيوس على جبل الزيتون بمقام القدس الشريف ، فى الاشتمال على الرعايا والقسوس والرهبان والرهبات ، حيث كانوا وأين وجدوا ، وأن يكون عليهم الأمان لأن الذمى اذا حفظ أحكام الذمة وجب له الامان والصون منا نحن المؤمنين والى من يتولى بعدنا ولتقطع عنهم أسباب جوانحهم .. وليكن الأمان عليهم وعلى كنائسهم ودياناتهم وكافة زياراتهم ، لأنهم أعطو من حضرة النبى الكريم .. وأمر بالنظر اليهم ، والأمان عليهم ، كذلك نحن المؤمنين نحسن اليهم ويكونون معافين من الجزية والغفر والمواجب ، ومسلمين من كافة البلايا فى البر والبحر ..
وكل مؤمن ومؤمنة يحفظ ما أمرنا به ، سلطانا أم حاكما أم واليا يجرى حكمه فى الأرض ، غنى أم فقير من المسلمين المؤمنين والمؤمنات .. وكل من قرأ مرسومنا من المؤمنين ، وخالفه من الآن الى يوم الدين ، فليكن لعهد الله ناكثا ، ولرسوله الحبيب باغضا » . (٨)

ويلفت النظر ما يختم به عمر ذلك العهد العمرى ، من تشديده النكير على كل من يأتى بعده ويحاول أن ينتقص شيئا من حقوق اهل الذمة ، فيمنع بذلك الوفاء بالعهد المقطوع لهم .



ولقد استمرت هذه الروح العربية سائدة قرون عديدة . وفى عصر الدولة العباسية « كان من الأمور التى اصطلح عليها ، أنه اذا ما اجتمع أرباب عشر أسر من النصارى ، أو اليهود ، أو المجوس أمكنهم أن يقيموا كنيسة ، وانه يمكن كل رجل أن يمارس المناصب العامة من اى ديانة كان » . (٩)

ولم يكن الشيء الذى بهر الأنظار فى أمر الفتوحات العربية : هو ذلك الزحف الخاطف الذى حطم به المجهدون من أبناء الصحراء جيوش امبراطوريات تفوقهم عددا وتنظيما وتسليحا وامكانيات فأثبتوا للعالم أهمية الايمان فى صنع المعجزات ، وهو الدور الذى فشل فيه الاسرائيليون من قبل حين عجزوا عن تمكين موضع قدم لهم فى اقليم صغير مثل فلسطين ، ونبيهم موسى صانع المعجزات المادية لم يزل حيا فى ذلك الوقت بين ظهرانيهم .

(٨) المرجع ١١ — ص ١٩
(٩) المرجع ٢ — ص ٢١٢ .

كذلك لم ترجع خطورة الفتوحات العربية الى ما قدمته للشعوب المغلوبة - وأغلبها يشارك العرب جنسهم - بتخليصها من ظلم حكامها الغرباء واضطهاداتهم ، لم يكن هذا ولا ذاك فقط - بل ان عوامل الاثارة والتقدير فى أمر الفتوحات العربية ، انما ترجع بجانب ما سبق الى تلك الروح الجديدة التى أشرقت على العالم ، فخلقت فيه - من بين ما خلقت - طفرة علمية جبارة ، يعجب لها العلماء المحايدون - من غير العرب - ويقولون فيها :

« ان هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء من العدم ، من أعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى . فسيادة ابناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة، وحيدة فى نوعها . وان الانسان ليقف حائرا أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة ، هذه المعجزة العربية التى لا نظير لها والتى يحار الانسان فى تعليلها .

اذ كيف من المستطاع أن شعبا لم يسبق له أن لعب دورا سياسيا أو ثقافيا من قبل ، يظهر بغتة الى الوجود ويسمع العالم صوته ويملى عليه ارادته .. ان هذه المنزلة التى بلغها العرب أبناء الصحراء لم تبلغها شعوب أخرى كانت أحسن حالا وأرفع مكانة .

ان بيزنطة الوريثة الغنية لا للشرق القديم فحسب بل للثقافة اليونانية أيضا ، لم تنتج شيئا وظلت حتى اليوم عاقرا ..

أما الشعب الذى خلف الثقافة القديمة ، وحمل لواء النهضة العلمية الفكرية فى العالم ، فهو شعب صحراوى ، خرج من الصحراء وبسرعة البرق قبض على صولجان السيادة الثقافية فى العالم . وظل أبناء الصحراء حاملين لهذا الصولجان دون منازع مدة لاتقل عن ثمانية قرون كما أن هذه الثقافة العربية قد تفتحت وازدهرت وأينعت أكثر من الثقافة اليونانية ..

ففى أواخر القرن السابع الميلادى كانت السيادة العربية قد بلغت شمال أفريقيا وامتدت حتى المحيط الأطلسى . وفى عام ٧١١ م بينما كان العلم الاسلامى ينتشر شرقا مرفرفا حتى الهند انقض المحاربون المسلمون على دولة القوط الغربية فى أسبانيا ، واستولوا عليها بالرغم من قلة عدد المسلمين وعددهم بالنسبة لأعدائهم ..

وفى عام ٧٣٢ فقط استطاع شارل مارتيل أن يقف أمام هذه الجحافل المتدفقة ودارت عن تور وبواتيه معركة ، وأثناء الليل عاد المسلمون أدراجهم ومعهم جثة قائدهم عبد الرحمن الذى سقط قتيلا ، وتحصنوا عند ناربون ، حتى اضطر شارل مارتيل بعد اثنى عشر عاما أن يشتبك مع المسلمين عند أفينيوس ونيميس ، دون أن ينجح فى اجلائهم عن دولته ، وذلك لأنهم كانوا فى اقليم بروفينس وغرب الألب واقليم أكوتيانيا ، أى فى البلاد التى نجد فيها فيما بعد ، حقلا خصيبا للثقافة العربية ، ولمدة قرن من الزمان .

وحتى فى منتصف القرن العاشر نجد المسلمين يستجيبون لنداء الملك هوجو ملك اللومبارد ، ويتقدمون فى البلاد فيبلغون انجادين ، حيث نجد بونتريزينا وبونس سارسينا ، أى قنطرة المسلمين ، التى ما زالت الى اليوم قائمة تحمل ذكرى أولئك الأجانب العظام .

ثم نجد العرب يتغلغلون فى ايطاليا ولمدة قرنين وبقوة ونجاح ، وقد بدت وكأن روما الأم لا بد وأن تشاطر أسبانيا الهزيمة والضياع ، فمن صقلية اندفع العرب حتى استولوا على اقليم أبوليا وكالبريا ، واستطاعوا تهديد روما والبندقية المنيعة ، وكان هذا الزحف العربى استجابة لرغبة نابولى .

وقد ظل العرب حتى عام ٩١٥ يتناوبون السيادة على جنوب ايطاليا، بل وجميع الجزر الواقعة فى غرب البحر الأبيض المتوسط ، هذا البحر الذى أصبح بحرا عربيا ، اللهم الا الجزء الشرقى الذى كان خاضعا لبيزنطة ..

ان هذه الفتوحات العربية كانت غريبة فى نوعها حقا .. كم هذه الشعوب التى عرفها التاريخ وقفت من المغلوبين المهزومين والذين يدينون بدين أو أكثر يخالف دين المنتصرين ، موقف العرب المتسم بالانسانية والتسامح ؟ واذا أضفنا الى هذا الموقف الكريم الذى وقفه العرب والاسلام من الشعوب التى انضوت تحت رايتهم هذه المثابرة على نشر الثقافة العربية الاسلامية وهى ثقافة تختلف فى جوهرها عن الطلاء الهللينى أو القشور الرومانية ، ازددنا تقديرا واعجابا بالعرب ..

ان الشعوب صاحبة الثقافات القديمة قد هرمت وتجمدت مياه

الحياة فى شرايينها حتى أصبح من الضرورى فناؤها ففى القرنين الثالث والرابع الميلادى أخذت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وتتلاشى من على مسرح الحياة تدريجيا ..

وكأننى بالعناية الالهية قد أرادت لهذا التراث الانسانى الحياة ، فبعثت أبناء الصحراء وقد عمرت قلوبهم بايمان الاسلام ودعوته الجديدة ، فتسارعوا الى تلك الحضارات العقلية فأنقذوها مما يتهددها ، وبعثوها بعثا جديدا فتيا . ولولا هذا الفتح الجديدة لظلت الثقافة القديمة دفينة ميتة ، يخيم عليها سكون القبر ووحشته الى حين » . (١٠)

*

على ضوء هذا نستطيع أن نقول : حقا ، لقد كانت الفتوحات العربية فتحا اعلميا حضاريا ، وكانت — بكل أبعادها — معجزة لمن يطلب المعجزات .

* * *

العرب فى اسبانيا :

يصف سيديو حال أسبانيا قبل الفتح العربى فيقول : « كانت عناصر الضعف تبدو فى صميم نظام المجتمع المقسوم الى طبقات متعادية ، فضلا عن عطله من الروح العسكرية . وكانت مدونة القوانين التى ألفت فى مجامع الأساقفة بطليطلة خليطا عجيبا من قوانين الرومان وعادات الجرمان » .

ولكن بعد أن استبدلت أسبانيا حكامها القوط بالعرب « لم تلبث أن عادت اليها نضارتها القديمة . ولم تزد الجزية التى فرضها العرب على أسبانية عن الضريبة السنوية التى كانت تدفعها الى القوط .

والعرب كانوا يظهرون معتدلين عند النصر .. فلم يحاربوا بمثل ما كان يحارب به الهون النورمان من الاندفاع والهمجية » .

ولقد « احترمت جميع الشروط التى وضعت وقت الفتح احتراما كليا ، فسلمت الأسلحة والخيول ، ومنح من يودون الرحيل حق مغادرة البلاد .. ووعد من يبقون فى البلاد بالمحافظة على أملاكهم وقضاتهم

---

(١٠) المرجع ٦ — ص ٢٥٧ — ٢٦٣

وقوانينهم وكنائسهم .. والزموا بدفع خراج لا يزيد عن عشر المحصول .. واحتفظ الفاتحون لأنفسهم بالاراضى المهجورة » . (١١)

« ومن أسبانيا الواقعة فىغرب القارة الأوربية، زحفت العروبة على كل أوربا ، ومن اجزاء القارة البيضاء من استنكر هذا الزحف ، ومنها من أعجب به ، لكن على كل حال وقفت أوربا من زحف الثقافة العربية موقفا سلبيا» (١٢)

*

وترى سيجريد ان هناك « ظاهرة عجيبة حقا تستحق التفكير اكثر من سائر الافتراضات والعجائب التى جاءت بها الثقافة العربية ، وهذا يبدو فيه شيء من التناقض . فأخصب البقاع حضارة وثقافة ومدنية هى تلك التى كانت فيها قليلة جدا ، وذلك لندرة وجود العنصر العربى ، وحيث لم تقم من قبل حضارة هامة . ان الحضارة الطارئة فى الأقطار الأخرى التى تشبه اسبانيا تماما ، وذلك مثل صقلية ومصر وسوريا والعراق وايران ، حيث نجد شعوبها مثقفة ثقافة رفيعة تلعب دورا هاما فى الثقافة البشرية مثل الهللينية والبيزنطية واليونانية والفارسية والهندية حيث تفاعلت مع الثقافة العربية .

أما فى بلاد المغرب البربرية وفى اسبانيا حيث كانت الدولة القوطية الغربية وريثة الاستغلال الرومانى والاستعباد والمرض المزمن الذى أصاب البلاد من جراء الاستعمار الرومانى والذى خلف طبقة من رجال الدين المتعصبين ، فهنا لايوجد شيء وتنعدم كل مقومات الحضارة . وعندما جاء الفاتحون أخذت الموجات العربية تفد من بلاد العرب ومن سوريا وليس حولهم من شعوب قد يقتبسون منها شيئا ما .

فهذه الثقافة الرفيعة العالية التى بلغها العرب فى اسبانيا هى خير ما يدحض الادعاءات القائلة بأن العرب قد اخذوا الحضارات البائدة واعادوها ثانية وأنهم مقلدون فقط ولم يأتوا بجديد . ففى اسبانيا لم توجد حضارة يقال ان العرب اقتبسوها وتعلموها وقلدوها ، والحقيقة التى يجب الاعتراف بها أن جمال الثقافة الاندلسية لم يكن فارسيا أو يونانيا ، بل كان عربيا فقط وعندما اختفى العرب من اسبانيا ، انحطت البلاد وتدهورت حضارتهم وخيم عليها الموت ولم تنتج شيئا .

---

(١١) المرجع ٢ — ص ١٨٢ — ١٨٨
(١٢) المرجع ٦ — ص ٣٥٨ — ٣٥٩

ففى اسبانيا ظل حكم العرب ثمانية قرون كانت ازهى واغنى العصور، من خير ما عرف على يد البيوت الحاكمة وهى عربية قديمة ..

وما هى فترة ثمانية قرون ؟ انها قصير الا انها غنية جدا بالاحداث التاريخية انها فترة تساوى تلك التى تمتد .. منذ مجيء الملك فيليب الثانى ملك فرنسا حتى الجمهورية الخامسة للجنرال ديجول ..

فهذه الفترة بالضبط عبارة عن ٧٨١ عاما ، ازدهرت وأينعت فيها الحضارة العربية فى شبه الجزيرة الأوربية .

لكن الغرب لم يعرف شيئا عنها .

والجار الغاضب المكشر عن انيابه ، والذى كان يقيم على الجانب الآخر من جبال البرانس ظل أصم وأعمى . فقد غشيت عينيه غشاوة بفعل الأنوار الساطعة والجنة الغناء .. وقد صور هذا الجار الغاضب تلك الجنة بأنها وطن السحرة وعبدة الشياطين .. لكن هذا الجار فشل فى سد اذنيه وأغماض عينيه تماما ، وتأثر تأثرا قويا بحضارة جاره » . (١٣)

*

ان العالمة الالمانية تقرر فى هذه الأقوال : أن العنصر العربى عنصر حضارى بطبعه ترتبط به الحضارة كظله ، فهو يقيمها حيثما يقيم .

*

والعرب حين جاءوا الى اسبانيا « من مصر والشام وفارس التى هى بلاد زراعية ، كانوا .. ذوى مواهب تجارية وكانوا ذوى ميول الى الصناعة وفق شريعة النبى التى تأمر بالعدل .. فأدخلوا الى أسبانيا أساليب زراعية قائمة على الترصد والتجربة ، واحيوا مواتها ، وعمروا مدنها الخالية ، وزينوا جيدها بأفخم المبانى ، ووصلوا بينها بمختلف العلائق التجارية ، فغدت اسبانية التى استثمرت وحرر فدادوها (القوى العاملة بها) اكثر بقاع أوربه سكانا وعمرانا » (١٤) .

« وبينما كان ظلم القوة مطبقا فى اوربه .. كان عرب اسبانية يدركون اعمال السلم ، ويحترمون آثار الذكاء مع المحافظة على نشاطهم الخلقى الذى نجم عن تعود المعارك . واذا كان العرب قد زاولوا العلوم والفنون ، لم يكونوا فى ذلك كالفرنج الذين اطاعوا شرلمان المسيطر ، بل مارسوها وفق سجيتهم ، فلم يفعل الخلفاء غير موارة الرأى العام ، وما أتاه الخلفاء من حث على الآداب والتجارة والصناعة .. قوبل بالشكر من قوم كانوا مقدرين لهذه المقومات » .

---

(١٣) المرجع ٦ — ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .
(١٤) المرجع ٢ — ص ١٨٩ ، ٢٩٣

« لقد كان العرب أرقى .. أخلاقا وعلما وصناعة .. وكان من العبث أن يبحث لدى غيرهم عن مثل ما فى سجيتهم وطبائعهم من الكرم والوفاء وحب الخير . ومما أدى الى عظمة العرب فى أسبانية ما بلغته الآداب والعلوم والفنون من التقدم العظيم فى ابان دولتهم ، وكنت ترى حب الثقافة عاما فى جميع الطبقات .. وكنت ترى انصاف القضاة بغزارة العلم انصافا جالبا لاحترام الناس احكامهم ، وكنت ترى تنافسا كريما حافزا ..

وبلغ العرب درجة رفيعة من الكمال فى فن الغناء والموسيقى والرقص ولا يزال الناس يدرسون طراز مبانيهم الخاص فيعجبون بزخارفها » . (١٥)

« وشملت العلوم أنظار العرب أيضا فكان يعلم فى المدارس علم الفلك والجغرافيا والمنطق والطب والنجوم والفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعى . وكانت مكتبات العرب حافلة بنسخ من مؤلفات علماء اليونان وفلاسفة الاسكندرية . وزاول العرب العلوم الرياضية والجبر والهندسة بنجاح وكان جربرت الشهير الذى اصبح بابا فى أواخر القرن العاشر باسم سلفستر الثانى ، قد تلقى فى الأندلس من المعارف ما بهر به معاصريه ، فاتهموه بالسحر .

وما ابداه العرب من النشاط فى حقل الصناعة أعظم من ذلك فالعرب بعد أن وجدوا المناجم التى كان الرومان والفنيقيون يستخرجون منها معادنهم ، بادروا الى استثمارها ، ثم فتحوا مناجم أخرى .. ولا مراء فى الخدم الزراعية التى اسدى بها العرب الى اسبانية فما قاموا به اعمال الرى فى سهل بلنسيه .. وفى سهل غرناطه .. أدى الى اعظم درجات الخصب ..

ويجب الا يحكم على حالة الاندلس ايام سلطان العرب بحالتها الحاضرة فقد كان عدد سكانها يزيد كثيرا على عددهم فى أيامنا ، وكان فى القسم الأسبانى الذى ملكه العرب ست مدن عظيمة وثمانون مدينة ثانوية ، وثلاثمائة من الدرجة الثالثة ، ومالا يحصى من الضياع والقرى والكفور .

وكان يعد فى قرطبة وحدها مئتا ألف بيت ، وستمائة مسجد وخمسون مستشفى وثمانون مدرسة عامة ، وتسعمائة حمام شعبى ، وكان عدد سكان قرطبة مليون شخص .

---

(١٥) المرجع ٢ — ص ٣١٢

ويظل الانسان دهشا تجاه الثروات التى بذلها العرب فى شيد مبانيهم وفى اعيادهم العامة . ولا يكفى الوصف لبيان النفائس ، والنشوة الشاملة التى كانت تسود قرطبة فى اعيادها ، فقد كانت تنار بأسرها ، وكانت تنثر طرقها وكنت تسمع الحان الموسيقى تملأ الفضاء فى متنزهاتها وأماكنها العامة ، وكنت ترى أهلها يرقصون فرحين ..

اذن كان عرب الأندلس على رأس الأمم المتمدنة فى القرن الحادى عشر ... اذن كان عرب الأندلس افضل من جميع أمم أوربة فى ذلك الدور » . (١٦)

***

العرب فى صقلية :

حكم العرب صقلية زهاء ثلاثة قرون . « ولقد اغنى العرب تلك الأراضى الفقيرة بحقول القطن وقصب السكر ، كما توجوا البلاد بتاج من القلاع الحصينة والقصور الشامخة والمساجد التى تعتبر آية فى الفن والجمال .

وكان بها الفلاسفة والأطباء والطبائعيون والرياضيون ، يتعاونون جميعهم فى نشر العلم والثقافة ورفع مستوى الشعب . هنا الف المؤلفون كتبهم ودونوها على ورق أبيض ناعم ، وهذا هو أول ورق جاء أوربا قبل أن تعرفه من قبل عن طريق اسبانيا بزمن بعيد ..

وهكذا نجد جزيرة صقلية تصبح للعرب وطنا ثابتا » . (١٧) .

ولقد كان « ما فرضه العرب على اهل صقلية من الضرائب اقل من مما كانوا يعطونه ، وأكثر منه انتظاما . وكانت الضريبة اذا ما وضعت لم تبدل باستمرار ، خلافا لما كان يستفيد منه وزراء قياصرة الروم وحدهم ، وقل مثل ذلك عن ادارة العرب العادلة الرشيدة ، فقد ترك لأهل صقلية حق اختيار نواب منهم ، لتعرف مصالحهم ، وليتفاهموا هموقواد العرب » .

« واذا عددت نعم الادارة الجديدة التى امتع العرب بها سكان صقلية ، وجدت هؤلاء الأهلين مدينين للعرب أيضا باصلاح الزراعة ، والفنون ، والصناعة . فكان من نتائج الفتح العربى تحريك الهمم فى حقل النشاط الوطنى ..

---

(١٦) المرجع ٢ — ص ٣١٤ — ٣١٨ .
(١٧) المرجع ٦ — ص ٣٠٩ .

وما تم فى صقلية من تحسين العرب لأساليب الزراعة عظيم جدا ، وما أخذته صقلية عن العرب من نظام الأنابيب المعقوفة المشـهور ، لا تزال تعمل به ، وما نالته التجارة والصناعة من تقدم ، كبير للغاية .

وفى الأنباء الموثوق بها ، ان حياكة النسيج الحريرية انتشرت فى اوربه فى القرن الثانى عشر بواسطة صقلية ، وأن مصادر صقلية الطبيعية استثمرت فاستخرج منها الحديد والفضة ، والنحاس والكبريت والملح المعدنى ..

تلك حال العـــرب الذين ينعتهم مؤرخونا (الأوربيون) بالبرابرة ، فيصفونهم بأســوأ صورة ، فبينما هم يتهمون بأكل لحوم البشر ، كانوا يجلبون معهم الثراء والحضارة » (١٨) .



لكى الشيء المثير فى دور العرب فى صقلية ، هو اســتمرار نفوذهم الحضـارى فيها زمنا طويلا بعد أن اقصـاهم الغزاة النورمانيون بعيدا عن الحكم . ولم يتعرض العرب وحضارتهم فى صقلية لمثل ماتعرضوا له فى اسبانيا بعد ذلك بأربعة قرون حيث دمرت حضارتهم ، واحرقت مكتباتهم ، وعانوا الكثير من القتل والتنـكيل . فلقد عرف النورمانيون كيف « يقابلون التسامح العربى بتسامح آخر وفتوة سمحاء وهذه الصفات رفعت من قدر النورمانيين ، وميزتهم على سائر الفاتحين المسيحيين . كما أن هذه الاخلاق وتلك المعاملة هى التى جعلت من دولتهم دولة ممتازة ، كما أنه لم تزدهر فى أوربا ازدهار الدولة النورمانية دولة أخرى » .

« وقد أعاد التاريخ نفسه بعد قرن من الزمان ، فحيث كنا نجدالعرب المنتصرين يؤمنون خصومهم المهزومين .. على أموالهم وأرواحهم وممتلكاتهم وعقائدهم ، كذلك صنع روجر الأول (الأمير النورمانى فاتح صقلية) ، فقد أمن المسلمين من رعاياه على اراضيهم وأرواحهم وممتلكاتهم وعقائدهم ، ولو أن فارقا وقع بين العصرين، أعنى عصر انتصـــارات العرب ، وعصر انتصارات النورمان ، وهذا الفارق هوأن المهزومين الآن (العرب) لايحاولون تقليد المنتصرين فى حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، بل العكس هو الصحيح ، فالآن نجد المنتصرين المسيحيين هم الذين يقلدون المسلمين ، ويحاولون الاندماج فيهم وائتلافهم .. فالمسلمون انتصروا أو انهزموا ، هم المثل الأعلى الذى يحتذى . »

---

(١٨) المرجع ٢ — ص ٣١٤ — ٣١٨ .

« وفى ايام حكم روجر الثانى كانت وظيفة أمير البحر هى اعلى وظيفة فى الدولة ، كما أن شاغلها كان موضع ثقة الملك ، وأول من تقلد وظيفة الاميرالية — هذه الوظيفة التى هى أصلا وظيفة عربية لم يكن أحد رجال البحر الاقدمين الذين خدموا فى الاسطول النورمانى ، بل كان أول أمير البحر للاسطول المسيحى عربيا .

ويدين روجر الثانى للعرب الذين مكنوه فى الأرض وهو أصغر ملوك اوربا ، أن يصير أغنى الجميع . فالعرب هم المهرة فى زراعة الأرض ، ونشاطهم الصناعى ، ونظامهم المثالى فى الاقتصاد والضرائب ، قد أخذه عنهم كما أخذ عنهم الادارة والتشريع » . (١٩) .

***

ولقد اراد روجر الثانى عمل خريطة جغرافية تبين البلاد ومواقعها ، فاستدعى الى بلاطه « اشهر جغرافى العرب فى عصره ، الا وهو الادريسى .. لقد درس الادريسى فى قرطبة وقام برحلات طويلة بين آسيا والشواطى الغربية لانجلترا ، ثم تحول جنوبا حتى بلغ جنوب افريقيا ، وقضى خمسة عشر عاما فى بالرمو ، يعد أرقامه وخرائطه وملاحظاته العديدة ..

وفى اوائل عام ١١٤٥ م كمل هذا المؤلف العلمى العظيم ، وقد خلف لنا بطليموس العرب سبعين خريطة .. لكن احسن واشهر خريطة وصلتنا هى تلك التى تركها لنا الادريسى ، وأعنى الخريطة الكبرى للعالم ، وهى محفورة على كرة من الفضة قطرها متران ، وتزن ثقل رجلين مكتملين » .

لقد ظل القوم فى اوربا « زمنا طويلا لاعلم لهم بالجغرافيا .. وخرائط الادريسى التى رسم عليها الأرض على هيئة كرة ، بالرغم من أنه لم يكن من المستطاع حسب التجارب الشخصية أو غير الشخصية أو الحسابات الرياضية تدعيم هذا الرأى القائل بكروية الأرض . فالذى كان معروفا فى كثير من الاديرة حسب رواية الكتاب المقدس ، أن خريطة العالم عبارة عن قطعة من الأرض تحيط بها المياه ، وفى وسطها تقع الجنة . وليس بطليموس، بل جغرافيو العرب فى القصر الملكى بصقلية هم اولئك العرب الذين علموا اوربا ، وخريطة الادريسى .. هى أول مجهود علمى شخصى » . (٢٠)

***

---

(١٩) المرجع ٦ — ص ٣١٢ — ٣١٧ .
(٢٠) المرجع ٦ — ص ٣١٩ ، ٣٢٤ .

أثر العرب فى المجالات العلمية :

لا نستطيع هنا أن نقتفى آثار العرب فى مختلف المجالات العلمية التى اسهموا فيها ، فذلك عمل فوق الجهد ، وفوق طاقة هذا الفصل — فصل الحضارة العربية — الذى هو احد فصول هذا الكتاب .

ورغم أنهذا الموضوع على سعته لايزال بكرا — ويحتاج الى مجهودات الكثيرين من الافراد والهيئات التى تهتم بحفظ التراث الانسانى وتقييمه — الا أننا نستطيع أن نلم بشىء مما حققه العرب فى بعض المجالات العلمية التى اسهموا فيها بنصيب كبير . ولقد اخترت منها ما يرتبط بعصرنا الحالى — عصر الذرة والفضاء — والذى ترجع اغلب انجازاته الى ما تحقق من تقدم فى مختلف العلوم الرياضية والطبيعية والكيميائية ونحوها ، والتى نتعرض لها بايجاز شديد فى هذا المقام . (٢١) .

❋

أثر العرب فى العلوم الرياضية :

لقد نبغ العرب فى الرياضيات ، فكان الخوارزمى أول من جعل الحساب علما قابلا للتطبيق العملى ، وهو الذى علم اوربا طريقة الأعداد الجديدة وكتابتها من اليمين الى اليسار — كما يكتب العرب لغتهم — واهمية استخدام الصفر وخاصة فى تبسيطه لعمليات الجمع والطرح .

والخورازمى هو صاحب الفضل الأكبر على علم الجبر الذى خلق منه العرب علما مستقلا بفضل مؤلفات ودراسات أبو كامل والبيرونى وابن سينا والكراديسى وغيرهم — تلكالمؤلفات التى نقل عنها كل من : ليوناردو فون بيزا ما خطه عن المعادلات التربيعية والتكعيبية ، وكذلك الجراف فون ايبرشتين الالمانى زعيم طائفة الدومنيكان رسائله التى علمت أوربا حساب العرب جبرهم .

وفى عام ١٨٤٥ أثبت الفرنسى رينان أن علم اللوغريتمات ينتسب الى اسم العالم العربى : الخوارزمى .

كذلك نهض العرب بحساب المثلثات ، فكان الفلكى القبانى أول من استبدلالأقواسبالأوتار واستخدام تعبير : جيب/تمام الجيب الذىلم يعرفه الاغريق من قبل ، وكان الفلكى جابر الذى برع فى علم المثلثات الكروية واستنبط من القوانين ما ساعد على حل المثلث والتقدم فى علم الفلك .

❋

---

(٢١) انظر المرجع (٢) والمرجع (٦) .

ان علماء الغرب يعترفون بأن أوربا قد بنت صرحهـــا العلمى « على المجهودات العربية ، فمن الفلكيين العرب أخذت أوربا الحســـاب المعروف باسم الطريقة الســـتينية ، وهو النظام القائم على اتخاذ الوحدة ســـتين قسما .. والعرب فقط هم الذين استكملوا الحســـاب الســـتينى ، وبذلك أصبح حساب الفلكيين .

والعرب أيضا هم الذين سبقوا أوربا بنحو سبعمائة عام قبل انجلترا والمانيا الى ايجاد الحساب الخلافى (التفاضلى) ، وصاحبا الفضـــل فى ايجاده الطبيب الفيلسوف ابن سينا (٨٩٠ — ١٠٣٨) واللاهوتى الغزالى (١٠٥٣—١١١١) .. لقد أضاف ابن ســـينا عن طريق بحوثه العلمية التى لم يسبقه اليها أحد الكثير من النظريات الطبيعية كذلك عالج اللانهائى .. فى الطبيعة والرياضة ، ولا شك أن أوربا لم تنتبه الى مثل هذه النظريات الخاصة باللانهائي .. الا فى القرن الســـــابع عشر الميلادى بفضل أمثال نيوتن ، وليبنيتز ..

فالعرب بأعدادهم وآلاتهم وحساباتهم وجبرهم ونظرياتهم حول المثلثات الكروية وعلوم البصريات وغيرها نهضوا بأوربا ودفعوها الى الحركة العلمية دفعـــا ومن ثم استقلت ، واكتشفت واخترعت وتسلمت زعامة العلـــوم الطبيعية » (٢٢) .

***

أثر العرب فى العلوم الطبيعية والفلكية :

لقد « اتفق للعلوم الطبيعية عند العرب مثل ما اتفق للعلوم الرياضية من الرقى . ويرى همبولد وجـــوب عد العرب مؤسسين حقيقيين للعلوم الطبيعية بالمعنى الحديث . »

واشتهرت مدرسة بغداد « بالروح العلمية التى كانت سائدة لأعمالها ، فكانت مبادىء أساتذتها تقوم على الانتقال من المعلوم الى المجهول ، وعلى ملاحظة الحوادث ملاحظة وثيقة لمجاوزة المعلولات الى العلل ، وعلى عـــدم التسليم الى ما لا يستند الى التجربة .

وكان العرب فى القرن التاسع أصحابا لهذا المنهج الخصيب فأضحى بعد زمن طويل أداة بيـــد علماء الزمن الحـــديث للوصول الى أجمـــل اكتشافاتهم » . (٢٣) .

---

(٢٢) المرجع ٦ — ص ١١٩—١٢١ .
(٢٣) المرجع ٢ ص ٣٩٢ .

ذلك ما كان من طريقة العرب العلمية التى آتت ثمارها وحققت أعظم النتائج على أيديهم وأيدى من جاء بعدهم من علماء العالم .

*

« أما الأهمية والنتائج التى بلغها وتوصل اليها العلمـــاء العرب فى الطبيعة والفلك فكانت مضرب الأمثال . فعلماء الفلك فى بغداد ، كما يقول الفرنسى سديلوت ، بلغوا فى أواخر القرن العاشر مرتبـــة من العلم ليس بعدها من مزيد ، فلقد أدركوا ما كان يجب على العالم ادراكه قبل العدسات والمنظار ..

ومن أشهر علماء العرب الذين دفعـــوا الحركة العلمية فى أوربا الى الأمام وطوروها ، هو العالم العربى الفرغانى ، وكان معاصرا لبنى موسى الذين كانوا يعملون فى بغـداد . لقد قاس الفرغانى خطوط طـــول الأرض وأدرك وكان أول من أدرك ، أن فلك الشمس كسائر أفلاك الكواكب يتحرك مـــع مرور الزمن الى الوراء ، فكتاب الفرغانى فى أصـــول علم النجـــوم قد ترجم فى العصور الوسطى فى أوربا اللاتينية ونشره ميلنجتون عام ١٥٣٧م ، وكانت هذه المخطوطة من مخلفات رجيو مونتانوس فى نورمبرج .

ومن بين العلماء المشهورين الذين تلألأ نجمهم فى الفلك ثابت بن قرة تلميذ محمد بن موسى ، فقد حسب ثابت هـــذا ارتفاع الشمس وطول السنة الشمسية .

وغير ثابت بن قرة ، نجد البتانى (٨٨٧ — ٩١٨م) وقد ذاع صـــيته فى أوربا فى العصور الوسطى ابان حركة احياء العلوم ، وقد بلغ مابلغ من توفيق عن طريق دقته الحسابية لمعرفة التفاوت بين خطوط الطول للسنتين المدارية والفلكية ..

أما المقدمة الفلكية لزيجه المشهور فقد ترجمها رجيو مونتانوس الى اللاتينية وزودها بشرح ، وفى عام ١٥٣٧م نشرها فى نورمبرج مع كتـــاب الفرغانى ، فعرفتها أوربا . وفى عام ١٦٤٥ ظهرت طبعة جديدة فى بولونيـــا مستقلة وعنوانها اللاتينى : كتاب محمد البتانى فى الفلك مع تعليقات يوحنا رجيو مونتانوس . وقد اهتم كوبرنيكوس بالعلماء العـــرب وحتى حوالى عام ١٨٠٠م نجد الفرنسى لا بلاس يســـتفيد من كتب ابن يونس القاهرى فى دراساته وأبحاثه .

*

والحسن بين الهيثم (٩٦٥—١٠٣٨م) هـو الذى أثر فى أوربا تأثيرا بعيدا وعرفته تحت اسم « الحسن » ففضله على الفلك يتجلى فى اكتشافه ان جميع الأجرام السماوية ومن بينها النجوم الثابتة ترسل نورها ، عدا القمر الذى يستمد نوره من الشمس . فقد قال كل من اقليدس وبطليموس ان العين ترسل « أشعة بصرية » على الأشياء المراد رؤيتها فأعلن ابن الهيثم خطأ هذا الرأى وقال ان العين لا ترسل شعاعا ، وان هذا الشـــعاع ليس هو الذى يسبب الرؤية ، والعكس هـو الصحيح فان الجسم المرئى هـو الذى يرسل أشعة الى العين وأن عدسة العين هى التى تحوله (الى صورة) .

وابن الهيثم هو وأمثاله من العلمـــاء العرب هم مؤسسو الأبحـاث التجريبية ، وليس روجر بيكون أو باكو فون فرولام ، أو ليـوناردو دى فينشى ، أو جليلى ، فالعرب سبقوهم وبلغوا بأبحاثهم التجريبية المستوى الرفيع ..

كيف يقع خسوف القمر اذا كان القمر جسما غـــير مضىء ، وأنه يستقبل ضوءه من الشمس ؟ فمثل هذا الســؤال الفلكى دفع ابن الهيثم الى خلق نظرية خاصة بتكوين الظل عن طريق أجسام نورانية .

وأول تجربة قام بها هى الخاصة بجهاز يشبه تقريبا آلة التصـوير وبها ثقب ، وكانت هذه الآلة ما هى الا النموذج الأول لآلة التصـــوير . وقد أثبت بن الهيثم عن طريق هذا الجهاز استقامة خطوط الضوء ، ولم يكد يصدق عينيه عندما شاهد العالم وقد أصبح أسفله أعلاه بمجرد وضع الصورة وضعا عكسيا .

ان التجارب التى توصل بمقتضاها ابن الهيثم الى هذا الفتح العلمى الجديد ، هى بعينها التى اهتدى اليها ليوناردو دى فينشى فيما بعد . لقد وجد ابن الهيثم تعليلا لكسر الأشعاعات عندما تمر خلال وسيط مثل الهواء والماء ، واعتمادا على هذه الظواهر .. استطاع ابن الهيثم معرفة ارتفـاع الطبقة الهوائية المحيطة بالكرة الأرضية . والشىء الجدير بالذكر حقا هـو أن ابن الهيثم توصل الى معرفة ارتفاع هذه الطبقة تماما ، وأنها خمسـة عشر كيلومترا .

وذهب ابن الهيثم بعيدا فطبق معلوماته على أجهزة البصريات ، كما فحص أثر الحرق وتكبير المرئيات لا عن طريق المرآة المقعرة فقط ، بل عن طريق الزجاج الحارق والعدسة ، وبذلك استطاع ابن الهيثم عمـــل أول نظارة للقراءة .

أما أثر هـذا العربي العبقرى عـلى أوربا والأوربيين فعظيم جـدا ، فنظرياته فى الطبيعة البصرية ما زالت مسيطرة حتى اليوم على أوربا . فعلى أبحاث ابن الهيثم الخاصة بالبصريات تعتمد الأبحاث الحديثة منـذ ظهور الانجليزى روجر بيكون حتى البولندى فيتليو . ويدعى الايطاليون أن ليوناردو دى فينشى هو مخترع المصورة والمضخة والمخرطة وأول طائرة ، والواقع ان جميع هذه المخترعات تعتمد على ابحاث واختراعات الحسن بن الهيثم كما تؤيدذلك الأدلة الكثيرة الموجودة بين أيدينا . ففى المانيا عندما بحث يوحنا كبلر فى حوالى القرن السادس عشر ، القوانين التى اعتمد عليها جليلى فى عمل منظاره الذى شاهد به نجوما لم تر من قبل ، أدرك أن خلف هـذه الأبحاث يقف الحسن بن الهيثم . فحتى يومنا هذا تعرف المسـألة المعقدة المتصلة بالالمام بالطبيعة والرياضة معا ، والتى حلهـا بن الهيثم عن طريق معادلة من الدرجة الرابعة ، وقد أظهرت هذه المسـألة نبوغه الرياضى فى الجبر ، اذ حسب النقطة الموجودة فى مرآة مقعرة وعلى بعد خاص منهـا جسم يعكس على صـورة خاصة حسـابا صحيحا ، باسم : مسألة الحسن » .(٢٤) .

ولقد « شغلت هذه المسألة أذهان كثيرين من مهندسى الزمن الحاضر مثل : سلوز ، وهويجن ، وباردو وسيمبسون فحلها هذا الأخير حـلا هندسيا فقط » . (٢٥) .



« ونجد الزركلى (١٠٢٨ — ١٠٨٧م) يسجل فى طليطلة ما لا يقل عن أربعمائة واثنتين ملاحظة فهو يقرر ان بعد الشمس عن الأرض يتغـير حسب تقدم الليل والنهار الى الاعتدالين أو المدار الشمسى ، وأن هـذا البعد يتوافق تماما مع الاعتدالين . وقد نجح الزركلى كذلك فى حسـاب زمن ودقة الاعتدالين وكان توفيقه فى هذا الحساب عظيما جدا . أما الكتاب الفلكى الذى وضعه الزركلى فقد ترجمه الى اللاتينية جرهرد فون كريمونا، وقد ذكره عام ١٥٣٠ كوبر نيكوس مع البتانى فى كتابه المشهور :

De revolutionibus orbium coèlestium

والفلكى الطليطلى الشهير الذى تتلمذت عليه أوربا وعرفته تحت اسم Arzachel هو الزركلى ..

---

(٢٤) المرجع ٦ — ص ١٠٥—١١١ .
(٢٥) المرجع ٢ — ص ٤٢٢ .

ان أوربا لم تلتفت « الى ملاحظات العرب المتعلقة بالبقع الشمسية والتى تنبهت اليها أوربا عام ١٩١٠ م فقط ، وما يقال عن البقع الشمسية يقال أيضا عن ذبذبة محور الكرة الأرضية ، ولو أن الناس لايشعرون بها نظرا لكبر الأرض .

ومن الجدير بالذكر أيضا أن أوربا لم تلتفت الى رأى البيرونى (٩٧٣ـ ١٠٤٨ م) الذى نادى به حوالى عام ١٠٠٠ م وهو الخاص باعتبار الشمس هى مركز الكون من وجهة النظر الفلكية » (٢٦). لقد عرف العرب أن « دراسة الفلك ضرورية ، فالله جل جلاله حض الانسان على التأمل فى السماء والنظر اليها (٢٧) . فباسم الله درست حركات النجوم ،وباسمه تعالى يبدأ كل بحث علمى ، وهذه هى الميزة التى تجلى بها العرب وامتازوا بها على أوربا ..

وهذا هو المستوى العلمى الرفيع الذى حفظهم من التدهور والسقوط زمنا طويلا .» (٢٨) .

***

أثر العرب فى العلوم الطبية والكيميائية :

لقد نهض العرب بالطب نهضة جبارة ، ففى الوقت الذى كان هذا العلم عند غير العرب لايعدو أن يكون ضروبا من الشعوذة والدجل ، نجد العرب قد اعتبروه علما يقوم على البحث والدراسة والتجربة .

فعندما ظهر الطاعون فى أوربا فى القرن الرابع عشر ، أعلن استاذ فى « جامعة مونبيله عام ١٣٤٨ م ان مصدر تكاثر هذا المرض ، نظرة المرضى ،

---

(٢٦) المرجع ٦ ص ١١١ـ١١٤ .

(٢٧) « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » (الأعراف : ١٨٥) .
« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون » (يونس : ١٠١) .

(٢٨) المرجع ٦ ــ ص ١٢٣ .

لذلك نصح الطبيب أو القسيس أن يطالب المريض باغماض عينيه أو تغطية وجهه بملاءة من الكتان ، وبذلك يستطيع المعالج لمس المريض وفحصه دون خوف أو خجل .

وفى سويسرا وجنوب فرنسا نجد الشعب يتهم اليهود بأنهم سبب انتشار الوباء واستشرائه لذلك هاجم القوم اليهود وأحرقوهم ..

وفى ناربون وكركاسون اندفعت جموع الشعب وهاجمت الانجليز أعداء المملكة فقطعوهم وأشعلوا فيهم النيران . واعتقد آخرون فى الوباء وظهوره بأنه أقبل دخانا خانقا من السماء .. وقال آخرون أن سببه التقاء المشترى بزحل والمريخ فى ٢٠ مارس ١٣٤٥ .. وفى مقدمة الذين نادوا بهذا الرأى الطبيب البلجيكى سيمون دى كوفينو (٢٩) .

وفى تلك اللحظة يعود عربى بالأمن الضائع الذى فارق الأوربيين وانطلق الى السماء من الارض ، وذلك باتخاذ الاحتياطات الضرورية القريبة المنال. ففى عام ١٣٤٨ م وهو عام الطاعون نجد السياسى والمؤرخ والطبيب .. المعروف بابن الخطيب (١٣١٣–١٣٧٤م) يطلع على العالم المعذب برسالته فى الطاعون وأسبابه وعلاجه والوقاية منه ، ووجوب الاحتياط

---

(٢٩) قد يعجب انسان القرن العشرين لما كان يدور بمخيلة أهل القرون الوسطى عن الأمراض وعلاجها ، ولكن العجب قد تخف حدته حين نقرأ هذا الخبر الذى اذاعته وكالات الانباء من هولندا ، بتاريخ ١٩٧١/٣/٢١ تحت عنوان : قرية هولندية ترفض تطعيم أطفالها ضد الشلل لأنه مخالف للدين . وجاء فيه : « انتشر مرض شلل الأطفال فى قرية ستانورست الهولندية بشكل وبائى . وبلغت عدد الحالات منذ بداية هذا الشهر ٣٤ طفلا مات منهم ٣ حتى اليوم ، وذلك بسبب رفض السكان تطعيم أبنائهم لاعتقادهم بأن ذلك مخالف للدين ، ويلبس سكان هذه القرية السواد دائما حسب المبادىء الدينية التى كانت تحكم البلاد فى القرن التاسع عشر » . (ى.ب.ا — نقلا عن جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ١٩٧١/٣/٢٢) .

من العدوى الناتجة عن لمس المريض أو الاختـــلاط به .. وابن الخطيب يحذر من ويلاتها ويقول بوجوب الابتعـــاد عن المرضى وعن ملامســتهم أو الاقتراب من ملابسهم » .

*

« وهناك فرع آخر من فروع الطب يقوم دليلا على بعـــد العرب عن الانحرافات والالتواءات الأوربية ، وهذا الفن هو الجراحة . فالجراحـة تدين للعروبة فى تطورها وتقدمها السريع بعـــد أن كانت مهنـــة من المهن الحقيرة ..

ففى عام ١١٦٣ م منع تدريس الجراحة فى مدارس الطب — بأوربا — كما أن الجراحة اعتبرت مهنـــة مشينة تدنس شرف وكرامة الطبيب الذى يمارسها ، بخلاف العرب الذين أقبلوا عليها وأولوها عنايتهم فأصبحت علما من أجل العلوم وأشرفها ، بل وأصبحت الفن الطبى الوحيد الذى يتطلب اليقظة والانتباه وسرعة الادراك وسلامة الطبيب وقواه » (٣٠) .

*

وماذا عن المستشفيات ..؟

لقد كانت المستشفيات فى أوربا شبه معدومة وهى اذا ماجدت فانها « خالية من الأطباء ، وفقط فى عام ١٥٠٠م عين ولأول مرة فى مستشـــفى ستراسبورج طبيب مقيم ، وكان هذا بعد ثمانية قرون من تشييد الخليفة الأموى الوليد للمستشفى العربى ، والذى عين له عددا كبيرا من الأطبـــاء المختصين فى مختلف الأمراض ، وبعد ستراسبورج نجد فى مستشفى ليبزج عام ١٥١٧ ثم مستشفى أوتيل ديه فى باريس عام ١٥٣٦ » .

ولقد كان هذا المستشفى الأخير من أحسن المستشفيات الأوربية فى ذلك الوقت ، وكما تصفه المراجع « كانت أرضه مرصـــوفة بالطوب المغطى بالقش وعليه يتزاحم المرضى .. أقدام هؤلاء الى جانب رؤوس أولئك ، والأطفال الى جانب الشيوخ ، والنساء بجوار الرجال ، وأصحاب الأمراض المعدية مع غيرهم جنبا الى جنب . كما نجد النساء وقد جاءهن المخاض ، وأطفالا من المغص يتلوون ، ومصابين بالحمى يهـذون ، ومرضى الســـل يسعلون ، وآخرون بالأمراض الجلدية ينهشون . » (٣١)

(٣٠) المرجع ٦ — ص ١٩١-١٩٣ ، ٢٢٧
(٣١) المرجع ٦ — ص ٢٢٩ ، ١٤٠ .

لكنا نجد العرب قد عرفوا — منذ أكثر من ١٠٠٠ عام — أن المستشفى دار علاج يحتاج فيها المريض الى الكثير من المطالب حتى يبرأ من مرضه ، وانها مدرسة لابد أن يمارس فيها طالب الطب تدريبه العملى بجانب ماحصل من علوم نظرية فيكتسب بذلك المهارات المطلوبة . من أجل ذلك انتشرت المستشفيات فى الدولة العربية من أقصى الشرق الى أقصى الغرب وأحسن اختيار مواقعها ومبانيها واعتمد الكثير من الأموال للصرف عليها ، وأحسن اختيار الأطباء والعاملين بها ، ولا عجب اذا وجدنا من مستشفيات العرب فى القرن العاشر مايضارع مستشفيات القرن العشرين .

« ففى قرطبة نجد فى منتصف القرن العاشر خمسين مستشفى ، أما فى بغداد فقد فاقت غيرها واشتهرت بمستشفياتها منذ عهد هارون الرشيد فمواقع المستشفيات قد أحسن اختيارها صحيا ، كما زودت جميع غرفها ومحال الغسل بها بالمياه الجارية .

وكانت المستشفيات مزودة ببعض قاعات النوم والحمامات المفتوحة للجميع . ومن أشهر المستشفيات ، المستشفى الكبير المعروف باسم المنصورى أو دار الشفاء . »

« وكان كبير الأطباء هو المسئول عن سائر أطباء المستشفى ، وهو يختار عادة من بين زملائه الأطباء حسب مواهبه وكفاءته وقدرته . وقبل أن يختار الرازى مثلا رئيسا للأطباء أثبت أولا تفوقه على مئات من الأطباء المتخصصين فى مختلف الأمراض . وكان عدد أطباء المستشفى الذى يديره أربعة وعشرين طبيبا منهم الجراحين والكحالين والطبائعيين والمجبرين ، وكان كل طبيب يشرف على قسم خاص كما كانوا يتناوبون الخدمة ».

« أما المستشفيات الكبرى فقد كانت فى نفس الوقت هى المدارس العليا للطب ، فالمواد التى علمها بوقراط وجالنيوس وكبار العلماء العرب كان يتلقاها الأطباء الناشئون فى المحاضرات العامة تحت عقود المساجد وفى المدارس الطبية الخاصة التى كان يديرها الأطباء ، وكذلك فى المستشفيات والعيادات .

وحول الأسرة البيضاء كان الطبيب يطبق النظرى على العملى كما كان يستطيع فحص الجسد وتشريحه وفهمه .. وكان الطلبة يرافقون الأستاذ عند زيارته المرضى ويدرسون عمليا مختلف الحالات عندما يفحصها الأستاذ ويشخص المرض ويصف العلاج ، بل وكثيرا ماكانوا يسمعون المناقشة التى تدور بين رئيس الأطباء وزميل له ..

هكذا كان يتكون الأطباء العرب ، ومثل هذا النظام لم يعرفه العالم من قبل ، اللهم الا فى العصر الحـــديث فقط وقد بلغ حرص الدولة .. على المصلحة العامة أنها لم تكن تسمح لطبيب بمزاولة ما تخصص فيه من طب الا بعد أن يؤدى امتحانا نظريا وعمليا ، وتمنحه الدولة اجازة ينص فيهـــا على مادة تخصصه .

ولمعرفة مدى انتشار مهنة الطب وقتذاك يكفى أن نذكر أن عدد أطباء بغداد الذين كانوا يعملون خارج الحكومة بلغ نحـــو تسعمائة طبيب ... فى الوقت الذى لم يكن فيه فى كل حوض نهر الراين طبيب واحد ..

أما مجالس الأطباء التى كانت تعقد لمدارسة الحالات الصعبة .. فقد كانت ضمانا آخر لتجنب الوقوع فى الأخطاء الفنية .

وعند اجراء العمليات الجراحية الكبرى يســاعد الطبيب زميله .. فتجد أحد الأطباء يقوم بعملية التخدير وذلك بواسطة قطعــة من الاسفنج مبللة بالحشيش أو زهرة البسلة ومن ثم يضعها أمام أنف المريض لتخديره ، ثم هناك طبيب ثان يراقب نبض المريض وثالث يجرى العملية بكل عنـــاية ودقة وحذر .. أما المساعد فعليه أن يحجز الجلد بجرافة صغيرة دقيقة .

وبعد ذلك عمليــة الخياطة بأعصـــاب قطة .. هكذا كان يعلم على ابن العباس .

ويذهب على بن العباس بعيدا ويقرر أن الطب قد لايفيد فى حـــالة السرطان ، فهو يطالب الجراح انتزاعه من العضو المصـــاب ، وذلك بازالة كل ماحول السرطان حتى لاتبقى جذور المرض فى الجسم ، ثم بعد العملية يجب وضع قطعة من القماش مبللة بالنبيذ لتجنب حدوث تلويث ولقفـل الجرح . لذلك يجب مراعاة العناية الكاملة عند اجراء مثل هذه العملية ، فالعناية لا تقتصر على العضو المريض بل تمتد الى سائر أجزاء الجسم (٣٢)

*

لا شك أن هذه المدرسة الطبية العربية العظيمة قد قامت على أكتاف عباقرة من أبنائها العرب ، ولا شك أن تقدمها وامكانياتها كانت هى الوسائل التى خلقت أجيالا من عباقرة هذا العلم والفن الانسانى الجميل .

*

ولقد اشتهر من الأطباء العرب كثيرون منهم : أبو بكر محمد بن زكريا الرازى ، وتعرفه أوربا باسم Rhasis وقد نزح الى بغداد عام ٨٨٠م ليدرس الطب حتى نبغ فيه وقد اختير من بين مائة طبيب كانوا قد تقدموا لشغل وظيفة كبير أطباء بالمستشفى الكبير بعاصمة العباسيين .

---

(٣٢) المرجع ٦ ص ١٤٤–١٤٧ ، ١٥٣

« ان كفاءة الرازى الطبية لا تعـــدلها كفاءة طبيب آخر منذ عهـــد جالينوس ، وكان الرازى أول كيميائى استخدم هذا العلم فى خدمة الطب .. وينصح الرازى الطبيب المعالج بأنه اذا كان الدواء المطلوب جـديدا فتجب تجربته — قبل استعماله — فى الحيوانات لمعرفة أثره ومفعوله الكيماوى فى أعضاء جسم الانسان .

وخلف الرازى كتبا قيمة منها : « كتاب الحاوى » أو الجامع الخاص بصناعة الطب وهو يعرف فى أوربا باسم Continens — وهو موسوعة تقع فى نحو ثلاثين مجلدا تعالج الموضوعات الطبية المختلفة من عهد بوقراط حتى عصر جمعه ..

وكان هذا الكتاب الواحد يكون مكتبة كلية طب جامعة باريس — قبل ستة قرون — وكان الباريسيون يقدرون حقا قيمة الكتاب .. حتى أنهم أقاموا له نصبا تذكاريا فى المدرج الأكبر لكلية الطب .. واليوم لا يزال طلاب مدرسة الطب يشاهدون يوميا صورته وصورة عربى آخر (هو ابن سينا) عندما يجتمعون فى قاعة المحاضرات الكبرى فى شارع سان جرمان دى بريه .

وللرازى كتاب يعرف فى اللاتينية باسم — كتاب الطب المنصورى :

Liber medicinalis ad Almansorem

أما مؤلفه الخاص بعلاج مرض بعينه فله شهرة عظيمة وهـــذا هو الكتاب المعروف باسم « كتاب الجدرى والحصبة » .. مما اضطر علماء القرن الثامن عشر الميلادى الى الاعتراف بأنه خير رسالة كتبت فى هـــذا الموضـــوع .

ويجب أن نذكر هنا كتابا صغيرا وضعه الرازى وهو يعتبر حجة فى مادته وقد طبع فى أوروبا فى الفترة الممتدة بين عامى ١٤٩٨—١٨٦٦ ، أربعين مرة ، والى هذا المؤلف ترجع هذه البحوث الخاصة بالنقرس والحصـــوة وأمراض المثانة والكلى وأمراض الأطفال ..

وقد ترك الرازى أكثر من مائتين وثلاثين مؤلفا ورسالة وهذه المؤلفات لا تعالج الطب أو الكيميـــاء فقط بل تناولت الدين والفلســـفة والفلك والطبيعة والرياضيات » (٣٣) .



(٣٣) المرجع ٦ — ص ١٥٧—١٨٨ .

أما عن ابن سينا فحدث ولا حرج ...

فقد كان « ابن سينا هو العربى الثانى الذى يطل الى جانب الرازى من قاعة محاضرات كلية طب باريس ، وابن سينا هو أكبر أساتذة الطب ومعلم أوربا فترة لا تقل عن سبعة قرون ..

وكون السرطان الموضعى عبارة عن مرض بالسرطان للعضو ، فقد لاحظ هذا أولا ابن سينا ، وهو أيضا لاحظ العدوى التى قد تنشأ عن السل الرئوى ، وعن خطر الاشعاعات الشمسية على المصابين بالسل ..

لكن جميع وأجود كتب الطب التى وضعها الأطباء العرب بما فيها الكتاب الملكى وسائر مؤلفات اليونان وعلماء الاسكندرية تتضاءل أمام : « قانون ابن سينا » . فقد ترك هذا الكتاب الذى وضعه أمير الأطباء أثرا بعيدا ظل قويا فعالا عدة قرون .. وهو فى تاريخ الطب لايعادله كتاب ، فقد ضم هذا الكتاب بين دفتيه سائر فروع الطب نظريا وعمليا مع تنوع واضعيها .. وخرج الكتاب فى صورة قلما نجد كتابا آخر يدانيه فيها . فقد ذكر مؤرخ الطب سيدهوف حول هذا الكتاب مامعناه : انه انتاج شامل كأنه صب فى بوتقة ، وهو وحيد فى نوعه بين سائر المؤلفات الطبية وفى مختلف العصور .

ولقد كان « قانون ابن سينا » هو المنهل الذى اغترف منه الدارسون، ففى بولنيا نجد تاديو الديروتى يهتم بالقانون وشرحه ، وقد نجح فى تعاليمه التى أصبحت عقيدة لتلاميذه أجيالا متتابعة ، ومن بينهم أولئك الرسل الذين كرسوا حياتهم للطب ، فكانوا رسله وان تزيوا بأزياء عربية . ولقد قدس أولئك الرسل العلماء العرب والعلم العربى وبخاصة ابن سينا والرازى وظل هذا التقدير قائما حتى القرن السابع عشر . وأصبحت عبارة : روح ابن سينا Anima Avicenna من أكبر الألقاب التى يتشرف بحملها الطبيب الأوربى ..

أما درجة الامتياز التى كان لاينالها الا الفطاحل من الأوربين فهى : شعار ابن سينا Avicennista insignis وفى القرن السادس عشر أطلق لفظ : ابن سينى Avicennist على جميع أتباع ابن سينا ..

*

والجدير بالملاحظة أن نلقى نظرة على الطبعات القديمة للكتب الطبية وأولها ولا شك ، قانون ابن سينا ، فقد ظهر هذا الكتاب فى فبراير ١٤٧٣ فى ميلانو ، وبعد عامين ظهرت الطبعة الثانية ، بينما ظهر فى نفس الوقت « شرح ابن سينا » وقد نشره ذلك الايطالى وهو الكتاب المعروف باسم : روح ابن سينا Scele des Ibn Sina وظهرت طبعة ثالثة للقانون قبل طبع أول رسالة لجالينوس ، ومن ثم أخذت تتوالى الطبعات فظهرت الطبعات الأولى لكتاب المنصور والحاوى للرازى ، ثم الكليات لابن رشد . وهكذا حتى عام ١٥٠٠ ظهرت الطبعة السادسة عشر لكتاب القانون ، بينما لم تظهر لجالينوس الا طبعة أولى فى مجلدين . وفى القرن السادس عشر بلغت الطبعات للقانون : العشرين ، ومن ثم أخذت تتوالى حتى منتصف القرن السادس عشر . وهكذا نجد قانون ابن سينا هو أكثر الكتب الطبية دراسة وانتشارا فى عالم الطب ، أما طبعات شرحه فلا تحصى » (٣٤) .

*

وبعد الرازى وابن سينا ـ نذكر الطبيب العربى ابن النفيس (المولود عام ١٢١٠) ، الذى اكتشف الأخطاء التى ازدحمت بها آراء جالينوس عن الدم والقلب ، فعدلها تعديلا جذريا ، وكان بذلك أول من عرف حقيقة الدورة الدموية ، قبل أن يتكلم عنها وليم هارفى (عام ١٦١٦) بأربعة قرون .

واكتشف ابن رشد أن الاصابة ببعض الأمراض المعدية مثل الجدرى تمنح الجسم حصانة ، فكان ذلك أساسا لاستخدام التطعيم كوسيلة لتحصين الجسم ضد تلك الأمراض .

*

ولقد كانت براعة الجراح العربى أبى القاسم (٩٣٦ـ١٠١٣) تفوق الوصف ، فقد أدخل الى هذا الفن الكثير من الاضافات والابتكارات ، فنشط فى التشريح الجسمانى وتشريح الحيوانات لاجراء التجارب وعقد المقارنات .

وبرع أبو القاسم فى تفتيت حصوة المثانة ، وفى استخراج الحصوة المهبلية ، واستخدم الخطاف لاستخراج الزوائد الأنفية ، وعرف أنماطا مختلفة من الخياطة الجراحية باستخدام امعاء القطط والأوتار ، واستحدث طرقا جديدة فى عمليات الولادة وغيرها . ويعتبر كتابه « التصريف » أساسا للجراحة الأوربية .

*

(٣٤) المرجع ٦ ـ ص ١٨٨ـ٢٣٢ .

ولقد سطا الكثيرون على مؤلفات العرب ونسبوها اليهم « فبينما نجد فى عام ١١٢٧ أسطفان يترجم الى اللاتينية الكتاب الكامل فى الطب والمعروف باسم : الكتاب الملكى ، الذى ألفه على ابن عباس ، تبين اسطفان حقيقة هذه المادة التى سطا عليها قسطنطين (القرطاجنى الافريقى الذى كان يتزعم نشر الثقافة والعلوم الطبية العربية فى سالرنو) ونسبها الى نفسه ..

وفى صقلية اهتدى المترجم ديمتريوس الى أن كتاب قسطنطين الموسوم باسم : ده أوكوليس De oculis ما هو الا كتاب حنين فى شفاء العيون ، والكتاب المعروف باسم : فيتيكم Viticum ما هو الا كتاب ابن الجزار المعروف باسم زاد المسافر . أما كتاب الغذاء وكتابا البول والحمى فما هما الا ترجمة من كتب اسحق .

وأما كتاب قسطنطين فى التشريح فهو من تأليف على بن عباس ، وتبين العالم اليوم ان كتابه فى الكيميا مأخوذ عن الرازى .

وبالرغم من أن الغرب تنكر للعرب ، الا أن المؤلفات العربية وبخاصة مايختص منها بأمراض العيون ظلت متداولة حتى القرن الثامن عشر . وقد دخل كثير من اختراعات العرب وتجاربهم القيمة الطب الدولى ، بالرغم من اخفاء الأسماء العربية والتغاضى عن ذكر فضل العرب .

لكن من هم الذين لا يزالون يعرفونهم اليوم .؟

ومن يعرف المؤثرات الطبية العربية التى أخذت تلعب دورها فى أوربا منذ عهد قسطنطين الأفريقى ؟ . ومن يعرف حتى اليوم عظمة وخطورة الدور الذى قام به العرب فى سبيل تطور ونشأة الطب فى أوربا ؟» (٣٥)

***

هذا — ولقد كان تفوق العرب فى الصيدلة والكيمياء مكملا بل وضروريا لتفوقهم الذى أحرزوه فى الطب . وفطن العرب الى أهمية التخصص ففرقوا « بين الذين يعدون الدواء ، وأولئك الذين يأمرون باعداده أو بتعبير ادق لقد أوجد العرب الصيدلى ومهنة الصيدلة ..

وقد أسس العرب أول صيدلية عامة فى القرن الثامن الميلادى ، فكان كل مستشفى يحتوى على صيدلية كاملة .. وأوجد العرب أيضا صيدليات محمولة ترافق المستشفيات المحمولة . وكانت الصيدليات وما اليها من

---

(٣٥) المرجع ٦ — ص ١٨٧—٢٣٥ .

مستشفيات عسكرية محمولة ، خاضعة منذ عهد الخليفة المأمون فى القرن التاسع الميلادى للرقابة الحكومية . وكما كان يوجد أيضا نقيب للأطباء كذلك الحال مع الصيادلة ، اذ كانت توجد فى كل مدينة نقابة للصيادلة لها نقيب ، وكان يختبر الصيادلة ويمنحهم الشهادات التى تخول لهم حق ممارسة المهنة

ان مراعاة القواعد الصحية والصحة العامة صورة مثالية احتذتها أوربا ففى الشرق نجد التعليمات الخاصة بتأسيس المستشفيات وتنظيمها والعناية بها خير ألف مرة من مثيلاتها فى أوربا ..

وقد كان ابن البيطار (١١٩٧–١٢٤٨) نقيبا للصيادلة زمنا طويلا فى القاهرة .. وهو أكبر عالم نباتى عربى . وقد ألف كتابه : الجامع ، الذى يحتوى على جميع مواد الصيدلة فى عصره .

وأدرك الرازى بعض المتاعب التى يقاسيها المرضى من جراء تجرع الدواء المعروف باسم : رب ، فقد كان ردىء الطعم ، لذلك لما حوله الى حبوب كساه بطبقة حلوة من السكر اى جعله ملبسا كما هو الحال اليوم ... والى الرازى يرجع الفضل فى استخدام عصير الفواكه وطبخه واضافة العسل أو السكر اليه ومواد أخرى ،وصنع منه ملبسا وذلك بصب الخليط بعد طبخه على رخام وتشكيله حسب المطلوب .

أما العادة السائدة اليوم والخاصة بتذهيب أو تفضيض التباليع فانها ترجع فى الواقع الى ابن سينا .

*

ولقد خلق العرب الكيمياء التطبيقية التجريبية بمعناها العلمى المعروف لنا ، ومن ثم طوروها — كما يعترف بذلك المؤرخ الانجليزى كستم حتى بلغت مكانة عالية دفعت الى اكتشاف الكيمياء العضوية وغير العضوية . فعوضا عن تحقيق الأمنية القديمة الخاصة بالحصول على الذهب ، بلغ العرب بالكيمياء مرحلة أخرى مكنتهم بفضل التجارب العلمية التى قاموا بها من تحقيق تراكيب كيماوية جديدة كما توصلوا الى طرق كيماوية حديثة — ففى أواخر القرن التاسع نجد الكيمياء العربية تأخذ فى الصعود فتبهر أنظار العالم .. وذلك بفضل جابر بن حيان .

« واستطاع جابر ومن جاء بعده الحصول على مركبات عديدة من بينها اكسيد الزئبق والزرنيخ والنوشادر ونترات الفضة ، والشب وأملاح النحاس والقلوى الكاوى ..

والى العرب يرجع الفضل فى خلق العمليات الكيماوية الأساسية مثل : التبخير ، والتبلور ، والكلسنة ، والترشيح ، والتقطير ، حيث فرقوا بين التقطير المباشر وذلك الذى ينتج عن طريق الرمل أو الماء ..

وقد استخدم العرب الأمبيق لتنظيف الخل وعمل النبيذ .. وأصبح من الميسور تطهير الماء كيماويا واعداده للتجارة واستخدامه للدواء .وبهذه الطريقة كان الرازى أول من استحضر حامض الكبريتيك . ومن السوائل الحامضية المحتوية على مواد نشوية أو سكرية استخرج الكحول ..

وكان الرازى أول من استخدم الكيميا لخدمة الطب وهذا مالجأ اليه فيما بعد برازليوس .

*

هذا ولقد ساعد على نشر الصيدلة فى أوربا قرب صقلية منها أولا، وترجمة قسطنطين الأفريقى لكثير من كتب الطب العربية ثانيا . ولم يقف أثر هذه النهضة على صقلية وجنوب ايطاليا ، بل بلغ وادى الرين كما هو ثابت من مؤلفات : هيلد جارد فون رينجن ، وبعد وفاة قسطنطين بزمن قصير ، نجد عميد مدرسة سالرنو ، وهو نيكلوروس بريبوزيتوس ، يضع كتابا فى المواصفات العلاجية على غرار الكتب العربية ..

ولعل أول كتاب فى الصيدلة بالمعنى الحديث هو ذلك الذى صدر لمؤلف تسمى باسم عربى ، وهو طبيب ايطالى كان يدرس الصيدلة فىالقرن الخامس عشر فى مدرسة سالرنو ، فقد تسمى هذا الايطالى باسم : صلاح الدين ، وكان يحترم ويقدر أولئك الذين كانوا يشجعون العلم والعلماء .. فاقترح الاستفادة من تلك الكتب التى لايستغنى عن اقتنائها صيدلى ، وكان ثلثا عدد هذه الكتب التى يجب أن تتكون منها المكتبة الصيدلية عربيا . ولا عجب فى هذا ، فالخمسة المشهورون فى العلوم الطبيعية فى أوربا فى العصور الوسطى ، كانوا يقومون على أكتاف العرب وهؤلاء الخمسة هم : الفرنسى فنسنت دىبوفيه وقد توفى عام ١٢٦٤ ،والأسبانيان ريموندس للوس (١٢٣٢—١٣١٦) وأرنولد أحد أبناء فيلانويفا (١٢٣٥— ١٣١٢) ، ثم الجراف الألمانى البرت فون بولشتيدت (١١٩٣—١٢٨٠)وهو يسمى البرتوس مجنوس ، والانجليزى روجربيكون (١٢١٤—١٢٩٢) — وكانوا جميعهم يدرسون فى باريس مؤلفات كبار العلماء العرب .

وقد أقبلوا جميعهم على دراسة الكيميا ، وقد أعيتهم فكرة البحث عن حجر الحكمة الذى يحول المعادن ذهبا وكذلك أثره فىاطالة العمر .وكان العرب هم المرجع الوحيد لهؤلاء الباحثين عن حجر الحكمة ..

اثنان من هؤلاء حرصا على الاستقلال العلمى وحرية البحث ، وهذان الاثنان نظرا الى الصيدلة والكيمياء العربية على أنها مادة حية ، وهذه المادة يجب أن تخضع للبحث والتجارب ، وبذلك فقط يستطاع انقاذ الصيدلة والكيمياء العربية من الضياع . فهذان العالمان المتحرران واللذان سارا فى نفس الطريق الذى سبقهما اليه الرازى هما : روجر بيكون ، وأرنولد.. لكن من الناحية العملية لم يتفوق بيكون على زملائه المعاصرين ، ففكرة التجربة أخذها عن العرب ، لكنه أخذها نظريا أكثر منها عمليا ..

ان الأثر المباشر للعرب على أوربا فى الصيدلة ظل طيلة عصرى الانسانية والنهضة بل ظل تأثيره قائما حتى القرن التاسع عشر . ففى عام ١٧٥٨ أعيد نشر أجزاء من مؤلفات ابن البيطار . وفى عام ١٨٣٠ — استخدمت مراجع عربية كمصادر أساسية للصيدلة والوصفات العلاجية الأوروبية .

وفى عام ١٨٣٢ أعيد نشر كتاب عربى فارسى يرجع الى القرن الثانى عشر ، وقد جمع هذه المخطوطة الأرمنى : مخيثار ..

*

لكن حتى اليوم فكل مستشفى بنظمه ، وكل معمل كيماوى ، وكل صيدلية ، وكل مخزن أدوية ، انما هو نصب تذكارى للعبقرية العربية .

وكل حبة مسكرة أو مفضضة ، انما هى تذكار صغير من الطبيبين العربيين العظيمين ، وأستاذى أوربا الا وهما : الرازى وابن سينا » .(٣٦)

***

اثر العرب فى الذرة :

رأينا كيف أسهم العرب فى مختلف مجالات العلوم ، وكان اسهامهم فيها فتحا حضاريا . ومع أن القرن العشرين يعتبر بحق عصر الذرة والفضاء ، لما تحقق فيه حتى الان من انجازات رائعة فى هذين المجالين الخطيرين بفضل علماء الأجيال المعاصرة ، الا أن عرب القرون الوسطى — أصحاب الحضارة العربية — لم يفتهم أن يدلوا بدلوهم فى مجال الذرة ، فقرروا حقيقتها تقريرا عمليا ، وحددوا بذلك المدخل الوحيد الذى يمكن أن يؤدى الى اقتحام ذلك الطلسم ... المجهول ... الرهيب : عالم الذرة .

---

(٣٦) المرجع ٦ — ص ٢٣٩—٢٥٥ .

المجموعة الشمسية :

تتكون المجموعة الشمسية من : الشمس وهى النواة أو الأم ، ومن عدد آخر من الكواكب أو التوابع السيارة .

والكل يدور ... يتحرك ... فى عمل مستمر لا تعطيل فيه ... كل له فلكه الخاص الذى يسبح فيه .

والشمس — أو النواة — كتلة ملتهبة ، تشع أكواما هائلة من الطاقة ، تنتج من جراء تفاعلات نووية مستمرة ، وتصل الى الأرض فى صور شتى منها : الضوء ، والحرارة ، والاشعاعات المختلفة . وللشمس حركة دورانية حول نفسها ، كما أن لها حركة أخرى فى الفضاء ، اذ تجرى فيه بتوابعها بسرعة رهيبة .

وتبعد الشمس عن الأرض بمقدار ٩٣ مليون ميل ، وتقدر كتلتها بنحو ٣٣٢٠٠٠ مرة كتلة الأرض . واذا خرجنا فى رحلة اسكتشاف للمجموعة الشمسية ، مبتدئين من الشمس — بأفكارنا فقط والا لو اقتربنا منها بأجسامنا فان درجة حرارة سطحها وما ينبعث منها من اشعاعات ، سوف تحيل أجسامنا المادية الى طاقة تتبخر فى الفضاء — لقابلنا الكوكب عطارد ، وهو يبعد عن الشمس بنحو ٣٦ مليون ميل ، ويدور حول الشمس مرة كل ٨٨ يوما ، كما يعتقد ، أن له دورة حول نفسه بحيث يبقى أحد أوجهه مطلا دائما على الشمس .

وبعد عطارد تأتى الزهرة — بجمالها — وتبعد عن الشمس بمقدار ٦٧ مليون ميل ، وتدور حولها مرة كل ٢٢٤ يوم .

ثم نجد امنا الأرض — التى عرفنا بعدها عن الشمس — وهى تدور حول نفسها مرة كل يوم ، كما تدور حول الشمس مرة كل عام أو كل ٣٦٥ ١/٤ يوم . وللارض تابع صغير ، جميل على البعد فقط بيد أنه عكس ذلك من قرب « كأنه العرجون القديم » ، ويعتقد أنه ابنها — وهو القمر — وهو يبعد عنها بمقدار ٢٤٠٠٠٠ ألف ميل ، ويدور حولها مرة كل شهر قمرى ، ثم يتبع الأرض فى حركتها حول الشمس .

وبعد الأرض تأتى بقية كواكب المجموعة الشمسية ، وهى المريخ ، والمشترى ، وزحل ، ويورانوس ، ونبتون ، وبلوتو . وأبعاد هذه الكواكب عن الشمس ، مقدرة بملايين الأميال هى : ١٤١ ، ٤٨٣ ، ٨٨٦ ، ١٧٨٢ ،

٢٧٩٣ فى على الترتيب ٣٦٧٥ ، ولهذه الكواكب دوراتها حول الشمس ، التى تزداد فترتها الزمنية كلما بعدنا عن الشمس ، كما أن لبعضها توابع واقمارا .

وتشترك هذه الاجرام المتحركة فى أن أفلاك حركتها حول الشمس ، بيضاوية الشكل .

ذلك مايهمنا معرفته عن المجموعة الشمسية وأقدارها وهيكل بنائها

*

الذرة نظام شمسى :

حقق العلم قدرا كبيرا من معرفة الذرة وعالمها ، فأصبحنا نعلم أن ذرة أى عنصر — من عناصر العالم المادى — تتكون من نواة فى الوسط تتركز فيا كتلة الذرة ، يحيط بها جسيمات دقيقة جدا تسبح حولها فى أفلاك محددة .

وتتكون النواة من جسيمات مشحونة بشحنة كهربية موجبة تعرف بالبروتونات ، كما توجد بها جسيمات أخرى عديمة الشحنة تعرف بالنيوترونات . وتعرف الجسيمات سالبة الشحنة التى تسبح حول النواة باسم كهارب أو الكترونات . وبجانب حركة الالكترون حول النواة ، فان له حركة أخرى دورانية حول نفسه . وتتساوى كل من كتلتى البروتون والنيوترون تقريبا ،أما كتلة الالكترون فتقل كثيرا عن كتلة أى منهما .وقد وجد أن عدد البروتونات يساوى عدد الالكترونات ولذلك فان الذرة متعادلة الشحنة كهربيا .

ولما كانت الوحدات التى نستخدمها فى حياتنا العادية لتحديد الأوزان والأبعاد ، لاتصلح للتطبيق فى عالم الذرة ، فقد استحدثت لها وحدات خاصة بها مثل :

الوزن الذرى — وهو يقدر تقريبا بعدد البروتونات والنيوترونات داخل الذرة ، أى يساوى مجموع العدد الكتلى بنواتها .

العدد الذرى — وهو يساوى عدد الالكترونات السابحة حول النواة.

هذا هو هيكل البناء العام للذرة — أى ذرة — وتلك هى هناصر بنائه الرئيسية : البروتون والالكترون والنيوترون .

ولا يختلف أى عنصر عن الآخر ــ فى خواصه الطبيعية والكيميائية وغيرها ــ الا فى مقدار عدد وحدات بنائه الداخلى وفى نظام توزيع الكتروناته السابحة فى أفلاكها داخل ما يعرف باسم : مستوى الطاقة أو الغلاف أو السماء .

وتحسب هذه المستويات أو السماوات ابتداء من النواة فخارجا ، بمعنى أن السماء الأولى هى الأقرب الى النواة تليها السماء الثانية ، ثم الثالثة ... وهكذا .

وما يلفت النظر أن عدد هذه السموات التى تتوزع فيها الالكترونات داخل الذرة لايزيد عن سبعة وسبعة فقط .

*

ولكى تتضح لنا صورة البناء الذرى ، فانا نعرض صورا لتركيب ذرات بعض العناصر المختلفة .

ولنبدأ بالايدروجين ، فنجد أن ذرته أبسط أنواع الذرات تركيبا ، اذ تتكون من نواة بها ١ بروتون ويدور حولها ١ الكترون يسبح فى فلك بيضاوى فى السماء الأولى . والوزن الذرى = ١ تقريبا ، والعدد الذرى = ١ .

ثم نتدرج خطوة فنجد الهليوم ، ويوجد بنواته : ٢ بروتون ، و٢ نيوترون ، كما يسبح حولها الكترون فى فلك بيضاوى واحد فى السماء الأولى كذلك .

والوزن الذرى للهيليوم = ٣ ٠٠ر٤ والعدد الذرى = ٢ .

واذا تركنا هذه العناصر الخفيفة ، ثم تقدمنا الى العناصر الثقيلة مثل اليورانيوم لوجدنا أن ذرة هذا العنصر تتركب من نواة بها : ٩٢ بروتون، ١٤٦ نيوترون ويسبح حولها ٩٢ الكترون موزعة كالآتى :

٢ الكترون فى فلك واحد فى السماء الأولى ، ٨ فى أربعة أفلاك فىالسماء الثانية ، ١٨ فى تسعة أفلاك فى السماء الثالثة ، ٣٢ فى ستة عشر فلكا فى السماء الرابعة ، ١٨ فى تسعة أفلاك فى السماء الخامسة ، ١٢ فى ستةأفلاك فى السماء السادسة وأخيرا ٢ الكترون فى فلك واحد يقع فى السماء السابعة وهى الأخيرة .

والوزن الذرى لهذا اليورانيوم = ٢٣٨ ، والعدد الذرى = ٩٢ .

وهكذا ، وهكذا ، حتى نصل الى بقية العناصر الأخرى الثقيلة التى نعرفها أو التى لانعرفها الآن حتى يكشف لنا العلم عن الجديد منهـا بين حين وحين .

وبجانب الجسيمات الذرية الرئيسية وهى : البروتون والنيوترون والالكترون ، توجد جسيمات أخرى تظهر فى الطبيعة وفى التحولات النووية ، ومنها : البوزيترون ، والميزون ، والنيوترينو وغيرها .

ومن ناحية الحجم نجد أن قطر الذرة أكبر من قطر النواة بحـوالى ١٠٠ ألف مرة ، أى ان الالكترونات تسبح فى فراغ هائل حول النواة ، ويذكرنا هذا بالأبعاد السحيقة التى تسبح عندها كواكب المجموعة الشمسية بعيـدا عن الشمس .

واذا استطعنا أن نحشد ــ نظريا ــ ١٠ مليون ذرة متجاورة تقف على خط مستقيم واحد ، لما زاد طول هذا الخط عن ملليمتر واحد .

الذرة ، اذن نظام شمسى .. يتماثل تماما مع نظام المجموعة الشمسية .

ان هذه الحقيقة هى الأساس الذى قامت ــ وتقـوم عليه مختلف التجارب والتطبيقات فى ميدان العلوم الذرية .

*

نتائج وتطبيقات :

لقد كان ادراك الانسان لحقيقة النظام الشمسى فى الذرة فتحا علميا بالغ الأهمية ، اذ تفتحت أمام العقل البشرى حقيقة العالم المادى ، الذى ظهر أنه عالم واحد رغم الاختلافات التى تتراءى فى الصور والأشـكال . وبصرف النظر عما يعنيه هذا من الناحية الفكرية ــ من حيث دلالته على وحـدة الخالق التى يكفيها برهانا وحدة نظام الخلق ــ فان النتائج والتطبيقـات قفزت بالانسان قفزات قد تنقله اما الى عالم السعادة والهنـاء ، واما الى عالم التدمير والشقاء ، حيث يتحدد هذا أو ذاك بسلوك الانسـان وعقائده وأخلاقياته .

فما دامت العناصر المختلفة لا تخرج عن كونها : بروتونات والكترونات ونيوترونات مركبة بنظام خاص ــ فما الذى يمنع تحويل عنصر الى آخر ، وما الذى يمنع تحويل عناصر متوفرة فى الطبيعة الى عناصر أخرى نادرة ، بل وما يمنع ايجاد عناصر جديدة ؟ .

لقد جد العلم فى هذا السبيل واستطاع أن يعطى نتائج ايجابية ، وكانت الوسيلة الرئيسية الى ذلك هى تعرض الذرة ونواتها الى سيل من قذائف الجسيمات المختلفة مثل :

البروتون ، والنيوترون ، وأشعة ألفا ، وبيتا ، وجاما وغيرها . وكان من النتائج المتميزة فى هذا السبيل مايلى :

تحول النيتروجين الى أوكسوجين ، بعد ضربه بجسيمات ألفا ، والأوكسجين الناتج هو نظير للاكسوجين الطبيعى ، اذ أن له نفس العدد الذرى لكنه يختدف عنه فى الوزن الذرى .

وتحول الزئبق الىذهب بعدضربه بالنيوترونات وهذه التجربة معملية فقط ولا تصلح للاغراض التجارية نظرا لتكاليفها الباهظة .

ولقد أمكن جعل العناصر تكتسب خاصية اشعاعية لم تكن لها من قبل مثل : الكربون المشع ، والصوديوم المشع . ولهذه العناصر المشعة تطبيقات واسعة فى عالم الطب والحيوان والنبات وغيره .

ثم كان الحدث الكبير فى نهاية عام ١٩٣٨ على يد العالم الألمانى العظيم أوتوهان اذ انفلقت نواة ذرة اليورانيوم بعد ضربها بالنيوترونات ، ونتج عن ذلك تكوين ذرات العناصر الأخرى بفعل هذا التفاعل المتسلسل لكن الأهم من ذلك هو اختفاء جزء من المادة التىاشتركت فى هذا التفاعل حيث حولت الى طاقة كبيرة ، فتحقق بذلك مبدأ علمى هام يقرر أن : المادة والطاقة صورتان لشىء واحد ، وانه يمكن تحويل أحدهما الى الآخر . وعلى ذلك فان الانسان يستطيع أن يحصل على طاقة هائلة من أى نوع من المادة مثل الماء أو التراب أو غيره — بشرط أن يختار الوسائل والظروف المناسبة .

ولقد كان ذلك هو أساس صناعة القنابل الذرية ثم القنابل الهيدروجينية وغيرها .

ولا يعنى تهدم الذرة وانفلاق نواتها أنها لا تستخدم الا فى التدمير ، فعلى العكس من ذلك نجد المجال يتسع كثيرا لاستخدام الذرة فى الأغراض السلمية حتى التفجيرات الذرية أصبح يستفاد بها فى شق المجارى والقنوات وفى أعمال التعدين وغيره .

***

تاريخ البحث عن حقيقة الذرة :

تكلم الأقدمون فيموضوعالذرة ، فعرفوها باسم : الجزء الذىلايتجزأ أو الجوهر الفرد ، وكانت لهم فيها مقالات مختلفة وفلسفات شتى ، نعرض لشيء منها .

الذرة فى تفكير الاغريق (٣٧) :

لانجد شيئا يستحقالذكر سوى ماقالهديمقريطس (٤٧٠–٣٦١ق.م) عن وجود ذرات مادية غاية فى الدقة كالتى تتطاير فى أشعة الشمس وكالذرات الملونة التى تذوب فى الماء والذرات الرائحية التى تتصاعد مع الدخان أو الهواء .

ومن مشاهداته فى أن الخشب يرشح منه الماء ، وان الضوء يخترق الأجسام الشفافه وان الحرارة تخترق جميع الأجسام – علم أن فى كل جسم مساما خالية يستطيع أى جسم آخر أن ينفذ منها .

وكان يرى ان الوجود الواحد المتجانس مقسم الى عدد غير متناه من الوحدات المتجانسة غير المنقسمة وغير المحسوسة لتناهيها فى الدقة ،وهى قديمة من حيث أن الوجود لا يخرج من اللاوجود ، وواحدها الجوهرالفرد .

ويرى ديمقريطس ان الموجودات تختلف باختلاف الجواهر المؤلفة لها شكلا ومقدارا ، ثم باختلاف الجواهر المتشابهة الشكل ترتيبا ووضعا ، بحيث يمكن القول بأن الأشياء هندسة وعدد ، وكل شيء امتداد وحركة حتى النفس البشرية .

*

الذرة فى تفكير الهنود (٣٨) :

منذ حوالى القرن الخامس الميلادى وما بعده ، ظهرت فى كثير من المذاهب الفلسفية الهندية نظريات فى « الجوهر الفرد » ، تكلمت بها الفرق المختلفة ونذكر منها :

---

(٣٧) تاريخ الفلسفة اليونانية – يوسف كرم – المرجع رقم ٧ – ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٣٨) مذهب الذرة عد المسلمين – للدكتور س.بينس – المرجع رقم ٨ – ص ١٠٠–١٢٠

فرقة الجانيا : وكانت ترى ان المادة والمكان والزمان تنقسم الى أجزاء لاتتجزأ ، وأن أجزاء المادة يشغل كل منها نقطة من المكان . وهذه الأجزاء لاتتنوع بتنوع العناصر ولكن لها كيفيات أهمها أن تكون لدنة او يابسة ، ويحصل اتصال الأجزاء بسبب درجة قوة هذه الكيفيات وحسب قواعد معينة .

البوذيون : يقوم المذهب البوذى عموما على انكار الجوهر الفرد ، ولذلك يتصور البوذيون أن « الجزء » يتكون من ثمانية وحدات على الأقل وتسمى هذه الوحدات « دهرما » وهى تدل على أصغر جزء تتألف منه المظاهر المحسوسة للاشياء .

البراهمة : يعتقد البراهمة فى الوجود الحقيقى : للجوهر ، والعرض، والفعل والعدم . وتنقسم الجواهر الى تسعة أنواع ، منها العناصر الخمسة وهى : الأرض ، والماء ، والهواء ، والنار ، والأثير — ثم الزمان والمكان والنفس ، والروح . وتتألف العناصر الأربعة الاولى من أجزاءلاتتجزأ ، وهى غير فانية ، خلافا لكل مايتركب منها ، وهى تتنوع بتنوع العناصر ، ولها كيفيات غير فانية أيضا .

*

الذرة فى تفكير العرب (٣٩) :

تكلم الفلاسفة العرب فى موضوع الذرة ، واستخدموا لذلك ألفاظا منها :الجزء والجوهر . وتنقسم آراؤهم بوجه عام الىمذهبينمتباينين:

الأول — ويقول بأن الجسم اذا تعرض للتقسيم فانه لايمكن أن ينقسم الى مالا نهاية بل لابد أن تنتهى العملية الى « شىء » أو « جزء » ولهذا يؤمن أصحاب هذا المذهب بالوجود الحقيقى للجزء الذى لايتجزأ ويقرون له صفات وخواص تتفق ووجوده .

أما المذهب الثانى — فيقول بأ ن الجسم هو تكوين من « أجزاء » وما منجزء — مهماصغر — الاوله جزء . وهذاالتجزؤ يستمر الى مالانهاية. وعلى ذلك لايعتقد أصحاب هذا المذهب فى الوجود الحقيقى للجوهر الفرد أو الجزء الذى لايتجزأ .

وقد ظهر من أصحاب المذهب الأول — أو مذهب الجزء الذى لايتجزأ— أبو الهذيل العلاف (حوالى ٧٤٨—٨٤١م وهشام الفوطى وقد كان معاصرا لأبى الهذيل ، وابن حزم .

---

(٣٩) مقالات الاسلاميين لأبى الحسن الأشعرى— المرجع رقم ٩ — ص ٣١٤ — ٣٢١ .

أما أصـحاب المذهب الثانى فقـــد عرف منهم : ابراهيم النظام ، والكندى والفارابى .

وبناء على ماتم عرضه — حتى الآن — من أقوال تمثل تفكير العرب فى الذرة ، فان أحدا لايستطيع أن يدعى أن هذه الأقوال والآراء تمثل فتحـا علميا حدد المدخل الوحيد لعالم الذرة — كما سبق أن ذكرنا — اذ أنهـــا لاتعدو أن تكون فلسفة تتردد بين الظنون والتصـــورات ، وان كانت قد تكلمت بوضوح فى موضوع التقسيم والانشطار .

الحق أن الفتح العربى فى مجال الذرة لم يأت فى كلام الفلاسفة ومقالات علماء الكلام ، لكنه جاء فى تقرير واضح لمصادر أخرى سوف نعود للحديث عنها بعد قليل .



الذرة فى التفكير العلمى الحديث :

لقد بدأت العلوم الطبيعية والكيميائية تتقدم بخطى واسعة فى الدراسات النظرية والبحوث التطبيقية منذ فجر النهضة الأوربية الحديثة حتى الآن وفى مجال الذرة كان جملة الملاحظات والفروض والنتائج التى حققهـا العلم على مدى بضعة قرون — تتجمع لتهيىء السبيل للاقتراب من حقيقة الذرة .

وفيما يلى عرض مختصر لتطور الفكر العلمى الحديث فى الذرة :

تجددت على أيام العالم الطبيعى الانجليزى روبرت بويل (١٦٢٧ — ١٦٩١) والكيميائى الفرنسى لافوازيه (١٧٤٣ — ١٧٩٤) نظرية تكوين المادة من وحدات أساسية لاتقبل التجزئة — أى نظـرية الجوهر الفرد التى تكلم بها القدامى . وصارت هذه النظرية حقيقة مسلما بها .

ولما ظهرت نظرية دالتن عام ١٨٠٣ ، ثم تعدلت بفرض افوجادرو عام ١٨١١ ، أصبح معروفا أن المادة تتكون من ذرات ، وان اجتماع عنصرين أو أكثر ليكون مركبا كيميائيا انما هو فى الواقع اتحـاد لذرتين أو أكثر تكون نتيجته الجزىء ، الذى اعتبر وحدة بناء المركب الكيميائى فى الجديد .

وفى حوالى ١٨٠٧ فرض برزليوس ان القوى التى تربط ذرة بأخرى يجب أن تكون ذات طبيعة كهربية ، ولما لاحـظ بروت أن الأوزان الذرية — وخاصة للعناصر الخفيفة — هى مضاعفات للوزن الذرى للايدروجين ، عندئذ افترض فى عام ١٨١٥ ان ذرة الايدروجين هى وحدة البناء الذرى . وعلى ذلك فان ذرة الهليوم يجب أن تحتوى على ذرتى ايدروجين ، كما أن

ذرة الاوكسوجين تحتوى على ١٦ ذرة ايدروجين ، وهكذا — ثم جاءت ابحاث فراداى (١٧٩١—١٨٦٧) لتقرر ان الكهرباء تتكون من وحدة بناء هى الذرات الكهربية ، تناظر ماعرف عن تكوين العنصر المادى من وحدة بنـــاء تسمى الذرة .

وفى عام ١٨٩٧ قام طومسون وغيره باكتشـــاف الذرات الكهربيـــة الطليقة (الالكترونات الطليقة) ، وأمكن بعد ذلك تحـديد كتلة الالكترون وشحنته وسرعته .

وبانقضاء القرن التاسع عشر تكن حصيلة العلم فى مجال الذرة هى : معرفة الأوزان الذرية للعناصر المعروفة ، وكذلك تقرير بعض خصـــائصها الكهربية ، وانها تحتوى على الكترونات سالبة الشحنة .

أما تركيبها وهيكل بنائها فلم يزل لغزا مبهما يحتـــاج الى الكثير من الجهود .

وفى مطلع القرن العشرين وجد لينـــارد (عام ١٩٠٣) ان الالكترونات السريعة تستطيع النفاذ خلال طبقات المادة السمكية فدعاه ذلك الى تقرير أن الحيز الموجود بداخل الذرة لابد أن يكون أغلبه فراغا أجوفا .

وفى عام ١٩١١ أعلن رذرفورد الانجليزى نظريته النووية التى قرر فيها ان : كتلة الذرة وشحنتها الموجبة تتركز فى النواة ، وهذه الأخيرة تحيط بها الالكترونات السالبة .

حتى اذا جاء عام ١٩١٣ نجد العالم الدنمركى نيلزبور قد استطاع أن يطبق النظرية الكمية فى الاشعاع للعـــالم الالمانى ماكس بلانك على النظرية النووية لرذرفورد ، فوضع بذلك الصورة المعروفة لهيكل بناء الذرة ، وهى أن الذرة تتكون من نواة موجبـــة تتركز فيها كتلة الذرة ويدور حـــولها الكترونات سالبة فى مستويات طاقة محددة ، ويستطيع الالكترون السابح حول النواة أن يقفز من مستوى طاقى يبعد عن النواة — مثلا — الى مستوى طاقى آخر أقرب اليها مصحوبا فى ذلك بخروج طاقة على صـــورة انبعاث ضوئى ، تكن قيمتها وحدات صحيحة من «الكم» يتفق ونظرية ماكس بلانك .

ومنذ ذلك الحين أصبح معروفا أن الذرة نظـــام شمسى ، يماثل فى تركيبه النظام الشمسى الكونى .

وفى عام ١٩٣٢ أطلق شـادويك الانجليزى اسم النيوترون على ذلك الجسيم عديم الشحنة والذى يكافىء فى وزنه البروتون . وقد ظهر هـذا الجسيم من قبل فى التفاعلات النووية فى أبحاث ايرين كيرى وزوجهـا جوليو وغيرهما .

لقد عرفنا اذن حقيقة النظام الشمسى فى الذرة على يد نيلز بور ، واستقرت معرفة هذه الحقيقة التى‌يبنى عليها العالم كل أبحاثه وتطبيقاتهـ منذ ذلك الحين حتى الآن .

*

الفتح العربى فى الذرة :

مع مطلع القرن السابع من الميلاد بدأ كل شىء فى الجزيرة العربية فى التغير : تحول الجاهلون الى علماء ، والمستضعفون الى أقوياء ، والموتى - روحيا - الى أحياء .

لقد كانوا ، كما يصفهم الكتاب المقدس فى سفر أشعياء : « شـعب منهوب ومسلوب ،وقد اصطيد فى الحفر كله ،وفى بيوت الحبوس اختبأوا. صاروا نهبا ولا منقذ ، وسلبا وليس من يقول رد ..

قد ارتدوا الى الوراء . متكلون على المنحوتات . قائلون للمسبوكات أنتن آلهتنا » .

وبعد أن جاءهم الحق ، اذا بأولئك العمى يسيرون فى طرق لم يعرفوها، « وفى مسالك لم يدروها وتتحول الظلمة أمامهم نورا ، والمعوجات مستقيمة»

وفى ذلك الجو ظهر رجال مثل عمر بن الخطاب وقد عرف فى جاهليته أنه مارس وأد البنات ، وادمان الشراب وعبادة الأوثان ، واذا به - بعد أن عرف الله - يتحول الى ذلك العمر العظيم الذى حكم بالعـدل والاخاء الانسانى امبراطورية فتية قامت على أنقاض امبراطوريتين كبيرتين هما : الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الفارسية .

وفى ذلك الجو ، تكلم على ابن أبى طالب فى الذرة ، فقرر حقيقتهـا تقريرا علميا لايختلف فى شىء عما قرره نيلزبور وغيره بعـد ذلك بأكثر من ثلاثة عشر قرنا من الزمان .

لقد قال على : « اذا فلقت الذرة - أى ذرة - تجد فى قلبها شمسا » .

ولقد جاء هذا القول فى كتاب عن الذرة صـــدر فى أمريكا عام ١٩٤٥ بعنـــوان ALMIGHTY ATOM للمحرر العلمى لجريدة نيـــــويورك هيرالد تربيون (٤٠) ، ويدعى جون أونيل John J. ONeil فقــد جاء فى الصفحة الخامسة منه مايلى :

«The Roman World was intellectually sterile in this field, and added very little to what it received from the Greek civilization .

One of the bright spots, in the Middle Ages, comes-from the Mohammedane World. It is a line from the pen of the Mystic, Ali Hassan, son-in-law of Mohammed, who wrote :

Split, whatsoever atom, you will and in ,
Its heart , you will find a sun.

This would appear to indicate, that his mystical vision he had, glimped a preview of the modern solar system type of atom».

ويمكن ترجمة هذا الكلام كالآتى :

« لقد كان العالم الرومانى أجدب عقيما فى هذا المجال ، ولم يضف سوى النذر اليسير لما وصله من حضارة الاغريق .

ان احدى النقط المتلألئة فى القرون الوسطى ، تأتى من العالم الاسلامى حيث نجد ما سطره قلم الصوفى على ـ أبو الحسن ـ صهر محمد ، الذى كتب يقول :

اذا فلقت الذرة ـ أى ذرة ـ تجد فى قلبها شمسا .

ان هــذا يدل على أن بصيرته الصافية قد استطاعت أن تلمح حقيقة النظام الشمسى الحديث للذرة » .

❋

ما كان على بن أبى طالب عالما طبيعيا ولا كيميائيا وما قصد منه أو قصد هو أن يكون كذلك . لكن عليا كان رجلا صافى القلب ، تعرض لنبضة الهام من عالم الحقيقة الكامنة وراء الحجب فى زمانه فنطق بها لسانه .

لقد قرأ على القرآن وفيه مايعلم منه أن المادة الجماد زوجية الخلقة أو بلغة العلم : موجب وسالب .

« ومن كل شىء خلقنا زوجين ، لعلكم تذكرون » .
(الذاريات : ٤٩)

---

(٤) NEW YORK HERALD TRIBUNE, IVES WASHBURN, INC. N.Y, 29 West, 57 th Street.

ذلك اجمال فى نظام الخلق ، يتبعه تفصيل بذكر نظام الزوجيـة فى عوالم : الانسان والحيوان والنبات والجماد ..

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها

مما تنبت الأرض

ومن انفسهم

ومما لا يعلمون »

(يس : ٣٦)

وعندما نزل القرآن ، كان عرب الجزيرة العربية يعلمون نظام الزوجية فى عالم الانسان والحيوان ، فعلمهم القرآن ان هذا النظام يمتـد ليشمل عالم النبات كذلك بالاضافة الى عوالم أخرى يجهلها أولئك البدو ، ولابد أن يكون منها عالم الجماد .

هل قرأعلى ذلك وتدبره ، ثم قرأ تماثل النظام العام فى خلق الكون ، كما يفهم من الآية :

« الذى خلق سبع سـموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت .. » (الملك : ٣)

ثم استطاع على أن يخرج من حصيلة ذلك كله بهذا القول الذى قرر فيه حقيقة الذرة ؟ لا أدرى .. الله أعلم .

لكن الشيء الذى لا يقبل الجدل ، هو أن على بن أبى طالب قرر حقيقة الذرة تقريرا صادقا ، بصرف النظر عن المصدر الذى علمه ذلك .

... ...

وتمضى قرون ، ثم يطلع علينا متصوف آخر ، فيؤكد مقالة على فى الذرة ويزيدها ايضاحا . ذلك هو فريد الدين العطار الذى قال :

« الذرة فيها الشمس ...

وان شققت ذرة وجدت فيها عالما وكل ذرات العالم فى عمل لا تعطيل فيه » (٤١)

---

(٤١) التصوف وفريد الدين العطار ــ الدكتور عبد الوهاب عزام ــ المرجع رقم ١٠ ــ ص ٨٠ ، ٨١ .

لقد كان العلماء الطبيعيون والكيميائيون حتى نهاية القرن الثامن عشر فى شــك من وجود الذرة ، وبانقضاء القرن التاسع عشر أصبح معلوما أن الذرة ليست شيئا مصمتا بسيطا ولكن بها أشياء (الكترونات) ســالبة الشحنة الكهربية ، ثم حدث التطور الــكبير فى النصــف الأول من القرن العشرين .

لكن العطار سبق أن قرر أن فى الذرة عالما ، يناظر فى تركيبه النظام الشمسى ، وأنها فى عمل مستمر .

*

ونقف الآن لنسأل : هل جاءت حقيقة النظام الشـمسى فى الذرة ، كنتيجة للبحوث النظرية والتطبيقية لعلماء النهضــة الحديثة ، اما أنهــا حقيقة توصل اليها العلم على هدى أقوال السابقين ؟

ولمعرفة الاجابة على هذا السؤال ، فقد أرسلت خطابا فى ٦/١٠/١٩٥٣ الى العالم الألمانى أوتوهان صاحب انفلاق نواة اليورانيوم — أســتوضحه حقيقة الأمر ، فتفضل مشكورا بمناقشة الموضوع مع مساعده الأســتاذ الدكتور بيرمان ، وكلفه بالرد على خطابى ، كالآتى :

الأستاذ الدكتور ل. بيرمان

معهد ماكس بلانك للعلوم الطبيعية   جوتنجن فى ١٥/١٠/١٩٥٣

جوتنجن

... ...

لقد طلب منى الأستاذ هان أن أجيب — نيابة عنه — على ما فى خطابك المؤرخ ٦/١٠ وعلى أى حال فقد تدارسنا الموضوع سويا قبل رحيله عن جوتنجن بالأمس ، فى رحلة طويلة .

وعلى ما يبدو ، فان فضل اكتشاف النظام الشمسى فى الذرة ، يجب أن يرجع فى المقام الأول الى نيلزبور ، كما يرجح أن يكون ما حققه سمرفيلد ، هو أهم اضافة لنظرية بور . وبالتأكيد ، فان بعض الكتاب قد فكروا فى هذه المسألة من قبل (ويذكر بور بعضا منهم فى بحثه عام ١٩١٣) ، كمــا أن جزءا من الحقيقة — بالنسبة للنظرية الذرية الحديثة — قد تكون ذكرت هنا أو هناك .

ولكنى أظن أنه من غير العدل مقارنة تلك الأفكار والتأملات بأبحاث بور ، التى قدمت لأول مرة الأساس النظرى السليم الذى بنيت عليه فيما بعد الدراسات والبحوث الكمية فى نظرية الذرة .

... ...

(ل. بيرمان)

*

Prof.Dr.L.Biermann
MAX-PLANCK-INSTITUT FÜR PHYSIK
GÖTTINGEN BÖTTINGERSTRASSE 4

GÖTTINGEN, den 15.10.53
Tel. 3008

Herrn
Ahmad Abdel-Wahab Ali Hassan
Faculty of Engineering
Giza - Cairo
Egypt

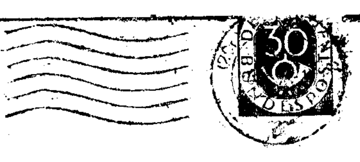
Bi/Ha

Dear Sir,

Prof.Hahn has asked me to answer on his behalf your letter dated 6.10.; we discussed the subject, however, before he left Göttingen for a longer journey yesterday.

It seems that the credit for the discovery of the atomic model you mention must be given chiefly to Niels Bohr, and the most important immediate extension of Bohr's Theory is probably that due to Sommerfeld. Certainly other writers have speculated on the problem before (Bohr mentions some of them in his papers of 1913) and part of the truth - in the sense of later theory - may have been said here or there. But I think it would be unjust to compare such speculations to Bohr's work, which gave for the first time a sound theoretical basis for further quantitative work on atomic theory.

Very sincerely
yours
L. Biermann
(L.Biermann)



Herrn
Ahmad Abdel-Waheb Ali Hassan
Faculty of Engineering

Giza - Cairo
Egypt

Abs. Prof. Dr. L. Biermann
Max-Planck-Institut für Physik
Göttingen
Böttingerstraße 4



صورة زنكغرافية لخطاب الأستاذ الدكتور ل . بيرمان
(لاحظ الكلمات التى تحتها خط)

وانى أتفق تماما مع الدكتور بيرمان ، فى أن أبحاث بور ومن سبقه لا يمكن مقارنتها بالأفكار التى تكون قد ذكرت فى حقيقة الذرة — والا لكنا كمن يقارن بين حالتى مريضين ، أصيبا بمرض واحد ، وكانت لهما نفس الظروف ، ثم تعهدنا أحدهما بعلاج طبى منظم حتى شفى ، أما الآخر فقد زاره يوما رجل يمارس نوعا من العلاج الروحى الخفى ، واستطاع بلمسة خاصة أن يشفيه من سقمه .

فرغم أن النتيجة واحدة فى الحالتين ، وهى شفاء المريض ، الا أن الوسيلة لتحقيق ذلك اتخذت طريقا مختلفا .

لكن المهم فى هذا الخطاب — الذى يعتبر وثيقة علمية فى تاريخ الذرة — أنه لا ينفى تأثر بور بتلك الأفكار والتأملات التى سطرها القدامى من غير العلماء الطبيعيين ، بل على العكس من ذلك ، نجده يقرر شيئا هاما هو : أن جزءا من حقيقة النظرية الذرية قد يكون ذكر هنـــا أو هناك ، وليس هناك ما ينفى استخدام ما ذكر عن تلك الحقيقة ، فى وضع النظرية الذرية الحديثة فى صورتها المعروفة .

*

لقد سبق ان استنكرت العالمة الألمانية سيجريد مايدعيه البعض من أن « ليوناردو دى فينشى هو مخترع المصورة والمضخة والمخرطة وأول طائرة . والواقع أن جميع هذه المخترعات تعتمد على أبحاث واختراعات الحسن بن الهيثم ، كما تؤيد ذلك الأدلة الكثيرة » .

وقياسا على ذلك : هل يأتى اليوم الذى يعترف فيه نفر من أهــل العلم والفضل — من غير العرب — بأن مقالة عرب القرون الوسطى فى الذرة وحقيقتها كانت هى نبضة الالهام التى أضاءت لعلماء القرن العشرين طريق الحقيقة فى هذه القضية ، وقادتهم بذلك الى اقتحام عالم الذرة المجهول العجيب ، من مدخل واحد كتب عليه العـــرب : اذا فلقت الذرة تجد فى قلبها شمسا ؟

« عسى أن يكون قريبا » ...

وأخيرا — ومهما يكن من شىء ، فيكفى أن يكون تقرير العرب لحقيقة الذرة هو ذاته التقرير العلمى لها ، الذى تم على يد العلماء الطبيعيين فى القرن العشرين ، سواء كان كلام الأولين مصدر الهام للآخرين أم لم يكن .

* * *

وبعد — لقد أثر العرب فى أوربا تأثيرا حضاريا فى مختلف المجالات، فلم يقتصر على مجالات العلوم التى عرضنا لشىء منها ، بل انه امتد كذلك الى مجالات الفنون والآداب والعلوم الانسانية . واذا كان هـــذا هو الموقف الحضـــارى بين العرب وأوربا ، فكيف يكون ذلك الموقف بين العـــرب والاسرائيليين ؟ !

ويجب أن نلاحظ أنه لو استرعى انتباهنا نبوغ أحـــد من اليهود — الذين يحرص الاسرائيليون على احتـــوائهم — فى أى من مجالات العمـــل الحضارى ، لوجدناه حتما : اما قد تربى على موائد العرب العلمية ان كان من القرون الوسطى أو انه قد تربى على موائد أوربا الحديثة ، ان كان من الأجيال المعاصرة — تلك هى الحقيقة التى تقررها الاحصائيات .

هذا مع العلم بأن اسهام الفرد فى أحد المجالات الحضارية ، لايعنى ذلك مساهمة من الجماعة أو الأمة التى ينتسب اليها ، انما تشارك تلك الأمة فى التراث الحضارى للانسانية عندما تقدم أجيالا من العلماء والباحثين وعندما تضرب بسلوكها وأخلاقياتها المثل الطيب فى احتضان كافة الجماعات الانسانية الأخرى ، بصرف النظر عن اختلاف العقائد والأجناس والالوان، فتأخذ من الجميع وتعطى الجميع لكن عطاءها يجب أن يكون أكبر وأثمر من أخذها .

الحق ان الاسرائيليين يظلمون انفسهم كثيرا حين يحاولون وضع انفسهم موضع الند للعرب فى الميدان الحضارى .

وبعد — فليسمع كل من يجد عنده بقية من شك فيما ذكرنا عن الحضارة العربية ، قول غير العرب — من العلماء — فى العرب وحضارتهم :

لقد « تجلى تأثير العرب فى جميع فروع الحضارة الأوربية الحديثة .. وتشهد الانتاجات المتنوعة ، والاختراعات المهمة على ما كان يتصف به عرب ذلك الزمن من النشاط العجيب وبما كان لهم من الأثر البالغ فى أوربه فجاء هذا مسوغا للرأى القائل : ان العرب سادة لنا .

وما أتى العـــرب به من المواد التى لا تقدر بثمن عن تاريخ القـــرون الوسطى ، ومن كتب الرحلات ومعاجم تراجم الأحوال من ناحية ، وما جاء به العرب من صناعة منقطعة النظير ، ومن مبان دالة على تفكير عظيم وتنفيذ جسيم ومن اكتشافات مهمة فى الفنون من ناحية أخرى ، كلها امور يجب أن ترفع فى أعيننا شأن الأمة العربية التى ازدريناها زمنا طويلا .

والعرب اذا غابوا عن مسرح العالم (اليوم) فان ما ابدعوه من عمل جليل لا يزال باقيا .. واضحى برابرة الشمال الذين قضوا على سلطانهم مدينين لهم ثقـافة .. ومن المحزن أن خلعت جبرية العثمانيين كرداء من جليد على الشعوب (العربية) التى دانت لدولتهم » (٤٢) .

* * *

(٤٢) المرجع ٢ ـ ص ٤٩٠ ـ ٤٩٥ .

الفصل السادس

القضية بين الحق والقوة

القضية بين الحق والقوة

مقـــدمة :

يتعرض الناس فى حياتهم العادية الى منازعات قد تتطور حتى تدفع بهم الى ساحة القضاء ، هناك يحرص كل طرف من الأطراف المتنــازعة على اظهار صدق دعواه ، وتأييد ذلك بمختلف الحجج والأسانيد .

وبعد استعراض دعاوى الخصوم ومطالبهم مشــفوعة بما يؤيدها من ادلة وبراهين ، يصدر القضاء حكمه مدعيا هو الآخر أن مانطق به هو الحق الذى يرفع ظلما وقع ، ويعيد بذلك الأمور الى نصابها .

وبعد أن تنتهى القضية من طور البحث والتحكيم يأتى طور التنفيذ ، وهو الطور الذى يتطلب قوة مؤثرة ، تؤكد فعالية الحكم ،وتحيله منعبارات صماء على الورق الى واقع متحرك يحس النــاس أثره فى استقرار حياتهم بعيدا عن فوضى المظالم ، ومؤكدا بذلك حقوق الانسان .

وعلى المستوى الدولى ، نجد الدول تلجأ فى منازعاتها الى الهيئــات الدولية (محكمة العدل الدولية ـ مؤسسات الأمم المتحدة ...) ويحاول كل طرف فى النزاع أن يتعلق بأذيال الحق ، مدعيا أنه يقف بجانبه . وبعد نظر القضية واستعراض مختلف جوانبها ، يصدر الحكم أو القرار ، حيث يزعم الذين أصدروه أنه الحق الذى تراءى لهم فحكموا به .

ثم يعقب ذلك دور التنفيذ وهو الدور الذى يحتاج الى قوة فعالة، تلك القوة التى ان تخلفت عن مظاهرة الحق ، فقد ضيعته وأضاعت بذلك جوهرا من الجواهر التى ترتبط بها حياة الانسان .

الحق ، اذن ، هو المطلب الذى يتلمسه أطراف النزاع فى كل قضـية ويحرص على التعلق به باعتباره المدخل الوحيد لتحقيق مايبتغون اما القوة فهى الوسيلة الضرورية لتثبيت الحق وتأكيد وجوده .

وبالاضافة الى ماذكر فى أمر الحق ، فان ماتعارف عليه الناس من مبادىء وأخلاقيات ، يقرر أن الحق شىء مطلوب لذاته ، تقدم من أجله التضحيات ويهون فى سبيله كل مرتخص وغال .

واذن فى جوانب كل قضية نجد دائما : الحق أولا ، ثم القوة بعدذلك ، وبدونهما معا ((**تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير**)) .

وقضية فلسطين ليست خروجا عن هذه القاعدة .

***

الحق العربى

ان الحق فى النزاع العربى الاسرائيلى على أرض فلسطين ، واضح كل الوضوح لا لبس فيه ولا ابهام .

وما من شك فى أن الذين يحاولون تعقيد القضية والسير بها فى شعاب ومتاهات متباعدة ، انما هم الذين يفتقدون الحق ويخشون ظهوره ، ومن أجل ذلك يعملون جاهدين على طمس معالمه واخفاء وجهه ، حتى لاينكشف أمام الناس ظلمهم ومظالمهم .

ولقد تبين لنا خلال دراستنا هذه — فى الفصول السابقة — مجموعة من الحقائق تستشعرها حواسنا ، وتقف واضحة ملء السمع والبصر والفهم ، يعيها تماما كل انسان أوتى أقل القليل من العقل وخاصية التمييز .

ونكتفى من هذه الحقائق بثلاث هى :

١ — ان دعوى الاسرائيليين بحقوق تاريخية فى فلسطين ترتبط بما فى الأسفار المقدسة انما هو زعم باطل وخرافة ودجل ، ان وجد له متنفسا خارج البيئة الاسرائيلية ، فانما يرجع ذلك الى الجهل بحقائق التاريخ والكتب المقدسة .

وما من مؤمن بالأسفار المقدسة الا ويرفض مزاعم الصهيونية وافتراءها على النصوص المقدسة وتسخيرها تسخيرا باطلا لخدمة أغراضها الدنيوية فى التسلط والسيطرة .

ولقد اجتمع فى بيروت ٤٠٠ مندوب يمثلون طوائف المسيحيين من كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت فى ٣٧ دولة فى الفترة من ٦—١٠ مايو ١٩٧٠ على هيئة ندوة عرفت باسم « الندوة العالمية للمسيحيين » ، وقد اختتمت الندوة أعمالها باصدار بيان أطلقت عليه اسم « نداء بيروت » .

وقد جاء فى هذا النداء : « ان التفسير السياسى الصهيونى لنصوص الكتاب المقدس يتعارض مع المسيحية ، وان هذا التفسير يؤدى الى اضفاء صفة الشرعية — عن طريق الكتاب المقدس — على المظالم الجسيمة التى تعرض لها الشعب الفلسطينى والشعوب العربية ، التى لايسع الضمير العالمى سوى الاحتجاج عليها .

بناء مجتمع انسانى علمانى ديمقراطى تحترم فيه جميع المعتقدات » .

وقد أدان النداء المذابح وعمليات التعذيب وهدم القرى والمنازل واغتصاب الأراضى وكل الاجراءات التعسفية التي تمارسها اسرائيل فى الأرض المحتلة .

ثم دعا المسيحيين فى العالم الى مساندة الشعب الفلسطينى فى مقاومته ونضاله ضد أطماع الصهيونية . (١)

٢ — ان قبول العالم للمنطق الاسرائيلى الذى يقوم على اتخاذ الدعوى بالحقوق التاريخية وسيلة لاغتصاب الأراضى ، انما يعنى فوضى لا نهاية لها . واذا كان العالم قد اكتوى — ولا زال — خلال تاريخه الطويل ، بالكثير من الحروب والمآسى نتيجة للتنازع على مناطق وحدود بين عدد محدود من الدول ، فكم تكون المآسى التى يتعرض لها العالم حين يأخذ بهذا المنطق الاسرائيلى المخرب ، رغم ما يحق للعرب أن يطالبوا به — عندئذ — من أراضى واسعة غنية فى جنوب أوربا ووسط آسيا .

٣ — ان فلسطين عربية أرضا وشعبا ، من قبل أن يظهر فيها الاسرائيليون ، ومن بعد ما ظهروا ثم اختفت آثارهم منها منذ نحو تسعةعشر قرنا من الزمان . وفلسطين عربية أرضا وشعبا أثناء ذلك ومن بعده ، حتى جاءها الغزاة الاسرائيليون فى القرن العشرين زاعمين أنهم سلالة أولئك الغابرين .

وتكفى نظرة على الاحصائيات الرسمية التى سجلتها حكومة الانتداب البريطانى بفلسطين منذ عام ١٩١٨ حتى قرب نهاية فترة الانتداب فى عام ١٩٤٨ (٢) — تلك الاحصائيات التى تقرر بوضوح الصورة العربية لفلسطين:

سنة الإحصاء	إجمالى السكان	العرب		اليهود	
		التعداد	النسبة	التعداد	النسبة
١٩١٨	٧٠٠٠٠٠	٦٤٤٠٠٠	٪٩٢	٥٦٠٠٠	٪ ٨
١٩٢٢	٧٥٧١٨٢	٦٦٣٠١٤	٪٨٧ر٦	٧٣٨٩٤	٪١١ر١
١٩٣١	١٠٣٥٨٢١	٨٥١١١٠	٪٨٢ر٢	١٧٤٦١٠	٪١٦ر٨
١٩٤٤	١٧٦٥٠٠٠	١١٧٩٠٠٠	٪٦٦ر٨	٥٥٤٠٠٠	٪٣١ر٣

ملحوظة :

بدات تظهر فى الاحصائيات منذ عام ١٩٢٢ أعداد محدودة من غير العرب واليهود ، وقد أغفلنا ذكرها حيث أن نسبتها لم تزد فى أعلى قيمة لها عن ١ر٩ ٪ .

(١) جريدة الاهرام : ١١ مايو ١٩٧٠ .

(٢) Government of Palestine : A SURVEY OF PALESTINE, 1945-46, pp. 144-149.

ولقد كانت نســبة توزيع الســكان اليهود فى المدن عام ١٩٤٦ (٣) كالآتى :

أورشــليم ٣٨٪ ثم غزة ٢٪ ، عكير ٤٪ ، صــفد ١٣٪ ، الناصرة ١٦٪ ، طولكرم ١٧٪ ، الرملة ٢٢٪ ، بيســـان ٣٠٪ ، حيفا ٤٧٪ ، يافا ٧١٪ .

وكانت هذه النسبة أقل من ١٪ فى كل من : بير سبع ، والخليل .

وبلغت هذه النسبة صفرًا فى كل من : نابلس ، وجنين ، ورام الله .

كذلك تبين الاحصائيات التى قدمتها حكومة الانتداب البريطانى الى الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ أن موقف ملكية اليهود للارض فى ذلك الحين كان كالآتى :

اجمالى ما يمتلكه اليهود : ١٤٩١٦٩٩ دونما من مجموع مســاحة فلســطين التى تبلغ ٢٦٣٢٣٠٢٣ دونما أى لا تتعدى ٥ر٦٦٪ من مجموع المساحة ، وهى النسبة التى لم تتعد ٢٪ عام ١٩١٨ ، كذلك كانت نسبة ممتلكات اليهودمن الأرض عام ١٩٤٧ فى مختلف النواحى كالآتى :

القدس ٢٪ ، الخليل ٤٪ ، غزة ٤٪ ، الجليــل ٣٪ وكانت هذه النسبة أقل من ١٪ فى كل من نواحى : نابلس وجنين وبير سبع .

وحتى فى نواحى : يافا وتل أبيب وحيفا وطبرية ، كانت مســاحة ممتلكات اليهود أقل من نظيرتها العربية .

ومما سبق يتضح ضآلة الوجود الاسرائيلى ـ عددًا وممتلكات ـ حتى عام الغزو المســلح ١٩٤٨ ، وذلك رغم الجهود المســتميتة التى بذلتها الصهيونية بمساعدة الاستعمار العالمى لتهجير اليهود ، والاســتيلاء على الأرض بمختلف الوسائل ، ومنها قيام حكومة الانتداب البريطانى بســن

---

(٣) Appendix VI to the Report of Sub-Committee 2 to the Ad Hoc Comm. on Palestine Question, November 11, 1947, p. 270. Also, map No. 94-b, U.N. attached as Annex V. to the report mentioned above.

القوانين الجائرة التى تجبر صـــغار الملاك على بيعها والتخلص من أعبائها الضريبية الباهظة .

*

ان قوى البغى والعدوان لم تســـتطع أن تمحو أثر جريمتها — ولن تستطيع — فمازال الوجود المادى المحســوس لضحايا تلك الجريمة يؤكد وقوعها ويحدد الجانى ويبين بوضوح موقع الحق فى هذه القضية .

ان وجود هؤلاء الضحايا من العرب صامتين على هيئة لاجئين يقفون خلف الأسوار الشائكة يتطلعون بحسرة الى أراضيهم «المغتصبة» أو وجودهم متحركين على هيئة فدائيين يقاتلون لاسترداد وطنهم السليب — ان هــذا الوجود ذاته وعلى الصــور التى يراها الناس ، انما هو خير برهان عــلى مجافاة الاسرائيليين للحق ، وانحساره بعيدا بعيدا عنهم .

وان كان أحد فى شك من أمر الحق فى هذه القضية فليسأل نفســه هذا السؤال البسيط :

لو لم يغز الاسرائيليون فلســـطين بالقوة ، ويقيموا لهم بها وجودا عسكريا ضاريا تخصص فى سفك الدماء وتخريب الانسان وحرثه ونسله — هل كانت توجد مشكلة فى هذه الأرض — أرض فلسطين — وفى هذا الجزء من العالم ، وهو الشرق الأوسط ؟ .

ان الجواب الذى يمثل الجانب الآخر من متطابقة رياضية ، لا بد وأن يكون بالنفى .

هذا هو لب المشكلة : الوجود العسكرى الاسرائيلى بفلســـطين هو المشكلة ذاتها ، وهو المسؤل عما جلب من مآسى لتلك الأرض ومن عليها . ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أن الوجود العســـكرى الاسرائيلى فى فلسطين وما يدور فى مخيلته من أحلام وتطلعات الى البغى والســيطرة ، انما يزيد من رقعة الأرض التى تتعرض وسوف تتعرض — بمن فيها الى المآسى والآلام ، فلا تقتصر على حدود فلسطين المعروفة بل تمتد الى الأراضى المجاورة ، ومن يدرى فقد يخرج الصراع عن دائرة الشرق الأوسط فيجر على العالم كثيرا من الويلات ، ما كان أحراه بتجنبها لو عمل مبكرا على الحد من ســـطوة أصحاب العقائد المنغلقة المتعصبة ووقف بحزم أمام مطامعهم وشهواتهم .

ومع كل ذلك ، فلا يزال الاسرائيليون يرددون أن الحـق فى جانبهم وانهم ضحية للظلم والعدوان الذى وقع عليهم من جانب العرب المعتدين !

* * *

احرار الحق

حقيقة التحرير :

لقد وقف المسيح يوما يخاطب نفرا من « اليهود الذين آمنوا به » فقال لهم « ان ثبتم فى كلامى فبالحقيقة تكونون تلاميذى **وتعرفون الحق والحق يحرركم** » .

وهنا ثارت كبرياؤهم الجريحـــة وقالوا له « اننا ذرية ابراهيم ولم نستعبد لأحد قط . كيف تقول أنت انكم تصيرون احرارا ؟

فقال المسيح : « ان كل من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة ...

لو كنتم أولاد ابراهيم لكنتم تعملون أعمال ابراهيم » .

وهنا لم يجد المنطق الاسرائيلى العاجز بدا من اللجوء الى أســـلوبه المعتاد من الكذب والمهاترات والافتراءات على الحقيقة ، فقال على لســـان أولئك اليهود الذين ـــ ويا للعجب ـــ كانوا مؤمنين بالمسيح :

« اننا لم نولد من زنا . لنا أب واحد وهو الله » .

فقال يسوع : « أنتم من أب هو أبليس وشـــهوات أبيكم تريدون أن تعملوا .

ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت فى الحق ..

فأجاب اليهود وقالوا له : ألسنا نقول انك سامرى وبك شيطان ..

فرفعوا حجارة ليرجموه . أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل » .

ان معرفة الحق والثبات عليه هى التحرير ـــ تحرير النفس وتحرير الغير .. والانسان الذى يبحث عن حريته هو الذى يبحث عن الحق ، حتى اذا وجده ، آمن به ودافع عنه وأظهره للناس ، مهما كلفه من ثمن .

لقد عرف الكثيرون جوانب الحق فى القضية الفلسطينية ، فآمنوا به ودافعوا عنه ، رغم ما جلب عليهم ذلك من أضرار ومضايقات ، الحقها بهم الأخطبوط الصهيونى الذى يتحكم فى كثير من دوائر القوة والنفوذ .

لكن هذا هو ثمن الحرية ، حريتهم التى اكتسبوها بعد أن طرحوا عن انفسهم بعيدا ، أغلال الجبن والجهالة والنفعية ، فكانوا من زمرة الأحرار .

ومن أمثلة أولئك الأحرار كثيرون ، ممن لا يمـــكن اغفـــال آرائهم فى القضية الفلسطينية لسببين رئيسيين هما :

١ — انهم لا ينتمون الى اى من طرفى الصراع ، فهم ليسوا من العرب أو من الاسرائيليين .

٢ — انهم بحكم وظائفهم ومناصبهم التى تقلدوها محليا — فى بلادهم — أو دوليا — فى هيئات ومؤسسات الأمم المتحدة — وبحكم خبراتهم التى لا يمكن المراء فيها ، فانهم يعتبرون من أكثر الناس معرفة بمواقع الحق فى القضية الفلسطينية .

وفيما يلى امثلة من آراء هذا الصنف المحايد من الناس ، والخبير بحقائق القضية الفلسطينية .

* * *

١ — الكوماندور البحرى الأمريكى هتشيسون :

عين هذا الضابط الأمريكى مراقبا عسكريا فى هيئة الرقابة الدولية — التابعة للأمم المتحدة — على فلسطين ، فى أكتوبر ١٩٥١ ، وبعد عام أصبح رئيسا للجنة الهدنة الأردنية الاسرائيلية المشتركة . واستمر يمارس عمله بنزاهة وكفاءة ، شهد بها رؤساؤه حتى استدعى الى وطنه فى نوفمبر ١٩٥٤ .

ولقد كانت فترة السنوات الثلاث التى قضاها فى فلسطين الممزقة ، واحتكاكه اليومى المباشر بعناصر الصراع وأرضه وحوادثه — كل ذلك دفعه لكتابة مذكراته التى سجل فيها حوادث العدوان المتكررة على خطوط الهدنة وخاصة على الجانب الأردنى .

كذلك تعرض هتشيسون لخطر الدعاية الصهيونية ومحاولاتها المستمرة لطمس حقائق القضية الفلسطينية وخاصة عن المجتمع الأمريكى . وقد جمع هتشيسون مذكراته فى كتاب أسماه : « الهدنة الدامية » (٤) .

*

يتكلم هتشيسون فى كتابه عن انطباعاته المبدئية عما حدث فى فلسطين كما عرفها فى وطنه — أمريكا — عن بعد ، قبل أن يتسلم مهمته الجديدة

---

(٤) نقله الى العربية : محمد محبوب وأحمد نافع — دار المعرفة .

كمراقب عسكرى فى فلسطين ، فيقول : « كانت معلوماتى فى تلك الأيام عن هذه البلاد تتلخص فى أنه وقعت هناك فى عام ١٩٤٨ حرب قصيرة بين العرب والصهيونيين ، ثم عقدت هدنة كخطوة أولى نحو السلام ..

وان فلسطين مقسمة الآن بين العرب واسرائيل، وان الدولة الصهيونية الجديدة ترغب فى السلام ، بينما يرفض العرب ذلك ، ويعمل الاسرائيليون على حماية وطنهم الجديد ضد أحقاد العرب المتزايدة .

هذه الفكرة التى كانت تراودنى — وهى قصة لها جانب واحد — وهى الفكرة التى مافتئت الصحافة الأمريكية ترددها فى مقالاتها وأخبارها .

وفى واشنطن زودتنى البحرية بتلخيص للموقف ، واكدوا لى هنا أن للمشكلة وجهتى نظر ، ولم يكن فى ذلك شىء جديد سوى وصف اسرائيل بأنها الدولة الناهضة المناضلة التى يحيط بها العرب وتمتلىء قلوبهم بالبغض والكراهية .

وقد مضى وقت طويل قبل أن أدرك أن أى جماعة من الناس تستطيع أن تعيش وتتقدم اذا أعطيت لها مبالغ ضخمة من الأموال والمعدات ، وأسعدها الحظ بتوفر الخبرة العلمية الغربية لديها . » (٥)

*

ولكن بعد أن أنهى هتشيسون مهمته فى فلسطين ، وعاد هو وعائلته الى أمريكا ، تغيرت نظرته الى المشكلة تماما وتحول الى النقيض . ولذلك كتب يقول : « عندما عدنا الى أمريكا .. لم نكن فى حاجة الى وقت طويل لكى ندرك أنه بالرغم من أن كثيرا من المقالات المحايدة كانت تظهر فى الصحف، الا أن الأخبار فى مجموعها كانت تصاغ فى قالب يتفق مع رغبات أولئك الذين يناصرون تصرفات اسرائيل ويبررونها مهما يكن نوعها وطبيعتها . ويبدو ذلك واضحا عندما أدان مجلس الأمن اسرائيل لهجومها على قطاع غزة فى ٢٨ فبراير عام ١٩٥٥ فقد كانت الصورة التى خرجت بها اسرائيل صورة تضفى عليها البراءة بالرغم من أن هذا الحادث قتل فيه ٣٨ شخصا وأصيب ٣١ آخرون بجراح . ومع ذلك فقد كان أغلب الجهد منصرفا الى تبرير اعتداء اسرائيل أكثر من الاهتمام بقرار الادانة نفسه ..

---

(٥) المرجع السابق . ص ٢٣ — ٢٤ .

وهنا نقطة أخرى سببت لنا المزيد من القلق ، وهى أن كثيرا من الأمريكيين الذين يعلمون خفايا شئون الشرق الأوسط ، أظهروا ترددا فى مناقشة هذه الشئون ، وحبسوا أنفسهم داخل دائرة معلوماتهم .

وقد أوضح الكثيرون منهم أن ذلك يرجع الى أن المنظمات الأهلية والنوادى التى ينتمون اليها تحرمهم فرص التعبير عن آرائهم فى مشكلة فلسطين .

واذا كان ما يقوله هؤلاء المطلعون صحيحا ، فان الأمر يصبح سخيفا أكثر مما نتصور . فبينما يكون فى حكم المحرم على هؤلاء فرصة اظهار حقيقة المشكلة القائمة بين العرب من ناحية واسرائيل والصهيونية من ناحية أخرى ، يتسع المجال أمام هؤلاء الذين درسوا المشكلة من وجهة النظر الاسرائيلية وحدها لاذاعة القصص المغرضة لتشويه الحقائق .

وتبدو خطورة هذا الأمر أكثر وضوحا فى أن الرأى العام الأمريكى يوجه سياسته الذين يتولون المناصب الكبرى بطريق الانتخاب ، فاذا ظل الرأى العام بعيدا عن حقائق المشاكل ، فان الأمل ضئيل فى الوصول الى حل عادل لمثل هذه المشكلة .

ان الخوف من التعبير عن الحقائق ، خاصة اذا كان العلم بها مما يعود على بلادنا (أمريكا) بالفائدة ، لم يعد له مكان فى مفهومنا ، وهذا هو ما دفعنى الى كتابة هذا الكتاب (كتاب : الهدنة الدامية) » (٦) .



• ان الباحث فى تاريخ الاسرائيليين — قديمه وحديثه — يستطيع أن يقرر بسهولة أن السلوك الاسرائيلى يخضع دائما لمجموعة من العقائد والأفكار التى اعتنقها الاسرائيليون ، وحكمت تصرفاتهم عبر القرون ، ومن هذه العقائد :

١ — أن الحق فى أى قضية هو ما اتفق والمزاج الاسرائيلى ، ولو كان العالم كله فى واد والاسرائيليون ومزاجهم فى واد آخر .

٢ — ومنها : أن الغاية تبرر الوسيلة بصرف النظر عن أى اعتبار

---

(٦) المرجع السابق . ص ١٤ — ١٥ .

آخر ، وليس هناك ما يمنع من أن يكون الارهاب من بين هذه الوسائل ان لم يكن هو أفضلها على الاطلاق .

٣ ــ ومنها أيضا : الحرص على بقاء التوتر بين اليهود وغيرهم من شعوب العالم ، بل واصطناع هذا التوتر اذا لزم الأمر ، بغية استمرار التقوقع اليهودى حفاظا على نقاء عنصره وعقيدته من خطر التحلل والذوبان فيما وراء العالم اليهودى ــ ثم استغلال ما يلحق باليهود من الأذى نتيجة لتقوقعهم فى استدرار عطف العالم وابتزاز أمواله .

وتطبيقا لهذه العقائد الاسرائيلية ، فقد تخصص الاسرائيليون القدامى فى قتل أنبياء الله ــ دعاة الاصلاح ــ لأن ما جاءوا به من أمور مستقيمة لم يتفق وذلك المزاج الاسرائيلى المعوج . وعلى شاكلتهم سار اسرائيليو اليوم ، فقتلوا الكثيرين ممن خالفوهم الرأى ، ومن بينهم الكونت برنادوت وسيط الأمم المتحدة ، لأنه قدما مشروعا ولو أنه يعترف فيه بتقسيم فلسطين ــ الذى كان تحقيقه من آمال الصهاينة آنذاك ــ الا انه اقترح أن تكون صحراء النقب القاحلة أرضا عربية وأن تكون أرض الجليل اسرائيلية ..

*

ومع أن الأمم المتحدة هى صانعة اسرائيل ومصدر وجودها ، الا أن ذلك الوليد المصطنع الشاذ كان أول من تنكر للجميل ، فعق الأمم المتحدة وسخر من قراراتها وقتل رجالها وأنزل بهم المهانة والأذى .

فلقد حدث أن « أدانت لجنة الهدنة اسرائيل لقيامها بمحاولة تهريب كميات من الذخائر الى منطقة هداسا والجامعة العبرية .. فشدد اليهود حملاتهم على الجنرال دى ريدر رئيس لجنة الهدنة الأردنية الاسرائيلية المشتركة (قبل أن يتولاها هتشيسون) ، وشملت الحملة هيئة الرقابة الدولية بأسرها . »

ومنذ ذلك الحين لم ينعم الجنرال دى ريدر بساعة سلام أو اطمئنان.

وأخذت الحملة المركزة ضده تشتد يوما بعد يوم حتى أن الموظفين الاسرائيليين أنفسهم من الذين كانوا يخشون نوايا العصابات الارهابية ، طلبوا الى الجنرال دى ريدر أن يوافق على تزويده بحراس خصوصيين عند عبوره بوابة مندلبوم وتجوله فى اسرائيل .

ولم تقتصر حملة اخراج دى ريدر على داخل اسرائيـــل ، بل أوعز الاسرائيليون الى مؤيديهم بالقيام بالضغط على واشنطون وباريس ولندن، وحتى بروكسل عاصمة بلجيكا مســقط رأس الجنرال دى ريدر ، للعمل على ابعاده من هيئة الرقابة الدولية .

واخيرا احنت سياسة الأمم المتحدة رأسها فى نيويورك ، وهى واقعة دائما تحت تأثير الضغط الصهيونى ، وأمرت بنقل الجنرال دى ريدر الى بعثة الأمم المتحدة فى الباكســتان . والواقع أن عمليـــة اخراج الجنرال دى ريدر من هيئة الرقابة كلفت الاسرائيليين جهود ثمانية أشهر . وليس هناك من وقف نفسه وجهوده وامكانياته فى خدمة قضية السلام كما فعــل الجنرال دى ريدر . وقد نجح هذا الرجل خلال هذه الفترة من خدمته فى عقد اتفاقية للقادة المحليين بين الاردن واسرائيل ، غير أن اسرائيل هى التى ضربت بهذا الاتفاق عرض الحائط .

كما بذل كل جهد ممكن لضمان الهــدوء فى المنطقــة التى كانت تقع تحت اشرافه ، وحاول انجاح مهمة لجنة الهدنة بقدر المستطاع ، غــير أنه شعر فى النهاية أنه كان يخوض غمار معركة خاسرة .

وفى شهر مايو ١٩٥٣ استقال الجنرال وليم رايلى من منصبه كرئيس لهيئة الرقابة الدولية بفلسطين ، وعين مكانه الجنرال فون بنيكه الدانمركى.

وقد بذل هذان الرجلان أقصى ما امكنهما من جهـــود لاقناع اليهود بالكف عن مهاجمة رئيس لجنة الهدنة الأردنية الاسرائيلية ــ وكان الجنرال دى ريدر فى ذلك الوقت ــ غــير أن اليهود استمروا فى حملتهم وبأقصى ما يستطيعون من عنف الى أن انتهى عمل دى ريدر كما ذكرنا سابقا » (٧).

*

وقد استمرت الحملات الاسرائيلية ترهب مراقبى الأمم المتحدة لعلها تجبرهم على اغماض عيونهم عما ترتكبه اسرائيل من جرائم واعتداءات ، بل ان تلك الحملات امتدت لتطالب بطرد رئيس هيئة الرقابة الدوليـــة نفســه .

فقد « كانت الصحافة الاسرائيلية توجه حملاتها النارية ضد الجنرال

---

(٧) المرجع السابق . ص ٥٣ ــ ٥٤ .

بنيكه كبير مراقبى الهدنة وتدعو الى اخراجه من هيئة الرقابة ، على النحو الذى أخرج به الجنرال دى ريدر ، وذلك لأن الصورة الواقعية التى رسمها بنيكه لمجلس الأمن عن حادث قبية (٨) وضعت اسرائيل فى موقف لا يؤيدها فيه أحد . كما كان الزعماء الاسرائيليون يستهجنون جهوده التى أدت الى وقف محاولات اسرائيل لتحويل مجرى نهر الأردن بحفر قناة فى المنطقة المنزوعة السلاح على الحدود السورية .

ولم يبال الجنرال بنيكه بالخطة التهديدية التى شنها الاسرائيليون عليه ، ولكنه أظهر غضبا شديدا عندما أبلغ أن عليه أن يصطحب حرسا اسرائيليا مسلحا فى تنقلاته داخل اسرائيل . ومعنى هذا أن عليه أن ينتظر ساعة عند بوابة مندليوم قبل أن يسمح له بدخول اسرائيل يرافقه ثلاثة من الحرس المسلح فى تنقلاته العامة والخاصة » (٩) .



ان أحدا من بنى البشر المتحضرين الأحرار لايوافق البتة على انزال العقاب بأى شعب من الشعوب بسبب الجنس أو اللون أو العقيدة ، وان العالم المتحضر ليدين كل اضطهاد تلقاه جماعة من الناس بسبب جرائم ارتكبها أفراد تلك الجماعة .

وان العالم ليعلم ويستطيع أن يعلم — كم من المآسى والآلام أنزلها النظام الهتلرى بشعوب أوربا وبقطاعات كبيرة من الشعب الألمانى نفسه الذى يشترك مع الأوربيين على الأقل فى مسيحيتهم وحضارتهم . ومع ذلك فقد استطاعت الدعاية الصهيونية أن تستأثر بفكر العالم واعيا لما فعله هتلر باليهود وتبالغ فيه أشد المبالغة ، ثم تنحى جانبا مافعله ببقية الشعوب الأخرى .

ولما كانت عقيدة الاسرائيليين المستترة تقوم دائما على خلق التوتر بين اليهود وغيرهم بغية استغلاله، الا أن المراقبين المحايدين استطاعوا تلمس تلك العقيدة الشاذة والامساك بها .

وفى هذا يقول هتشبسون : « ان الكثيرين من المعنيين بدراسة المشكلة

---

(٨) قبية قرية صغيرة هاجمتها قوة من الجنود الاسرائيليين النظاميين فقتلت ٤٢ من الرجال والنساء والأطفال وأصابت ١٥ بجراح .
(٩) المرجع السابق . ص ٥٧ .

العربية الاسرائيلية قد شكوا منذ زمن طويل فى أن اسرائيل تنظر الى الحدود المتوترة ، على أنها أعظم طريقة فعالة تتضمن بقاء الهيئات والسلطات الأجنبية أشد ماتكون حرصا على الوفاء بالتزاماتها نحو اسرائيل .

ومما يدعم هذا الرأى ، احجام اسرائيل عن السماح لمراقبى الأمم المتحدة بحرية التنقل ، والغاؤها ثلاث اتفاقيات محلية ، واغتصابها سلطات الأمم المتحدة وحقوقها ، ثم رفضها تقديم تسهيلات ضئيلة على طول الحدود توفر لعدد من الأسر العربية أسباب الحياة دون أن تؤدى الى أية خسارة مادية لاسرائيل .

ولو أن اسرائيل تخلت عن أعمالها الاستفزازية منذ أن وقعت الهدنة، لكان من المحتمل أن يسود السلام فلسطين اليوم ، ولكان من الممكن أن يكتشف أساس جديد للتفاهم بين العرب واسرائيل ..

وقد حدث ذات مرة عندما كنا نقوم بتحديد خط الهدنة جنوبى بلدة قلقيلية ، أن وجدنا موردا صغيرا للمياه ، وبالرغم من أن الخط على الخريطة الاصلية كانت سعته عشرين ياردة تقريبا اذا طبق على الطبيعة بمقياس الرسم، فقد اتفق أخيرا على أن مورد المياه يقع فى داخل اسرائيل بمسافة ثلاث ياردات . وكانت الأرض على الجانب الاسرائيلى من الخط فى هذه النقطة مجدبة وغير مزروعة ، وأقرب مزرعة اسرائيلية تبعد ميلا تقريبا الى الغرب، بينما كان الجانب العربى الملاصق للخط يتألف من واد ضيق مزروع ، تستمد منه عدة أسر عربية أسباب الحياة . ومع ذلك فقد كان انتاج هذه البقعة الصغيرة من التربة الصخرية يعتمد على مورد المياه الواقع على بعد ثلاث ياردات فى داخل الأراضى الاسرائيلية .

وقد سئل الاسرائيليون عما اذا كانوا يوافقون على تعديل مواصفات الخط بمقدار ثلاث ياردات ، فأجابوا بالنفى .

ولما سئلوا عما اذا كانوا يسمحون للعرب باستخدام الماء ، أجاب الضابط الاسرائيلى المسئول بلا تردد : اذا عبروا الخط فسوف يضربون بالنار .

فاذا كانت اسرائيل ترى فعلا فى التوتر الدائم على الحدود ذخيرة تبتاع بها الرعاية العاطفية والكسب الاقتصادى ، أو اذا كانت تستخدم هذا التوتر اساسا لعدوان مقبل ، فان فرصتها للبقاء تكون قد ضاعت منذ أمد طويل . ولن تستطيع اسرائيل أبدا أن تشق طريقها بالوسائل العدوانية لتشغل مكانا دائما فى الشرق الأوسط .

ان الدراسة الدقيقة تبين لنا أن ماتفخر به اسرائيل من أعمال ، انما هو فى الواقع مصدر القلق . فهناك دولة صغيرة غارقة فى السلاح ، قوية فى روحها المعنوية ولكنها قصيرة النظر . فاسرائيل دولة فقيرة فى الموارد الطبيعية ، وهى اليوم تبنى نظاما اقتصاديا يعتمد كلية على المساعدات الخارجية والمعونة الفنية التى تقدمها الولايات المتحدة خاصة . كما انها وهى تتعجل نموها كانت بعيدة كل البعد عن الصواب وهى تقيم معيشة فوق مستوى طاقتها وامكانياتها .

ان على دعاة التوسع الذين يبنون آمالهم على بعض هذه الحقائق ، أن يدركوا أن الامكانيات الاقتصادية لأية أمة انما تزداد بنسبة زوال خلافاتها السياسية مع الدول المجاورة لها .

والواقع أن الولايات المتحدة ورعاياها اليهود ذوى الميول الصهيونية لايستطيعون مساعدة اسرائيل الى الأبد . وسيأتى يوم يعلقون فيه استمرار المساعدة على قيام السلام فى الشرق الأوسط . وقد لايتمشى هذا الموقف مع مصالح اسرائيل ولكن الاخذ به يقضى على أمل اسرائيل فى الحياة .

ولا ينكر أحد فضيلة مساعدة اللاجئين اليهود فى جميع أنحاء العالم للحصول على الامن ، ومع ذلك فى الوقت الذى نعلم فيه استعدادنا لبذل الملايين فى سبيل القضاء على الآلام ، يجب أن نحذر من دفع دولار واحدا نخلق به آلاما جديدة .

والدول التى أيدت قيام دولة اسرائيل رغبة فى ايجاد مأوى للاجئين من اليهود ، تدرك الآن (عام ١٩٥٥) انها عندما فعلت ذلك لم تقلل من عدد المشردين فى العالم . فهناك ٩٠٠ الف لاجىء عربى يعيشون فى بؤس ويذكرون تلك الدولة بهذه الحقيقة . وعلى هذه الدول أن تقبل الآن الالتزام باصلاح الموقف ، وذلك بالسماح للاجئين العرب بالعودة الى أوطانهم فى الأرض التى تحتلها اسرائيل ، أو أن تطالب اسرائيل بتعويضهم عما فقدوه من ممتلكات » (١٠) .

❊

لقد اثبتت حروب العدوان الاسرائيلى المتكررة على الدول العربية وخاصة ما حدث فى عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، أن غالبية من اليهود الذين يعيشون فى دول أخرى — خلاف دولة اسرائيل — قد جعلوا أنفسهم رعايا اسرائيليين حقيقيين ، مستعدين دائما لعمل كل ما يخدم أهداف اسرائيل ومطامعها التوسعية ، ولو كان ذلك على حساب مصالح الدولة التى ينتمون اليها ، وينعمون بخيراتها ويتمتعون بكافة امكانياتها باعتبارهم مواطنين مخلصين (!) من رعاياها .

---

(١٠) المرجع السابق . ص ١١٨ — ١١٩ ، ١٣٢ — ١٣٣ .

لقد سبق أن نبه هتشيسون ــ ولما يمضى على قيام اسرائيل أكثر من بضع سنوات ــ الى المشكلة التى أصبحت تعرف اليوم باسم : الولاء المزدوج اليهودى ، والذى هو فى حقيقته يمكن تعريفه باسم : النفاق اليهودى ، رغم أن توقعاته بالنسبة لسلوك اليهود المقيمين خارج دولة اسرائيل ــ باعتبارهم سيكونون رعايا مخلصين للدول التى يعيشون فيها ــ كانت متفائلة وحسنة الظن بهم أكثر من اللازم .

فلقد قال هتشيسون : « من الأسباب التى تعمى اسرائيل عن الدور الذى يجب أن تلعبه فى الشرق الأوسط ، شعور خاطىء بالأمن توحى به الصهيونية العالمية . فالقائمون على الحكم فى اسرائيل يعتقدون اعتقادا جازما بأنه عندما تجىء المعركة الفاصلة سيثبت اليهود فى كل الدول اخلاصهم لاسرائيل ، بغض النظر عن ولائهم للدولة التى يعيشون فى كنفها .

ومبعث شعور الأمن هذا عند حكام اسرائيل هو الاعتقاد بأن الصهيونية تتحدث باسم اليهود ، وان أى اجراء تتخذه اسرائيل سيلقى تأييدا حارا من يهود العالم . ويفترضون أن الصهيونية العالمية ستقوى ويقوى نفوذها الى حد لا يضمن المساعدات الخارجية فحسب بل يعبئها لتغطية كل حاجات اسرائيل . ويعتقدون أن النفوذ الصهيونى كفيل بأن يضمن لاسرائيل الاعتراف بأى أرض جديدة تحصل عليها .

ويعتقد الحاكمون فى اسرائيل أيضا أن الضغط الصهيونى فى العواصم ذات النفوذ ، وخاصة فى مقر الأمم المتحدة ، يضمن لاسرائيل الحماية والتهرب مما عليها من التزامات ، كما يضمن لها المحافظة على المستوى الاقتصادى الذى تتطلع اليه اسرائيل .

على اليهود ــ وأغلبهم رعايا مخلصون لدول يعيشون فيها الآن (عام ١٩٥٥) ــ أن يكونوا طليعة حملة واسعة النطاق لمساعدة اسرائيل على فتح الباب نحو الواقعية ، وخير وسيلة يتبعونها هى أن يهبوا ضد هذه الأقليات الصهيونية ذوات النفوذ والتى تدعو اليهود الى ربط مصائرهم باسرائيل ، وعليهم الا يسمحوا لاسرائيل بأن تعتبرهم من رعاياها . ويجب عليهم أيضا أن يعلنوا صراحة أنهم لن يذهبوا الى أبعد من محاولة تحقيق حرية العبادة والفرار من مناطق الاضطهاد ، فمصالحهم تتركز فى رغبتهم فى نشر التعليم الدينى بين الشعب اليهودى .

ويجب عليهم كذلك أن يقفوا فى وجه سياسة اسرائيل العدوانية .

وقد أذاع يشايا ياهو كلينوف مدير العلاقات العامة فى الوكالة

اليهودية خطابا من محطة اذاعة القدس يوم ٩ أبريل عام ١٩٥٤ ، دعا فيه يهود أمريكا الى ممارســـة ضغط سياسى بغية تحقيق أهداف اسرائيل فقال : (ولماذا نخشى قيام كتلة من الناخبين اليهود ؟ انها قائمة بالفعـل عندما نواجه أى طارىء ، ونأمل أن تظل باقيــة . ووجود لجان يهودية فى الأحزاب الأمريكية لا يعتبر نقضا لمبادىء الدستور الأمريكى أو لتقاليــد الحرية فى أمريكا . يجب أن يدرك الحزبان الديمقراطى والجمهـــورى أن الأعضاء اليهود ينتظمون فى جمعيات ، لا بوصفهم أمريكيين فحسب ، بل بوصفهم يهودا لهم مصالح يهودية هامة .

ويجب أن يشعر الشعب الأمريكى والحكومة الأمريكية بالضــغط ، ويدركوا كيف يفكر ملايين الرعايا اليهود فى المصاعب التى تواجهها اسرائيل، وان فكرة الوحدة اليهودية التى عادت علينا بالفائدة من روســيا وبولندا وألمانيا لن تكون ضارة فى أمريكا ؛

كم يجهل بعض الناس أمريكا وقدرتها على مواجهة التحدى !) (١١)

❋

وبعد — هل يستطيع الشعب الأمريكى أن يلقى الســـمع الى أحد أبنائه ، ليس فقط لأنه :

جاء فى مهمة رسمية بفلسطين المحتلة وانطباعه المبدئى — كالغالبية العظمى من الأمريكيين — بأن الحق فى جانب اسرائيل ، فقد كان يعلم أن تلك « الدولة الصهيونية الجديدة ترغب فى الســـلام بينما يرفض العرب ذلك .. وان اسرائيل هى الدولة الناهضة المناضلة التى يحيط بها العرب وتمتلىء قلوبهم بالبغض والكراهية » — لكنه بعد أن أنهى مهمته وعاد الى وطنه ، كانت آراؤه فى القضية الفلسطينية قد تحولت الى النقيض .

أو لأن هتشيسون قام بتلك المهمة باعتباره موظفا مسئولا نال شرف ترشيح حكومته الأمريكية ليخدم تحت علم الأمم المتحدة فى فلســـطين . وأنه قضى بها ثلاث سنوات مكنته من لمس الحقيقة على الطبيعة — ومن ثم فان آراءه لا بد وأن تتســـم بالمســـئولية ، ان لم يكن لاعتبارات المعرفة والضمير ، فعلى الأقل بحكم ما تمليه عليه رعاية المصالح الحقيقية لوطنه — الولايات المتحدة الأمريكية .

---

(١١) المرجع السابق . ص ١٤١ — ١٤٢ .

لكن خطورة آراء هتشيسون انما ترجع فى الواقع الى ما هو أهم من تلك العوامل التى سبقت الاشارة اليها — فهى ترجع الى صدق توقعاته وسلامة تقديره لموقف ونوايا اسرائيل والصهيونية العالميــة ، وهو الشىء الذى استمرت تحققه الأحداث ، بعد أن نشر هتشيسون آراءه بسنوات.

فلقد قرر هتشــيسون بوضـــوح أن اسرائيل دولة عدوانية تبغى التوسع ، وانها تعتمد على التوتر الدائم على الحدود لتحصــل به عــلى الرعاية العاطفية والكسب الاقتصادى ، وهى تستخدم هذا التوتر ذريعة لعدوان مقبل يحقق لها أطماعها التوسعية .

والذى حدث فى عام ١٩٥٦ أن بدأت اسرائيل العدوان على مصر وفق خطة التواطؤ الثلاثى المعروفة ، مستخدمة التوتر القائم آنذاك بين انجلترا وفرنسا من ناحية وبين مصر من ناحية أخرى لعدة أسباب من بينها تأميم مصر لشركة قناة الســويس . وكان من ثمرة ذلك العدوان أن احتلت اسرائيل سيناء وأعلن بن جوريون — رئيس الوزراء آنذاك — ضم سيــناء رســميا الى اسرائيل ، لكنه اضطر بعد ثلاثة أشــهر الى ســحب اعلانه وسحب القوات الاسرائيلية من سيناء .

ولما كان التوسع والعدوان من طبيعة اسرائيل ، فقد بدأ قادتها منذ عام ١٩٥٧ يخططون لعدوان علىالدول العربية ، تم تنفيذه بعد عشر سنوات فى عام ١٩٦٧ ، بعد توتر مصطنع على الحدود وخديعة سياسية . ولقــد اســتطاعت اسرائيل بهذا العدوان أن تبتلع ما تبقى خارج حدودها من فلسطين ، بالاضافة الى مســاحات واســعة من أراضى الدول العربية المجاورة ، ثم بدأت فى اقامة المســتعمرات وتغيير معالم الأراضى العربية بنســف المدن والقرى واجبار الأهالى على الرحيل ، حتى تهيىء مكانا للقادمين الجدد من المهاجرين اليهود .

لقد كان التوسع والعدوان هو السبب المباشر للحرب العالمية الثانية التى اكتوت البشرية بنيرانها سـنوات طويلة ، وها هو العالم يقترب من شىء كهذا بسبب أسرائيل — النازى الجديد — ومطامعها التوسعية .

*

ولكل ما سبق فان هتشيسون الضابط المسئول والمواطن الأمريكى يخاطب مواطنيــه الأمريكيين فيما يجب أن يكون عليــه موقفهم من القضــية الفلسطينية ، فيقول :

« ان من واجب الناخبين الأمريكيين الآن أن يؤيدوا الدعوة الى أبعاد المشكلة العربية الاسرائيلية عن السياسة الداخلية . ويجب أن نطالب بسياسة خارجية تحمى مصالح أمريكا وحلفائها ولا يكون فيها ثغرات تخلقها الأغراض الخاصة لأقليات ذوات نفوذ . لقد حدد الرئيس وشنطن فى خطبة الوداع عام ١٧٩٦ الطريق التى يجب أن تسلكها الولايات المتحدة فى معالجة مشاكل الشرق الأوسط فقال : (ليس هناك أوجب من استئصال كل نفوذ دائم متأصل ضد دول معينة وكل تقرب عاطفى الى دول أخرى ، وبدلا من هذا وذاك يجب أن نقيم علاقاتنا بالجميع على أساس العدل والصداقة .

وتقرب دولة من أخرى على أساس عاطفى يخلق أضرارا كثيرة . فالعطف على الدولة المقربة يهيىء وهما بوجود مصالح مشتركة فى حالات لا توجد فيها مصالح مشتركة بالفعل ، ويجلب علينا عداوة أعداء تلك الدولة ويجرنا الى الاشتراك فى مشاكل وحروب تلك الدولة دون أسباب أو مبررات كافية) .

وفى عام ١٨٠٣ ردد الرئيس جيفرسون قولا مماثلا ..

واذا طبقنا هذه الحكمة على معالجة المشكلة العربية الاسرائيلية ، أصبح من واجب المسئولين فى الحكومة أن يبلغوا الشعب الذى يمثلونه ، الأهمية الحقيقية للعالم العربى :

ثرواته الضخمة فى الرجال والموارد — أهميته الجغرافية فى العالم المضطرب — امتداد أراضيه الواسعة التى يمكن أن تكون جسرا للصداقة فى وقت السلام وجدارا قويا — يحتمى به فى وقت الحرب .

ومن واجب هؤلاء المسئولين كذلك ان يحذروا شعب هذه البلاد من أن تجاهلنا للمثل الأمريكية وخضوعنا لمصالح الأقليات المغرضة يفقدنا الشرق الأوسط ..

ان طريق العودة لا يزال مفتوحا ولكنه قد لا يظل مفتوحا فى الغد .

ويجب على الولايات المتحدة ، وهى تقدر مسئوليتها الأدبية كدولة كبرى ، أن تنتهج فورا سياسة ايجابية غير متحيزة ، وأن تستخدم نفوذها فى تحقيق السلام فى الشرق الأوسط ..

ونحن لا نملك أن نهدد سلامة بلادنا بأن نغمض عيوننا عن كل شيء

الا عن صداقة اسرائيل ، وهى صداقة تتأثر مباشرة بقدرتنا على مساندة وجود هذه الدولة المشـــاكسة وســـــط دول معادية . يجب أن نكون واقعيين » (١٢) .

*

٢ ـ الماجور جنرال الدنمركى فون بنيكه :

اشتهر هذا الضابط فى بلده بأنه حجة فى الهندسة العسكرية وأحبه الشعب الدنمركى لاشتراكه فى حركة المقاومة السرية ابان الحرب العالمية الثانية . وقد عين الماجور جنرال بنيكه رئيســـا لهيئة الرقابة الدولية فى فلسطين يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٣ خلفا للجنرال الأمريكى وليام رايلى .
وقد كتب مقدمة لكتاب هتشيسون : الهدنة الدامية ـ أقره فيها على كل وجهات نظره ، كما طالب دول العالم أن تتحمل مسئولياتها فى اقامة سلام دائم وعادل فى الشرق الأوسط ، وذلك حين قال : « لا يكاد يوجد فى الأحياء من هو أكثر من هتشيسون معرفة بدقائق المعارك اليومية التى تدور على طول الحدود بين المملكة الأردنية واسرائيل .

فبعد مدة طويلة عملها كمراقب فى لجنة الهدنة فى القـــدس ، تولى هتشيسون رئاسة لجنة الهدنة الأردنية الاسرائيلية المشتركة فى صيف عام ١٩٥٣ حيث قوبل تعيينه فى ذلك الحين بثقة رجالات العرب والاسرائيليين على السواء ، كما وثق به المواطنون العاديون على جانبى خطوط الهدنة ..

أما الحوادث الواردة هنا كأمثلة على ما وقع من مشاكل على خطوط الهدنة ، فقد وصفت بطرقة واقعية واضحة وفى اسلوب بسيط بعيد عن الهوى ، ولا يشوب هذا الوصف شىء من التحيز أو المبالغة . ومن الخير الآن لجميع الشعوب المحبة للسلام الا تغمض عيونها عن هذه الحقيقة ..

ان على جميع الذين ينشدون الحقيقة عن محور الخلافات القائمة فى الشرق الأوسط أن يقراوا هذا الكتاب (الهدنة الدامية) الذى ناشد المؤلف فى نهايته ، الولايات المتحدة النظر الى هذه المشكلة بين الواقع ، دون التأثر بعوامل الضغط الداخلية التى تقوم بها جماعات خاصة ، ودون السعى الى تحقيق مكاسب شخصية .

---

(١٢) المرجع السابق . ص ١٤٢ ـ ١٤٤ .

وهذا النداء موجه ايضا الى الكثيرين فى الدول الأخرى التى قد تتخذ فيها قرارات بشأن الشرق الأوسط ذات أثر حاسم فى حل هذه المشكلة . » (١٣)

***

٣ ــ الكولونيل الأمريكى ماكنينش :

هو ضابط أمريكى خدم فى اوربا خلال الحرب العالمية الثانية ثم عين فى هيئة الرقابة الدولية بفلسطين من ربيع ١٩٥٢ حتى صيف ١٩٥٤ حيث عمل مساعدا لكبير مراقبى الهدنة . وهو لذلك كان وثيق الصلة بالجنرال ولم رايلى ، ومعاونا لخلفه الجنرال بنيكه .

وقد كتب هو الآخر مقدمة لكتاب هتشيسون قال فيها : « اننى اعلم تمام العلم أن أى كتاب من هذا النوع خاصة اذا كتبه الكوماندور هتشيسون ، سيصبح محل تحميص دقيق من قبل اولئك الأفراد أو الجماعات الذين يعارضون أية محاولة لتوجيه اقل نقد لاسرائيل أو للصهيونية العالمية ..

وبوصفى مساعدا لرئيس هيئة الرقابة الدولية واستنادا الى معرفتى الشخصية ، فاننى اعتقد أن الكوماندور هتشيسون توخى التحفظ الفائق فى سرد الوقائع والآراء التى أوردها فى كتابه .

ومن الجلى أن أى حل لمشاكل فلسطين يجب ان يأخذ بعين الاعتبار المشاحنات السياسية ، ولكنه يجب الا يقتصر على هذا الميدان ، ولذلك فقد تضمنت مقترحات الكوماندور هتشيسون للوصول الى حل سلمى لهذه المشكلة عوامل على جانب كبير من الأهمية ، وهى الالتزامات الاخلاقية التى يجب ان تتوخاها الدول الكبرى فى حل هذه المشكلة الحيوية .

والى أن تحظى هذه الالتزامات بما تستحقه من اهتمام فلن يكون هناك امل فى الوصول الى حل دائم أو سلمى .

ويجب الا يغرب عن بال قراء هذا الكتاب انه بغض النظر عن مدى عدالة هذه الحلول أو صلاحيتها فهى ولاشك ستتعرض لهجوم شديد من أولئك الأفراد أو الجماعات فى الولايات المتحدة الذين يحاولون دائما أن يقنعوا

---

(١٣) المرجع السابق . ص ٦ ــ ٧

الحكومة الأمريكية وشعبها بقبول مطالب اسرائيل دون جدال ، وان يسلموا بنداءاتها ووجهة نظرها تجاه مشكلة فلسطين .

وزيادة على ذلك فهناك ظاهرة أخرى يؤسف لها وهى انه الى امد قريب كان شعب الولايات المتحدة بوجه عام على معرفة ضـــئيلة بالحالة فى فلسطين . وفى بعض الأحيان يبدو أنه لا يأبه بالمشكلة على الاطلاق .

واليهود الأمريكيون بوجه عام ليسوا أسوأ أو أحسن حالا من بقية الشعب الأمريكى فى هذا الشأن . ويبدو أن الصهيونية نجحت فى تعمية عدد كبير من أولئك الأمريكيين اليهود ، كما نجحت فى استغلال جهل الأغلبية العظمى من الأمريكيين ونزوعهم الى عدم المبالاة مما أدى اليوم الى تعرض علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط لخطر بالغ ..

ان قراء هذا الكتاب سيساهمون فى ضـــمان أمن الولايات المتحدة وعائلاتهم وأشخاصهم وذلك بدراسة الحقائق الواردة فيه ، وبدعوة الآخرين الى أن يسلكوا نفس السبيل » . (١٤)

*

وبعد — لقد اتفقت آراء هذا النفر الهام والعـــديد من المراقبين العسكريين المحايدين — الذين ادركوا بكل حواســـهم حقيقة النزاع العربى الاسرائيلى لخبرتهم اليومية بما يدور فوق أرض فلسطين — واقتنعوا تماما بثقل الظلم الفادح الذى نزل بعرب فلسطين نتيجة لخلق دولة اسرائيل .

ولاشك أن شهادة أولئك المراقبين المسئولين من قبل الأمم المتحدة فى القضية الفلسطينية ضد اسرائيل على تنوع جنسياتهم — بين أمريكا وبلجيكا والدنمرك — لمما يزيد وضوح رؤية الحق العربى فى تلك القضية ، ويدين دولة الظلم والعدوان : اسرائيل .

***

٤ — الدكتور جون ديفيز مدير وكالة غوث اللاجئين :

يعتبر بحـــكم وظيفته من اكثر الخبراء التصاقا بمأســـاة اللاجئين الفلسطينيين التى نتجت عن قيام دولة اسرائيل . وقد القى بيانا فى مؤتمر اللاجئين العالمى الذى عقد بجنيف فى يناير ١٩٦١ — قال فيه :

---

(١٤) المرجع السابق . ص ١٠ .

« ان غايتى اليوم أن اقدم صـــورة صـــحيحة عن مأساة اللاجئين الفلسطينيين وحاجاتهم كما أراها ، وانى أفعل ذلك على أمل أن تستطيع الهيئات التى تمثلونها من تقديم المزيد من المساعدات لهؤلاء المنكوبين ..

ان مشـــكلة اللاجئين الفلسطينيين ليست مستمرة فحســب ، بل انها تكبر أكثر فأكثر مع مرور الزمن ..

ونظرا لعدم التفهم الواسع (لهذه المشكلة) قررت أن أغتنم هـــذه الفرصة لأحاول ايضاح بعض المفاهيم الخاطئة التى تجعل المرء يصـــل الى استنتاجات خاطئة ..

الفكرة الخاطئة الأولى : أن عرب فلســـطين عديمو الحيلة ويفضلون الصدقات الدولية على العمل من أجل كسب رزقهم — اما الواقع فهو أن هؤلاء الناس هم على وجه العموم ميالون الى العمل ولديهم رغبة قوية فى أن يصبحوا قادرين على اعالة انفسهم . ففى عام ١٩٤٨ (عام قيام دولة اسرائيل) كان الاقتصاد الفلسطينى والثقافة الفلسطينية أكثر بلدان الشرق الأوسط تقدما ، كما يدل على ذلك ظهور بوادر نشـــاط صناعى واقتصادى ملحوظ وبرنامج تعليمى متسع وقيام طبقة وسطى مستمرة النمو . وترى بوجه عام ان العمال البالغين الذين يؤلفون هـــذه الطبقة الوسطى وجدوا أعمالا بعد نزوحهم عن فلسطين ولم يعتمدوا على الوكالة فى اى وقت من الأوقات . ولقد كان هؤلاء يؤلفون حوالى ٢٠ بالمائة من جميع القابلين للعمل الذين نزحوا عن ديارهم .

الفكرة الخاطئة الثانية : ان الحكومات العربية المضيفة قد اســاءت معاملة اللاجئين باهمالها اياهم ، حتى وبقائهم كرهائن فى صراعها مع اسرائيل — والحقيقة هى أن هذه الحكومات المضيفة بوجه عام قد ابدت عطفا وسخاء فى مساعدة اللاجئين ضمن حدود امكانياتها . فلقد آوتهم فى بلادها فى الدرجة الأولى ، وهى تنفق فى الوقت الحاضر ما يزيد عن الخمســـة ملايين دولار فى العام بشكل خدمات للاجئين ، وبالاضــــافة الى ذلك فقد تحملت بصـــبر المصاعب الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية وردود الفعل التى تنشأ عن وجود اعداد كبيرة من اللاجئين ضمن حدودها .

الفكرة الخاطئة الثالثة : انه كان بالامكان حل مشكلة اللاجئين منذ زمن بعيد لولا تآمر السياسيين العرب المجردين عن المبادىء والذين سعوا

لابقاء اللاجئين عاطلين عن العمـــل وأن هــؤلاء لا يمثلون الرأى العــام
ــ اما ملاحظاتى الخاصة فهى أن السياسيين العرب يسلكون كما يســلك السياسيون فى أى مكان آخر من العالم تقريبا من حيث انهم متنبهون لشعور شعبهم . وفى رأيى أن الناطقين العرب فى بياناتهم أمام الجمعية العامة وسواها يعبرون بدقة عن الشعور العميق والآمال الكامنة فى قلوب الشــعب الذى يمثلونه ، وبتعبير صريح ان عقدة شعورهم هو رفضهم قبول اسرائيل كجزء دائم من الشرق الأوسط . وان اتصالاتى الواسعة فى الشرق الأوسط مضافا اليها الآراء العديد التى تبادلتها مع أشـــخاص غيرهم ممن لهم مثل هــذه الاتصالات ، تقنعنى أن هذا هو ما يشعر به بالفعل الشعب العربى بكاملة ، لا المليون لاجىء فلسطينى فحسب . وان هذا الموقف الذى تسنده وتقويه المشــاعر العمية هو الموقف الذى يشعر به السياسيون وينعكس فى بياناتهم وتصرفاتهم .

الفكرة الخاطئة الرابعة : تتصل هذه الفكرة اتصــالا وثيقا بالفــكرة الخاطئة الثالثة ، ومفادها أنه لو أمكن التوصل الى حل سياسى بين اسرائيل وجارتها العربيات عن طريق التفاوض فان مشـــكلة اللاجئين ســتحل
ــ ان هذا بعيد عن الحقيقة وسوف يبعد عنها اكثر فأكثر مع مرور الزمن .

الفكرة الخاطئة الخامسة : انه ينبغى اللجؤ الى الضغط الخارجى على الحكومات المضيفة لاجبارها على الاسراع فى حل مشكلة اللاجئين ــ ان متبنى هذه السياسة الذين اكتشفوا انهم كثيروا العدد يشيرون بتململ الى مايزيد عن الثلاثمائة مليون دولار التى ســاهمت بها الحكومات لمساعدة اللاجئين الفلسطينيين خلال السنوات الثلاث عشر الماضــية (من عام ١٩٤٨ الى عام ١٩٦١) ..

ان هذا الشعور بالتململ قد شـــجعه ولا ريب الفكرة الخاطئة النى سبقت الاشارة اليها ، وهى أن القضية بقيت حية على الأكثر نتيجة لتآمر السياسيين العرب .

وفى الوقت ذاته تجدر الاشارة الى انه لم يبد لنا بوجه عام أن مثل هذا التململ قد أظهر بصدد تنفيذ الحل الذى ســاعدت على وضعه الأغلبية الساحقة من الحكومات الأعضاء فى الأمم المتحدة ، والتى أعادت تأكيده سنة بعد سنة فى دورات الجمعية العامة المتتابعة . انى اشير الى الفقرة ١١ من قرار الجمعية العامة رقم ١٩٤ الذى قررت فيه :

(وجوب الســماح للاجئين الراغبين فى العودة الى بيوتهم والعيش

بسلام مع جيرانهم بأن يفعلوا ذلك فى اقرب وقت عملى ممكن ، ووجوب دفع تعويض عن اموال الذين يختارون عدم العودة وعن الخسائر والأضرار التى تلحق بها والتى تقتضى مبادىء القانون الدولى والعدالة أن تقوم الحكومات والسلطات المسئولة بتعويضها) .

واسمحوا لى أن اضيف على الهامش أن الوكالة لم تكلف قط بمسئولية تنفيذ القرار رقم ١٩٤ » (١٥)

***

٥ — الوزير البريطانى — السابق — انتونى نتنج :

لقد وقف نتنج يحاضر فى المجلس اليهودى الأمريكى بنيويورك يوم ٢ نوفمبر ١٩٦٧ بمناسبة مرور خمسين عاما على صدور وعد بلفور ، فيعرض مأساة فلسطين منذ وعد بلفور حتى ذلك اليوم ، ويذكر من الحقائق ما يؤرق مضاجع الصهيونية ويفضح خططها للسيطرة والتوسع .

فبالرغم من الضباب الكثيف الذى خلفته الهزيمة العسكرية التى لحقت بالعرب فى حرب يونيو ١٩٦٧ الا أن ذلك لم يطمس معالم الحقيقة التى خبرها نتنج بنفسه — بحكم وضعه وتاريخه (١٦) . الذى يؤهله لذلك — ولم يلق على تلك الحقيقة أقل القليل من الظلال التى قد تشكك فى الحق العربى فى القضية الفلسطينية ، أو تضع ذلك الحق فى مواضع اليأس التى يتخلى فيها كل المدافعين والأنصار .

---

(١٥) المرجع ١١ — ص ١٢٣٩ — ١٢٤٣ .

(١٦) انتخب عضوا بالبرلمان الانجليزى كمرشح لحزب المحافظين عام ١٩٤٥ ، ثم عضوا بالمجلس الأوربى عام ١٩٥١ . عين وزير دولة للشئون الخارجية عام ١٩٥٤ ثم رئيسا للوفد البريطانى فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وفى لجنة نزع السلاح ، ثم انتخب نائبا لرئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة . وقد استقال فى عام ١٩٥٦ احتجاجا على الهجوم البريطانى الفرنسى على مصر بالتواطؤ مع اسرائيل . وخلال الفترة ١٩٥٦ — ١٩٥٩ عمل مراسلا خاصا لصحيفة نيويورك هيرالد تريبون ، ومحاضرا فى الولايات المتحدة عن مشاكل الشرق الأوسط . له عدة مؤلفات فى أحداث ومشاكل الشرق الأوسط وأفريقيا .

مقدمـــة :

قال انتونى نتنج فى مقدمة حديثه الذى جعل عنوانه :**مأساة فلسطين منذ وعد بلفور حتى اليوم** (نوفمبر ١٩١٧ - نوفمبر ١٩٦٧) :

« منذ خمسين عاما مضت حتى اليوم أصدر وزير الدولة للشـــئون الخارجية الرايت أو نرابل أرثر جيمس بلفور ، بالنيـــابة عن الحـــكومة البريطانية ، التصريح الشهير الذى يحمل اسمه ، وقد جاء فيه : أن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، على أن يفهم جليا انه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين .

والآن وبعد مرور خمسين عاما على هذا التصريح ، خمسين عاما من الألم والعذاب والمرارة نجد الوطن القومى للشعب اليهودى قد تحول الى دولة اسرائيل ، وامتهنت حقوق العرب فى فلسطين ، وديست بالأقدام تحت وطأة جيش الاحتلال الاسرائيلى .

والآن - كيف حدث هذا ؟ كيف تحول وعد بلفور الى هذا الشىء المر ، وخلف مثل هذه المرارة والعذاب ؟

لمعرفة ذلك يلزمنا ان نتتبع باختصار تتابع الأحداث المفجعة التى حلت بفلسطين عقب تصريح بلفور واقامة الحماية البريطانية بها ، لأننا اذا أردنا تفهم المشاكل السياسية الحالية التى نجمعت عن الحرب العربية الاسرائيلية فى يونيو الماضى (من عام ١٩٦٧) فمن الضرورى استعادة الأحداث التى أوصلتنا الى هذا المأزق الخطير » .



وعود بريطانيا للعرب :

« اننا لانستطيع ان ننسى - لأننا لو نســـينا فان العرب انفسهم لن ينسوا - انه فى عام ١٩١٥ وعدت بريطانيا العظمى الشيخ حسين شريف مكة انه فى نظير مســـاعدة جيوشه العربية فى تجريد حملة ضد التحالف التركى الألمانى فى الحرب العالمية الأولى فان : كل فلسطين بالاضافة الى العراق وسوريا وشرق الأردن وشبه الجزيرة العربية - كل هذه الأقاليم ستتحرر وتحصل على استقلالها بمجرد هزيمة حكامها الأتراك .

ولكن ما أن اعطى هذا التعهد وتحركت الجيوش العربية للثورة ضد الأتراك سارعت كل من بريطانيا العظمى وفرنسا الى عمل الاتفاق السرى المعروف باسم اتفاق سيكس — بيكو فى عام ١٩١٦ ، والذى بمقتضاه اقتسمت الدولتان فيما بينهما : سوريا والعراق وشرق الأردن كغنائم حرب .

ولزيادة المصيبة فقد تبع هذا فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ — اى منذ خمسين عاما بالضبط مضت حتى اليوم — فان بريطانيا العظمى قررت أن تقيم فوق فلسطين قاعدة استراتيجية تستطيع منها ان تدافع عن قناة السويس تحت مظلة الصورة الانسانية التى تبدو فى تصريح بلفور .

وهنا شعر العرب بخديعتهم لنقض العهود بتلك الطريقة الساخرة ، رغم التوكيدات بالاستقلال التى اعطيت للشيخ حسين وللشعوب العربية . ونظرا لأنه ما زال هناك بعض الثقة فى حلفائهم السابقين فان العرب قدسمحوا لأنفسهم بأن تهدأ ثائرتهم وخاصة بعد أن قدمت اليهم تعهدات وتأكيدات جديدة .

ومن هذه التأكيدات ان الوطن القومى لن يتحول الى دولة قومية ، وان الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية — التى لا يمكن وصفها بأقل من اعتبارها شؤما أحدق بالأكثرية العربية سوف يحافظ عليها .

وبناء على ذلك ، وبالرغم مما حدث ، فقد شعر العرب بأن التنكر لعهود الاستقلال قد يكون شيئا مؤقتا .

وفى هذه الأثناء كان عرب فلسطين يشكلون ٩٢٪ من مجموع السكان بينما كانت نسبة اليهود ٨٪ فقط » .



العرب يؤون اليهود :

« وهكذا بعد التسلح بهذه التأكيدات الجديدة فان بعض قادة العرب مثل الأمير فيصل ، وافقوا على المساهمة فى خلق ملجأ بفلسطين لليهودالهاربين من اضطهاد اوربا .

ولا شك أن مثل هذه المعاونة العربية كانت تتفق تماما وكرم الضيافة

الذى عرف به العرب تجاه اليهود المضطهدين فى اوربا عبر القرون : من محاكم التفتيش الأسبانى الى مذابح روسيا القيصرية .

ان الشعب العربى كان هو الشعب الوحيد والشعب الوحيد فقط من بين شعوب العالم المتحضر الذى لم يمارس قط أى اضطهاد لليهود .

وفى فلسطين حتى زمن قريب ـ مثل عام ١٩٤٨ ـ كانت العلاقة وثيقة جدا بين العرب واليهود ـ وبعد ان اعطيت التأكيدات بأن حقوق العرب لن تهدد مهما كانت الظروف والأحوال ونظرا لمقدار التعاطف الذى كان سائدا خلال التاريخ بين العرب واليهود ، فقد بدأ طبيعيا وعادلا أن يتفق الامير فيصل مع الدكتور حاييم ويزمان عام ١٩١٩ على انه سوف تتخذ جميع الاجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين على نطاق واسع والحث عليها بأقصى سرعة لاستقرار المهاجرين اليهود فى الأرض » .



بدء تنفيذ المخططات الصهيونية :

« لم يأخذ فيصل المسكين وزملاؤه من قادة العرب فى حسابهم ـ سواء من الفلسطينيين أو غيرهم ـ تصميم الحركة الصهيونية على خلق دولة يهودية وليس وطنا قوميا فقط ، وهى دولة وصفها ويزمان فى كلماته بأنها دولة (يهودية تماما كما ان بريطانيا بريطانية) .

كذلك لم يدخل الأمير فيصل فى حسابه تخاذل الحكومات البريطانية المتعاقبة فى وجه الضغط الصهيونى الشديد ، وهو التخاذل الذى أدى الى انشاء الوكالة اليهودية وجعلها حكومة تعمل داخل حكومة الانتداب بفلسطين ، بينما انكر على العرب المشاركة فى حكم وطنى على أى صورة من الصور .

وهو التخاذل والضعف (من جانب الحكومات البريطانية) الذى سمح للوكالة الصهيونية (اليهودية) بأن تشترى بأبخس الأثمان ، الأراضى التى كان يملكها السوريون واللبنانيون ثم حرمتهم منها التكتلات الدولية التى كانت تفصل بين الأراضى التى تدخل تحت حماية كل من بريطانيا وفرنسا .

وهو أيضا التخاذل الذى سمح للوكالة الصهيونية بأن تطرد الآلاف من العرب ، مستأجرى الأرض ومزارعيها ، لتفسح الطريق امام المستوطنين اليهود الجدد والقادمين من اوربا ، بعد تعويض اولئك المستأجرين فى بعض

الأحيان بقيمة زهيدة لم تزد عن عشرة دولارات للعائلة الواحدة . وبعد انقضاء حوالى عشر سنوات من هذه المعاملة بدأت بريطانيا اخيرا فى عام ١٩٣٠ تظهر الاعتراف بضرورة حماية حقوق العرب ، وذلك باحكام الرقابة على الهجرة اليهودية ، وحماية الفلاحين العرب ومستأجرى الأرض — وهو الأمر الذى لم يحتاج الا الى تهديد الدكتور ويزمان بالاستقالة من رآسة المنظمة الصهيونية العالمية ، حتى اضطر المستر رمزى ماكدونالد رئيس الوزراء البريطانى أن يتخلى عن تلك السياسة ، ويتحول الى سياسة اطلاق يد الصهيونية فى فلسطين .

ثم ادى تولى هتلر مقاليد الحكم فى ألمانيا النازية الى زيادة الهجرة اليهودية الى فلسطين بصورة مركزة مما نتج عنه زيادة نسبة اليهود السكانية من ٨٪ الى ٣٠٪ من مجموع سكان فلسطين ولقد احتج العرب على ذلك ، وفى لحظة ما بدا كما لو ان الحكومة البريطانية اعترفت بمطالبهم ، فعرضت انتخاب جمعية تشريعية على أساس النسبة العددية وهو الشيء الذى سيجعل اغلب الأصوات لصالح العرب ، لكن الحكومة البريطانية لم تلبث ان تراجعت فى وجه الاحتجاجات من الصهاينة الذين خشوا سيطرة العرب على تلك الجمعية وهو الأمر الذى يهدد خططهم لخلق دولة يهودية قومية فى فلسطين » .



ثورة العرب :

« وبعد ان وضع العرب فى مواضع اليأس والقنوط فانهم قرروا ان تكون الثورة المسلحة هى الطريق الوحيد لتأكيد حقوقهم . وقد استمرت الثورة من عام ١٩٣٦ الى عام ١٩٣٩ حيث فقد فيها العرب الكثير من الأرواح والممتلكات اكثر مما فقد كل من اليهود أو البريطانيين .

وفى عام ١٩٣٩ وجدت الحكومة البريطانية ان عليها تقبل حقيقة الأمر وهو ان للعرب قضية وان عليها ان تفعل شيئا تعوض بها الطريقة المخزية التى خدعوا بها وضيعت بذلك حقوقهم ، ولذلك عقد مؤتمر لندن وعندما تعذر التوصل الى شيء فان الحكومة البريطانية قررت الحل كما جاء فى الكتاب الأبيض الشهير الذى صدر عام ١٩٣٩ وفيه تقرر أن تصبح فلسطين — بعد مرور عشر سنوات — دولة مستقلة ثنائية القومية ، يتقاسم فيها العرب واليهود الحكم ومؤكدة بذلك المصالح الأساسية لكلا الطائفتين . كذلك كان من المقرر أن تستمر الهجرة لمدة خمسة اعوام أخرى وبمعدل ١٥٠٠٠ يهودى كل عام وبعد

تلك المدة تكون الهجرة مقيدة بموافقة العرب الذين يجب حماية أرضهم من عمليات الشراء او الاستيلاء عليها عن طريق الوكالة اليهودية .

ولكن ما ان بدأت الحرب العالمية الثانية وهددت المانيا بريطانيا حتى وجدت الأخيرة نفسها فى وضع لا تستطيع فيه ان تفرض حلا للمشكلة الفلسطينية .

ولقد أدى اضطهاد النازية فى المانيا وفى اوربا المحتلة الى تدفق الهجرة اليهودية الى فلسطين على هيئة طوفان بشرى » .

« وبعد الحرب كانت بريطانيا غير مستعدة للمقاومة اكثر من ذلك ، وفى يأس سلمت حمايتها على فلسطين الى خليفة عصبة الأمم وأعنى بها الأمم المتحدة وذلك لتعمل اسوأ ما يمكن عمله ، وهو ما حدث فعلا عندما قامت الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين الى ستة مناطق : ثلاثة لليهود وثلاثة للعرب وبطريقة اعطت اليهود افضل الأراضى وتركت للعرب برية اليهودية وتلال الجليل الأعلى » .



الارهاب الصهيونى :

« منذ اللحظة التى أقرت فيها الأمم المتحدة قرار التقسيم فى نوفمبر ١٩٤٧ حتى رحيل القوات البريطانية عن فلسطين فى مايو ١٩٤٨ — عندما اعلن رسميا قيام دولة اسرائيل — فان الصهياينة بمعاونة عصابة ستيرن مضوا فى تحريض العرب على ترك المساحات التى كان من المفروض ان تدخل فى حدود دولة اسرائيل المقترحة . وللبرهنة على ان كل عربى ليس له مكان فى اسرائيل ، فان عصابة ستيرن — كما لا يزال البعض يذكر ذلك اختارت بعض القرى مثل دير ياسين لتقوم فيها بمذبحة لمواطنيها العرب حتى تخلق حالة من الرعب والفزع ينتج عنها خروج السكان العرب من أراضيهم » .



اللاجئون الفلسطينيون نتيجة للعدوان الاسرائيلى :

« ما أن جاء مايو ١٩٤٨ وتخلت بريطانيا نهائيا عن مسئولياتها فى فلسطين ، حتى كان هناك اكثر من ٣٠٠ ألف لاجىء عربى طردوا من ديارهم ومزارعهم واصبحوا يمثلون الدفعة الأولى من تلك المجموعة من الناس سيىء الحظ فاقدى الأمل الذين ابتلوا فى انسانيتهم والذين نعرفهم اليوم باسم اللاجئين الفلسطينيين .

ان الدعاية الصهيونية تريدنا أن نعتقد بأن اللاجئين الفلسـطينيين جاءوا نتيجة للهجوم العربى عـلى اسرائيل عام ١٩٤٨ وان قادتهم العرب امروهم بالرحيل عن اراضيهم بعد أن وعدوهم باعادتهم اليها بعد تصفية دولة اسرائيل .

ان الحقيقة عكس ذلك تماما .

فلقد كان عدد اللاجئين الفلسـطينيين — قبل هجوم العرب فى مايو ١٩٤٨ — يزيد على ٣٠٠ ألف لاجىء عربى ، وكان الصهاينة هم الذين امروهم — كلا — بل اجبروهم على ترك الأراضى التى خصصت لانشـاء دولة اسرائيل .

وهكذا نجد ان الصـدق هو أن يقال : ان اللاجئين العـرب كانوا السبب فى الحرب الأولى التى شنهاالعرب ضدالاسرائيليين ، بدلا مناعتبارهم نتيجة لها .

وبالطبع عندما خسر العرب الحرب فى عام ١٩٤٩ وخسروا معها الجليل الأعلى وأغلب الأراضى التى خصصها لهم مشروع التقسيم ، فان عدد اللاجئين ازداد كثيرا بل انه فى الحقيقة قد تضاعفت بخروج العرب من الأراضى التى احتلها الجيش الاسرائيل .

وكما حدث تماما فى يونيو الماضى ١٩٦٧ فان الأمر لم يستلزم تحذيرا من قادتهم العرب اذ أن العرب كانوا قد رحلو عن الضفة الغربية لنهر الأردن ضد نصيحة قادتهم العرب ، الذين طلبوا اليهم البقاء بأراضيهم وحذروهم مغبة الرحيل عنها ، ومع ذلك خرج ١٧٥ ألف عربى من ديارهم وتحولوا الى لاجئين .

لقد خرج العرب من ديارهم لأنهم فزعوا — كما يفزع المواطنون المدنيون فى الحرب بسبب احتلال الغزاة الاسرائيليين لبلادهم — وكما فزع من قبـل الفرنسيون والبلجيك والهولنديون عام ١٩٤٠ ويكفى القول بأنه ما أن انجلى غبار معركة يونيو ١٩٦٧ حتى كان العرب الفلسطينيون فى اسوأ حال ووجد حوالى ٧٠٠ ألف عربى أنفسهم وقد اصبحوا بلا مأوى يعيشون على احسانات الدول العربية والأمم المتحدة ، وقد انكر عليهم حق العودة الى اراضيهم التى امتلكها اجدادهم وعاشوا فيها قرونا طويلة .

ان اللاجئين الفلسطينيين دفعوا الثمن — ولا يزالون يدفعونه — لما فعلته اوربا بالشعب اليهودى » .

*

مسئولية بريطانيا :

« كيف حدث هذا . ؟

ان العرب يعتقدون بأن بريطانيا اخذت فلسطين مغتصبة ضماناتها التي اعطتها للعرب — لأسباب استعمارية استراتيجية وذلك كي تخلق منها قاعدة تستطيع ان تمارس منها نفوذها في العالم العربي ومن حوله .

ان هذا القول لايخلو من كثير من الحقيقة ولا يمكن تجاهله بسهولة .

فبعد الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا قد استنفذت مواردها ، ولم يعد في مقدورها أن تقيم مثل تلك القاعدة . ومن أجل ذلك أدخلت بريطانيا وحلفاءها الغربيين هذا الجسم الغريب — دولة اسرائيل — لتقوم بالعمل في خدمة بريطانيا والحلفاء وتؤدي نفس الدور الذي لم يعد في وسع بريطانيا ان تقوم به ، ويمثل رأس جسر لتحقيق الأهداف البريطانية والغربية ومخططاتها في العالم العربي .

ان هذه الشكوك المعتمة وجدت ما يؤكدها في حرب السويس عام ١٩٥٦ عندما قامت بريطانيا وفرنسا باستخدام اسرائيل كحصان طراوده في محاولة يائسة لا حتلال مصر والاستيلاء على قناة السويس » .



اسرائيل النازى الجديد :

« ان الهدوء النسبي الذي يتحدث عنه الصهاينة اليوم (نوفمبر ١٩٦٧) في الضفة الغربية لنهر الأردن انما يرجع في الحقيقة الى حالة الصدمة التي اصابت المواطنين (نتيجة لحرب يونيو) ولسوف يذهب سريعا هذا الهدوء — اذا لم يفعل شيء — وينقلب الى حرب عصابات يلجأ فيها الاسرائيليون الى استخدام وسائل للقمع اكثر وحشية تماما كما فعل الألمان واليابانيون والايطاليون عندما لجأوا الى تصعيد وسائل قمعهم ضد حركات المقاومة في الأراضي التي احتلوها في الحرب العالمية الثانية .

لقد كنت في فرنسا عام ١٩٤٠ وأتذكر تماما نفس الشعور — ونفس الجو بين الشعب الفرنسي — الذي بدا يسود الآن الضفة الغربية لنهر الأردن .

لقد كان الغزاة يقولون في دعاياتهم ان الفرنسيون سعداء تماما لخروجهم من الحرب ، وكم كانوا شاكرين الجميل للالمان . ،

ولم تكد تمضى عدة شهور بعد ذلك حتى بدأت اعمال القتل والفتك ، وفى عام ١٩٤٤ فقد كثير من الشرفاء من الرجال والنساء حياتهم ، وأخذوا رهائن لبعض حوادث المقاومة .

آن حركة المقاومة ستنشط فى الضفة الغربية وفى قطاع غزة طالما ان اسرائيل تزهو وتسير بخطى المحتل الغاصب فى هذه الأراضى وعندئذ ستلجأ اسرائيل بدورها الى مزيد من المعاملة الوحشية » .



حقوق عرب فلسطين :

« ان العرب لن ينسوا قط سبب تعاسة اخوانهم الفلسطينيين ولن يقبلوا أبدا أن تبقى أرض فلسطين كما هى اليوم ـ محتلة بدولة غربية ، وان اى شىء آخر يمكن اعتباره عاملا ثانويا بالنسبة لذلك العامل الانسانى الذى يتعلق بحقوق عرب فلسطين ، والذى يمثل محور الصراع الدائر فى الشرق الأوسط والذى لابد من ايجاد حل له .

لقد شعرت دائما ـ وشعر معى كثير من الناس الذين عرفوا فلسطين فى ايامها الماضية ـ أنه بخلاف المشاكل الانسانية التى نتجت عن خلق دولة صهيونية غربية فى الشرق الأوسط ، والآلام التى عاناها الشعب الفلسطينى من جزاء ذلك ـ فان اسوأ هذه النتائج هو تحطيم دولة فلسطين بتقسيمها الى جزئين أو بالأخرى الى ستة اجزاء مختلفة . فبالرغم مما قاسته فلسطين فى العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين فانها كانت اكثر دول العالم العربى ثقافة وتعليما . وكانت كذلك منذ أيام الامبراطورية العثمانية » .



الحل هو فلسطين الموحدة :

« هل هو كثير أن نرجو ـ حتى هذا الوقت المتأخر ـ ان تسود الحكمة والتعقل بين القادة الاسرائيليين .

هل هو كثير ان تقول اسرائيل بوضوح ـ وان تعنى ما تقول ـ ان الفلسطينى العربى له نفس الحقوق التى تخص بها الفلسطينى اليهودى مثل حق الحياة والعمل ، وان يشارك العربى بنفس النصيب ابناء عمومته من اليهود فى تسيير دفة الأمور فى بلده وأن تبقى الحقوق الاساسية لكلا الطائفتين محفوظة ؟

قد يقال بأن هذا يتعارض مع مطالب الصهيونية ، ولكن الرد على ذلك هو انه حتى قبل الخامس من يونيو (١٩٦٧) فان حلم الصهيونية فى خلق دولة يهودية تماما كما أن بريطانيا بريطانية ، لم يتحقق .

فقبل الخامس من يونيو كان باسرائيل ٣٠٠ ألف من بقايا العرب الذين التصقوا بالأرض ولم تستطيع اسرائيل طردهم والتخلص منهم ، وهؤلاء كانوا يشكلون نسبة تبلغ ١٥ ٪ من مجموع سكانها .

والان — بعد حرب يونيو — فان اسرائيل تحتل مساحة من الأرض بها ١٫٥ مليون عربى أى ٤٠ ٪ من السكان وهو الشيء الذى لايتفق وحلم الصهيونية فى بناء دولة يهودية نقية العنصر فى الشرق الأوسط .

ماذا يقول الصهاينة القدامى فى هذا ؟

انه مهما كانت الحدود النهائية التى تقبلها اسرائيل حسب مزاجها العنيد الذى تغلفه نشوة النصر المؤقتة (بعد عدوان يونيو ١٩٦٧) ، فلسوف تبقى دائما كمية كبيرة من العرب داخل حدود الأرض المحتلة .

وما من شك فى ان اعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين يمثل اللب فى أى تسوية سلمية يمكن التوصل اليها مع العرب .

ان حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين يتطلب ولاشك خلق فلسطين الموحدة سياسيا والتى تتسع لكل من العرب واليهود » (١٧)

***

٦ — المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى :

بعد هذا العرض الموجز الذى قدمه أنتونى نتنج للمأساة الفلسطينية — التى حدثت بفعل السياسة البريطانية وفى ظل الانتداب البريطانى — يقتضينا الموقف هنا أن نعرض بشىء من التفصيل لبعض الحقائق والبيانات التى تتعلق بوعد بلفور وما ترتب عليه من أحداث .

---

(١٧) Anthony Nutting : THE TRAGEDY OF PALESTINE FROM THE BALFOUR DECLARATION to TODAY, The Morssett Press, LONDON, S.W. 1.

ان كثيرا من المحققين الثقاة يتفقون على ادانة السياسة البريطانية فى فلسطين ، ويعتبرون أن ماحدث فى ذلك البلد المنكوب وما يجرى على ارضه حتى اليوم من مآسى وآلام انما هو فى الواقع نتيجة لتلك السياسة التى كانت تتخبط عن عمد .

فلقد كانت بريطانيا هى الدولة المنتدبه على فلسطين وكان الالتزام الذى تعهدت به امام المجتمع الدولى هو أن تمكن لفلسطين من ان تصبح دولة مستقلة ذات سيادة ، ولم يكن لها اقل القليل من الحق فى ان تتصرف على أى نحو يكون من شأنه الحاق الضرر بمصالح المواطنين الفلسطينيين والذين يتمثلون فى اغلبية ساحقة من العرب تصل الى ٩٢٪ من مجموع السكان .

لكن بريطانيا بسياستها الاستعمارية اخلت بالتزاماتها الدولية ، وسمحت لنفسها بأن تتصرف فى فلسطين بما يحقق اطماعها فى السيطرة على المنطقة العربية ، فأعطت وعد بلفور فى صورته المعروفة المتناقضة وجعلته محور سياستها طيلة فترة الانتداب . ومع أن هذا الوعد لم يتحدث صراحة أو ضمنا عن أقامة دولة يهودية فى فلسطين الا انه كان التكاة التى تذرعت بها الحركة الصهيونية فى اقامة تجمع يهودى فى فلسطين يكون نواة لخلق دولة يهودية فيما بعد .

يقول المؤرخ البريطانى ارنولد توينبى فى المناظرة التى عقدت بينه وبين السفير الاسرائيلى فى مونتريال بكندا عام ١٩٦١ — عن وعد بلفور :

« والآن احب أن أتحدث عن وعد بلفور وأحب أن أؤكد أولا أنى شخصيا من أشد الناس تنديدا بوعد بلفور ، وقد كنت فى شبابى خلال الحرب العالمية الأولى أعمل للحكومة البريطانية فى الامبراطورية التركية ، وكانت هذه تشمل بالطبع فلسطين . وعلى ذلك فقد توفرت لى معرفة داخلية بما حدث فى ذلك الوقت

وكما أندد بوعد بلفور فانى أندد تنديدا أشد بمسلك حكومة الانتداب البريطانية خلال الثلاثين سنة التالية على التصريح ، ذلك لأنى أعتقد أننا (نحن البريطانيين) لم نتفق على خط سياسى أو نعزم أمرنا على أمر سواء بالنسبة لهذا الجانب أو ذاك ، وهو أمر أضر بالعرب واليهود على السواء .

ان الفقرة الأولى من التصريح تنص على أن بريطانيا تتعهد بتأييد أو اقامة — أو أى شىء من هذا القبيل — وطن قومى لليهود فى فلسطين ، أما

الفقرة الثانية فتنص على أن لا يتخذ أى اجراء من شأنه المساس بمصالح سكان البلد الذين كان العرب يؤلفون منهم اذ ذاك — أى وقت صدور التصريح فى عام ١٩١٧ — ٩٠ ٪ من السكان .

وأنا أوجه اللوم الى تصريح بلفور لأن كلمة « وطن » قد أتت على نحو غامض ولكن الأمر أوضح غاية الوضوح كما أعلم بصورة مباشرة من الاطلاع على الوثائق التى صدرت فى ذلك الحين باعتبارى موظفا مؤقتا فى وزارة الخارجية البريطانية . لقد وضح غاية الوضوح وبصورة قبلها دكتور وايزمان اذ ذاك أن « وطن » لا تعنى « دولة » ، ذلك لأنه لو كان هذا كذلك — أى لفظ وطن يعنى دولة — لكانت الفقرة الأولى من تصريح بلفور تناقض الفقرة الثانية منه . وهذه الفقرة الثانية انما هى التزام لا يقل ايجابا وحجية بالنسبة للحكومة البريطانية التى أصدرت التصريح ، وهو يفرض عليها أن لا يقع أى حيف بحقوق ومصالح السكان الحاليين فى البلاد .

ولعل الوطن القومى كان يمكن أن يأخذ صورة دولة فلسطينية تضم اليهود والعرب على قدم المساواة ، ولا شك فى أن جميع الأنظمة والشعوب التى عاشت فى فلسطين منذ عام ١٣٥ بعد الميلاد قد سمحت لليهود بالعيش فى فلسطين واعترفت لهم بحقوقهم . ولقد كان يعيش فى القدس دائما جماعة من اتقياء اليهود يدرسون الشريعة ، وكان النظام التركى يسمح بهذا ، وأشك فى أن الصليبيين كانوا يسمحون به .

ولعل الدولة الوحيدة التى أنكرت على اليهود هذا الحق هى دولة الصليبيين .

وفكرة الوطن القومى هى توسيع لهذا الوضع ، لقيام ١٥٠ الف يهودى بدراسة الشريعة فى القدس و ١٢ ألف يهودى يعملون فى المزارع ، كما كان الحال سنة ١٩١٧ . لقد كانت هذه هى الصبغة القديمة للوطن القومى لليهود .

وقد استهدفت الحركة الصهيونية التى كان يتزعمها دكتور وايزمان ، والحكومة البريطانية توسيع قاعدة هذا الوطن اليهودى القومى واسباغ مظهر حديث عليه ، وذلك بالسماح بهجرة أوسع وأن يخول اليهود الحق وتيسر لهم السبل للاستقرار فى أعداد محدودة فى فلسطين اذ ذاك .

انى أوجه اللوم لوعد بلفور فى هذا المعنى وأعتقد أن محاميا يستطيع

أن يثبت تناقض الالتزامين الذين يتضمنهما ، وعلى كل حال فقد يبدو هذا حكمة متأخرة .

لقد وضعت فلسطين فى مرتبة « أ » بقصد اعدادها للحكم الذاتى والاستقلال التام . وقد فسر العرب باعتبارهم يكونون ٩٠ ٪ من سكان البلاد بأن استقلال فلسطين معناه أن تصبح دولة عربية تضم أقلية يهودية . وفسر بعض اليهود الوطن القومى باعتباره منتصف الطريق نحو الدولة اليهودية ، وأخشى أن أقول أن بعضهم كان يردد : « حتى لو أن هذا لم يرده البريطانيون فسنستخدمه كذريعة للحصول على دولة يهودية فى النهاية » .

وما دام التصريح قد نص على عدم المساس بمصالح السكان غير اليهود البالغ عددهم ٩٠٪ فمعنى هذا أنه لا يمكن قطعا أن يقوم وطن قومى فى المعنى السياسى بل على أن يقام هذا على الأكثر فى المعنى الثقافى » .



سياسة بريطانيا : تقسيم ولا تقسيم !!

لقد أحس العرب الفلسطينيون بالمؤامرة التى تستهدف وطنهم منذ صدر وعد النفاق ــ وعد بلفور ــ وعندما فتحت حكومة الانتداب البريطانى أبواب فلسطين للهجرة اليهودية تحققوا من خداع السياسة الاستعمارية ومن حالة الضياع التى ستتعرض لها بلادهم اذا سارت الأمور على ذلك المنوال ، وعندئذ قرروا العمل الايجابى لاحباط تلك المؤامرة بالسير فى مجالات العمل السياسى والكفاح المسلح . وفى كل مرة تلتهب فيها ثورتهم كانت الحكومة البريطانية تلجأ الى أساليب مختلفة للقضاء على ما كانت تعرفه باسم « القلاقل والاضطرابات التى تخرق القانون والنظام » ومن تلك الأساليب ما كان ناعم الملمس ، مثل اصدار المزيد من الوعود والتأكيدات بالحفاظ على المصالح العربية ، وارسال لجان للتحقيق وتقصى الحقائق ، وتقديم حلول مقترحة لازالة أسباب تلك الاضرابات ثم اصدار كتب بيضاء أو سوداء ــ ومنها ما كان يعتمد على أسلوب القمع والقوة الجائرة التى ذاق منها العرب الفلسطينيون الشىء الكثير .

حتى اذا كانت ثورة العرب فى عام ١٩٣٦ كلفت الحكومة البريطانية لجنة عرفت باسم « اللجنة الملكية لفلسطين » رأسها الايرل بيل للتحقيق فى أسباب تلك الاضطرابات وعمل التوصيات اللازمة لمنع تكرارها .

وقد اقترحت اللجنة فى تقريرها الذى نشرته فى ٧ يوليو ١٩٣٧ تقسيم

فلسطين أو بتعبير أدق تقطيعها الى قصاصات تمحو معها تاريخها الطويل وذلك بانشاء ثلاث دويلات كالآتى :

١ — وضع الأماكن المقدسة تحت انتداب بريطانى دائم ، وتمتد حدود هذه المنطقة المقدسة « من نقطة شمال القدس الى نقطة جنوب بيت لحم ، وأن ييسر لهذه المنطقة أمر الاتصال بالبحر بواسطة ممر يمتد من شمال طريق يافا الرئيسية الى جنوبى السكة الحديدية شاملا مدينتى اللد والرملة ومنتهيا فى يافا » .
كذلك تشمل منطقة الانتداب « الناصرة وبحر الجليل (بحيرة طبرية) وأن يعهد للدولة المنتدبة بادارة الناصرة وأن تخول السلطة التامة للمحافظة على قداسة مياه وشواطىء بحيرة طبرية (١٧) .

٢ — انشاء دولة يهودية فى أخصب قسم من البلاد وأهمها بما فيها أقضية حيفا وعكا وصفد وطبريا .

٣ — حشد العرب فيما تبقى من الأراضى الجبلية والصحراوية ومدن غزة ويافا ونابلس وجنين وطولكرم .

*

لكن صمود المقاومة العربية واستمرارها أقنع الحكومة البريطانية بعدم جدوى السير فى مشروعات التقسيم ، مما اضطرها الى اصدار بيان فى ٩ نوفمبر ١٩٣٨ تعلن فيه التخلى عن فكرة تقسيم فلسطين لما ينطوى عليه ذلك من مخاطرة تجعل التقسيم اقتراحا غير عملى على الاطلاق .

ولقد جاء فى بيان الحكومة البريطانية ما يلى :

« كانت اللجنة الملكية التى ترأسها الأيرل بيل قد نشرت تقريرها فى شهر يوليو سنة ١٩٣٧ واقترحت حلا لمعضلة فلسطين بواسطة مشروع للتقسيم تنشأ بموجبه دولة عربية مستقلة وأخرى يهودية بينما تحتفظ بالمناطق الأخرى تحت ادارة الدولة المنتدبة .

وقد وضع اقتراح اللجنة الملكية على ضوء المعلومات التى كانت متيسرة

---

(١٧) المرجع ١١ — ص ٦١٦ ، ٦١٧

فى ذلك الحين ،وماعترف به بصورة عامة أن الواجب اجراء تحقيق مفصل قبل أن يتسنى اتخاذ قرار فيماإذا كان مثل هذا الحل سيثبت كونه عمليا . وقد كان هذا الاقتراح موضع البحث فيما بعد فى البرلمان وفى اجتماعات لجنة الانتدابات الدائمة ومجلس عصبة الأمم وهيئة اللجنة الملكية ، وتلقت حكومة جلالته عندئذ تفويضا بأن تبحث فيما اذا كان من الممكن تطبيق مبدأ التقسيم عمليا .

ثم أعربت حكومة جلالته فىرسالة وجهها وزير المستعمرات الى المندوب السامى بتاريخ ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٧ عن رغبتها فى القيام بالتحقيقات الاضافية الضرورية لوضع مشروع آخر يكون أكثر دقة وأعم تفصيلا . وقد أوضحت تلك الرسالة أيضا مهام واختصاص اللجنة الفنية التى انتدبت لزيارة فلسطين وتقديم اقتراحات لحكومة جلالته بعد قيامها بالتحقيق المقتضى فيما يتعلق بهذا المشروع المفصل .

ان حكومة جلالته قد تلقت الآن تقرير لجنة تقسيم فلسطين بعد ان قامت هذه اللجنة بالتحقيقات التى انتدبت لها بمقتضى الدقة والكفاءة . وقد نشر تقرير اللجنة الآن مع خلاصة للاستنتاجات التى توصلت اليها .

ومما هو جدير بالذكر أن الأعضاء الأربعة قد اوصوا برفض مشروع التقسيم الذى رسمته اللجنة الملكية باجماع الرأى .

وقد قر رأى حكومة جلالته بعد انعام النظر والتدقيق فى تقرير لجنة التقسيم ان هذا التحقيق الاضافى قد أظهر الصعاب السياسية والادارية والماليةالتى ينطوى عليها الاقتراح القائل بانشاء دولة عربية مستقلة وأخرى يهودية مستقلة وأنها عظيمة لدرجة يكون معها هذا الحل للمعضلة غير عملى (١٨) » .



وفى ١٧ مايو ١٩٣٩ أصدرت الحكومة البريطانية بيانا بخطتها السياسية فى فلسطين اعترفت فيها بصراحة بأن « الوطن القومى » لا يعنى « دولة » ، وأن الحل الذى قررت اتباعه ازاء المشكلة الفلسطينية — والذى أشار اليه نتنج من قبل — هو تكوين حكومة فلسطينية يشترك فيها العرب واليهود .

---

(١٨) المرجع ١١ — ص ٦٦١ ، ٦٦٢

قال البيان : « لقد لفتت اللجنة الملكيــة ولجان التحقيق الأخرى التى سبقتها ، النظر الى الغموض المحيط ببعض العبارات الواردة فى صــك الانتداب كعبارة « وطن قومى للشعب اليهودى » ووجدت فى هذا الغموض وفى ما نشأ عنه من الريبة حول الأهداف التى ترمى اليها الخطة السياسية سببا أساسيا للقلق والشحناء بين العرب واليهود .

لقد قيل فى معرض الجدل أن عبارة وطن قومى للشعب اليهــودى ، تفسح المجال لصيرورة فلسطين على مرور الزمن دولة أو مملكة يهودية . ان حكومة جلالته لا تود أن تقارع الرأى الذى أعربت عنه اللجنة الملكية وهو أن الزعماء الصهيونيين كانوا يدركون حين صدر تصريح بلفور أن نصوص ذلك التصريح لا تحول دون قيام دولة يهودية فى النهاية . غير أن حكومة جلالته تشاطر اللجنة الملكية الاعتقاد بأن واضعى صيغة الانتداب الذى أدمج فيــه تصريح بلفور لا يمكن أن يكونوا قد قصدوا تحويل فلسطين الى دولة يهودية خلافا لارادة سكان البلاد العرب .

أما انه لم يكن المقصود تحويل فلسطين الى دولة يهــودية فيمكن استنتاجه ضمنا من الفقرة التالية المقتبسة عن الكتاب الأبيض الصــادر سنة ١٩٢٢ (١٩) :

---

(١٩) أصدر هذا الكتاب ونستون تشرشل وزير المستعمرات آنذاك ، ومما جاء فيه حول ما ذكره وعد بلفور عن ايجاد وطن قومى يهودى بفلسطين ما يأتى : « مما يلاحظ بسرور فيما يتعلق بهذا الأمر (فكرة الوطن القومى اليهودى) ان المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى كارلسباد فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢١ ، وهو المجلس الأعلى المسيطر على الجمعية الصهيونية اتخذ قرارا أعرب فيه رسميا عن المقاصد الصهيونية جاء فيه : « ان الشعب اليهودى عقد النية على أن يعيش مع الشعب العربى باتحاد واحترام متبادلين ، وأن يسعيا معا لجعل هذا الوطن المشترك زاهرا بحيث يضمن تجديده الرقى القومى لكل من الشعبين بسلام » — وهناك أمر آخر لا بد من لفت النظر اليه، وهو أن اللجنة الصهيونية فى فلسطين ، والمعروفة الآن باللجنة التنفيــذية الصهيونية لا ترغب فى أن يكون لها ، كما أنها لا تملك أى قسط فى ادارة البلاد العامة ، ثم ان المركز الخاص الذى تشغله الجمعية الصهيونية بموجب المادة الرابعة من صك الانتداب ، لا يخولها صلاحية تولى هذه الوظيفة وانما ينحصر مركزها الخاص فى التدابير التى تتعلق باليهود ومساعدة البــلاد فى تقدمها دون أن يخولها ذلك حق الاشتراك بصورة ما فى حكومتها — وفضلا عن ذلك فان الحكومة تفكر فى جعل جنســية الأهالى فى نظر القــانون هى : الجنسية الفلسطينية ، ولم يقصد قط أن يكون للأهالى أو لأى فئة منهم صفة قانونية أخرى (المرجع ١١ — ص ٣٢٥) » .

(لقد قيلت أقوال غير مصرح بها مؤداها أن الغاية التى يرمى اليها هذا التصريح هى خلق فلسطين يهودية برمتها ،واستعملت عبارات كمثل القول بأن فلسطين ستصبح يهودية كما أن انجلترا انجليزية ، وحكومة جلالته تعتبر أن كل أمل كهذا غير ممكن التحقيق ، وهى لا ترمى الى مثل هذا الهدف ، كما انه لم يخطر فى بالها فى أى وقت من الأوقات أن يزول الشعب العربى أو اللغة أو الثقافة العربية فى فلسطين ، أو أن تصبح مسيطرا عليها . وهى تود أن تلفت النظر الى أن نص التصريح المشار اليه لا يرمى الى تحويل فلسطين بكليتها الى وطن قومى يهودى بل ان وطنا كهذا سيؤسس فى فلسطين) .

غير أن هذاالبيان لم يزل الشكوك ولذلك فان حكومة جلالته تصرح الآن بعبارة لا لبس فيها ولا ابهام ، انه ليس منسياستها أن تصبح فلسطين دولة يهودية . وهى تعتبر فى الواقع أنه مما يخالف الالتزامات المترتبة عليها نحو العرب بموجب صك الانتداب والتأكيدات التى أعطيت للشعب العربى فيما مضى لأن يجعل سكان فلسطين العرب رعايا دولة يهودية خلافا لارادتهم .

ان ماهية الوطن القومى اليهودى فى فلسطين تنطوى على اطراد نمو الطائفة اليهودية الموجودة فىالبلاد بمساعدة اليهود الموجودين فى أنحاء العالم الأخرى ومما يقيم الدليل على أن حكومة جلالته ما فتئت تقوم بالتزاماتها من هذه الناحية أنه منذ صدور بيان الخطة السياسية سنة ١٩٢٢ هاجر الى فلسطين ما يزيد على ٣٠٠ ألف يهودى وأن عدد سكان الوطن القومى قد ارتفع حتى بلغ نحو ٤٥٠ ألف نسمة أو ما يقرب من ثلث سكان البلاد برمتهم .

ان تشكيل دولة مستقلة فى فلسطين والتخلى التام عن رقابة الانتداب فيها يتطلبان نشوء علاقات مابين العرب واليهودمن شأنها لأنتجعل حكم البلاد حكما صالحا فى حيز الامكان .

أضف الى ذلك أننمو مؤسسات الحكم الذاتى فى فلسطين لا بد له أن يسير على قاعدة النشوء والارتقاء شأنه فى البلاد الأخرى .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات تصدر حكومة جلالته التصريح التالى معلنة فيه نواياها بشأن حكومة فلسطين المقبلة :

١ - ان الهدف الذى ترمى اليه حكومة جلالته هو أن تشكل خلال عشر سنوات حكومة فلسطينية مستقلة ترتبط مع المملكة

المتحدة بمعاهدة تضمن للبلدين ومتطلباتهما التجارية والحربية في المستقبل ضمانا مرضيا .

٢ — ان الدولة المستقلة يجب أن تكون دولة يساهم العرب واليهود في حكومتها على وجه يضمن صيانة المصالح الأساسية لكل من الفريقين » (٢٠) .

*

والآن نضيف حقيقة أخيرة تتعلق بذلك الوعد الباطل — وعد بلفور — لا نشك في أنها تكشف لنا واقع الزيف فيه .

فمن المعلوم أن بريطانيا أعلنت وعد بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧ بينما هي لم تدخل القدس وتعلن احتلال فلسطين الا في نهاية ديسمبر ١٩١٧ بل ان أجزاء من فلسطين بقيت في يد الأتراك حتى سبتمبر ١٩١٨ — أي قرب نهاية العام التالي .

ان بريطانيا قد أعطت بذلك وعدا في الهواء لا يقوم على أي أساس من الحق أو القانون ولا يستند الى أية قوة ولو كانت قوة غشوم .

من الحق اذن أن يقال : ان من لا يملك قد أعطى وعدا لمن لا يستحق .

فهذا ما يتفق عليه أهل الرأي الحر والخبرة الواسعة ، ومنهم ولا شك برتراند رسل .

* * *

٧ — الفيلسوف البريطاني برتراند رسل :

لقد تلقى المؤتمر الدولي للبرلمانيين المنعقد بالقاهرة في الفترة من ٢ — ٥ فبراير ١٩٧٠ رسالة هامة كتبها برتراند رسل بتاريخ ٣١ يناير ١٩٧٠ ، وكانت تلك آخر رسالة كتبها في حياته الطويلة والتي اختتمها داعيا من أجل السلام لكل شعوب الأرض ، ومدينا للعدوان في كل صوره وأشكاله .

ولقد بدأ رسل رسالته بادانة أعمال اسرائيل وأسلوبها العدواني الذي

---

(٢٠) المرجع ١١ — ص ٧١٨ — ٧٢١

عرف آنذاك باسم « غارات العمق » داخل الأراضي المصرية حيث تقذف بالقنابل والنابالم المنشآت المدنية والمصانع والمستشفيات وغيره ، بقصد تحطيم نفسية الشعب المصرى واجباره على تمكينها من جنى ثمار عدوان ١٩٦٧ . ولقد بين رسل خطأ هذا الأسلوب العدوانى اذ انه لن يزيد المصريين الا صلابة وتصميما على المقاومة ، كما فعل الانجليز عام ١٩٤٠ ازاء القصف النازى لبلادهم ، ثم قال رسل :

« ان تطور مشكلة الشرق الأوسط لهو جد خطير ، فلأكثر من عشرين عاما ، نجد اسرائيل قد توسعت بقوة السلاح ، وعقب كل مرحلة من هذا التوسع فانها تقترح المفاوضات .

ان هذا فى الواقع هو الأسلوب التقليدى لقوى الاستعمار التى تريد تدعيم قبضتها على ما حصلت عليه بالقوة ، بأقل مايمكن من المقاومة والصعاب . ذلك لأن كل غزو جديد يصبح هو الأساس الجديد للمفاوضات المقترحة التى تمارس من مركز القوة ، والتى تتجاهل عدم شرعية العدوان السابق .

ان العدوان الاسرائيلى يجب ادانته ، لا لأنه لايحق لأية دولة ان تستولى على أراضى الغير ، ولكن لأن كل توسع هو فى الواقع تجربة جديدة تبين ما سيسمح به العالم مستقبلا من عدوان .

ان اللاجئين الذين يعيشون حول حدود فلسطين بأعدادهم التى تربو على بضع مئات الألوف ، وقد وصفهم أخيرا أحد الصحفيين بأنهم يمثلون « حجر الرحى فى عنق اليهودية العالمية » وأن كثيرا من اللاجئين قد دخلوا الآن العقد الثالث من السنين وهم يعيشون حياة قلقة ولا يملكون سوى الاقامة المؤقتة .

ان مأساة الشعب الفلسطينى تكمن فى أن وطنه قد أعطى بواسطة قوة أجنبية لشعب آخر ، من أجل خلق دولة جديدة . والنتيجة هو أن مآت الألوف من الأبرياء قد فقدوا المأوى بصفة دائمة علاوة على أن أعدادهم تزداد فى كل صراع جديد .

كم من الوقت أكثر من هذا يستطيع العالم تحمل رؤية هذه القسوة الطائشة ؟

من الواضح تماما أن للاجئين كل الحق فى وطنهم الذى طردوا منه ، وان انكار هذا الحق هو لب الصراع الدائر الآن .

اننا لا نجد شعبافى العالم يقبل طرده من وطنه وبهذه الأعداد الكبيرة ، فكيف اذن يطلب أى شخص من الشعب الفلسطينى أن يقبل العقاب الذى لا يحتمله أى شعب آخر ؟

ان عودة اللاجئين للاقامة الدائمة فى أراضيهم لهى الجوهر الأساسى لاية تسوية حقيقية فى الشرق الأوسط .

كثيرا ما يقال لنا أنه يجب التعاطف مع اسرائيل بسبب ما تعرض له يهود أوربا على يد النازى ، لكنى لا أرى فى هذا الاقتراح أى سبب معقول يسمح باستمرار المعاناة والآلام . .

ان ما تفعله اسرائيل اليوم هو أمر لايمكن الصفح عنه ، وان استلهام رعب الماضى لتبرير ما يحدث الآن لهوالنفاق الكبير .

ان اسرائيل لم تحكم فقط على أعداد هائلة من اللاجئين بالتعاسة ، ولم تحكم فقط على الكثيرين من العرب فى الأراضى المحتلة بالعيش فى ظل حكم عسكرى ،ولكن اسرائيل حكمت أيضا على الشعوب العربية التى خرجت من تحت وطأة الاستعمار ، بأن تبقى فى عوز وفقر مستمر ، بسبب ما ينفق على المطالب العسكرية للقوات العربية ، والتى تنال السبق على مطالب التنمية الوطنية .

ان الواجب على كل من يريد أن يرى نهاية الصراع الدامى فى الشرق الأوسط ، أن يتأكد من أن أية تسوية يجب ألا تحتوى على بذور لاستمرار الصراع فى المستقبل .

ان العدل يقضى بأن تكون الخطوة الأولى نحو أية تسوية ، هى انسحاب اسرائيل من جميع الأراضى التى احتلتها فى يونية ١٩٦٧ .

اننا نحتاج لحملة عالمية تساعد فى تحقيق العدل لشعوب الشرق الأوسط التى قاست الكثير من الآلام والمحن » .



بعد هذا الذى رأيناه ، لا نتصور أحدا يراجع عقله وضميره ثم ينكر على العرب حقهم فى فلسطين بعد أن يدين اسرائيل وينكر كل دعاويها المملوءة زيفا وأباطيل .

* * *

الحق الاسرائيلى

ان الحق دائمامن وجهة نظر الاسرائيليين هوما يتفق وكبريائهم وأهوائهم ومصالحهم ، وما دون ذلك فليس بحق ، بل هو زعم باطل .

وليس ذلك هو مفهوم الاسرائيليين للحق كما يبدو فى القضية الفلسطينية ، انما ذلك هو مفهومهم له فى مختلف القضايا التى تمسهم من قريب أو من بعيد ، منذ عرف لهم كيان حتى الآن .



الحق الاسرائيلى فى العقيدة :

فالرب هواله اسرائيل الخاص الذى أفرزهم له شعبا مختارا ، أما بقية الشعوب فقد قسم لها الرب آلهة أخرى مثل الشمس والقمر والنجوم تعبدها وتتقرب لها حتى لا تشارك الاسرائيليين مجدهم :

« لا ترفع عينيك الى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم كل جند السماء التى قسمها الرب الهك لجميع الشعوب التى تحت كل السماء فتغتر وتسجد لها وتعبدها . وأنتم قد أخذكم الرب وأخرجكم من كور الحديد من مصر لكى تكونوا له شعب ميراث ــ تثنية ٤ : ١٩ ــ ٢٠ » .

ذلك مفهوم الحق عند الاسرائيليين فى العقيدة !!



الحق الاسرائيلى فى الشريعة :

وللاسرائيلى الحق فى أن يقرض الأجانب بربا ، أما لبنى جلدته فذلك أمر محظور :

« لا تقرض أخاك بربا . ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شىء مما يقرض بربا . للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك لاتقرض بربا لكى يباركك الرب الهك ــ تثنية ٢٣ : ١٩ ــ ٢٠ » .

فذلك مفهوم الحق عند الاسرائيليين فى الشريعة !!

*

الحق الاسرائيلى فى السلوك :

وللاسرائيلى أن يسطو على غيره من الأفراد والشعوب ويستحل كل ما لهم من مال وعرض وأرض ، ما دامت تلك هى رغبته وشهوته . وقد رأينا ذلك فى سلوك داود مع الفلسطينيين وغيرهم مثل نابال الذى فرض عليه داود اتاوة فلما رفض خرج داود فى عصابته للقضاء على بيت نابال حتى لا يترك له نفسا حية تستطيع أن تقف بجانب الحائط لتبول .. أو اذا استعرنا لغة داود التى كلم بها زوجة نابال نجده يقول : « انك منعتنى من اتيان الدماء وانتقام يد نفسى .. لو لم تبادرى وتأتى لاستقبالى لما أبقى لنابال الى ضوء الصباح بائل بحائط » .

فذلك مفهوم الحق عند الاسرائيليين فى السلوك وخاصة الذين حل عليهم روح الله !!



الحق الاسرائيلى فى الوحى :

لقد عرف عن الاسرائيليين القدامى أنهم مارسوا التجارة فى « كلمة الله » طمعا فى ربح مادى رخيص فظهر فيهم **أنبياء كذبة يفترون** على الله الكذب ، ويشيعون بين مواطنيهم وحيا من عند أنفسهم . ولقد كان أولئك الضالون المضلون من الكثرة بحيث تذكر لنا الأسفار أن أعدادهم فى الوقت الواحد كانت تزيد على بضع مئات . وكان الشعب الاسرائيلى سعيدا بما يسمع من أنبيائه الكذابين لأنهم كانوا يتكلمون بما يتفق وأهواء ذلك الشعب .

وفى هذا يقول ارميا :

« قال الرب لى لا تصل لأجل هذا الشعب للخير . حين يصومون لا أسمع صراخهم وحين يصعدون محرقة وتقدمة لا أقبلهم بل بالسيف والجوع والوبأ أنا أفنيهم .

فقلت آه أيها السيد الرب . هو ذا الأنبياء يقولون لهم لا ترون سيفا ولا يكون لكم جوع بل سلاما ثابتا أعطيكم فى هذا الموضع .

فقال الرب لى . بالكذب يتنبأ الأنبياء باسمى . لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلمتهم . برؤيا كاذبة وعرافة وباطل ومكر قلوبهم هم يتنبأون لكم .

لذلك هكذا قال الرب عن الأنبياء الذين يتنبأون باسمى وأنا لم أرسلهم وهم يقولون لا يكون سيف ولا جوع فى هذه الأرض ، بالسيف والجوع يفنى أولئك الأنبياء .

والشعب الذى يتنبأون له يكون مطروحا فى شوارع أورشليم من جرى الجوع والسيف وليس من يدفنهم هم ونساؤهم وبنوهم وبناتهم واسكب عليهم شرهم — ارميا ١٤ » .

وقال الوحى على لسان ارميا :

« قد رأيت فى أنبياء السامرة حماقة . تنبأوا بالبعل وأضلوا شعبى اسرائيل . وفى أنبياء أورشليم رأيت ما يقشعر منه . يفسقون ويسلكون بالكذب ويشددون أيادى فاعلى الشر حتى لا يرجعوا الواحد عن شره . صاروا لى كلهم كسدوم وسكانها كعمورة .

هكذا قال رب الجنود عن الأنبياء . هأنذا أطعمهم أفسنتينا وأسقيهم ماءالعلقم لأنه من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق فى كل الأرض .

هكذا قال رب الجنود لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم . فانهم يجعلونكم باطلا يتكلمون برؤيا قلبهم لا عن فم الرب — ارميا ٢٣ » .

وهكذا كان الوحى الالهى عند الشعب الاسرائيلى طيلة قرون عديدة من حياته — هو ما اتفق وهواه !!

* * *

الحق الاسرائيلى فى قضية المسيح

ولنستعرض معا بشىء من التفصيل مفهوم الاسرائيليين للحق فى قضية من أخطر القضايا التى تهمهم وهى قضية المسيح . فنحن نعلم أن المسيح ظهر فى فلسطين منذ أكثر من تسعة عشر قرنا مضت حيث بلغ رسالته وكان بينهم وبينه ماكان . واذا كان اليهود ينكرون هـــذا الذى جاء ولا يزالون ينتظرون مسيحا غيره فذاك وشأنهم ، لكن ما يثير العجب والازدراء لموقف اليهود من المسيح ليس كفرهم به وتنكرهم له ، بل هو شىء أظلم من هذا : هو ما تقوم به الجماعات المختلفـــة منهم بين حين وآخر — بنشر المفتريات والأراجيف حول سلوكه الشخصى والعقائدى . ولعل أحدث هذه الأباطيل ما يدعيه بعضـــهم من أن المســـيح هو المسئول الأول والأخير عن حادثة الصلب !

للقارىء أن يعجب ولا شك ،ولكن هكذا يقولون ...

ان الكاتب اليهودى المعاصر هيوشونفيلد يطلع علينا بكتاب يقول انه جاء حصيلة أربعين عاما انفقها من عمره فى البحث والدراسة لمعرفة حقيقة يسوع الذى يعرفه الكثير باسم المسيح —وان نتيجة البحث والدراسة قد أوصلته الى الحقيقة وهى : أن حادثة الصلب كانت تمثل قمة مؤامرة خطط لها يسوع واشرف بنفسه على تنفيذها . يسوع صلب نفسه — هكذا يؤكد هذا المفكر الاسرائيلى !

ان الشيوخ والكهنة اليهود ، بل ويهوذا الخائن كلهم ضحاياه ، لقد كانوا دمى بين أصابعه يلعب بهم كيفما شاء ، وهو الذى أجبرهم على أن يتخذوا منه المواقف المعروفة حتى تتم المؤامرة فى عيد الفصح .

ومن أجل ذلك سمى شونفيلد كتابه : « مؤامرة عيد الفصح — THE PASSOVER PLOTوما كان لنا أن نهتم بهذا الكتاب وأمثاله من الكتب التى يبلغ بها التطاول على الحقيقة الى هذا الحد المهين ، الا أن الكتاب ما أن صدر فى لندن فى نهاية عام ١٩٦٥ حتى تلقفته الأيدى ونفد سريعا ، وقام الناشر باعادة طبعه مرارا ، حتى انه فى فترة خمسة أشهر من أكتوبر ٦٥ الى فبراير ١٩٦٦ — أعيد طبعه ثلاث مرات . كذلك كان الكتاب موضع مناقشة وجدل حاد فى الاذاعة والتلفزيون وندوات الفكر .

والكتاب يمثل خليطا من حقائق وأباطيل صاغها الكاتب فى قالب وضع تصميمه وفق هواه وأخرجه لنا لنقرأ فيه أن : يسوع هو مهندس مؤامرة عيد الفصح .

نعم — بنفس هذه الألفاظ ...

كذلك فان أهمية الكتاب ترجع الى أنه يعالج التطور الحالى فى العلاقات اليهودية — المسيحية وما يقال عن محاولات تبرئة اليهود من دم المسيح ، وهو لذلك جدير بأن يكون موضع عرض ومناقشة حتى نتبين أحدث ما وصل اليه الفكر الاسرائيلى فى قضية المسيح .

ولنترك الآن شونفيلد يقص علينا ما تكشف له من حقائق فى قضية يسوع — المسيح ...

***

مقـــدمة :
« ان كتاب مؤامرة عيد الفصح يحكى قصة مغامرة يسوع الكبيرة ، التى قد تكون أعجب مشروع أقدم عليه رجل فى تاريخ الانسانية المسجل ، والذى تم تنفيذبشجاعة نادرة » (٢١) .

« ويجبأنتؤمنبوجهة النظر التى تقرر بأن يسوع اعتقد أن دعوته تتلخص فى تحقيق الأمل فى المسيح وانه تصرف بما توقع أن يحقق ذلك من اشارات ونبوءات ..

وعندما ظهريوحناالمعمدان يعلن اقتراب ملكوت الله ، ويدعو الناس للتوبة وانقاذ أنفسهم من الغضب الآتى ، **لم يكن أمام شخص مثل يســـوع سوى الاعتقـــاد فى أنه المسيح المنتـــظر** وأن يعلن بدوره أن الزمان قد اكتمل » (٢٢) .

« **وعندما اقتنع يسوع أنه المسيح** فقد كان هذا يعنى بالنسبة له أن يعمل أعمال المسيح كما ألح اليها الأنبياء السابقون ، وكان عليـــه أن يحقق المثل الأعلى فى السلوك القويم للانسان وفى علاقته بالله . ولم يكن هناك شىء يمكن أن يحبط عزيمته مثل الاهتمام بالحياة أوالخوف من ميتة مثل ميتـــة الخونة والغادرين .ولقد استخدم يسوع ذهنهالمتوقدلكى يفوق خصـــومه فى القيادة والحيلة والدهاء ، وأن يجبر مشاريعهم على أن تطابق أهدافه . لقد وضع خططه ثم أخرجها الى حيز التنفيذ وهو أخرج كلماته من فمـــه بحرص وعناية واختارها بدقة لتحقق أغراضه . ورغم ان شريعة حب الأقارب كانت تتردد علىلسانه فقد **كان كلامه اللاذع ينم على النفاق والمداهنـــة ، وهو لميكن متكبرا الا انه لم يكن متواضعا كذلك** » .



« وفى فهمنا ليسوع لا نصادف أىمشكلة بخصوص لاهوته ، ذلك انه قبل أن تتطور المسيحية على صورةوثنيةلحقتبالعقيدة اليهودية ، فلم توجد اى حجة أو سند يصور المسيح على انه تجســـيد لله ، اذ أن الفظ وهو « الشخص المسوح » لا يعنى أكثر من الدعوة الى خدمة أو وظيفة ولم يكن ليدلعلىأى مظهر من مظاهر الربوبية » .

---

(٢١) المرجع ٢٢ ــص ١٥
(٢٢) المرجع ٢٢ ــ ص ٢١ ، ٢٣

« ويجب أن نلفظ على الفور أى فكرة تقول بأن يسوع أو أى شخص آخر يمكن أن يلقب بالمسيح فى فلسطين فى ذلك الوقت قد افترض ولو للحظة واحدة ان به جانبا الهيا .

ونستطيع ان نرى فى بدء تاريخ المسيحية كيف ظهرت هذه العقيدة نتيجة للتبشير فى العالم الوثنى .

ولدينا شواهد كثيرة حتى الآن ترينا كيف اصطبغت المسيحية بعقائد الشرك فى بقاع كثيرة من التى قهرتها الكنيسة بيد انها امتصت عقائدها .

وماذا يعنى لفظ « ابن الله » ؟ ان المسيح المنتظر لم يعرف بهذا الاسم ، واذا كان يظن أن له علاقة بنوة لله فان تلك الفكرة لم تكن تعنى ألوهيته . ان ان بنوة الله كانت تعنى شيئا مختلفا تماما عند اليهود عما كان فى أذهان أصحاب العقائد الوثنية » .

« لقد استطاع يسوع بفضل مواهبه الشخصية أن يشرع ويتصرف بطريقة مدهشة تتفق وفكرته عن المسيح كما فهمها رغم انه لم يستطع التحكم فيما كان يجرى وراء ذلك ، ونجد توقعاته فى كثير من المواقف يصيبها الخطأ . ولسوف تواجه الكنيسة عما قريب تلك المشكلة الحادة التى نتجت عن عدم حدوث توقعاته أوتأخيرها ، وهى التى عالجتها الكنيسة بعجز تام وعدم اقناع وذلك عندما حاولت تفسيرها فى صور روحية ، فقد وقف الاعتقاد فى لاهوت يسوع حاجزا يمنع التماس الأعذار له فى صدور أخطاء عنه » (٢٣) .

« ان الأناجيل تصر على أن يسوع كان على علم مسبق بما كان ينتظره ، وانه استخرج ذلك من الكتب وعلى الأخص عندما سحب من بطرس اعترافه فى قيصرية فيلبس بأنه المسيح (من ذلك الوقت بدأ يسوع يظهر لتلاميذه انه ينبغى أن يذهب الى أورشليم ويتألم كثيرا من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل وفى اليوم الثالث يقوم — متى ١٦ : ٢١)

ان المؤرخ يوسفيوس يحدثنا عن طائفة الاسينيين (من اليهود) : ، الذين كان بينهم من تخصصوا فى التنبؤ بالغيب كما استخرجوه من النصوص

---

(٢٣) المرجع ٢٢ ص ١٨٤ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢

المقدسة ومن وحى النبؤات ، ولقد اعطى يوسفيوس امثلة تدل ولا شك على قدرتهم على التكهن بالغيب نتيجة لمرانهم الطويل » .

« ان الأناجيل تبين أن يسوع لقب نفسه من أول يوم — ، ابن الانسان ، وهو لقب شاع فى شمال فلسطين عن المسيح — ولقد كان يسوع عالما بالكتب وتفسيراتها حتى كأنه يحمل أسفار العهد القديم فى راسه . ورغم انه لم يكن من تلاميذ الحكماء — كما فهم من الفريسيين — فقد كانت له صلات ببعض الطوائف الأخرى وكان من الطبيعى أن يبحث عن بعض المصادر التى تعينه على فهم الأمور المختصه بالمسيح ، وكان من بين هؤلاء فى الجليل من عرفوا باسم ، الاطهار ، كما كانت هناك طائفه ، الاسينيين ، والذين نفهم من الأناجيل ان يسوع اعتنق كثيرا من أفكارهم ، كما أن أخاه الصغير يعقوب قد انجذب بشدة الى حياة النذيرين » .

« لقد كان يسوع كلاعب شطرنج يعمل لتحقيق خطة رئيسية وكان يعرف كيف يجبر خصمه على تحريك قطعه ليصل بها الى الوضع المرسوم ، ولقد كان رجل الأناجيل ينفذ برنامجا خططه نتيجة ابحاثه السابقة عن المسيح المنتظر وذلك قبل أن يعمده يوحنا . فلقد بينت الكتب شكل رسالته وموقف قومه فيها . وان اقرب فهم لانجازات يسوع هو معرفته بما ألحقه الاسينيون من قدرات وطاقات نبوية بذلك الشخص الذى كنى باسم ، معلم البر .

لقد كانت رؤية يسوع لدور المسيح غاية فى المسرحية ، ولقد استطاع ان يلعب دوره كممثل قدير يعرف متطلبات كل موقف ، وان حركاته المحسوبه وافعاله الرمزية مثل تجربة البرية التى قضى فيها اربعين يوما (يجرب من الشيطان) واختياره اثنى عشر تلميذا ، ودخوله أورشليم فى مجد وبهاء العشاء الأخير — كل هذا يدل ولاشك على وعيه الدرامى ، كما يدل عليه حماسه وتشهد به ايماءاته . وان شخصا له مثل هذا الوعى كان قادرا ولا شك على أن يخطط وينفذ بمهارة مؤامرة عيد الفصح » .(٢٥)



الأعمال التمهيدية :

« اختار يسوع مركز قيادته فى كفر ناحوم وهى مدينة صغيرة على

---

(٢٥) المرجع ٢٢ — ص ٤٣ ، ٦٣ ، ٦٥—٦٨ .

شواطىء بحر الجليل ، وكانت مركزا تجاريا تعج بخليط من الناس بمافيهم الحكام الرومان والموظفين اليهود . وعندما تجول فى الاقليم يعظ ويتكلم عن ملكوت الله ، فانه تكلم بأمثال حتى يتجنب وشـــاية مخبرى الحكومة وجواسيسها الذين تستخدمهم فى أماكن التجمهر ، ولقد كان يبين انه يتكلم بالألغاز حين يضيف فى آخر اقواله ، من له اذنان للسمع فليسمع ، أو بمعنى آخر من يستطع أن يفهم ما أعنيه فليفهم .

وفى بدء دعوة يسوع لم يتدخل احد من أجهزة الحكم فى عمله لأنه أعطى انطباعا بأنه ليس الا احد المتحمسين الدينيين الذين لايخشى ضررهم ، بل أن بعض أقواله وتعاليمه كانت توافق تماما مزاج السلطات الحاكمــة ، اذ أنها كانت تساعد على التخفيف من عنف الجليليين وتهدىء من ثورتهم . ومن أمثلة ذلك قوله : ، لاتقاوموا الشر .. من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر ايضا .. من سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين احبوا اعداءكم ، باركوا لاعنيكم .. صلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم .

ولقد كان يسوع حريصا على منع أى تعطيل لدعوته فى بدئها حتى لايكون مثل يوحنا المعمدان الذى قضى عليه بسرعة لدواعى الأمن . وكان عليه أن يحترس من بعض التعليقات والنصائح غير الحكيمة التى تصدر عن تابعيه ، وان يتجنب الضجة التى يحدثها الشعب حين يدعونه ملكا . وعندما كان يسوع يسمع فى بدء عمله احدا ينـــاديه ، بابن داود ، فانه كان يعمد الى اسكاته على الفور . وعلى كل فقد كان كمن يمشى على حافة سكين .

ولقد اتخذ يسوع خطوة أخرى هامة وهى تكوين عصبة من التلاميد تلتف حوله . وكانت المجموعة الأولى منهم صيادين من بيت صيدا . ان رجالا مثل الاخوة سمعان واندراوس وكذلك يعقوب ويوحنا ، كانوا ولاشك ذوى نفع كبير له ، فقد كانوا جليليين بسطاء الا أنهم أقويا البنية يعتمــد عليهم . ولقد لقب يسوع سمعان (بطرس) بالصخرة ، كما لقب يعقـوب ويوحنا بابنى الرعد ، وكان يمكنه استخدامهم حرسا يحميه ، كما كانت لهم قوارب صيد يمكن استخدامها للنجاة عندما يظهر الخطر حيث يعبر البحيرة الى المدن العشر .

وبهذه الوسائل والتكتيكات استطاع يسوع أن يضمن لنفسه الحماية وحرية الحركة حتى يؤدى رسالته دون عائق » .

« ولقد كان فى استطاعة يسوع ان يستخرج من تفاسير الكتب اخبار

المسيح ، مقتديا بطريقة استنباط الاسينيين لها . وعلى سبيل المثال فمن المزمور الثانى » ، لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب بالباطل . قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معا على الرب ومسيحه قائلين لنقطع قيودهماولنطرح عنا ربطهما . .

وتفسيره : انه فى نهاية الزمان سيتآمر الأشرار ضد مسيح البر محاولين اهلاكه ولكن فى النهاية ستذهب مؤامرتهم سدى ، اذ يخلصه الله من يد أعدائه .

فملوك الأرض هنا هم الرومان الذين يحكمون أمما كثيرة ، اما الرؤساء فهم الشيوخ والكهنة فى أورشليم الذين يحكمون شعب اسرائيل من خلال مجمعهم الشرير .

ان ما فعله يسوع فى سنواته الأولى هو أن يتعرف الى المسيح فى مختلف مراحل حياته حسبما تقول النبؤات ، فقد أيقن فى نفسه بضرورة معاناة البار للالآم رغم صموده وانتصاره . ولقد طبق على نفسه ما كتبه سلفه داود الذى كان خارجا على قانون ملك (شاول) يحاول اصطياده . ولكن الله اختاره ليحكم شعبه اسرائيل ، وكذلك ما كتب عن عبد الله الذى طرد مثل أولئك الرسل الذين سخر منهم الملوك والكهنة وأدانوهم . فكل هذه الكتب وغيرها كثير كانت تشير الى ما ينتظر المسيح .

لقد كانت هناك توليفة من الوان مختلفة ترسم صورا للمسيح الذى يكون نبيا مثل موسى — البار الذى يقاسى الآلام — ابن داود — ابن الانسان . ولقد صاغ يسوع كل هذا فى قالب واحد يحدد شخصية المسيح » . (٢٦) .



دخول اورشليم :

« كان على يسوع أن يعد الآن لأخطر جزء فى مهمته ، والذى يحتاج الى الكثير من الحذر وحسن التنظيم والتوقيت ، وكان عليه الا يستعين بأحد من تلاميذه لمساعدته فى خطته المقبلة ، ذلك انه لم يكن يثق بهم ، ومن يدرى فلعلهم يعملون ضده لو أخبرهم بذلك ، وعندئذ يفسدون كل شىء كان

---

(٢٦) المرجع ٢٢ — ص ٨١ — ٨٣ ، ٩٣ — ٩٤ .

قد رتب له من قبل . لقد كان التلاميذ مخلصين له غيورين من أجله لكنهم محدودى الفهم لكونهم جليليين بسطاء بعيدين تماما عن جو أورشليم وسفسطائيته ، وماكان يحتاجه يسوع فى تلك المرحلة هو أصدقاء جدد من اقليم اليهودية ذاته .

ولقد تقدم يسوع صاعدا الى أورشليم — كما يخبرنا لوقا الذى اختار الفاظه هذه بدقة — ففى أورشليم وأورشليم وحدها يجب أن تمثل الدراما وتبلغ ذروتها .

ان يسوع لم يتعثر ولم يضع قدمه فى موضع خطأ ، فقد خطط جيدا لما يحقق اغراضه . فعندما اجتاز قرية بيت عنيا على الطرف البعيد لجبل الزيتون شرق أورشليم . هناك رحبت به امرأة تسمى مرثا وكان لها أخت تدعى مريم وأخ يدعى لعازر ، وقد ارتبط يسوع برباط قوى من العاطفة مع هذه العائله الصغيرة . ان ميزة وجود بيت ليسوع فى بيت عنيا هو اتخاذه مأوى يستريح فيه ، ويمنعه التعرض للمفاجئات بالاضافة الى وجوده على مسيرة محدودة من أورشليم . وعندما كان يسوع يذهب الى المدينة صاعدا جبل الزيتون كان يواجه منظر أورشليم بمبانيها وحوائطها . وعندما كان يهبط عبر وادى قدرون فانه كان يسير مجاورا بستان الزيتون وضيعة جثسيمانى التى اجتمع فيها احيانا مع تلاميذه . ان كل حجر من هذا الطريق كان مألوفا ليسوع .

ويجب علينا ان نلاحظ المظاهر الطبوغرافية للموقع والتى كان يراها يسوع يوميا ، اذ أن بعضها ساعد على تشكيل الأحداث التى كان تجرى فى مخيلته .

ان تلاميذ يسوع الجليليين مثل بطرس وابنى زبدى — يعقوب ويوحنا — ما كانوا يستطيعون مساعدته فيما كان يخطط له ، فرغم انهم قد يطيعونه الا انه لايثق فى طرح خطته امامهم ، ذلك ان عقولهم رفضت تعرضه للالآم وكان يحدوهم الأمل فى انه سوف يستطيع بطريقة ما ، طريقة عجيبة ، ان ينتزع السلطة من يد الرومان وموظفيهم ويحقق بذلك مملكته . ولذلك اختار يسوع اتباعا آخرين يمكنه الاعتماد عليهم وهؤلاء نعرف منهم لعازر وكاهنا آخر نعرفه باسم يوحنا . وعن طريق هذا الأخير استطاع يسوع أن يعرف مسبقا قرارات مجمع اليهود ضده . كذلك كان هناك شخص آخر من تلاميذه استخدمه يسوع هو يهوذا الاسخربوطى » . (٢٧)

(٢٧) المرجع ٢٢ ص ٩٩ — ١٠١ ، ١٠٩ ، ١١٠ .

« وعندما اقترب يسوع من اورشليم جاء الوقت لتنفيذ أول خطوة سبق ان خطط لها فى الشتاء وهذه الخطوة نعتقد انه عهد بها الى العازر فى بيت عنيا ، ولم يطلع عليها أحدا من تلاميذه الاثنى عشر . فعند مدخل بيت عنيا كان يجب الاحتفاظ بجحش مربوط لايسلمه الموجودون هناك الاللرسل الذين يبلغونهم ان ، الرب محتاج ، ولقد دعا يسوع اليه اثنين من تلاميذه وقال لهما : ، اذهبا الى القرية التى امامكما فللوقت وانتما داخلان اليها تجدان جحشا مربوطا لم يجلس عليه أحد من الناس . فحلاه وأتيا به وان قال لكما احد لماذا تفعلان هذا فقولا الرب محتاج اليه ، فللوقت يرسله الى هنا . لقد نفذ كل شيء حسب الخطة المرسومة ، فقد عاد التلميذان بالجحش وهما مندهشان من نبؤة يسوع . ولكن فجأة فهم بعض الأشخاص مضمون ما كان يجرى حولهم اذ أن لوقا يقول ان التلاميذ ، كانوا يظنون أن ملكوت الله عتيد أن يظهر فى الحال ، فقد كان هذا مكتوبا فى سفر النبى زكريا : (لا تخافى يا ابنة صهيون ، هوذا ملكك يأتى على جحش ابن أتان) وكثيرون فرشوا ثيابهم عليه ، وركب يسوع الدابة وانطلقت الصيحات : مبارك ابن داود .

ان يسوع هو المسيح فقد تحققت النبؤة حين امتطى ظهر حماره .

لقد صمت يسوع وسط الضجة التى افتعلها الجمع من حوله وظهر من عينيه بريق الرضا والسرور ، فان تلك اللحظة تعدل كل سنوات الانتظار وكل المصاعب التى قابلها بل والتى سيقابلها ايضا .

ان الانجيل الرابع جعل يسوع يستريح تلك الليلة فى بيت عنيا حيث صنعت له مرثا عشاء وكانت تخدمه بينما استقبلت اختها مريم ملكها باحضار رطل من الطيب الغالى ودهنت قدميه ومسحتهما بشعرها .

كذلك كان للعازر شرف حضور تلك المائدة بعد ان ادى المهمة التى كلفه بها يسوع .

هذا بينما نجد الاناجيل الثلاثة تجعل يسوع يذهب مباشرة الى أورشليم ، اذ وصلها حسب رواية مرقس متأخرا بعد الظهر ، اذ كان الوقت قد أمسى ، وبعد ان دخل الهيكل ، ونظر حوله الى كل شيء ، فانه عاد الى بيت عنيا .

واذا اخذنا برواية مرقس نجد ان يسوع ركب الى اورشليم يوم الأحد، على حين يذكر انجيل يوحنا ان هذه الحادثة وقعت يوم الاثنين ، وعلى كل

فليس هذا هو التناقض الوحيد بين الأناجيل فيما يتعلق باحداث اسبوع الآلام .

لقد اتفق كل الانجليين على أن يسوع دخل أورشليم كملك بطريقة علنية ، وحوله الجموع تهتف له ، بابن داود وتحييه بما فى المزمور ١١٨ : مبارك الآتى باسم الرب ، ويخبرنا لوقا أن بعض الفريسيين أثارهم ماراوا فطلبوا اليه أن ينتهر تلاميذه ، فأجاب وقال لهم .. ان سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ ، والآن لقد استوت الطبخة ولم يعد هناك أى رجعة فى العمل . فلقد اظهر يسوع نفسه بشجاعة أمام الجماهير فى الموقف الذى خطط له من قبل ، وبين بطريقة سالمة تماما لم يستخدم فيها العنف انه المسيح ، وفى عمله هذا اضطر ممثلى الحكومة من اليهود للعمل ضده بدافعين : أحدهما الحفاظ على مكانتهم الشخصية ، والثانى واجبهما أمام الامبراطور الرومانى .

لقد بين يسوع بطريقة ممتازة ان النبوءات التى تحدثت بها الكتب عن المسيح قد تحققت فيه وذلك حسب فهمه لها » . (٢٨) .



بدء العمليات :

« لقد كان اتجاه المسيحيين دائما ــ كما قررته الكنيسة ــ الى ادانة اليهود بجرم الصلب وغسل يد بيلاطس منه ، ولكن يجب علينا أن نعود الى الاحداث الأولى فى اسبوع الآلام فلسوف نجد تضاربا فى الروايات وخاصة فيما يتعلق ببعض الولائم المميزة . فالانجيل الرابع يحضر يسوع الى بيت عنيا قبل الفصح بستة ايام ، وهذا يسبق مباشرة دخوله المظفر الى أورشليم وهناك ينزل ضيفا على مارتا ومريم حيث تقوم الأخيرة بمسح قدميه بالطيب الثمين ، وعندئذ يحتج يهوذا بأن الأولى ان يباع ، هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويعط للفقراء .

لكن مرقس يجعل هذا العشاء متأخرا عن ذلك عدة أيام (كان الفصح وأيام الفطير بعد يومين) ويحدد مكانه فى ، بيت عنيا وفى بيت سمعان الأبرص ، وهو لايحدثنا عن مريم ويهوذا كلاعبى أدوار ، انما يقول أن امراة مجهولة جاءت (ومعها قارورة طيب .. وسكبته على رأسه ، وليس على قدميه كما فى يوحنا وأن عددا من التلاميذ اشتكى من بعثرة النقود هذه .

---

(٢٨) المرجع ٢٢ ــ ص ١١٩ــ١٢١

وبعد ذلك ذهب يهوذا الى رؤساء الكهنة ليتفق معهم على خيانة يسوع لكن لوقا لا يربط هذه القصة (قصة المسح بالطيب) بأسبوع الآلام اذ انه يذكرها فى فترة سابقة جدا فى بدء دعوة يسوع فالمنظر فى بيت سمعان الفريسى والمرأة كانت خاطئة فى المدينة وقد (جاءت بقارورة طيب ووقفت عند قدميه .. وابتدأت تبل قدميه بالدموع وكانت تمسحهما بشعر رأسها وتقبل قدميه وتدهنهما بالطيب) ، وكان الجدل منصبا على عدم معرفة يسوع بسلوك المرأة الخاطىء ، وليس على بعثرة النقود .

ان مشكلة الولائم تعقدت أكثر بالبناء العجيب للانجيل الرابع ، ففيما يتعلق بالعشاء الأخير لاندرى ما الذى دفع يوحنا ليجهز حجرة تلقى فيها مواعظ كثيرة ينسبها ليسوع وتشغل أربعة اصحاحات من الرابع عشر حتى السابع عشر . ولا توجد اشارة فى هذا الانجيل الى احتفال الفصح بالخبز والنبيذ الذى تكلم عنه يسوع وربطه بتضحيته ، ويبدو ان مؤلف هذا الانجيل لا يريد أن يعترف بأن العشاء الأخير كان هو وليمة الفصح ، حيث يشير الى أن صلب يسوع حدث قبل الفصح (يوحنا ١٨ : ٢٨ ، ١٩ : ١٤)

فهو لهذا قد جعل العشاء الأخير يحدث قبل الفصح (يوحنا ١٣ : ١) (٢٩) .

---

(٢٩) تقول دائرة المعارف البريطانية : « تذبح خراف الفصح بعد ظهر يوم ١٤ نيسان ويؤكل الفصح بعد غروب شمس نفس اليوم الذى كان يعتبر حسب تقويمهم الساعات الأولى ليوم ١٥ نيسان . وتذكر الأناجيل الثلاثة الأولى ان الصلب حدث يوم ١٥ نيسان حيث تجعل الفصح هو العشاء الأخير . وعلى العكس من ذلك نجد انجيل يوحنا (الانجيل الرابع) يجعل الصلب يوم ١٤ نيسان حيث كان العيد لم يبدأ بعد (انظر المرجع رقم ١٨ — ص ٥٢٦) .

ويقول جون فنتون عميد كلية اللاهوت بليتشفيلد : « يتفق متى مع مرقس فى ان العشاء الأخير كان هو الفصح وعلى العكس من ذلك نجد الانجيل الرابع يجعل الفصح يؤكل فى المساء بعد موت يسوع ، ويرى أغلب العلماء أن توقيت كل من متى ومرقس صحيح وان يوحنا قد غير ذلك لأسباب عقائدية » .

انظر المرجع رقم ٢٣ — ص ٤١٨ J. Fenton : Saint Matthew

وخلط بين العشاء فى بيت عنيا مساء الاربعاء وعشاء الفصح فى أورشليم مساء الخميس .

وحسب رواية مرقس نجد انه بعد حادثة المسح بالطيب فان يهوذا قد ذهب لمساومة رؤساء الكهنة لكن لوقا — كما رأينا — يذكر تلك الحادثة فى وقت سابق ، الا انه يؤكد ذهاب يهوذا الى رؤساء الكهنة قبل الاحتفال حيث يقول : فدخل الشيطان فى يهوذا الذى يدعى الاسخربوطى — لوقا ٢٢ : ٣ ، فهذه الكلمات الحاكمة التى تتعلق بما حدث مساء الأربعاء نجد لها صدى فى الانجيل الرابع فيما يتعلق باحداث مساء الخميس اذ يقول : فحين كان العشاء وقد ألقى الشيطان فى قلب يهوذا سمعان الاسخريوطى ان يسلمه — يوحنا ١٣ : ٢ ، وعلى ذلك فان قرار يهوذا بخيانة يسوع اتخذ فى أورشليم (حسب انجيل يوحنا) بدلا من بيت عنيا (حسب انجيل مرقس ولوقا) .

وثمة ملاحظة أخرى وهى ان كلا من مرقس ومتى يذكر ان قول يسوع : قوموا ننطلق ، قد قيل فى جشيمانى بعد المعاناة فى الحديقة وقبل القبض عليه مباشرة ، على حين يذكر الانجيل الرابع ان ذلك قد قيل قبل أن يبرح يسوع مكان العشاء الأخير وأنه ذهب للحديقة بعد موعظة أخرى.

ان لدينا هنا بيانا واضحا عن عدم التحقق من صحة الروايات التى وصلت الى ايدى الانجيليين ، وعن الحرية التى استخدموا بها هذه الروايات فى خدمة مآربهم وأهوائهم . ومن المثير حقا ألا نجد بين أيدينا حقيقة الأحداث التى تشكل قصة حياة يسوع ، وهذا يعنى ان البحث عن حقيقتها يجب ان يستمر اليوم وغدا مستعينين بكل كشوف جديدة تساعد فى القاء مزيد من الضوء » .

« ان البرنامج الآن على وشك ان يبلغ الذروة .. ان الحركات والأوضاع يجب ان تقدم بعناية ، وعلى الحكام والاتباع ان يؤدوا ادوارهم دون علم منهم بأنهم أدوات تستخدم كمخلب قط ..

ان مؤامرة يجب ان تتم حيث يقوم الضحية — عامدا — بدور المحرض الخفى .

لقد كان هذا كابوسا مزعجا جاء نتاجا لمنطق مخيف ، دبره عقل مريض أو فكر عبقرى .

وعلى كل فلقد كان هذا ما حدث بالفعل » .

« لقد رأينا سلفا كيف اتفق يسوع مع لعازر على أن يدبر له جحشا يربط عند الطرف الشرقى لقرية بيت عنيا لكى يكون جاهزا لتسليمه للرسل الذين يذهبون ومعهم اشارة كلامية خاصة . ومن الجدير بالذكر ما قيل من أن يسوع كان يحب فى بيت عنيا مرثا ومريم واخوهما لعازر ، كما كان يحب فى أورشليم التلميذ الذى لم يذكر اسمه وقد سميناه يوحنا الكاهن . ان هؤلاء اليهود الموثوق فيهم كانوا ضروريين لتنفيذ خطته ولسوف نتتبع الآن الدور الذى لعبه كل من لعازر ومريم ويوحنا . نستطيع هنا ان نتتبع الاتفاق الخاص الذى تم بين يسوع ومريم والتى حسب رواية الانجيل الرابع ــ أحضرت الطيب الثمين لمسح يسوع . فلقد طلب منها يسوع أن تفعل ذلك دون أن يخبرها بغرضه ، **وذلك لكى يغرى احد تلاميذه بخيانته** وبهذا تكتمل النبوءة : رجل سلامتى الذى وثقت به ، آكل خبزى رفع على عقبه ــ مزمور ٤١ : ٩ ، يوحنا ١٣ : ١٨ . (٣٠) .

*

دفاع عن يهوذا :

« لقد اخبرنا بأن يهوذا كان أمين صندوق الجماعة وانه اتهم باختلاس القليل من النقود ، ولو كان هذا صحيحا لكان على التلاميذ أن يتخذوا اجراء ضده ، ولكن يبدو ان يسوع كان هو وحده الذى يعلم خسة يهوذا وتقلب طبعه ، وأنه اخبر بذلك اخيرا التلميذ الذى كان يحبه . لقد كانت استراتيجية يسوع ان يذهب بالضغط الى منتهاه ، فيجبر الخائن على تنفيذ خيانته ، ولكى يصل الى نتيجة فعاله فقد اخفى عن التلاميذ خططه المستقبلة حتى هذه المرحلة ، ولكنه رتب مع مريم حادث المسح بالطيب الثمين حتى يطلق الكلمات الخاصة بتطييب جسده للدفن . ولقد استخدمت قيمة الطيب الثمين فى الدق على نقطة الضعف عند يهوذا ، ولقد جاء ذلك بالنتيجة المرجوة حيث يقول لوقا : (فدخل الشيطان فى يهوذا الذى يدعى الاسخريوطى وهو من جملة الاثنى عشر . فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند كيفه يسلمه اليهم . ففرحوا وعاهدوه ان يعطوه فضه) .

لقد عرف يهوذا أن يسوع توقع ان يخونه أحد ، فقد قال ذلك مرارا . ولنا ان نعتقد أنه حتى تلك اللحظة لم يكن يهوذا يعرف انه هو الذى سيخون . لقد كان حادث المسح بالطيب وكلام يسوع عن دفنه هو الذى

---

(٣٠) ٢٢ ــ ص ١٢٩ــ١٣٢ ، ١٣٤

دفع بذلك الى فكرة يهوذا ، اذ فجأة كأن الهاما نزل به فعندئذ عرف يهوذا ضرورة التكسب من نقود تحقق ما طلبه يسوع بوضوح . وهكذا يظهر لنا كان يسوع حدثه عن ذلك بطريقة خبيثة ، داعيا اياه الى التكسب من هذه العملية . لقد جاء الأغراء هنا على يد سيده » .

« ومن المحتمل أن يكون يسوع قد أعلن أن أحد الآكلين معه سيخونه أثناء طعام الفصح . ولما ابتـداوا يخمنون ويقولون له واحدا فواحدا هل أنا ، رفض يسوع ان يستدرجه احد . فهو لم يرد ان يضع يهوذا فى موقف فاضح ، وهو لايريد أن يعطيه الفرصة للتوقف عن خيانته أو تأجيل ذلك. لكنه اكتفى بأن قال : هو واحـد من الاثنى عشر الذى يغمـس معى فى الصفحة .

وحسب رواية الانجيل الرابع نجد ان بطرس لم يقنع بتلك الاجابة فأومأ الى التلميذ ، الذى كان يسوع يحبه أن يسأل من عسى يكون الذى قال عنه . فاتكأ على صـدر يسوع وقال له ياسيد من هـو ، أجاب يسوع : هو ذاك الذى أغمس أنا اللقمة وأعطيه . فغمس اللقمة وأعطاها ليهوذا سمعان الاسخريوطى . فبعد اللقمة دخله الشـيطان . فقال له يسوع ما أنت تعمله تعمله بأكثر سرعة .

لقد فهم يهوذا هذا ونهض بسرعة من المائدة بعد أن أيقن بأن يسوع عرف خيانته وأنه يطلب منه ان يكملها فخرج منطلقا فى الليل .

وطبيعى ان الجماعة لم تعلم شيئا عن هذا وانهم (ظنوا أن يسـوع قال له اشتر مانحتاج اليه للعيد ، أو أن يعطى شيئا للفقراء) (٣١).

*

دفاع عن مجمع اليهود :

« اما بالنسبة لشيوخ المجمع وكهنته فيجب ان يقال بصـدق ان نواياهم لم تكن شريرة بالفطرة . فهم قد اعتقدوا أن هناك مغامرة حقيقية على وشك ان تحدث نتيجة لثورة يهودية يقودها ذلك الذى تظاهر بأنه المسيح ، وهو ثائر جليلى مثل يهوذا الجليلى الشهير (المكابى) . وعلى ذلك فان شرارة صغيرة يمكن ان تحيل الاقليم الى كتلة من اللهب . أن الواجب يقضى بأن

---

(٣١) المرجع ٢٢ — ص ١٣٦ ، ١٣٩ — ١٤٠ .

نكون حذرين فى حكمنا على ما حدث فلا نقضى بالحكم على ضوء ما يعتقده المسيحيون فى يسوع ، بل على ضوء الصورة التى ظهر بها فى نظر المجمع حيث وضع اعضاءه فى ذلك المأزق الخطير . فمن وجهة نظرهم كان القرار الذى اتخذوه عادلا تماما وله مايبرره (خير لنا أن يموت انسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها) ، وكان يسوع — وهو يدرك تماما ما كان يفعله — قد اضطرهم الى اتخاذ هذا القرار ، وذلك بتخطيطه الماهر وحركاته المحسوبة » .

«ويجب أن نتذكر كيف ناور يسوع أعضاءالمجمعبحزم ووضعهمفىالوضع الذى اضطرهم الى العمل ضده . وهو لو لم يثر سخطهم ويعطيهم من الأسباب ما جعلهم يتوقعون حدوث حركة وطنية ، فما كان احد منهم ليهتم به على الاطلاق » .

« لقد كان المجمع يتصور انه يمارس مشيئته الحرة فى اتخاذ قرار باهلاك يسوع ، وقد يكون يهوذا الاسخربوطى قد اعتقد نفس الشىء بالنسبة لخيانته ، ولكن الواقع هو أن يسوع كان المهندس الماهر لمؤامرة عيدالفصح، وجميع هؤلاء لم تكن تصرفاتهم اكثر من استجابة لقدرتهعلى اللعب بعواطفهم وأفعالهم » . (٣٢) .

*

الساعات العصيبة :

« لقد كانت ضيعة جشيمانى من الأماكن المفضلة ليسوع ، فكثيرا ما ذهب اليها من تلاميذه ، وفى هذه المرة شعر بحاجته الى من يؤنسه لذلك صحبمعه بطرس ويعقوب ويوحنا . ويذكر مرقصأنه ابتدأ يدهشويكتئب فقال لهم نفسى حزينة جدا . وحتى ذلك اليوم كان يسوع يعتقد أن الآلام المادية التى تنتظره هى فى الغالب آلام غير شخصيه . والآن لقد أتت الساعة وخارت قواه النفسية والبدنية، وقد يموت منشدة الكرب، وابتدأ يسوع، يصلى لكى تعبر عنه الساعة ان امكن ، ولكن لتكن ارادة الله .

وما أن انتهى يسوع من كلامه حتى جاء يهوذا بصحبة قوة ارسلها المجمع حيث تم القبض عليه بسرعة ، وهناك قال يسوع بضع كلمات ليهوذا ولرئيس القوة اختلفت فيها الأناجيل » .

« وحسب رواية لوقا نجد حاشية من ، النساء اللواتى كن يلطمن

---

(٣٢) المرجع ٢٢ — ص ١٣٦ — ١٣٧ ، ١٥٠ .

وينحن عليه ، قد تبعن يسوع الى مكان الصلب ومن هؤلاء الذين وقفوا بجانب الصليب نجد ذكرا لأمه والتلميذ الذى كان يحبه ولم يكن هنـاك أحد من التلاميذ ، ولكن ، كانت أيضا نساء ينظرن من بعيـد بينهن مريم ومريم ام يعقوب الصغير ويوسى وسالومة .

ان الروايات التى وصلت الينا لتقص ماحدث فى موقع الجلجثة (تل الاعدام) متضاربة ، وقد تكلم كل انجيل عن ظروف تخالف الآخـــر، واستخدم الخيال فى اضفاء جو من الرهبة على عملية الصلب ، وحاول ان يجعلها شيئا له دلالته ومغزاه » . (٣٣)

« ويجب الا يغيب عن اذهاننا أن يسوع قد خطط لقيامته كما سبق أن خطط للأحداث التى أدت الى الحكم باعدامه . ويجب أن ندرك تماما أن تخطيط يسوع قد وضع بعناية وتوقيت مضبوط . فلقد اختار عيد الفصح ليعانى فيه ، وتهرب من أى محاولة للامساك به قبل ذلك . وفى النصـف الأول من اسبوع الالآم اظهر نفسه امام الجمهور بنشاطه فى الهيكل وعمل على احراج السلطات الدينية الى آخر المدى حتى صمموا على اهلاكه بمجرد تملكهم لأول فرصة لا تحدث فيها اثارة للجماهير .

لكنه كان حريصا على عدم تمكينهم من هذا ، وذلك بمغادرة أورشليم قبل حلول الظلام ، ولم يحدث ان زاد يسوع من ضغطه على يهوذا قبل مساء الأربعاء مما اضطر هذا الأخير للذهاب الى المجمع عارضا خيانته . وباتفاقات يسوع السرية قدر أن عملية القبض لن تتم قبل مساء الخميس بعد أن يكون قد تناول العشاء الأخير مع تلاميذه فى أورشليم .

ان كل هذا يؤيد انه قصد ان يكون الصلب يوم الجمعة وهو عشـية السبت . وبالحساب وجد أن المجمع لن يستطيع الحصول من بيلاطس على تصديق بادانته قبل انقضاء عدة ساعات من صباح الجمعة . ولما كان واثقا انه لن يترك على الصليب الى يوم السبت حسب العادة وانما سينزل عنه قبل غروب شمس الجمعة ، لذلك قدر يسوع بحسابه هذا انه لن يبقى على الصليب لأكثر من بضع ساعات ، على حين جرت العادة أن يمتد عذاب الصلب الذى يعانيه المصلوبون قبل موتهم الى بضعة أيام »



---

(٣٣) المرجع ٢٢ ـ ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ، ١٥٤ .

تنبؤات الكتب بنجاة المسيح :

« لقد اعتمد يسوع على نبؤات العهد القديم واشاراته التى فهم منها انه رغم تآمر الحكام ضده لاهلاكه (باعتباه المسيح كما فى المزمور ٢) فان رحمة الله سوف تتداركه فى النهاية ، وتكتب له حياة . ولبيان ذلك فاننا نذكر هنا بعض الفقرات التى تنبىء بذلك :

أن سلكت فى وسط الضيق تحيينى . على غضب أعدائى تمد يديك. تخلصنى يمينك . الرب يحامى عنى .. حبال الهاوية حاقت بى . اشراك الموت انتشبت بى . فى ضيقى دعوت الرب ، والى الهى صرخت . فسمع من هيكله صوتى وصراخى قدامه دخل أذنيه .. أرسل من العلى فأخذنى نشلنى من مياة كثيرة . انقذنى من يدعدوىالقوى .. أخرجنى الى الرحب. خلصنى لأنه سربى .. فرح قلبى وابتهجت روحى . جسدى أيضا يسكن مطمئنا لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية لن تدع تقيك يرى فسادا . تعرفنى سبل الحياة .

يارب .. حياة سألك فأعطيته . طول الأيام الى الدهر والأبد ...

يا خائفى الرب سبحوه .. لأنه لم يحتقر ولم يرذل مسكنه المسكين ولم يحجب وجهه عنه ، بل صراخه اليه استمع .. يخبر عن الرب الجيل الآتى .. يأتون ويخبرون ببره شعبا سيولد بأنه قد فعل ...

اقول للرب ملجأى وحصنى فأتكل عليه . لأنه ينجيك من فخ الصياد .. انما بعينيك تنظر وترى مجازاة الأشرار لأنك قلت انت يارب ، ملجأى، جعلت العلى مسكنك لا يلاقيك شر ولا تدنو ضربة من خيمتك . لأنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك فى كل طرقك على الأيدى يحملونك لئلاتصدم بحجر رجلك .. لأنه تعلق بى أنجيه أرفعه لأنه عرف اسمى . يدعونى فاستجيب له . معه أنا فى الضيق أنقذه وأمجده من طول الأيام وأريه خلاصى .

من هذه التنبؤات وغيرها كان مفهوما أن المسيح سيبقى حيا بعد اجتياز محنته الرهيبة ولذلك خطط يسوع لكى تكون آلامه أقل ما يمكن.

ان حياة المصلوب يمكن انقاذها طالما ان فترة الصلب لن تطول . ويحدثنا عن هذا المؤرخ يوسفيوس فيما يذكره عن حصار الرومان لأورشليم

---

(٣٣) المزامير : ١٣٨ ، ١٦ — ٢٢ ، ٩١ .

فقد أرسله القائد تيطس ليفتش على معسكر على بعد ١٢ ميلا جنوب المدينة، وفى اثناء عودته مر ببعض المصلوبين فتعرف على ثلاثة منهم كانت تربطه بهم علاقة . وبعد أن رجع اشتكى لتيطس من سوء حالتهم ، فأمر على الفور بتخليصهم من الصلب واعطائهم كل رعاية ممكنة ولقد مات اثنان منهم بينما بقى الثالث حيا ، وهذا يدل على انه رغم ان أولئك المصلوبين قد علقوا على الصليب فترة اطول من يسوع ، الا انه قد امكن انقاذ حياة واحد منهم . ان لدينا امثلة كثيرة تبين ان يسوع استخدم ذكائه ليؤكد تحقق النبوات والكتب ، فلقد كان يعتقد ان المسيح يجب ان تكون له روح الحكمة والفهم ، وان مشيئة الله تقضى بأن يستخدم تلك القوى الذهنية فى اتمام الحوادث ولم يكن من طبعه أن يجلس مطبقا يديه فى انتظار ما تأتى به الأحداث ولذلك فقد تآمر وخطط لمؤامرته بذكاء مستعينا باتفاقاته السرية وبكل فرصة تسنح له .. لقد عرفنا من قبل ان يسوع قدر أن فترة صلبه يجب الا تزيد عن ثلاثة أو أربع ساعات ، فاذا تتبعنا رواية الانجيل الرابع لوجدنا تلك المحنة لم تستغرق اكثر من ثلاث ساعات تبدأ من بعد الظهر بقليل حتى الساعة الثالثة .. ولكن هذا لن يكون كافيا لخداع الموت اذ كان عليه ان يجعل مظهره كالأموات قبل الساعة الخامسة حيث سينزل من على الصليب استعدادا ليوم السبت والا فان الجنود المسئولين عن التنفيذ سيعجلون بموته. ولهذا يجب أن تأتى نجدة عاجلة تضمن وضع الجسد بين أيدى صديقه ، خشية أن يقذف به فى أى مقبرة عامة وعندئذ يضيع أى أمل فى استعادته حيا . ولذلك عقد يسوع اتفاقا خاصا مع شخص ممن يثق فيهم ويذكره لنا الانجيل باسم« يوسف الذى من الرامة ، انه واحد من اكبر الألغاز فى الأناجيل ، فهو يظهر لنا كرجل ثرى وعضو فى المجمع ، وحيث انه كان ينتظر ملكوت الله فلا بد انه كان فريسيا مشغول العقل بالمسيح . ان يوسف هذا يدخل القصة دون سابق اذذار ، وبعد ان يكمل عمله فانه يختفى تماما من وثائق العهد الجديد ».

« لقد اخبرنا بأن يوسف كان له ممتلكات قريبة من جلجثة — تل الاعدام — وكان جزء منها مزروعا كحديقة ، وعلى مرأى النظر كان هناك مقبرة فى الصحراء اختير مكانها بعناية لكى يحضر اليها جسد يسوع بعد الصلب . وعلى كل فكان لابد من توفير شيئين لنجاح تلك المغامرة ، أحدهما اعطاء مخدر ليسوع وهو على الصليب لكى يظهر بمظهر الموتى الحقيقيين ، واما الثانى فكان سرعة توصيل الجسد ليوسف .

ولقد اخبرنا كذلك انه كان هناك متفرجون حول الصليب وان واحدا منهم ملأ اسفنجة بالخل وحملها على قصبة ووضعها فى فم يسوع ، وهو لم

يفعل ذلك مع اللصين الآخرين الذين صلبا معه ، ولوكان دافع هذا الشخص انسانيا بحتا لكان عليه ان يفعل نفس الشيء مع الآخرين .

ويذكر مرقس ان هذا العمل تم بعد ان صرخ يسوع قائلا (الوى الوى لما شبقتنى الذى تفسيره الهى الهى لماذا تركتنى) فعندئذ تدخل الرجل الذى أرسله يوسف بالمخدر (فملأ اسفنجة خلا وجعلها على قصبة وسقاه قائلا اتركوا لنرى هل يأتى ايليا لينزله). فهذا الرجل اغتنم الفرصة ليتدخل بحيث لا يجعل احدا يشك فى مساعدته ليسوع . ولا يعطى مرقس اى تعليل لهذا العمل ، بينما نجد الانجيل الرابع يقول أن يسوع قال : أنا عطشان وهو القول الذى يعتبر اشارة كلامية . وبعد ان تناول يسوع ما قدم له نجده قد ذهب فى غيبوبة تامة ، اذ ارتخى جسده وتدلت رأسه فوق صدره وظهر بمظهر الأموات .

وما أن وضح مفعول المخدر بيسوع حتى أسرع الرجل الى يوسف الذى كان قلقا فى انتظار الأخبار ، ثم اسرع يوسف بدوره الى بيلاطس يسأله ان يأخذ الجسد ، فتعجب بيلاطس انه مات كذا سريعا ، فدعا قائد المئة وسأله هل له زمان قد مات . ولما عرف من قائد المئة وهب الجسد ليوسف. وأسرع يوسف وانزله ولفه بكتان ووضعه فى قبر منحوت حيث لم يكن احد قد وضع قط ، وكما تم ترتيبه من قبل فقد وضع يسوع فى المقبرة القريبة » . (٣٤)



الأحداث الأخيرة :

« فى الصباح الباكر يوم الأحد ذهبت النساء صاحبات يسوع الى القبر ، تقودهن مريم المجدلية ، وكان هناك رجل غريب لم نعرفه . وحسب رواية مرقس نجد الرجل (شابا لابسا حلة بيضاء) وقد أخبرهن بان يسوع قام ، وطلب منهن أن يذهبن ويقلن (لتلاميذه ولبطرس انه يسبقكم الى الجليل) .

وهكذا بدأت قصة قيامة يسوع تروى وتنتشر بعد ذلك حيث تحول الرجل الذى عند القبر الى (ملاك الرب) — كما فى انجيل متى — ثم الى (ملاكين بثياب بيض) — كما فى انجيل يوحنا .

---

(٣٤) المرجع ٢٢ ص ١٦١ — ١٦٣ ، ١٦٦ — ١٦٨

ولعل انجيل يوحنا هو الأقــرب للصواب حين جعل مريم المجدلية تذهب وحيدة الى سمعان بطرس والتلميذ الآخر الذى كان يسوع يحبه ، وتنقل اليهما الأخبار المفجعة نيابة عن بقية النسوة. ولا يوجد هنا ذكر لأى رسالة من يسوع الذى قام من الأمــوات الى تلاميذه ، فلم تزد مريم عن أن انفجرت قائلة : لقد (أخذوا السيد من القبر ولسنا نعلم أين وضعوه)

من (هم) ـ الذين اخذوه ؟ لا أحد يدرى .

لقد كانت هذه الأخبار بمثابة صدمة شديدة للتلاميذ ، وكان لابد من التحقق من صحتها ولذلك جرى التلميذان فسبق التلميذ الآخر بطرس.. ثم جاء سمعان بطرس ودخل القبر ، ولقد كان ما قيل عن ذهاب جسديسوع من القبر صحيحا .

ويذكر الأنجيل انه حتى تلك اللحظة لم يكن التلاميذ (يعرفون الكتاب انه ينبغى أن يقوم من الأموات) . لقد كانت تلك هى بداية القصة : مقبرة خاوية ، ثم ايحاء بالقيامة من جانب التلميذ الذى كان يحبه يسوع ولم تكن هناك أى شهادة محققة غير هذا .

لقد تبعت مريم المجدلية التلميذان الى القبر ، وبعد رحيلهما فانها بقيت (واقفة عند القبر خارجا تبكى) ومن خلال دموعها لمحت شـــخصا (فظنت تلك انه البستانى فقالت له ياسيد ان كنت أنت قد حملته فقل لى اين وضعته). وحسب رواية الأنجيلالرابع نجد ذلك الشخصيظهرنفسه لها على انه يسوع .. ومن الواضح أن مريم لم تعرف الرجل الذى قيل أنه يسوع ، ولكن لأنها رأته فجأة بجوارها فى حالتها المضـــطربة ، جعلها تتصور أنه يسوع وقد تحدث اليها ثم اختفى . اننا نعلم ان مريم هـــذه كانت مخبولة اذ أخرج منها يسوع سبعة شياطين وكانت متعلقة به تماما ولعلها تصورت انه كان يبادلها الحب ، وفى حزنها الشديد عليه تصــورت انه قدظهر لها ليخفف ما بها من آلامومنثم انطلقت (مريمالمجدلية وأخبرت التلاميذ) انها رات يسوع ومن تلك اللحظة بدأ الصراع بين الشك واليقين فى العقيدة الجديدة .

ان كلا من سمعان بطرس ويوحنا يمكنه ان يؤكد خلو القبر من جسد يسوع ، (ولما قام بطرس وركض الى القبر ونظر الأكفان موضوعة وحدها فمضى متعجبا فى نفسه مما كان) وقد اعترف التلاميذ انهم لم يروا يســوع بأنفسهم : (ومضى قوم من الذين معنا الى القبر فوجدوا هكذا كما قالت أيضا النساء واما هم فلم يروه) .

اذا كان يسوع حيا، فمن ذا الذي يستطيع أن يحدد وقت ظهوره وعلى اى صورة يكون ؟

السنا نقرأ على لسان يسوع نفسه ، ان ايليا ظهر فى شخص يوحنا المعمدان ؟

لقد كان اولئك القوم ريفيين سذج يعتقدون بتناسخ الأرواح .

ففى هذا الجو نقرأ روايات عن ظهور يسوع للتلاميذ فى أورشليم كما فى لوقا ويوحنا ، وان كان هذا يخالف ما يذكره متى عن ظهوره فى الجليل .

ففى لوقا ويوحنا نجد يسوع يظهر نفسه علانية للتلاميذ فى أورشليم وسط جو من الشك والريبه :

(وبينما هم يتكلمون بهذا وقف يسوع نفسه فى وسطهم .. فجزعوا وخافوا انهم رأوا روحا . فقال لهم ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر افكار فى قلوبكم .. وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون قال لهم اعنـدكم هنا طعام فناولوه جزءا من سمك مشوى وشيئا من شهد عسل فأخذ وأكل قدامهم — لوقا ٢٤ : ٣٦ — ٤٣) .

وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود جاء يسوع ووقف فى الوسط .. اما توما احد الاثنى عشر .. فلم يكن معهم .. فقال له التلاميذ الآخرون قد رأينا الرب . فقال لهم ان لم أبصر .. لا أومن — يوحنا ٢٠ : ١٩ — ٢٥) .

اما فى متى فان التلاميذ لم يروا يسوع فى أورشليم ، ولكن بعد الفصح يذهبون الى الجليل غير مقتنعين بروايات ظهوره ، اذ لو كان حيا لا ظهر نفسه لهم فى المكان الذى عينه من قبل : (وأما الأحـــد عشر فانطلقوا الى الجليل حيث أمرهم يسوع .. ولما رأوه سجدوا له ولكن بعضهم شكوا — متى ٢٨ : ١٦ — ١٧) .

ولنا أن نهتم الآن بعملية الظهور التى حدثت فى الجليل والتى يعرضها الأنجيل الرابع بالتفصيل . وتتلخص القصة فى أن بطرس قرر أن يذهب للصيد مصحوبا بستة من التلاميذ ، فخرجوا ودخلوا السفينة .. وفى تلك الليلة لم يمسكوا شيئا ، وعندما نظروا تجاه الشاطىء فى الصـباح الباكر وجدا رجلا يحييهم ويسألهم عن شىء من الطعام ، فأجابوه بأنه ليس لديهم شىء بعد وفى الحال اصطادوا سمكا كثيرا . وعندئذ صرخ التلميذ المحبوب الذى كان أول من اعتقد بقيامة يسوع : (دخل التلميذ الآخر الذى جاء أولا الى القبر ورأى فآمن — يوحنا ٢٠ : ٨) .

وقال : (انه الرب) ولقدكان هذا كافيا بالنسبة لبطرس الذى ألقى بنفسه فى البحر واقترب من الرجل الذى افترضوا انه يسوع وان كان يوحنا يقول (لكن التلاميذ لم يكونوا يعلمون أنه يسوع) وعندما عاد التلاميذ الى الشاطىء وجدوا جمرا موضوعا وسمكا موضوعا عليه وخبزا) وهناك دعاهم شخص غريب للأكل معه ، وهناك (لم يجسر احد من التلاميذ أن يسأله من انت اذ كانوا يعلمون أنه الرب) لكن هذا هو ما لم يعرفوه تماما.

ان حقيقة الأمر تكمن فى ان يسوع الذى عرفه التلاميذ عن كثب ، قد اخفقوا فى معرفته فى شـــخص ذلك الرجل الغريب الذى راوه ، وهم قد انجروا فقط للاعتقاد بأنه يسوع بناء على تحريض التلميذ المحبوب . ان ذلك الرجل الغريب لم يستطع احد من أصحاب يسوع التحقق من تطابق شخصيتهما ، تماما كذلك الشـــخص الذى قابلته مريم عند القبر أو ذلك الرجل الذى ظهر فى الطريق الى قرية عمواس . ويبدوا انه هوذات الشخص الذى يتحدث عن ظهوره متى على جبل الجليل والذى عندما رآه التلاميذ (سجدوا له ولكن بعضهم شكوا) .

لم يصل الينا الا القليل من انباء قيامة يسوع وظهوره ، ولكن هـذا القليل سرعان ماتحول الى اساطير وخرافات متناقضة لا تثبت امام البحث الذى يستهدف الوصول الى نتائج محققة .

كذلك لم يكن هناك كذب متعمد فى شهادة أصحاب يسوع عن قيامته ، اذ أن النتيجة التى توصلوا اليها بدت حتمية ، فلم يكن هناك من يخبرهم عما حدث لجسده ، وهم لم يتمكنوا من معرفة ان ذلك النبى ــ الذى قالت عنه الكتب انه يكون مثل موسى قد استقر جسده اخيرا فى قبر مجهول تماما مثل موسى » . (٣٥)

*

موضوع تبرئة اليهود من دم المسيح :

« ان الوشاية التى قيل ان الشعب اليهودى يعتبر مسئولا بسببها عن قتل يسوع ، كانت عملا معاديا للسامية ينم عن غش وخداع تمسكت به الكنيسة بعد ان اصطبغت بالوثنية ، ولقد كان هذا سببا مباشرا للكثير من الآلام والمظالم التى ابتلى بها اليهود عبر القرون .

(٣٥) المرجع ٢٢ ــ ص ١٧٤ ــ ١٨٠

وان افكار الكنيسة الكاثوليكية اليوم فى موضوع ، تبرئة اليهود (٣٦) قد جاءت متأخرة جدا ، ويعتبر تراجعا منها لا يفى بالغرض .

ومن الواضح أن الكنيسة قد وقعت فى ورطة من جراء ذلك ، اذ أنها لا يمكنها العمل على ازالة وصمة العار التى الحقتها باليهود ، دون الكف عن ممارسة الايمان فى صحة عقائدها ووثائقها المقدسة » . (٣٧)

*

خاتمة :

« ان ما قصده هذا الكتاب أن يبين ان يسوع كان رجلا غزير الايمان لدرجة انه استطاع ان يترجم التصورات القديمة والأفكار المعتمة الى واقع أرضى ملموس » .

« ورغم كل ما علمته الكنيسة طيلة قرون وأصرت عليه ، فان يسوع الذى يجد علماء المسيحية فى اكتشافه ، ليبدو فى أول معرفة به عن كثب اقل بهجة وقبولا من تلك الشخصية المثالية المغلفة بالأساطير الالهية التى تنادى بها العقيدة المسيحية » .

« وان ما بدا — فى الاناجيل والرسائل — كقصص تهذيبية ، قد انتهى الى اعتباره حقائق مسلما بها » . (٣٨)

* * *

---

(٣٦) اقر المجمع المسكونى بروما بيانا صدر فى اكتوبر ١٩٦٥ ، وعرف باسم « وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح » وقد جاء فيه :
« تشهد الكتب المقدسة ان القدس لم تتذكر وقت مجيئه (المسيح) وأن اليهود فى سوادهم لم يقبلوا الانجيل ، وأكثر من هذا فان عددا كبيرا منهم قد عارض فى نشر تعاليمه ، ومع ذلك فان اليهود بسبب آبائهم بقوا أعزاء عند الله . .

ومع أن ذوى السلطة عند اليهود واتباعهم قد حرضوا على موت المسيح ، فان ما ارتكب اثناء آلامه لايمكن أن يعزى ، دون تمييز ، الى جميع اليهود ، الذين كانوا عائشين اذ ذاك ولا الى يهود أيامنا » .
(٣٧) المرجع ٢٢ — ص ١٤٩
(٣٨) المرجع ٢٢ — ص ١٨٦ ، ٢٦٠ ، ٢٧٥

جنون المنطق الاسرائيلي :

وبعد — فهذه مؤامرة يسوع التى دبرها فى عيد الفصح ، ليخدع نفسه ويخدع الناس من حوله ، فذلك هو الحق كما يراه المنطق الاسرائيلى المعوج .

أى حق هذا ايها الناس ؟

واى عاقل — أو مجنون — يقول بأن يسوع صلب نفسه ؟

ولكن ما الحيله ..... !!

انه المنطق الاسرائيلي الذى يقدر على قلب الحقائق وتحويل الضحية الى مجرم قاتل وغسل يدم المجرم الحقيقى من دم ضحيته القتيل البرىء ..

وهو نفس المنطق الاسرائيلي الذى يصور العرب على هيئة قتلة يبتغون دائما العدوان على اسرائيل الضحية البرىء التى لا تبغى شيئا سوى العيش فى سلام . هكذا تقول أبواق الدعاية الصهيونية وتدعى زورا وبهتانا ، بعد ان تمكنت من السيطرة بوسائلها الرهيبة على اغلب تيارات الفكر فى العالم الغربى ، وطمست معالم الحقيقة — او كادت تطمسها — فى قضية من أخطر قضايا القرن العشرين : قضية فلسطين .

اى سلام ذلك الذى تتمسح باسمه اسرائيل بعد ان غزت الأرض وقتلت أهلها ، وشردت من بقى منهم حيا ، وخربت بذلك الحرث والنسل ؟

انه السلام المخادع الذى يطلبه كل قاتل وظالم حتى يستطيع أن يتذوق ثمرة عدوانه ولكن : محال ان يفلت أهل الظلم من العقاب الالهى الذى لابد ان يأتى يوما ما — ولو بعد حين — لينزل بالقادة العمى والشعب المسوق على السواء .

*

واخيرا — ماذا نقول فى المنطق الاسرائيلى ومفهومه للحق فى مختلف الدعاوى والقضايا ؟

نطلب منه أولا ان يحرر نفسه من الكبرياء والتعصب الاسرائيلى لم

يراجع موقفه من الحق — دائما — بعد أن يكف عن خلط الحقائق بالأباطيل .

ثم نقول له بعد ذلك ما يقول الكتاب :

« ويل للقائلين للشر خيرا وللخير شرا ، الجاعلين الظلام نورا والنور ظلاما ، الجاعلين المر حلوا والحلو مرا .

ويل للحكماء فى اعين انفسهم والفهماء عند ذواتهم .. الذين يبررون الشرير .. أما حق الصديقين فينزعونه منهم .

لذلك كما يأكل لهيب النار القش .. يكون اصلهم كالعفونة ، ويصعد زهرهم كالغبار .

من اجل ذلك حمى غضب الرب على شعبه ومد يده عليه وضربه .. مع كل هذا لم يرتد غضبه ، بل يده ممدودة بعد — اشعياء ٥ : ٢٠ — ٢٥ » .

الويل ثم الويل يا اسرائيل ...

هكذا يقول الكتاب ...

***

القـــــوة

مقدمة :

لسنا بصدد الخوض فى دراسة مجردة لموضوع القوة ، فذلك أمر لا يعنينا هنا . لـــكن غاية ما نبغيه هو ان نلم بشيء عن أشـــــكال القوة ، واخلاقياتها ، واستخدام الاسرائيليين لها فى مساندة مختلف قضاياهم ، مع عرض مقارن لسياسة الاستخدام فى مختلف العصور .

ان هناك طرقا مختلفة لتبويب اشكال القوة ، وكل له اســـــتخدامه الخاص . فهناك : قوة العقيدة ، والقوة المادية ، والقوة الاقتصادية ، وقوة الدعاية . . . الخ .

وتتكون القوة المادية من مركبات تتمثل محصلتها الرئيسية فى نتاج القوة البشرية بأعدادها وطاقاتها .

كذلك « تعتبر القوة العسكرية أهم الصـــــور التى تظهر عليها القوة المادية ، والتى من صورها كذلك قوة الجزار على ذبائحه ، وقوة جيش الاحتلال على الأمة المقهورة .

واذا عقدنا مقارنة بما نجده فى العلوم الطبيعية ، لوجدنا أن القوة هنا مثلها مثل الطاقة هناك ، اذ يجب النظر اليها على اساس امكانية التحول من صورة الى اخرى . ولا شك أن اى محاولة لعزل أى شكل من اشكال القوة عن بقية صورها الأخرى ، انما يعتبر فى الواقع خطأ كبيرا له آثاره العملية الضارة » . (٣٩)

واذا اردنا وصف القوة على أساس الاخلاقيات ، لوجدنا أن القوة التى تســـــتخدم فى تأييد الحق ، انما تعتبر ـ بداهة ـ قوة حق ، بينما تعرف القوة التى تسند الباطل ، بأنها قوة باطل .

من أجل ذلك كان تحديد جوانب الحق والباطل فى كل قضية ، يعتبر بحق الزم اللزوميات .

بعد ذلك يأتى شكل استخدام القوم ـ بصرف النظرعن اعتبارها قوةحق أو قوة باطل ـ فنجد ان القوة قد تستخدم على صور وحشـــــية عمياء ، لا تعرف قيودا أو اخلاقيات ، فهى بذلك قوة غشـــــــوم ، اما اذا احيط استخدام القوة بضوابط من العرف والتقاليد الكريمة التى تعترف بحقوق الانسان ، بل تعتبر احاسيس الحيوان كذلك ، فانها ولاشك قوة واعية .

---

(٣٩) المرجع ٤ ـ ص ١٠ ، ٢٧ ، ٥٧ Bertrand Russel : POWER

لنا بعد ذلك ان نتحدث عن : قوة حق او قوة باطل ، وعن القـــوة الواعية او القوة الغشوم .

***

القوة عند الهكسوس :

غزت قبائل الهكسوس مصر فى حوالى عام ١٧٠٠ ق . م ويصـــفه الكاهن المصرى مانيتو هذا الغزو فيقول :

« لقد زحف على ارضنا من الناحية الشرقية رجال من أصول منحطة لم نكن نتوقع قدومهم ، ومع ذلك كان النصر حليفهم فاحتلوا البلاد باعدادهم الهائلة وأحرقوا المدن بوحشية ، وعاملوا المواطنين معاملة الأعداء فذبحوا بعضا منهم ، بينما اخذوا زوجات الآخرين واطفالهم خدما وعبيدا » .

* * *

القوة عند الاسرائيليين :

لقد عرضنا فى فصل « التاريخ الاسرائيلى بفلسطين » مشـــاهد من استخدام القوة عند الاسرائيليين ، ونشير الآن اليها بايجاز .

فلقد حدث على عهد موسى ، وبناء على تعليماته ان خرج الاسرائيليون لقتال المديانيين فسبوا ، « نساءهم واطفالهم ، ونهبوا جميع بهائمهم وكل املاكهم ، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار » .

لكن موسى لم يكتف بذلك الذى حدث لشعب المديانيين — أصهاره — فقد خشى أن تبقى منهم أنفس حية ، لذلك سخط على رؤساء جيشـــه واعطاهم أوامر صارمة هذا نصها :

« اقتلوا كل ذكر من الأطفال ، وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها » .

وقد كان أن أفنى الاسرائيليون المديانيين أو كادوا .

*

وتحت قيادة يشـــوع — خليفة موسى — بلغ الاسرائيليون بأعمالهم من العنف والشراسة حدا بعيدا ، فكانوا اذا استولوا على قرية أو مدينة « حرموا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير — بحد السيف ، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها » .

بعد ذلك يعذب يشوع اسراه وخاصة ملوك المدن التى يستولى عليها ،

فيعلقهم على الصليب حتى الموت .

*

كذلك كان سلوك داود ، الذى عرف بين شعبه باسم « رجل الدماء » فقد كانت القسوة والعنف هى الطابع الذى عرف به ذلك العهد ، وكان الويل لأعدائه الذين يتمكن منهم ، أحياء أو أموات .

فبالنسبة للاسرى من اعدائه الأحياء ، كان يضجعهم على الأرض صفوفا ، ثم يقيس منهم « بحبلين للقتل وبحبل للاستحياء » .

وكان اذا اقتحم مدينة « أخرج الشعب الذى فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد ، وفؤوس حديد ، وأمرهم فى اتون الآجر (للحرق) . »

واما اعداؤه الأموات ، فقد كان يمثل بهم اشنع تمثيل . ومن امثلة ذلك ما فعله بالفلسطينيين الذين قتلهم ، اذ قام بتقطيع أعضاء ذكورتهم ، واتى بمائتين منها لسيده شاول ، مهرا لابنته ميكال التى أراد الزواج بها — علما بأن ما طلبه شاول كان مائة عضو فقط .

*

واذا تركنا التاريخ الاسرائيلى الغابر وصبغته الدموية القاتمة ، ثم انتقلنا الى اسرائيلى القرن العشرين ، لوجدناهم غرقى حتى الآذان فى مستنقعات من الأرهاب والتوحش والدموية .

ان الارهاب الاسرائيلى المعاصر ليس شيئا عارضا على أساليب عمل الاسرائيليين ، ولكنه فى حقيقة الأمر — كما سبق أن ذكرنا — يعتبر عقيدة اسرائيلية ، تمتد جذورها عبر القرون الى الواقع الدموى القديم ، وان كانت تغلف نفسها بفلسفة متجددة بين الحين والحين .

ولهذا نجد الارهابى الاسرائيلى المعاصر مناحم بيجين قد نسج له فلسفة دموية استعار لها صورة رياضية من صور فلسفة ديكارت .

فاذا كان ديكارت قد سبق أن قال : أنا أفكر ، فأنا اذن أكون — فان هذا الارهابى يقول : نحن نحارب ، فنحن اذن نكون .

ويشرح بيجن فلسفته فى كتابه « الثورة » فيقول : « عندما قال ديكارت : أنا أفكر فأنا اذن أكون فهو قد قال فكرة عميقة جدا . غير أن هناك

احيانا فى تاريخ الشعوب لا يكفى التفكير وحده لاثبات وجودها ، فقد يفكر شعب ثم يتحول أبناؤه بأفكارهم وبالرغم منهم الى قطيع من العبيد .. هنالك أحيانا يصرخ كل ما فيك قائلا : ان عـــزتك ككائن حى رهن بمقاومتـــك الشر .

نحن نحارب ، فنحن اذن نكون » . (٤٠)

وتحت راية هذه المبادىء الآثمة ، حاربت العصابات الاسرائيلية لتقيم دولة اسرائيل ، ثم حارب الجيش الاسرائيلى ــ الذى امتص هذه العصابات بمبادئها وأفرادها ــ ليحمى دولة الارهاب ، بل ليمكن لها من ان تتوســع وتزداد .

وليت مبدأ « الحرب لاثبات الوجود » قد اســـتخدم ضد القوات والجيوش النظامية التى تأخذ الحرب حرفة وفق نظم ومعايير متفق عليها ، لكنه ــ ويا للنذالة والوحشية ــ قد طبق على المدنيين العزل المســالمين ، فتحولت الحرب بذلك الى ارهاب وسعار حيوانى ولعق دم . ان ســجل الارهاب الاسرائيلى بعرب فلسطين ليمتلىء بالكثير من المذابح الدموية التى تقشعر من وصف هولها الأبدان . وفيما يلى عرض موجز جدا لبعض ماعرف العالم أنباءه من تلك المذابح الاسرائيلية .



مذبحة دير ياسين :

وقعت تلك المذبحة يوم ٩ ابريل ١٩٤٨ حين قامت عصابة الأرجــون ــ التى يتزعمها مناحم بيجن ــ تشاركها وحدة من عصابة شتيرن ، وبعلم الهاجناه ، بمباغتة سكان قرية دير ياسين الآمنين ، فأعملت فيهم الذبح والتقتيل ، ثم التمثيل بجثث الضحايا من الموتى والأحياء على السواء .

فقد جمع من النساء خمســـة وعشرين امرأة ذوات حمل ، بقرت بطونهن بالخناجر وأسلحة البنادق وهن على قيد الحياة .

وذبح اثنان وخمسون طفلا فى أحضان امهاتهم ، وقطعت اجسادهم ، ثم اجهز بعد ذلك على الأمهات المفجوعات ...

---

(٤٠) الجذور الإرهابية لحزب حيروت الاسرائيلى ــ بسام ابو غزالة ــ دراسات فلسطينية ــ ص ٣٤ .

وفقدت القرية الشيوخ والشباب والصـــبيان ، ولذلك بلغت جملة الضحايا ٣٠٠ قتيل .

ولم يكتف الارهابيون بذلك ، بل انهم جمعوا من بقى من النساء والبنات العربيات وجردوهن من ملابسهن ، ثم قاموا بوضعهن فى عربات مكشوفة ، طافت بهن شـــوارع القدس ، باعتبارهن ســـبايا تلك الحملة الارهابية المظفرة . . .

ولقد روع العالم بأنباء تلك الجرائم النكراء ، فلم تكن فى نية القيادات الاسرائيلية أن تتكتمها ، اذ كان الهدف الرئيسى منها هو اشاعة الرعب فى نفوس المواطنين العرب حتى يضطروا الى الفرار بعيدا خارج فلسطين .

ولم تفعل القوات الانجليزية — المسئولة عن النظام آنذاك — شـــيئا سوى ارسال كونستابل يهودى ليحقق فى ذلك الحادث !

ولقد كان تحقيقا مزيفا — ولاشك — لم تستطع أن تقوم عوجه شهادة مندوب الصليب الأحمر الدولى ، الذى عثر على بئر القرية وقد القيت فيه اكثر من مائة جثة ، كما عثر على كومة من بقايا الضحايا وقد انبعثت منها أنات طفلة لم تزل بعد من الأحياء ، فنقلها بنفسه الى المستشفى .

*

مذبحة قبية :

قام الجيش الاسرائيلى بتلك المجزرة فى ليل ١٤ — ١٥ اكتوبر ١٩٥٣ ويصف تقرير رئيس هيئة الرقابة الدولية الى مجلس الأمن بتـــاريخ ٢٧ اكتوبر ١٩٥٣ تلك الغارة فيقول :

«انتقل القائم بأعمال رئيس اللجنة (لجنة الهدنة) الى قبية فى صباح اليوم نفسه ، وحين وصل الى القرية وجد بين ثلاثين أو أربعين بيتا قد نسفت تماما ومن بين هذه المبانى مبنى المدرسة ومحطة المياه ومركز البوليس ومكتب التليفون .

دلت الجثث التى وجدت بجوار أبواب المبانى وقد مزقها الرصاص ، فضلا عن الرصاص العديد الذى أصاب الأبواب نفسها ، دل على أن السكان ارغموا على البقاء بداخل بيوتهم حتى نسفت عليهم ..

وقبل أن يغادر القائم بأعمال رئيس اللجنة قبية كان قد تم استخراج ٢٧ جثة من بين الأنقـــاض وكان أهل القرية لايزالون يحفرون بحثا عن غيرها ..

عقد اجتماع عاجل للجنة الهدنة المشتركة بعد ظهر يوم ١٥ اكتوبر وقد وافق المجتمعون باغلبية الاصوات على القرار التالى الذى صوت الوفد الاسرائيلى ضده :

عبور قوة قريبة من نصف كتيبة كاملة العتاد من الجيش الاسرائيلى العامل خط الهدنة الى قرية قبية فى ليل ١٤ — ١٥ اكتوبر سنة ١٩٥٣ لتهاجم السكان باطلاق النار من الأسلحة الأوتوماتيكية والقاء القنابل اليدوية واستخدام طوربيد البنجالور ومتفجرات ت . ن . ت نسف بسببها ٤١ منزلا ومبنى مدرسة نسفا تاما نتج عنه مصرع ٤٢ شخصا بينهم رجال ونساء وأطفال ، واصابة ١٥ شخصا بجراح .. ان هذا كله خرق للمادة الثالثة الفقرة الثانية من اتفاق الهدنة العام » .

ويصف مراقب عسكرى أمريكى عاين ذلك الحادث ، فيقول :

« يصعب على الانسان أن يصف مدى التخريب المتعمد الذى اقترفته القوة الاسرائيلية وكان أبشع المناظر التى علقت فى ذهنى هو منظر تلك المرأة العربية التى جلست على قمة تل من الانقاض تبرز من اماكن متعددة منه الأرجل والأيدى البشرية ، وقد تحجرت عيناها فى نظرة جامدة خلت من أى تعبير انسانى أو شعور . فقد كانت تجلس على قمة الصخور المحطمة التى تضم جثث أولادها الستة بينما تمددت أمامها على جانب الطريق جثة زوجها التى مزقها رصاص اليهود .

وعندما أدرنا وجوهنا عن هذاالمنظر البشع وقعت أعيننا على رجل يهيم على وجهه وقداحتضن بين يدية جثة ابنته الممزقة . وطفق الرجل يناشدنا أن نمنحه الاذن بموارتها التراب ، وبدأ كأنه لايدرى بما أصاب وجهه من جراح عميقة دامية .

وجدنا القصة نفسها مكررة مرة بعد مرة ، تقصها آثار العدوان . فقد كانت الثقوب التى صنعتها الطلقات فى الأبواب والجثث المطروحة على وجوهها ، توضح بجلاء ان اليهود اطلقوا النار على ابواب المنازل لمنع سكانها من الخروج حتى يتم لهم نسف المنازل بأكملها على الذين بداخلها .

وقد أدينت اسرائيل فى هذا الحادث الاجرامى ، وغدت المرة عاجزة تماما عن أن تغطى أنباء المذبحة الفظيعة بوسائل الدعاية المعروفة . فقد فغر العالم فاه دهشة واشمئزازا من من هذا العمل الوحشى » . (٤١)

***

---

(٤١) الهدنة الدامية — ص ٦٥

ان سجلات الأمم المتحدة لتمتلىء بالجرائم البشعة التى اثمرها الوجود الاسرائيلى بفلسطين وهى جرائم تفوق الحصر ، ومن بينها ذلك الهجوم الغادر الذى شنته القوات الاسرائيلية على معسكر اللاجئين الفلسطينيين بغزة ليلة ٢٨ اغسطس ١٩٥٣ . وفى هذا يقول تقرير رئيس هيئة الرقابة الدولية ، المشار اليه آنفا ما يلى :

« من احدث واخطر هذه الحوادث فى قطاع غزة ، ذلك الهجوم الذى وقع على عدد من المنازل والاكواخ فى معسكر اللاجئين العرب فى البريج ليلة ٢٨ اغسطس . ويقع ذلك المعسكر الذى نظمته هيئة اغاثة اللاجئين وتولت الاشراف عليه ، على بعد نحو كيلو مترين الى الغرب من خط الهدنة . وفى تلك الغارة القيت القنابل من خلال النوافذ على اللاجئين النائمين فى اكواخهم ، فلما فروا هاربين هوجموا بالأسلحة الصغيرة والأتوماتيكية .

وقد قتل فى تلك الليلة عشرون عربيا ، واصيب سبعة وعشرون بجراح خطيرة وخمسة وثلاثون بجراح اقل خطرا .

وعقدت لجنة الهدنة المشتركة اجتماعا عاجلا اصدرت فيه باغلبية الأصوات قرارا نصت فيه على ان الهجوم وقع من جماعة اسرائيلية مسلحة » .



تلك بعض نتائج القوة عندما تكون فى يد الاسرائيليين .

فهى اما ان تكون قوة شيطانية تجلب العذاب والآلام لغيرهم ، أو تكون قوة شمشونية تجلب الخراب لهم وللعالمين .

وفى هذا وذاك فهى قوة غشوم ، والويل للبشرية حين تكون القوة فى يد الاسرائيليين .

***

القوة عند العرب :

سوف نكتفى هنا بعرض نماذج مختصرة للتعليمات والأوامر التى كانت تصدر لقادة الجيوش العربية وجنودها ، والتى تقيد استخدام القوة ضد الاعداء ، وتطلب مراعاة الجوانب الانسانية فى معاملتهم ، بل ومراعاة الاخلاقيات عموما حتى فى معاملة الحيوان والنبات .

قال ابو بكر فى وصيته لأحد الجيوش : « ايها الناس قفوا أوصـــكم بعشر فاحفظوها عنى :

لاتخونوا ، ولا تغلوا ، ولاتغدروا ، ولا تمثلوا ،ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولاتعقروا نخلا ولاتحرقوه ، ولاتقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكله .

وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصـــوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .

وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها الوان من الطعام فاذا اكلتم منها شيئا بعد شئ فاذكرو اسم الله عليها » .

*

وكان عمر يقول عند عقد الألوية : « بسم الله وبالله وعلى عون الله . امضوا بتأييد الله وما النصر الا من عند الله ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين .

ولا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور، ولاتقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان وعنـد شن الغارات » .

*

وكتب عمر الى قائد أحد الجيوش — وهو ســـعد بن ابى وقاص — يقول له :

« أما بعد فانى آمرك ومن معك من الاجناد بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله أفضل العدة على العدو ، واقوى المكيدة فى الحرب . آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ..

اعلموا ان عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ماتفعلون ، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله .

ونح منازل (جندك) عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك الا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحدا من اهلها شيئا فان لهم حرمة وذمة » . (٤٢)

***

(٤٢) العقد الفريد — لابن عبد ربه — المرجع رقم ١٢ — ص ٤٨ — ٥٠ . انظر كذلك : تاريخ الطبرى — طبعة بيروت ١٩٦٥ — القسم الأول — الجزء الرابع — ص ١٨٥٠ .

القوة عند التتار :

فى أوائل القرن الثالث عشر الميـــلادى تدفقت جحافل التتار بقيادة جنكيزخان متجهة نحو الغرب « فا ستولوا على بخارى وسمرقند وفتكوا بأهلها شرفتك ، وقد فعلوا بالأهلين أفاعيل فظيعة من حرق مدنهم وبقر بطونهم ، وهتك اعراض نسائهم والتمثيل باطفالهم وشيوخهم ، ثم انساحوا الى ايران فتملكوها بعد ان خربوا العواصم والمدن الكبرى ، وكثير من مدن اقليمى اذ ربيجان وخراسان » .

وتكفل هولاكو وجنوده بعد ذلك بأمر العراق فأذا قوه ما أذا قوا ايران من صنوف القسوة والوحشية ، وانطلقوا فى شـــوارع بغداد يعمدون الى « الفتك وقتل الناس وسلب اموالهم وهدم بيوتهم ، ولم يســـلم احد من الناس الا من كان مختبئا فى الآبار والقنوات والسراديب .

ثم ترك هولاكو بغداد لفساد هوائها من كثرة الجيف ، وانتشار الأوبئة والأمراض وطلب الى بعض رجالة ان يتولوا الاشراف على الخليفة ويسيئوا معاملته هو وأهل بيته ، ثم يقتلوهم جميعا .

وهكذا فعلوا : قتل الخليفة وأولاده الثلاثة ثم فى اليوم التالى قتـــل جميع الأمراء العباسيين والعلويين حتى لم تبق منهم باقية » . (٤٣)

***

القوة عند الفاشست :

يضرب برتراند رســـل بالنظـــام الفاشى فى أيطاليا ــ تحت زعامة موسولينى ــ المثل السىء فى استخدام القوة ، ويعتبر نظرته اليها نموذجا لمـا يعرف باسم « جنـــون القوة » ــ ذلك الجنون الذى يدفع من بيده سلطانها الى استخدامها فى تحقيق اطماعه بأساليب وحشية غاشمة ، مجردة من كل صور الاعتبارات الأخلاقية .

فلقد طار موسولينى يوما . فوق احدى مناطق القتال بين قواته ــ التى غزت الحبشة عام ١٩٣٦ ــ وبين القوات الحبشية التى كانت تقاتل دفاعا عن أرضها ، وكم كان سعيدا وهو يرى قواته وآلياته الحديثة وهى

---

(٤٣) تاريخ الأمة العربية ــ محمد اسعد طلس ــ عصر الانحدار ــ المرجع رقم ٤ ــ ص ٩ ــ ١٣

تحيل مواقع الأحباش البدائيه بما تحوى من انســـان وحيوان الى جحيم مستمر ، لذلك كتب موسوليني يصف هذا المنظر فيقول :

« كان علينا ان نشعل النيران فى الأشجار والحقول والقرى الصغيرة ... لقد كان هذا المنظر من أكثر المناظر اثارة وتسلية ... ان القنابل لم تكد تلمس الأرض حتى تكون قد انفجرت وتحولت الى دخان ابيض والى كمية كبيرة من اللهب ، وعندئذ يبدأ الحشيش الأخضر فى الاحتراق .

لقد فكرت فى الحيـــوانات : يا الهى ، ... كيف كانت تهرول مذعورة ...

وكانت هناك حظيرة كبيرة محاطة بالأشجار الطويلة ولم يـــكن من السهل ضربها وكان علينا ان نحكم الرماية مستهدفين سقفها المصنوع من القش ولم ننجح الا فى المحاولة الثالثة .

وعندما رأى الحقراء الذين كانوا بداخلها سقف الحظيرة وهو يحترق اندفعوا الى الخارج يجرون كالمجانين. لقد أحاطت النيران المشتعلة على هيئة دائرة بحوالى خمسة آلاف من الأحباش ، فأحالتهم الى بقايا متحجرة . ان ما حدث كان يمثل الجحيم » . (٤٤)

***

القوة عند النازى :

كانت القوة عند النظــام النازى فى المـانيا بزعامة هتلر هى كل شيء بالنسبة اليه ، فقد كانت الهه الذى يعبد ، تيها بعظمته واعجابا بشـــدة بطشه ، ذلك الأعجاب الذى اصاب النظام النازى وزعيمه بجنون القوة .

وعندما قرر هتلر بدء الحرب ، والهجوم على بولندا عام ١٩٣٩ ، قال فى احد اجتماعاته مع كبار ضباطه يوم ٢٢ أغسطس من ذلك العام :

« ان النصر لن يسأل بعد ذلك عما اذا كان فى جانب الحق او فى جانب الباطل . عندما تشن الحرب لايهم أين الحق ، لكن النصر هو المهم .

نحوا قلوبكم عن الشفقة . تصرفوا بشراسة ووحشية . ان شـعبنا يجب ان يؤمن وجوده . ان الرجل الأقوى هو الأحق دائما . عليكم بالبطش الشديد » . (٤٥)



---

(٤٤) المرجع ٢٤ ـ ص ٢١

(٤٥) المرجع رقم ٢٥ ـ ص ٥٢٧ Alan Bullock : HLTLER

ولقد تمكنت القوات الهتلرية من تحطيم بولندا فعلا ، وبدأت الحرب العالمية الثانية ، واندفعت جيوش النازى تجتاح أوربا ، وكأنها أسد الغابه وسيدها دون منازع الذى كان وجبته للغداء دولة ، ووجبته للعشاء دولة أخرى .

ثم جاء دور فرنسا : « ففى صباح ٥ يونيو ١٩٤٠ جدد الجيش الألمانى الهجوم متجها نحو الجنوب عبر السوم . وكان الموقف غاية فى السؤ اذ فقد الفرنسيون ما يقرب من ٣٠ فرقة فى القتال فى بلجيكا ، ولم يبق للبريطانيين هناك سوى فرقتين من بين ١٤ فرقة . وكان على القائد الفرنسى الجنرال ويجان أن يواجه بقواته المستنزفة ـ القوات الألمانية المنتصرة والتى كانت متفوقة فى العدد والعدة ، وتتمتع بغطاء جوى قوى ، وتتقدمها تشكيلات من قوات البانزر المدرعة امام دفاعات الفرنسيين المنهارة .

وفى ١١ يوما انتهت المعركة ، فقد احتلت باريس فى ١٤ يونية ، وكانت فرق البانزر تتسابق لاحتلال وادى الرون . وفى مساء ١٦ يونيو استقال المسيو رينو ، وفى نفس الليلة شكل المارشال بيتان حكومة فرنسية جديدة كان هدفها الوحيد اجراءمفاوضات لعقد هدنة » .

❋

ثم استدار هتلر نحو روسيا ، فكشر عن انيابه ، وبدأ الهجوم عليها فى يونيو ١٩٤١ وقد استطاعت قواته أن تحقق انتصارات مذهلة ، الأمر جعل خمرة النصر تلعب برأسه ، فتحولت أحلامه فى السيطرة والتوسع الى عقائد هتلرية تملكت منه تماما ، وجعلته أسيرا لها لا يستطيع الفكاك من قبضتها .

لذلك قال هتلر فى الأيام الأولى لتلك الانتصارات ـ فى شهر اغسطس ١٩٤١ :

« ان ما تمثله الهند لانجلترا سوف تمثله الأراضى الروسية لنا ...

وددت لو انى استطعت أن أجعل الشعب الألمانى يفهم ماذا يعنى هذا المجال لمستقبلنا . يجب علينا الا نسمح بعد ذلك للالمان بالهجرة الى امريكا ، بل العكس ، اذ يجب علينا أن نجذب النرويجيين والسويديين والدنمركيين والهولنديين للعيش فى أراضينا الشرقية ولسوف يصبحون اذن اعضاء فى الرايخ الألمانى .

ان المستعمر الألماني يجب ان يعيش فى مزرعة جميلة واسعة ، كما يعيش الحكام الألمان فى قصور .

ولسوف ننشىء مدنا كثيرة ، تقيم حولها حزاما من القرى الجميلة بعمق من ٣٠ الى ٤٠ كيلومتر تربطها طرق سهلة معبدة .

وما يتبقى وراء مجتمعنا هذا فسـوف يكون عالما آخر نترك فيه الروس يعيشون وشأنهم ويكفينا فقط أن نحكمهم » . (٤٦)

❋

وتوالت انتصارات هتلر ، وتعمقت بذلك أحلامه ومطامعه ، فقال فى مساء ١٧ اكتوبر ١٩٤١ ما يلى :

اننا سوف نعمر هذه الصحراء الروسية ، ولسوف نغير ملامحها من اقليم أسيوى الى بلد اوربى .

ولتحقيق ذلك بدأنا بانشـاء الطرق التى تصل بنا الى القوقاز فى أقصى الجنوب ، وحول هذه الطرق ستمتد المدن الألمانية ، والتى من حولها سوف تنتشر مستعمراتنا .

وفيما يتعلق بالمليونين او الثلاثة ملايين عامل الذين نحتاجهم لهذه الأعمال فلسوف نجدهم باسرع مما نتصور ، اذ سنجلبهم من المانيا واسكندنافيا والأقاليم الغربية وأمريكا .

قد لا ابقى حيا لأرى كل هذا وقد تحقق ، لكن فى بحر عشرين سنة سوف تصبح أوكرانيا وطنا لعشرين مليـونا من السكان الجدد ، بخلاف أن أمامنا واجبا رئيسيا وهو : أن نجعل هذا البلد المـانيا بتهجير الألمان ، ثم النظر بعد ذلك الى مواطنيه على انهم هنود حمر » .

❋

وفى ٢٧ أكتوبر ١٩٤١ تحدث هتلر عن السلام ـــ سلام المتمدين الذى يطمع فيه كل معتد وظالم حتى يجنى ثمار عدوانه ـــ فقال :

« ان احد لن يستطيع ان ينتزع الشرق من ايدينا . . . ولسوف نمد أوربا كلها بالقمح ، كما نمدها بالفحم والصلب والخشب .

---

(٤٦) المرجع ٢٥ ـــ ص ٥٨٧ ، ٦٥٦

ولاستغلال اوكرانيا — هذه الامبراطورية الهندية — على الوجه الأكمل، فاننا لن نحتاج الا الى السلام فى الغرب ..

وعندما نكون سادة لأوربا فسيكون لنا مركز الثقل فى العالم . ان ١٣٠ مليون فى الرايخ ، و٩٠ مليونا فى اوكرانيا ، بالاضافة الى مواطنى الدول الاخرى فى أوربا الجديدة ، فسوف يبلغون ٤٠٠ مليون نسمة ، وهو الشىء الذى لا يمكن مقارنته بأولئك الأمريكيين الذين لا يتعدون ١٣٠ مليون نسمة » . (٤٧)

* * *

بعد هذا الذى رأيناه — لا نتصور أحدا يشك فى أن القوة فى يد الاسرائيليين عبر القرون كانت دائما هى القوة الغشوم . واذا صح لنا أن نغمض أعيننا عن استخدام موسى وداود وسليمان للقوة — باعتبارهم من أهل الوحى — ونترك الحكم فى هذا الأمر لله فان السمت الواضح للقوة الاسرائيلية هو تغليفها دائما بطابع الظلم .

ان القوة الاسرائيلية هى قوة ظالمة غشوم ، وصورتها فى ايديهم لاتختلف فى قليل أو كثير عن صورتها فى يد الهكسوس أو التتار او الفاشست أو النازى .

والويل للعالم حين يمتلك الاسرائيليون القوة لأنها اما ان تمكنهم من تحقيق اطماعهم الدفينة فى السيطرة والتوسع ، وتبرز استعلاءهم المكبوت على سائر خلق الله — وأما أن تذهب بهم وبالناس جميعا معهم الى جحيم .

لقد ضرب شمشون — رمز القوة المادية الاسرائيلية — المثل فى ذلك . حين تمكن منه اعداؤه ، ورأى انه قد احيط به ، وتقطعت به سبل النجاة ، فحطم شمشون البيت عليه وعلى أعدائه « وقال شمشون لتمت نفسى مع الفلسطينيين » .

تلك عقيدة اسرائيل فى القوة ..

ان على العالم أن يعى دورس التاريخ والعقائد الاسرائيلية ، حتى لايفاجأ بحرب عالمية رهيبة ، يشعلها صهاينة شعب — وصفه الله فى توراة موسى بأنه شعب «صلب الرقبه» — صمموا على حكم العالم والسيطرة عليه مهما استخدموا لذلك من احط الوسائل والأساليب .

---

(٤٧) المرجع ٢٥ — ص ٦٥٦ ، ٦٥٧

ولئن استطاعت الصهيونية أن تحكم حتى الآن من وراء ستار عن طريق : مستشارى الرؤساء ، وملوك الذهب والصحافة والدعاية ، وغيرهم ، فانما ذلك انتظارا للوقت الذى تتحقق فيه خطة « حكماء صهيون » للسيطرة على العالم كما ترسمها البروتوكلات — التى تقول : (٤٨)

« ان حقنا يكمن فى القوة وكلمة ، الحق ، فكرة مجرد قائمة على غير أساس ، فهى كلمة لا تدل على اكثر من : (أعطنى ما أريد لتمكننى من أن أبرهن لك بهذا على أنى اقوى منك) .

فى هذه الأحوال الحاضرة المضطربة لقوى المجتمع (العالمى) ستكون قوتنا أشد من أى قوة أخرى ، لأنها ستكون مستورة حتى اللحظة التى تبلغ فيها مبلغا لا تستطيع معه أن تنسفها أى خطة ماكرة . ومن خلال الفساد الحالى الذى نلجأ اليه مكرهين ستظهر فائدة حكم حازم يعيد الى بناء الحياة الطبيعية نظامه الذى حطمته التحررية . ان الغاية تبرر الوسيلة ، وعلينا ونحن نضع خططنا ، الا نلتفت الى ما هو خير واخلاقى قدر ما نلتفت الى ما هو ضرورى ومفيد .

يجب أن يكون شعارنا : كل وسائل العنف والخديعة .

ان القوة المحضة هى المنتصرة فى السياسة وبخاصة اذا كانت مقنعة بالألمعية اللازمة لرجال الدولة .

يجب ان يكون العنف هو الأساس . ان هذا الشر هو الوسيلة الوحيدة للوصول الى هدف الخير ، ولذلك يتحتم الا نتردد لحظة واحدة فى اعمال الرشوة والخديعة والخيانة ، اذا كانت تخدمنا فى تحقيق غاياتنا .

ان مبادئنا فى مثل قوة وسائلنا التى نعدها لتنفيذها ، وسوف ننتصر ونستعبد الحكومات جميعا تحت حكومتنا العليا ، لا بهذه الوسائل فحسب بل بصرامة عقائدنا أيضا ، وحسبنا أن يعرف عنا اننا صارمون فى كبح كل تمرد » — بروتوكول رقم (١)

❊

« من رحمة الله أن شعبه المختار مشتت ، وهذا التشتت — الذى يبدو ضعفا فينا أمام العالم — قد ثبت أنه كل قوتنا التى وصلت بنا الى عتبة السلطة العالمية » — بروتوكول رقم (١١) .

❊

(٤٨) الخطر اليهودى أو بروتوكولات حكماء صهيون — ترجمه عن الانجليزية محمد خليفه التونسى — دار الكتاب العربى — بيروت .

« ان الصحافة التى فى أيدى الحكومات القائمة هى القوة العظيمةالتى بها نحصل على توجيه الناس . فالصحافة تبين المطالب الحيوية للجمهور وتعلن شكاوى الشاكين وتولد الضجر أحيانا بين الغوغاء ، وان تحقيق حرية الكلام قد ولد فى الصحافة ، غير أن الحكومات لم تعرف كيف تستخدم هذه القوة بالطريقة الصحيحة ، فسقطت فى أيدينا .

ومن خلال الصحافة أحرزنا نفوذا وبقينا نحن وراء الستار ، وبفضل الصحافة كدسنا الذهب ولو أن ذلك كلفنا أنهارا من الدم ، فقد كلفنا التضحية بكثير من جنسنا ، ولكن كل تضحية من جانبنا تعادل آلافا من الأمميين أمام الله » — بروتوكول رقم (٢) .

« سنعامل الصحافة على النهج الآتى : ما الدور الذى تلعبه الصحافة فى الوقت الحاضر ؟ انها تقوم بتهييج العواطف الجياشة فى الناس ، واحيانا باثارة المجادلات الحزبية الأنانية التى ربما تكون ضرورية لمقصدنا ، وما أكثر ما تكون فارغة ظالمة زائفة ومعظم الناس لا يدركون أغراضها الدفينة أقل ادراك .

اننا سنسرجها وسنقودها بلجم حازمة ، وسيكون علينا أن نظفر بادارة شركات النشر الأخرى وسنحول انتاج النشر الغالى فى الوقت الحاضر موردا من موارد الثروة يدر الربح لحكومتنا بتقديم ضريبة دمغة باجبار الناشرين على يقدموا لنا تأمينا ، لكى نؤمن حكومتنا من كل انواع الحملات من جانب الصحافة .

لنعد الى مستقبل النشر . كل انسان يرغب فى ان يصير ناشرا أو كتبيا او طابعا سيكون مضطرا الى الحصول على شهادة ورخصة ستسحبان منه اذا وقعت منه مخالفة .

الأدب والصحافة هما أعظم قوتيين تعليميتين خطيرتين ، ولهذاالسبب ستشترى حكومتنا العدد الأكبر من الدوريات ، وبهذه الوسيلة نعطل التأثير السىء (المضاد) لكل صحيفة مستقلة ، ونظفر بسلطان كبير جدا على العقل الانسانى — بروتوكول رقم (١٢)



« حينما نمكن لأنفسنا فنكون سادة الأرض ، فلن نبيح قيام أى دين غير ديننا ولهذا السبب يجب علينا ان نحطم كل عقائد الايمان ، واذ تكون النتيجة المؤقتة لهذا هى اثمار ملحدين فلن يدخل هذا فى موضوعنا ، ولكنه

سيضرب مثلا للأجيال القادمة التى ستصغى الى تعليمنا على دين موسى الذى وكل الينا بعقيدته الصارمة ، واجب اخضاع كل الأمم تحت اقدامنا . » — بروتوكول رقم (١٤) .

*

« يوم يضع ملك اسرائيل على رأسه المقدس ، التاج الذى أهدته له كل اوربا ، سيصير بطريرك لكل العالم » . — بروتوكول رقم (١٥) .

« ما الفرق بالنسبة للعالم بين أن يصير سيده هو رأس الكنيسة الكاثوليكية ، وان يكون طاغية من دم صهيون ؟ .

ولكن لايمكن ان يكون الأمران سواء بالنسبة الينا نحن ، الشعب المختار ، قد يتمكن الأمميون فترة من أن يسوسونا ، ولكنا مع ذلك لسنا فى حاجة الى الخوف من اى خطر مادمنا فى أمان بفضل البذور العميقة لكراهيتهم بعضهم بعضا ، وهى كراهية متأصلة لا يمكن انتزاعها .

اننا نقرأ فى شريعة الانبياء اننا مختارون من الله لنحكم الأرض ، وقد منحنا الله العبقرية لكى نكون قادرين على القيام بهذا العمل — بروتوكول رقم (٥) .

*

« سنغير الجامعات ونغير انشاءها حسب خططنا الخاصة ، وسيكون رؤساء الجامعات وأساتذتها معدين اعدادا خاصا ، وسيلته برنامج عمل سرى متقن سيهذبون ويشكلون بحسبه ولن يستطيعوا الانحراف عنه بغير عقاب وسيرشحون بعناية بالغة » . بروتوكول رقم (١٦)

*

« صار فى الامكان قيام عصر جمهورى ، وعندئذ لن نكون حائرين فى أن ننفذ بجسارة خططنا التى سيكون « دميتنا » مسئولا عنها ولكى نصل الى هذه النتائج ، سندبر انتخاب أمثال هؤلاء الرؤساء ممن تكون صحائفهم السابقة مسودة . ان رئيسا من هذا النوع سيكون منفذا وافيا لأغراضنا لانه سيخشى التشهير وسيبقى خاضعا لسلطان الخوف الذى يتملك دائما الرجل الذى وصل الى السلطة والذى يتلهف على أن يستبقى امتيازاته وأمجاده المرتبطة بمركزه الرفيع » — بروتوكول رقم (١٠) .

* * *

وبعد : هل يشك احد فى أن قوى الصهيونية تسعى للسيطرة على العالم وفق مخطط مدروس يتفق جملة وتفصيلا مع هذه البروتوكولات.

ان كان أحد فى شك من ذلك، فليعلم أن ملوك الذهب والمال والصحافة والدعاية والسينما والنشر ... الخ كلها فى قبضة النفوذ الصهيونى .

وان قوى صهيونية تتحكم تماما فى الكثير من نتائج الانتخابات التى تحدث فى الكثير من دول العالم — كبيرها وصغيرها — لاختيار الرؤساء واعضاء البرلمانات .

وان قوى الصهيونية استولت على الكثير من كراسى مواد العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والانسانية فى أغلب الجامعات وخاصة فى الغرب — حتى تضمن بذلك توجيه دفة الأمور فى كافة المجالات لصالحها .

ان كان احد فى شك مما تحويه هذه البروتوكولات — التى عرفت فى مطلع هذا القرن والتى ماتكاد تظهر بأى لغة حتى تنفد سريعا وتختفى كى لايشيع خطرها بين الناس — فما عليه الا أن يقرأ فى أسفار العهد القديم المزمور ١٤٩ الذى يقول :

« ليبتهج بنو صهيون بملكهم — ليسبحوا اسمه برقص .. لأن الرب راض عن شعبه . يجمل الودعاء بالخلاص ..

تنويهات الله فى افواههم وسيف ذو حدين فى يدهم . ليصنعوا نقمة فى الأمم وتاديبات فى الشعوب . لأسر ملوكهم بقيود وشرفائهم بكبول من حديد .

ليجروا بهم الحكم المكتوب .»

اليس هذا ما تقوله البروتوكولات وهو أن يتحكم بنو صهيون فى العالم فيستعبدون ملوكه ورؤساءه ، وبالتالى يتملكون كل أمم الأرض ، التى تتجرع على أيديهم كؤوس العذاب ، وتتذوق ويلات الانتقام — لا لشىء الا لأنهم غير يهود .

ولعله بسبب هذا الفكر الصهيونى المنغلق — والذى كان يجد له بين اليهود على مر العصور من يعتنقه ويتعصب له — نجد بولس وهو اليهودى العريق والذى صار فيما بعد قديس المسيحية ، يصب لعناته على اليهود

جميعا ويقرر أنهم أعداء لكل الانســانية ، وان غضب الله محيط بهم الى أبد الآبدين وذلك فى قوله المشهور :

« انكم أيها الاخوة .. تألمتم أنتم أيضا من أهل عشيرتكم تلك الآلام عينها كما هم أيضا من اليهود الذين قتلوا الرب يســوع وانبيــاءهم واضطهدونا نحن . وهم غير مرضين لله واضداد لجميع الناس . يمنعوننا عن أن نكلم الأمم لكى يخلصوا حتى يتمموا خطاياهم كل حين .

ولكن قد أدركهم الغضب الى النهاية ــ (١) تسالونيكى ٢ : ١٤ــ١٦»

* * *

الفصل السابع

إسرائيل ... والعرب ... والعالم

اسرائيل... والعرب ... والعالم

اسرائيـــل :

ورث اسرائيل وبنيه عقيدة التوحيد عن جدهم ابراهيم ، فعلموا أن هناك الها واحدا ، رب كل شيء ومليكه « واله أرواح جميع البشر » (١) وقد تعارف عليه بنو اسرائيل باسم الاله « يهوه » .

وبعد ان نزلت القبيلة الاسرائيلية بمصر واتخذت منها مقاما أمينـا لما يزيد قليلا عن قرنين من الزمان ، تغير وجه أحـــد الفراعين تجاههم ، فأذاقهم المذلة والاضطهاد ، وعندئذ صرخوا الى الله وتعلقوا باسمه ، ومن اجل ذلك خلصهم مما كانوا فيه واخرجهم من مصر بقيـــادة موسى الذى طوف بهم فى سيناء .

لقد كانت كل ميزة بنى اسرائيل الحقيقيين ـ الأولين ـ انهم عرفوا الله الواحد رب العالمين ، وسط شعوب الأرض التى غرقت آنذاك فى الكفر والوثنية . وقد مارس الاسرائيليون هذا الايمان تطبيقيا بما أحسوا بهمن تجاوب الله معهم ، وما شهدوا من تجارب ، وما رأوا من آيات وأعاجيب على يد موسى وأخيه هارون .

بل ان الله ـ تقدست أسماؤه ـ لم يترك الاسرائيليين حيارى ، قد يصلون بتفكيرهم الى تلك النتيجة الحتمية أو قد لا يصلون ، لذلك لفت نظرهم منذ تاريخهم المبكر ـ وحتى قبل أن يتلقى موسى التوراة ـ الىان كرم صنيع الله بهم ، وضمان تعامله معهم على تلك الصورة ، يقتضى منهم أن يكونوا شعبا متطهرا من كل ماينجس الروح أو الجسد ، حتى يضربوا للناس المثل فى صدق العقيدة وحسن السلوك :

« فى الشهر الثالث بعد خروج بنى اسرائيل من ارض مصر . . جاءوا الى برية سيناء . وأما موسى فصعد الى الله فناداه الرب من الجبل قائلا هكذا تقول لبيت يعقـوب وتخبر بنى اسرائيل : ان سمعتم لصـــوتى وحفظتم عهدى تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب فان لى كل الأرض وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة » (٢) .

---

(١) عدد ١٦ : ٢٢ .
(٢) خروج ١٩ : ١ـ٦ .

لقد كان ذلك هو العهد الالهى الذى عاهد عليه الله بنى اسرائيل . عهد مشروط : أن ساروا مع الله ، كانوا مملكة كهنة مقدسة من العابدين والصالحين ، ليست مملكة كممالك الأرض التى يرأسها ملك متوج ولها حدود يقف عليها حراس من الجنود — لكنها مملكة روحية لجماعة من المؤمنين .

ولكن ماذا فعل الاسرائيليون ؟

ما ان مرت أيام لاتتعدى الأربعين تغيب فيها موسى عن بنى اسرائيل حين ذهب لميقات ربه حتى كفروا بالله وصنعوا لهم « عجلا مسبوكا وقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التى أصعدتك من ارض مصر .. وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب » (٣) .

لقد عبث الاسرائيليون من أول يوم — بالمقدسات ، بل بأقدس المقدسات .

ولقد كادت النقمة ان تنزل بهم لولا تضرع موسى واعتذاره عن سوء طباعهم وسقطاتهم .

فلقد قال موسى فى صلاته : « الرب اله رحيم .. غافر الاثم والمعصية ..

ان وجدت نعمة فى عينيك أيها السيد فليسر السيد فى وسطنا فانه شعب صلب الرقبة .

اغفر اثمنا وخطيتنا واتخذنا ملكا » (٤) .

واستمر موسى يصقل من طبع الاسرائيليين ويحاول تهذيبهم طيلة عشرات من السنين فما قدر ، وأصابه منهم وبسببهم الكثير من الآلام والفواجع . وكان آخر عهد موسى بالوحى الالهى تقرير يسىء وجوه الاسرائيليين ، ويعترف بفشلهم عن أن يكونوا أهلا لما أريد بهم من خير :

« انى باسم الرب انادى ... ان جميع سبله عدل .. اله أمانة لاجور فيه ..

أفسد له الذين ليسوا أولاده عيبهم . جيل أعوج ملتو .

الرب تكافئون بهذا ياشعبا غبيا غير حكيم ؟

---

(٣) خروج ٣٢ : ٤—٦ .

(٤) خروج ٣٤ : ٦—٩ .

انهم جيل متقلب ، أولاد لا أمانة فيهم .
هم أغارونى بما ليس الها . أغاظونى بأباطيلهم .
انهم أمة عديمة الرأى ولا بصيرة فيهم ..
لى النقمة والجزاء . فى وقت تزل أقدامهم . ان يوم هلاكهم قريب والمهيئات لهم مسرعة ...
أنا أنا هو وليس اله معى . انا أميت واحيى .. ليس من يدى مخلص » (٥) .

***

ومرت قرون عاش فيها الاسرائيليون قلة مقهورة بين شعوب فلسطين، فرغبت نفوسهم فى انشاء مملكة مثل بقية المماليك المجاورة ، وطلبوا ذلك من قاضيهم ونبيهم صموئيل الذى جاءه الوحى الالهى يندد بذلك الاتجاه الذى مالوا اليه ، وارادوا به استبدال مملكة الأرض — التى هى أدنى — بمملكة السماء — التى هى خير وأبقى. وجاءهم النذير بما ينتظرهم من وراء ذلك فى المستقبل :

« قال الرب لصموئيل .. هم لم يرفضوك أنت بل اياى رفضوا حتى لا املك عليهم . حسب كل اعمالهم التى عملوا من يوم أصعدتهم من مصر الى هذا اليوم وتركونى وعبدوا آلهة اخرى هكذا هم عاملون بك ايضا » .

ولقد بصرهم صموئيل عاقبة امرهم السيء ، لكنهم أصروا على اختيار الملك وانشاء المملكة وبعد ان عين لهم صموئيل ، شاول ملكا ، عادوا يعترفون بجرمهم وسقطتهم « وقال جميع الشعب لصموئيل صل عن عبيدك الى الرب الهك حتى لانموت . لأننا قد اضفنا الى جميع خطايانا شرا بطلبنا لأنفسنا ملكا » .

لقد كان التفكير الاسرائيلى خاطئا من أساسه حين رغب فى اقامة مملكة أو انشاء دولة ، لأن آيات الله التى غرقوا فى تجلياتها صباح مساء — منذ ظهر فيهم موسى ومن خلفه من النبيين — كانت تفرض عليهم التزاما بطرح كل شهوات قلوبهم جانبا ، وخاصة ان بدا ولو للحظة واحدة انها تمثل اتجاها يخالف اتجاه المشيئة الالهية .

ولقد كان واضحا ان فكرة اقامة مملكة للاسرائيليين تخالف اتجاه

---

(٥) تثنية ٣٢

المشيئة الالهية ، لذلك لما عرفوا اعترفوا بخطيئتهم وندموا بسببها حتى لا يصيبهم حدها الذى بلغ الموت .

لقد كان اتجاه المشيئة الالهية أن يكون الاسرائيليون طائفة نسك وعبادة « مملكة كهنة وامة مقدسة » تؤمن بالله وتحفظ شرائعه ـ وكفاهم فخرا ان يكونوا كذلك ، لكن نفوسهم رغبت عن هذا فترددوا فى متاهات الكفر والوثنية ، ونزلوا بعقيدتهم الدينية الى الحضيض ، فأصابهم لذلك الكثير من المآسى والآلام عبر القرون الطويلة .

يقول جوستاف لوبون فى وصف العقيدة الدينية عند الاسرائيليين :

« كان للآلهة يهوه وبعل وعشيرا طبائع وصفات خاصة بالسيارات والجو والشمس ، كما كان لجميع آلهة كلدة . وظلت عبادة الشمس والقمر والنجوم قائمة طويل زمن لدى جميع أمم سورية ولدى بنى اسرائيل على الخصوص .

وفى زمن حزقيال ، حوالى أواخر مملكة يهوذا ، كان يمكن أن يرى حتى فى هيكل أورشليم يهود كانوا يسجدون أمام الشمس مولين وجوهم شطر المشرق ، وكانت الشمس تختلط آنئذ بعبادة الحيونات ، وذلك لما كان من تصوير القوم على جدر معبد يهوه صور الزحافات والبهائم والأشياء الكريهة وجميع آلهة آل اسرائيل الفاضحة كما روى النبى ذلك .

ومع ذلك أسفر الاصلاح اليهوى العظيم الذى قام به يوشيا قبل ذلك بقليل سنوات عن تطهير الهيكل من الأصنام التى كان حافلا بها . فقد أمر ذلك الملك الكهنة كما جاء فى سفر الملوك : (أن يخرجوا من هيكل الرب جميع الأدوات المصنوعة للبعل والعشتاورت ولجميع جنود السماء فأحرقها ، وازال الخيل التى اقامها ملوك يهوذا للشمس من عند مدخل بيت الرب وأحرق مراكب الشمس) .

ولكن شعب اسرائيل كان قد بلغ من الغرق فى الاشراك ما كان يتعذر معه على عزيمة ملك أو خطب نبى تخليصه منه .

وكان اله النار مولك الهائل الذى هو من الأصنام المفضلة يمثل بتماثين نحاسية فيوضع صغار الأولاد على ذرعانها المحماة . وكان التقى يوشيا يحارب تلك الخرافة الظالمة فنجس توفت التى فى وادى بنى هنوم لكى لا يجيز أحد ابنه فى النار لمولك .

وكان لعشيرا ، وهى عشتارتا الفنيقيين وعشتار بابل ، أو ميليتا بابل، عظيم حظوة لدى شعب اسرائيل الشبق ، وذلك لما كان من شعائر شهوانية .

وكانت هياكل ذلك الاله تقوم على تلال ذات هواء منعش رطيب فوق سهول محرقة ذات بعوض مفسد لبقاع الدنيا . وكانت تحاط تلك الهياكل بغاب الزيتون حيث يسمع للحمائم العاشقات سجع وهديل ، وحيث كانت الفتيات اللائى يتألف من اجسامهن اللطيفة ضحايا حية معدة على الدوام لتكتوى بنيران آلهة الحب ، يقضين نهرهن فى تطريز الخيام للغياض ، ولياليهن فى قضاء أوطار المؤمنين الذين يتقاطرون الى هناك . وكان وتد صغير مغروز فى الأرض ، رمزا غليظا لعضو التذكير ، يكفى لتلقين مبدا عشيرا وتقديس الغابة .

وغدت تلك العهارات المقدسة تكتسب شكلا كريها عندما صار الخصيان ، لا النساء هم الذين يبيعون أنفسهم للمؤمنين فى ليل الغاب الكثيف .

وعلى ما كان من نعت الأنبياء لهؤلاء الخصيان بالكلاب ، وعلى ماكان من حظر نذر أجور هؤلاء الفاسقين ، لم ينفك بنو اسرائيل عن مضاجعتهم .

فمن أجل هذه المنكرات وصف الأنبياء اشعيا وارميا وحزقيال على الخصوص ، اورشليم بالمدينة العاهرة التى لا تشبع من الفجور . قال يهوه لتلك المدينة الآثمة : اتكلت على جمالك وزنيت على اسمك وسكبت فواحشك على كل مجتاز كان له ما تبتغين ، وأخذت من ثيابك فصنعت لك مشارف ملففة الشقق وزنيت فيها زنى لم يكن ولن يكون » (٦) .

*

لقد تعثرت مملكة الاسرائيليين منذ نشأتها . فهذا شاول — مسيح الله وأول ملك فى اسرائيل لم يلبث طويلا حتى تخلى عنه « روح الله » وباغته روح شرير ، وأصابه الجنون ، وقهره اعداؤه ، فقتلوه ومثلوا بجثته اسوا تمثيل .

وداود بطل المملكة — « ومسيح اله يعقوب ومرنم اسرائيل الحلو » — لطخ كتبة الأسفار حياته بالكثير من المآسى والمخازى حتى تعرض للنقمة والعقاب .

---

(٦) اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى — ص ٦٥ — ٦٨

وسليمان حكيم زمانه ، زاغ كثيرا عن طريق الله ، لدرجة أن الأسفار تدعى عليه الكفر وتنعت نهايته بالخسران ، الأمر الذى عرضه للغضب والعقاب . ففى نهاية عهده بدات المملكة تسير نحو التفتت والانحلال ايذانا بالزوال .

وما كان الاسرائيليون بأفضل من ملوكهم ، فقد غرقوا الى الآذان فى الكفر والخطيئة وعرضوا أنفسهم للغضب الالهى ، فانقض عليهم الاشوريون وابتلعوا الغالبية العظمى منهم ، وحولوا وجودهم الى طيف مر ذات يوم بذاكرة التاريخ ، ثم ما لبثت البقية الباقية أن تعرضت لشىء من ذلك على يد البابليين .

لقد كانت تلك هى النهـــاية الخاسرة لدولة الاسرائيليين التى بدأت خاطئة منذ تأسيسها ، لأنها دولة اقاموها رغم الأوامر والنذر الالهية .

***

وأخيرا جاء المسيح الذى انتظره الاسرائيليون طويلا .

وكم كانت الصدمه عنيفة حين وقف يدعوهم من أول يوم — الى التجرد عن ماديات الأرض والعيش فى سلام ومحبة وتسامح ثم يعدهم بميراث فى السماء . فقد وقف المسيح يعظ الناس من الجبل ويقول :

« طوبى للمساكين بالروح ، لأن لهم ملكوت السموات ...

طوبى لصانعى السلام لأنهم ابناء الله يدعون .

طوبى للمطرودين من أجل البر ، لأن لهم ملكوت السموات » .

ثم ما لبث المسيح أن قذف بسهم اصاب مقتلا من كثير من القلوب التى جعلت المال « الهها المطماع » وذلك حين قال :

« لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض .. بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء .. لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك ..

لا يقدر أحد أن يخدم سيدين .. لا تقدروا ان تخدموا الله والمال » .

بعد ذلك لم يبق هناك شك فى ان هذا المســـيح لا يتفق وذلك الذى الهبت صورته الفكر الاسرائيلى المادى لبضع مآت من السنين ، حين بات يحلم به ملكا متوجا ، يعيد مملكة داود ذات الحرس والحدود ، بكل عنفها وجبروتها .

من أجل ذلك رفضوه ...

ولقد استمر المسيح يحدث الاسرائيليين عن المملكة الحقيقية التى

تكلمت عنها الأسفار المقدسة ويضرب لهم الأمثال حتى يعوا مملكة الموعد أو ملكوت السموات ، لكن عمله هذا كان صرخة فى واد خرب .

« فتقدم التلاميذ وقالوا له لماذا تكلمهم بأمثال . فأجاب وقال لهم .. لأنهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون . فقد تمت فيهم نبوءة اشعياء القائلة تسمعون سمعا ولا تفهمون . ومبصرين ولا تنظرون . لأن قلب هذا الشعب قد غلظ » (٧) .

هذا — ولما يئس المسيح من الاسرائيليين ، ســــاق لهم نذيره الأخير بالخراب ونزع ملكوت الله منهم الى الأبد :

« ايها الحيات أولاد الأفاعى : كيف تهربون من دينونة جهنم ..

يا أورشليم ، يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين اليها ، كم مرة أردت ان اجمع اولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيهاولم تريدوا .

هو اذ بيتكم يترك خرابا » .

« لذلك أقول لكم ان ملــــكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمــــل أثماره » (٨) .

*

ولقد ظل الكثير من الاسرائيليين — حتى أولئك الذين آمنو بالمسيح — غارقين فى صورة المملكة الأرضية ، لم يستطيعوا التخلص منها ، لدرجة أنهم حاولوا تنصيبه ملكا على اسرائيل الا انه رفض ذلك :

« واما يسوع فاذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكا . انصرف أيضا الى الجبل وحده » (٩) .

ولقد قال المسيح بوضوح . « مملكتى ليست من هذا العالم » (١٠) .

كذلك حذر المسيح من الدجل والأباطيل التى سوف يثيرها الاسرائيليون تحت زيف « دولة اسرائيل » ، واعتبر ذلك كله تخرصات يجب مقاومتها والحذر منها .

ولقد تحدث المسيح عن أولئك المســـحاء الكذبة حاملى لواء الدعوة

---

(٧) متى ١٣ : ١٠ — ١٥
(٨) متى ٢٣ : ٣٣—٣٨ ، ٢١ : ٤٣ .
(٩) يوحنا ٦ : ١٥
(١٠) يوحنا ١٨ : ٣٦

لانشاء مملكة اسرائيل وعن الفرق بينه وبينهم ، فقال للاسرائيليين انه جاء يدعوهم باسم الله الى مملكة الحق والخير فلم يقبلوه ، لكن « ان أتى آخر باسم نفسه فذلك تقبلونه » (١١) .

ولقد ظهر فى الاسرائيليين الكثير من ادعياء الباطل ، الذين سعوا جاهدين لانشاء دولة اسرائيل ذات الجنود والحدود ، ولم يتورع الكثير من الشعب الاسرائيلى عن تلقيب أى من أولئك الدجالين باسم « المسيح مخلص اسرائيل » . ومن اشهر هؤلاء ، ذلك الذى « دعى مسيح كوكب أو باركوشبا » وهو الذى اندفع وراءه الاسرائيليون فى حربهم الأخيرة ضد الامبراطورية الرومانية (١٣٢ — ١٣٥ م) ، وكان من نتاج ذلك الخبل العقائدى المزيف أن تم تدمير الوجود الاسرائيلى فى فلسطين تدميرا كاملا .

*

ومرت قرون حتى اذا كانت نهاية القرن التاسع عشر ظهر من يعرفه الناس باسم تيودور هرتزل ، ويعرفه غلاة الصهاينة باسم « المسيح ملك صهيون ومؤسس دولة اسرائيل » .

وبين باركوشبا وهرتزل ظهر كثيرون من الكذبة والأفاكين من الساعين لانشاء دولة اسرائيل ، والذين تحدثنا عنهم المصادر الاسرائيلية فتقول :

« ان الأحلام بالمسيح التى يحلم بها اليهود وجدت لها صدى فى فلسطين ، بدأ المسحاء الكذبة — الذين كان من اشهرهم شبتاى زفى — فى قيادة اتباعهم الى الأرض المقدسة ورغم ما صاحب ذلك من مآس ومرارة الا أن ذلك لم يضعف من عزيمة أولئك الذين ربطوا كل آمالهم فى تحقيق العودة الى صهيون .

ولقد أدى تسلط هذه الفكرة الى ظهور بعض الأشخاص الذين تصوروا أن عليهم رسالة عملوا من أجلها . وحاولت شخصيات غريبة — مرت كالشهب فى السماء اليهودية — من وقت لآخر ان توجه مشيئة الله ، فأعلنوا انهم ينحدرون من العائلة المالكة — نسل داود — واعتقدوا فى انفسهم أو اعتقد فيهم اليهود أن كلا منهم كان المسيح المنتظر .

لقد كان لهم اتباعهم وتلاميذهم وضحاياهم ، ومن هؤلاء المسحاء : موسى

---

(١١) يوحنا ٥ : ٤٣

الكريتى الذى ظهر فى القرن الخامس الميلادى ، وسيرنيوس الســـورى ، وابو عيسى الأصفهانى فى القرن السابع ، وداود البغدادى فى القرن السادس عشر .

وكان اكثرهم شهرة فى العصور الحديثة : دواد راوبين ملك اورشليم غير المتوج ، وسليمان مولشو الذى طوف بفكره بين عقائد التوحيد بحثا عن الحقيقة المطلقة ، ثم شبتاى زفى الذى اشتهر وعرف بأنه المسيح ، ويعقوب فرانك وهو مسيح آخر كذاب — ولقد تحول الأول (شبتاى) الى الاسلام ، بينما تحول الأخير الى المسيحية .

لكن عدم تحقيق اى من هذه الأوهام الكاذبة لم يمنع تجديد المحاولات ، فقد كان الشــعب اليهودى فى حاجة الى الاعتقاد بأن ، الزمان قد اكتمل ، وكان من الواجب خلق توليفة تضم كل هذه الآمال والرغبات . وفوق هذا كان يجب التفكير بلغة العصر ، ومعرفة مداخل السياسة ومخارجها .

وباختصار فانه كان يلزم لتجسيد فكرة التجديد القومى لاسرائيل ان يكون هناك رأس للدولة قبل انشاء الدولة ذاتها . ولقد استطاع الشــعب اليهودى أن يلد هذا القائد فى بودابست عام ١٨٦٠ .

لقد كان يلزم أن يولد موسى جديد ..

لقد عاش هذا فى فينا وكانت له لحية ســوداء لطيفة ، وكان يدعى تيودور هرتزل .

كان هرتزل يكتسب عيشة من العمل كصحفى الا انه كان رائيا يتكهن الغيب .

ولقد كتب روايات الا انه كان نبيا .

وهناك فى بازل عام ١٨٩٧ دعا هرتزل الى عقد أول مؤتمر . ولما ظهر امام الأعضاء بلحيته الســـوداء ، وطوله الفارع ، وصورته التى تمثله على هيئة ملك سورى ، هتف بعض الأعضاء (يحيا الملك) — ملك صهيون .

ولقد كتب هرتزل فى مذكراته عن هذا اليوم يقول . اذا أردت تلخيص نتائج المؤتمر فى كلمة احتفظ بها سرية غير قابلة للنشر — فانها تكون هكذا : فى بازل أسست الدولة اليهودية » (١٢) .

---

(١٢) ... ... Devid Catarivas: ISRAEL, pp 71_87

حقيقة أسس هرتزل الدولة اليهودية لكنه أسسها من أول يوم على الكذب والخداع .

أما يكفى لاثبات الكذب على هرتزل أن نذكر قولته الشهيرة عن فلسطين بأنها « أرض بلا شعب » يجب دفع العمل الصهيونى من أجل تحويلها وطنا « لشعب بلا أرض » — ويقصد به الشعب اليهودى ؟ .

ان الكذب على الحقيقة فى هذا القول لايحتاج الى كثير من الادلة والبراهين ، ويكفى ان نذكر هنا ماكتبه الصهيونى العالمى ناحوم جولدمان فى جريدة « الاوبزيرفر THE OBSERVER اللندنية فى عددها الصادر يوم ١٢ ابريل ١٩٧٠ ، فى مقال تحت عنوان :

طريق اسرائيل الوحيد للسلام ISRAEL'S ONLY WAY TO PEACE

قال جولدمان : « عندما تأسس الوطن القومى اليهودى بفلسطين ، كان اكثر الأمور غفلة فى تاريخ الصهيونية هو اهمالها العلاقات مع العرب .

ويبدو لى ان مفكرى الحركة الصهيونية وساستها قد اكدوا دائما — برغبة واخلاص — على ضرورة تأسيس الوطن القومى اليهودى فى ظل السلام والوفاق مع العرب ، بيد أنه لسوء الحظ — ظلت هذه المعتقدات فى حيز الخيال .

حتى معادلة هرتزل الشهيرة لحل المسألة اليهودية ، والتى اعتبرها اساسا مسألة نقل « شعب بلا أرض ، الى أرض بلا شعب » — كانت هذه تمثل نظرة عمياء لحقوق العرب فى فلسطين ، وتثير الفزع والاضطراب .

ان فلسطين لم تكن ارضا بلا شعب حتى فى ايام هرتزل ، فقد كان يسكنها مآت الالوف من العرب الذين كانوا — بمضى الزمن — ان آجلا أو عاجلا سيحققون وجود دولة مستقلة اما بمفردها أو كوحدة سياسية داخل اطار اكبر يضم الدول العربية » .

*

من الحق اذن أن يقال انه لا توجد للاسرائيليين دولة تجد لها من بين نصوص الأسفار المقدسة سندا ونصيرا ، ولئن صح تواجد نص يشير من قريب أو من بعيد الى دولة اسرائيل فلابد انه نص مدسوس أو نص محرف ، عبثت بأصله أيدى الكتبة الاسرائيليين ، ولم يحفظ قداسته أولئك الذين أؤتمنوا على الكتاب .

وليس عجيبا أن تعبث الأيدى الاسرائيلية بالأسفار المقدسة — وقد

رأينا ذلك مؤيدا بالبراهين — بعد أن كفر الاسرائيليون بالاله الحى منذ تاريخهم المبكر وموسى لا يزال حيا بين ظهرانيهم رغم ما راوا من الآيات والأعاجيب .

وهل التحريف اكبر من الكفر ؟ !

ان الذين يحرفون كلمة الله انما يتلمسون فى الواقع من ورائها سندا يحقق شهوات قلوبهم ومطامعهم ، اما الكفرة فقد نسوا الله وكلماته وعموا عن الحقيقة القدسية .

لقد استمر كفر الاسرائيليين ووثنيتهم قرون عديدة ارتبطت فيها تلك الظاهرة الخبيثة بوجود الدولة الاسرائيلية طيلة عهد المملكة والملوك . والعن من ذلك كله أن تسرب الكفر والضلال الى الأنبياء والكهنة ورجال الدين من بنى اسرائيل .

ولقد سجل عليهم الكتاب فيما بقى من الحق ، ذلك الزيغ والتحريف فقال على لسان النبى ارميا :

« اذا سألك هذا الشعب أو نبى أو كاهن قائلا ما وحى الرب فقل لهم أى وحى . انى ارفضكم هو قول الرب ..

اما وحى الرب فلا تذكروه بعد .. اذ قد حرفتم كلام الاله الحى رب الجنود الهنا — ارميا ٢٣ : ٢٣ — ٢٦ » .

فاذا كانت فكرة دولة اسرائيل باطلة من اساسها — منذ النبوات وتلقى الكلمة الالهية والمسيح مخلص اسرائيل المرفوض ..

واذا كانت الدولة التى اقامها الاسرائيليون فيما مضى ، ورأسها « مسحاء الله » وكان مستشاروها من انبيائه وقديسيه — دولة ظلم وغشم ووثنية وفساد .

فكيف يكون الحال بالنسبة لدولة اسرائيل التى تقام فى القرن العشرين ، بعد أن انقضى عهد النبوات منذ زمن بعيد ؟

انها ولا شك — لن تكون خيرا من سابقتها ، رغم ما فى هذا القياس من فارق بعيد ، يطاول حده بعد الأرض عن السماء ..

ولن تكون نهايتها بأفضل من نهاية سابقتها رغم كل المحاولات التى تبذلها قوى البغى والظلم والعدوان .

باطل يا اسرائيل : دولة الأباطيل .

***

... والعرب :

منذ فجر الانسانية المبكر نزحت مجموعات من شـعوب الجزيرة العربية فى اتجاه الشمال الغربى حتى استقر بها المقام فى فلسطين ، ويذكر التاريخ المسجل وجود العرب الكنعانيين فى أرض كنعان ــ فلســطين ــ حوالى عام ٣٠٠٠ق.م ، ثم تتابع ظهور شعوب عربية أخرى منها : العمالقة والأموريين واليبوسيين والأراميين وغيرهم .

وقبل خروج الاسرائيليين من مصر كانت تلك الشعوب العربيـة قد أسست لها ممالك وأقامت مدنا وحصونا وحولت فلسطين الى جنة تفيض بالخيرات ــ أو بتعبير الكتاب المقدس ــ « أرض تفيض لبنا وعسلا » .

لكن غالبية تلك الشعوب كانت قد تردت فى عقائدها الدينيـة الى الحضيض ، فغرقت فى الوثنية ، وأقامت لها شرائع وطقوسـا منحطة ، ومارست الكثير من العادات القبيحة .

وفى القرن الثالث عشر قبل الميلاد خرج موسى بالاسرائيليين من مصر يطلب لهم مكانا فى فلسطين بين شعوبها العربية أصحاب البلاد الأصليين. وحرص موسى على أن يعلم الاسرائيليين أن المؤمن مطالب بأن يفر بدينـه الى الأرض التى يستطيع فيها أن يمارس عقيدته فى طمأنينة وسلام .ومن أجل ذلك عمل موسى على رفع معنويات قومه حتى لايرهبهم بأس الشعوب الفلسطينية فيرتدوا على أعقابهم يطلبون العيش فى رخاء مصر وبين خيراتها رغم أنها كانت « أرض ذلهم وعبوديتهم » .

وعلم موسى الاسرائيليين أن الله ناصرهم ــ كشعب يؤمن بالله ــ على تلك الشعوب الوثنية الكافرة ليس من أجل ميزة خاصة تفردت بها السلالة الاسرائيلية عن بقية خلق الله ،ولكن لسبب واحد ووحيد فقط ، وهـو فساد عقائد تلك الشعوب وسوء سلوكها ، اذا ماقورنت بعقيدة التوحيد التى عرفتها القبيلة الاسرائيلية :

قال موسى : « اسمع يااسرائيل . أنت اليوم عابر الأردن لكى تدخـل وتمتلك شعوبا أكبر وأعظم منك ومدنا عظيمة ومحصنة الى السماء .. فاعلم اليوم أن الرب الهك هو العابر امامك نارا آكلة .

هو يبيدهم ويذلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعا كما كلمك الرب .

لا تقل فى قلبك حين ينفيهم الرب الهك من أمامك قائلا . لأجل بري أدخلنى الرب لأمتلك هذه الأرض ..

ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لأجل اثم أولئك الشعوب يطردهم الرب الهك من أمامك ..

فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب الهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة » (١٣) .

***

ومن الملاحظ أنه رغم اصطباغ عقائد غالبية الشعوب الفلسطينية أيام موسى بالوثنية فقد عاش بينهم أفراد وجماعات تعرف منذ القدم الاله الحى مالك الأرض والسموات — وذلك من قبل أن يفد ابراهيم الى تلك الأرض .

وتخبرنا بذلك قصة استرجاع ابراهيم لابن أخيه لوط من سبيه فى حرب الملوك التسعة :

« فلما سمع ابرام أن ابن أخيه سبى ، جر غلمانه المتمرنين .. وانقسم عليهم ليلا .. واسترجع كل الأملاك واسترجع لوطا ..

فخرج ملك سدوم لاستقباله .. وملكى صادق ملك شاليم أخرج خبزا وخمرا وكان كاهنا لله العلى . وباركه وقال مبارك ابرام من الله العلى مالك السموات والأرض . ومبارك الله العلى الذى أسلم أعداءك فى يدك » (١٤) .

كذلك تنبئنا قصة سارة مع ملك جرار — التى سبقت الاشارة اليها — بأن ذلك الملك كان يعرف الله وأنه كان يحدثه فى الحلم وحيا ، اذ لما عنف أبيمالك ملك جرار ، ابراهيم على اخفائه الحقيقة فى أن سارة زوجته كان اعتذار ابراهيم بأنه حدث نفسه بأنه « ليس فى هذا الموضع خوف الله البتة »

---

(١٣) تثنيه ٩ : ١—٦ .

(١٤) تكوين ١٤ : ١٤—٢٠

لكن ابيمالك كان حريصا على أن يكون سلوكه هو وأفــــراد مملكته قويما يرضى الله ، لذلك قال لابراهيم « ماذا فعلت بنا وبما أخطأت اليك حتى جلبت على وعلى مملكتى خطية عظيمة . اعمالا لاتعمل عملت بى »(١٥)

لذلك يمكن القول بحق بأن فلسطين أرض مقدسة من قبل ان يطأها الاسرائيليون ، وان أورشليم مدينة مقدسة من قبل ان يكون للاسرائيليين بها سلطان ودولة ، تلك الدولة التى جلبت على مدينة الســـلام صنوفا شتى من الخراب والدمار .

***

هذا ـ وبعد أن تسلل الاسرائيليون الى فلسطين وعاشوا بين شعوبها واقاموا مملكة فى أجزاء منها فان شعبها العربى ظل مقيما فى أرضـــه ، محافظا على وجوده ، مقاوما لكل القوى الدخيلة عليه ، رغم ماتميزت به من قسوة وشراسة . ولهذا لم يصبه ما أصـــاب الاسرائيليين من سبى وضياع .

ففى عهد سليمان الذى يمثل قمة الوجود الاسرائيلى بفلســطين ، كان الشــــعب العربى مستقرا فى وطنه ، بعــد أن عجزت كل محاولات الاسرائيليين لاستئصالهم منه :

« جميع الشـــعب الباقين من الأموريين والحثيين والفـــرزيين واليبوسيين ، الذين ليسوا من بنى اسرائيل . ابنــاؤهم الذين بقوا من بعدهم فى الأرض ، الذين لم يقدر بنو اسرائيل أن يحرموهم ، جعل عليهم سليمان تسخير عبيد » . (١٦) .

ثم مرت على فلسطين قرون وأحداث كانت كلها تعمل على انحسار الأثر الاسرائيلى من فلسطين ، وكانت سنواته الحاسمة قرب عامى ٧٠ ، ١٣٥ بعد الميلاد حين دمر الرومان الوجود الاسرائيلى فى فلســـــطين تدميرا تاما ، استطاع المؤمنون أن يعتبروه عقابا الهيـــا نزل بالاسرائيليين جزاء لحربهم العدوانية ضد المسيح .

***

واذا تركنا تلك الفترة الغابرة من التــاريخ وانتقلنا الى العصـــور

---

(١٥) تكوين ٢٠ .
(١٦) الملوك الأول ٩ : ٢٠ ــ ٢١ .

الوسطى ، حين بدأ العرب يؤكدون وجودهم مرة أخرى كسادة لوطنهم الكبير — منطقة الشرق الاوسط — بعد أن خلصوه من براثن الامبراطوريات المتصارعة — الرومانية والفارسية — لوجدنا أن القوة حينما كانت فى يد العرب ، فانها قد حمت الاسرائيليين ومكنت لهم من العيش فى أمن وسعة حيثما كان يرفرف علم الدولة العربية ، وذلك بالرغم مما حدث فى الماضى حينما كانت القوة الاسرائيلية تجاه العرب لاتعنى شيئا سوى الابادة والتقتيل . ان الباحثين من الاسرائيليين وغيرهم ليعترفون بسماحة القوة العربية ووعيها ، ويعترفون بازدهار الحياة الاسرائيلية فى ظلالها مما مكن الفكر الاسرائيلى من أن ينتج فى كنفها أحسن مايمكنه الفخار به .

يقول الباحث الاسرائيلى المعاصر جويتين : « من المؤكد أن الفتوحات الاسلامية كانت تعنى بالنسبة لليهود تحسنا كبيرا فى موقفهم من عدة اعتبارات :

أولا — فقد كف اليهود عن اعتبارهم طائفة منبوذة تضطهدها السلطات الكنسية الحاكمة ، وأصبحوا جزءا من طبقة كبيرة من الرعايا ، لهم منزلة خاصة .

ثانيا — ان التشريعات التى نظمت الأوضاع القانونية لأعداد كبيرة من الطوائف كانت افضل من التشريعات البيزنطية وخاصة بالنسبة اليهود » (١٧) .

ويقول الفرد جيوم : « انا لنجد الكتاب من اليهود والمسيحيين — فى عهد الخليفة الثانى عمر — يعبرون عن رضاهم التام بالمعاملة السمحة التى لقوها من العرب ، وهم يشكرون الله على تخليص العرب اياهم من طغيان البيزنطيين » (١٨) .



ورغم كل مايجرى الآن من صراع دموى فوق الأرض العربية ، فان الفكر الصهيونى المعاصر لا يسعه الا أن يعترف بالمآثر العربية ، ويشيد بحسن الصنيع الذى قدمه العرب لليهود عبر القرون .

---

(١٧) S. D. Goitein : JEWS AND ARABS, New York, Schocken. 1955, pp 62-3. المرجع رقم (٢٦) ..

(١٨) Alfred Guillaum : ISLAM المرجع رقم ٢٧ — ص ٨٠ .

فلقد أفردت مجلة « الأزمنة الحديثة » الصادرة فى باريس فى منتصف عام ١٩٦٧ عددا خاصا عن « النزاع العربى الاسرائيلى » تضمن سلسلة من المقالات لعدد من الكتاب الصهاينة ، بينهم نسيم رجوان الذى تكلم فى موضوع « التعايش العربى اليهودى » فقال :

« ان الاتصالات بين العرب قبل نشوء الاسلام وبعده كانت فى الاجمال سعيدة ومفيدة ، وأينما تقوم امبراطورية الهلال يبدأ وضع اليهود فى التحسن ، وكان ذلك بصورة خاصة وضع فلسطين ومصر ، حيث كان الأباطرة البيزنطيون قد تدخلوا ، ليس فى حياة اليهود الاجتماعية والاقتصادية فحسب ، بل أيضا فى حياتهم المعيشية والدينية ، وفى ادارة كنيستهم . فبابل كانت دائما مركز التشتت ، حيث يتمتع اليهود بوجود متميز ، وطدته الفتوحات الاسلامية وزادت من نفوذ اليهود وتحسين أوضاعهم ...

وكانت القرون الوسطى أكثر الأزمنة أهمية وفائدة للقاء بين اليهود والعرب المسلمين .. ففى أسبانيا لاقى اليهود الذين كانوا قد أقاموا هناك منذ أجيال ، مصيرا بائسا ، حيث أظهر تجاههم بعض الملوك النصارى الكثير من القسوة والتعسف . وعندما وصل المسلمون الى أسبانيا لم يكتفوا فقط بتحرير اليهود من ظالميهم بل شجعوا عندهم — كما يقول الدكتور ايزدور ابزتاين — ثقافة تعادل فى غناها وعمقها أكثر الثقافات رونقا فى أى بلد وفى أى عصر من العصور .

ففى ذلك العصر كان القسم الأكبر من اليهود يعيشون تحت السيطرة العربية .. وثمة اجماع على الاعتراف بأن هذا اللقاء ولد أكثر الفترات ازدهارا فى كل التاريخ اليهودى ، وان أثره على اليهودية والشعب اليهودى اليوم لاجدال فيه . ففى كتابه «اليهودية والاسلام» يؤكد الدكتور أروين روزنتال — وهو مؤرخ ومستشرق فى كامبردج — بأنه ماعدا الحقبة ليس من فترة كانت أكثر خلقا وايجابية فى تاريخنا المضطرب ، من العصور التى مد فيها الاسلام امبراطوريته من البحر المتوسط الى المحيط الهندى.

فنشاطات الفاتحين العرب الثقافية والتجارية والفنية جعلت من أسبانيا أكثر بلدان أوربا تفتحا . وكتب التاريخ ، اليهودية منها وغير اليهودية ، تتكلم باحترام عن قرطبة عاصمة الخلفاء الأمويين الجدد ، التى أصبحت مركزا حضاريا بارزا .. وهذا الاشعاع لم يكن ماديا فقط . فالبلاط كا ن يستقطب الشعراء والفلاسفة ورجال الأدب والعلماء ويرعاهم

بسخاء ، وقد لبى اليهود بحرارة هذه الدعوة ، وانصرفوا من تلقاء أنفسهم متحمسين للثقافة العامة ، التىوجدوا فيها ماكانوا بحاجة اليه من الهام، ليعيدوا احياء ثقافتهم الخاصة ، فانتعشت أضواء ثقافة اليهود الشرقية فى الغرب . وعندما تفكك المركز البابلى أخيرا ، انتقلت الهيمنة للثقـــافة اليهودية الى يهود أسبانيا ، حيث استمرت مدة خمسة أجيال .

وفى كتاب « التاريخ اليهودى : نظرة فى فلســفة التاريخ » وصف سيمون دوبنوف هذه الحقبة من التاريخ اليهودى بأزهى الألوان . ففترة الأجيال الخمسة التى بدأت مع ظهور الحضارة اليهودية فى أســبانيا ، وانتهت بنفى اليهود (٩٨٠ ـ ١٤٩٢ م) وضعت حدا ، كما يقول دوبنوف ، للركود والعزلة والحوائل التى طبعت فى الماضى حيــاة اليهود الوطنيــة وعلاقاتهم الخارجية ، فلأول مرة ـ كما يضيف دبنوف ـ استطاع قسم كبير من الشعب اليهودى أن يتمتع بامكان التفكير . وشهد القرنان الحادى عشر والثانى عشر قمة التطور الفكرى لليهودية المتوسطة ..

وفى ذلك العصر ـ كما يقول دوبنوف ـ تخلى الشعب اليهودى عن وحشته وميله الى العزلة وأحاط اليهود بكل أنواع المهن . والى جــانب رجال الدولة النافذين والمثقفين مثل هاســداى بن شبروت وصــموئيل هاناجيد ، ظهر فى بلاط الخلفاء مجموعة من اللغويين اللامعين والشـعراء والفلاسفة ..

وفى هذا المناخ المؤاتى الذى لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، استطاع يهود أسبانيا العربية ، الى اليهود المقيمين وسط المسيحية ، بل العكس: الواسعة وبالأخص تحديد اليهودية وشرحها بوضوح وعمـق لم يعرفهما تاريخ شعبهم من قبل ..

وللمناسبة ، يبدو مفيدا ايضاح وضع اليهود الذين كانوا يقيمون فى الحقبة نفسها فى بلدان أوربا المسيحية .

فبينما كان اخوتهم فى أسبانيا يتمتعون كليا بالسلام والحرية ، كان هؤلاء اليهود يعيشون فوق بركان يهدد بازالتهم فى كل وقت ، وبسـبب تعرضهم الدائم للاضطهاد وكانوا يعيشون معزولين تقريبا ، منصرفين من تلقاء أنفسهم الى نشاط فكرى منغلق ولكنه كبير ، ففى هـذه الظروف ومع هذه الآفاق ، لم تصل أية نفحة من ذلك النضج الروحى الذى عرفه يهود أسبانيا ـ كيهود بابل من قبل ـ أن يدركوا ويحققوا المشــاريع فالحملات الصليبية التى بدأت عام ١٠٩٦ ، أظهرت بوضوح أية مشــاعر

يكنها جيرانهم ليهود فرنسا والمانيـــا . وكانت تلك أول ضربة تدفعهـا المسيحية للشعب اليهودى لقاء تعليمه الدين فى القديم .

وفى شمالى فرنسا والمانيا انحطت دراسة التلمود الىدرجة الادعاءات الكلامية ، وتوصلت مجموعة من الشراح الى جعل الكتب التلمودية اكثر تشويشا وأقل فهما ، وبالأخص فى الطرق الملتوية للعب بالألفاظ من غير كبير طائل .

فى هذا الجو القاتم والثقيل بدون هواء أو ضوء لايمكن لأية فلسفة عقلانية ذات حس سليم ان تنشأ . فعوضـــا عن ابن عزرا أو ابن ريمون (اللذين أثمرا فى الجو العربى) .نجد يهودا هى هاسيد واليزردو ورمس، وكتبهم فى التقوى الصوفية ،المليئة بالتعابير التقية عن العالمالآخر ،وحيث تظهر الأرض كأنها واد للدموع » (١٩) .

***

ولقد تكلم حاييم وايزمان ــ القطب الصهيونى الكبير وأول رئيس لدولة اسرائيل ــ وحث فى مناسبات كثيرة على ضرورة مراعاة المصـــالح العربية فى فلسطين ، أن لم يكن بسبب ما قدمه العرب لليهود من مآثر فى المـاضى، فلا أقل من أنيكون ذلك لمصلحة الدولة الصهيونيـــة التى كان يسعى مع غيره لانشائها . فقد جاء فى خطابه فى مؤتمر بلتيمور عام ١٩٢٣ ما يلى :

« مضت علينا سنوات طويلة ونحن نضع القرارات السياســية التى تنص على أننا نرغب ــ نحن اليهود ــ فى أن نعيش فى سلام مع العرب ، وقد اصدرنا قرارات حملت طابع الهدوء من جانبنا . ولكن عندما نشرع فى اتخاذ الخطوات الفعالة والحاسمة لتنفيذ هذه القرارات يتعرض الواحد منـــا للحملات من كل ناحية ، لأن فهم هذه المشكلات يعتبر قضية حياة أو موت لكل ما عملناه فى فلسطين .

ويجب أن يكون واضحا لجميع ساستنا الكبار أنه ليس من الســـهل علينا الخلاص من العرب بمجرد الانطلاق بأقوال سخيفة .

وقد مضت علينا سنوات ونحن نتخذ القرارات ، ولكن مهما حدث فى النهاية للوطن القومى اليهودى ، وحتى لو استوعب هذا الوطن مــلايين اليهود ، واصبحت لنا ــ كما آمل ــ الأغلبية فى فلسطين ، فيجب الا ننسى

---

(١٩) من الفكر الصهيونى المعاصر ــ المرجع رقم ١٣ــص٣٨٨ــ٤٠٠ .

هؤلاء الناس الذين يمتون الينا بصلة القربى ، والذين عشنا معهم طويلا ـ في الماضي ـ في وئام وسلام » (٢٠) .

وبعد أن قامت دولة اسرائيل وصار وايزمان رئيسا لها فانه قال عام ١٩٤٩ :

« أنا على يقين من أن العالم سيحكم على الدولة اليهودية بما ستفعله للعرب » (٢١) .

لقد أصاب وايزمان بقولته هذه كبد الحقيقة حين وضع القاعدة التي تستطيع بها شعوب الأرض أن تتبين جوانب الباطل والظلم والشر في قضية الوجود الاسرائيلي بفلسطين . ويكفي أن نستعرض ما أصاب تلك الأرض المنكوبة وشعبها المظلوم مذ قامت دولة اسرائيل حتى اليوم ـ من مذابح وحشية وقتل وابادة جماعية ، وهدم للبيوت واعتداء على المقدسات واماكن العبادة ، وممارسة لكل صنوف الارهاب والتدمير التي تعمل على اقناع الشعب الفلسطيني باستحالة حياته فوق تلك الأرض ، فيضطر الى تركها لاجئا فقد كل شيء من مقومات الحياة .

لقد فعلت دولة اسرائيل بالعرب كل أنواع الشرور وأنزلت بهم شتى المظالم والنكبات ، واستنادا الى قاعدة وايزمان السابقة لم يعد هناك من يختلف في أن تلك الدولة انما هي شر زرع لم يثمر الا شرا ونتاج باطل ، محال أن يقدر على الصمود ..

*

لقد عض الاسرائيليون اليد العربية التي قدمت لهم الكثير ، وكان من أهم ما قدمت لهم ـ الأمن والسلام والتكريم ، وكلها أشياء افتقدوها كثيرا وعانوا الحرمان منها على يد أغلب شعوب الأرض .

لقد خان الاسرائيليون العرب ، وما ذلك بالشيء الجديد ..

فمن قبل خان يهوذا ولي نعمته ، فبعد أن أكل خبزه وتربى بين يديه اذا به يرفع عليه عقبه ...

---

(٢٠) المرجع ١١ ـ ص ٣٤٣
(٢١) المناظرة بين المؤرخ البريطاني توينبي والسفير الاسرائيلي بكندا ـ ص ١٥

ولأمر ما كان خائن المسيح يهوديا يدعى يهوذا .

لم يكن اسمه بطرس أو يوحنا ، بل كان يهوذا الخائن .

ولقد بقيت خيانته وغدره مثل سوء يتناقله الناس عبر القرون ، منذ نطق به داود فى مزاميره قبل المسيح بألف عام حتى الآن :

« رجل سلامتى الذى وثقت به ، آكل خبزى — رفع على عقبه ...

انسان عديلى ، الفى وصديقى ، الذى معه كانت تحلو لنا العشرة ...

ليقف شيطان عن يمينه اذا حوكم فليخرج مذنبا ، وصلاته فلتكن خطية . لتكن أيامه قليلة ووظيفته ليأخذها آخر .

ليكن بنوه ايتاما وامرأته أرملة . ليته بنوه تيهانا ويستعطوا .

لتنقرض ذريته . فى الجيل القادم ليمح اسمهم .

ليذكر اثم آبائه لدى الرب ولا تمح خطية أمه . لتكن أمام الرب دائما وليقرض من الأرض ذكرهم . من أجل أنه لم يذكر أن يصنع رحمة بل طرد انسانا مسكينا وفقيرا » (٢٢) .

لقد عاش داود — كما رأينا سلفا — فترة تزيد عن العام لاجئا بين القبائل الفلسطينية التى آوته هو ورجاله بعد أن نبذتهم القبيلة الاسرائيلية ، ولهذا كان يحس مرارة اللجوء ويستشعر مذلة فقدان الوطن وآلام الغربة ، ومن أجل ذلك صب داود كل لعناته على أهل الظلم والطغيان الذين يطردون السكان الآمنين ويحيلونهم الى لاجئين ، لا لشىء الا تحقيقا لأحلام مخبولة تهفو الى السيطرة والتفرد بالحكم .

***

معذرة ...

لقد أصيب تاريخ الأنبياء بالكثير من الأذى على أيدى كتبة الأسفار ، فرسمت لنا أقلامهم المعوجة ابراهيم يقبل الدنية فى بيته وداود زانيا ، وسليمان وثنيا مرتدا ، و ... وغير ذلك كثير .

والحق الذى لامرية فيه أن أنبياء الله « **المصطفين الأخيار** » براء من كل هذه المفتريات .

---

(٢٢) المزامير : ٤١ ، ٥٥ ، ٦٩ ، ١٠٩

ويكفى أن نذكر فى هذا المقام قول الله فى كتابه ــ الذى ((**فصلت آياته قرآناعربيا لقوم يعلمون**)) ــ فنعلم أن أبنياء الله هم ((**عباد مكرمون • لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون • يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون**)) . ــ (الأنبياء: ٢٦ــ ٢٨) .

تلك حقيقة الأنبياء اجمالا ، وهى لا تختلف عن حقيقتهم بالتفصيل .

فابراهيم ((**كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين • شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم • وآتيناه فى الدنيا حسنة وأنه فى الآخرة لمن الصالحين**)) . ــ (النحل : ١٢٠ ــ ١٢٢)

وأما داود وسليمان فقد قال **الحق** فى أمرهما : ((**ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين**))ــ (النمل ١٥.) .

((**ووهبنا لداود سليمان نعم العبد أنه أواب**)) ــ ص : ٣٠) .

وكل مايقال عن كفر سليمان وفساده انما فى الحقيقة فساد أصاب عقول كتبة الأسفار وقلوبهم ، فلم يكن لهم علم بحقائق تاريخه الا مادسته عليهم أقلام العابثين والسنتهم من شياطين الانس والجن .

ولقد برأه القرآن الكريم من تلك الفرية ، ثم قذف بها فى وجوههم حين قال : ((**واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان ، وماكفر سليمان ولكن الشياطين كفروا**)) ــ (البقرة : ١٠٢) .

اللهم معذرة .. فلقد أنزلت الحق وبينت الحقائق .

***

... والعالم :

انتهت الحرب العالمية الثانية بانتصار بريطانيا والحلفاء على النظم العنصرية ــ النازية والفاشستية ــ ولم تعد هناك حاجة لكسب ود العرب ، وعندئذ دخلت المؤامرة الدولية على فلسطين مرحلتها الأخيرة .

فبعد أن كانت بريطانيا قد أعلنت فى عام ١٩٣٩ صرف النظر عن تقسيم فلسطين بين العرب واليهود واعتزامها تحمل مسئولياتها فى حكم الاقليم لمدة عشر سنوات تقوم بعدها حكومة مركزية موحدة تدير شئون

البلاد ــ اذا بها تعلن فجأة عزمها عن التخلى عن الانتداب على فلسطين ، وتقرر نقل القضية الى الأمم المتحدة فى ابريل عام ١٩٤٧ . « فقامت الجمعية العامة بعقد دورة خاصة بناء على طلب بريطانيا فى ١٩٤٧/٤/٢٨ ، ثم عقدت عدة جلسات متتالية استمرت حتى ١٩٤٧/٥/١٥ تقرر فى نهايتها تأليف لجنة خاصة للتحقيق فى قضية فلسطين تضم ممثلى أحد عشر دولة من الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة ..

وقامت هذه اللجنة برفع تقريرها الى الجمعية العامة فى نوفمبر ١٩٤٧ خلال الدورة الثانية لها .

وقد انقسم أعضاء هذه الجنة الى فريقين » (٢٣) قدم احدهما مشروعا يقضى بانشاء دولة اتحادية فلسطينية تشمل البلاد كلها ، بينما قدم الفريق الآخر مشروعا يقضى بتقسيم فلسطين الى دولتين أحدهما عربية والأخرى يهودية مع تدويل منطقة القدس .

وقد أحالت الجمعية العامة كلا المشروعين الى اللجنة السياسية الخاصة لمناقشتهما والتصويت عليهماتمهيدا لعرضهماعلى الجمعية العامة. لكن بريطانيا فاجأت اللجنة باعلان « مندوبها عن عزمها على الجلاء فورا عن فلسطين ، وعدم استعدادها للاشتراك فى تنفيذ أى حل لا يقبل به العرب واليهود معا .

وكان التوقيت البريطانى لاعلان عزم بريطانيا عن الجلاء عن فلسطين مفاجأةمذهلة وغير متوقعة للأعضاء ، نظرا لأن جلاء القوات البريطانية سيوجد نزاعا فى البلاد التى تضم فريقين وصل العداء بينهما حدا طاغيا ، ما لم تسارع الأمم المتحدة الى اتخاذ قرار عاجل ،وليس أمامها سوى الخيار بين المشروعين » (٢٤) .

ولقد فشل المشروع الأول فى الحصول على الأغلبية اللازمة لاقراره وعندئذ شرع رئيس اللجنة السياسية فى عرض المشروع الثانى الخاص بالتقسيم . وعندما تم الاقتراع عليه يوم ١٩٤٧/١١/٢٥ حصل علىتأييده٢٥ صوتا مقابل ١٣ معارضا وامتناع ١٧ دولة عن التصويت وتغيب دولتين .

---

(٢٣) التصويت والقوى السياسية فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ــ مصطفى عبد العزيز ــ المرجع رقم ١٤ ــ ص ٢٦٥

(٢٤) المرجع ١٤ ــ ص ٢٦٧

لكن هذه الاكثرية التى حصل عليها مشروع التقسيم فى اللجنة السياسية « لم تكن لتضمن له النجاح فى الجمعية العامة حيث انه من المسائل الهامة التى تنطبق عليها قاعدة اغلبية الثلثين .. لذا كان أمل الصهاينة والوفود التى تؤيدهم ضئيلا فى تأمين عدد الأصوات اللازمة لاقراره .

وفى يوم ١٩٤٧/١١/٢٦ كانت المناقشات قد غطت جميع الجوانب المتصلة بمشروع التقسيم وكان من المنتظر أن يتم التصويت عليه فى هذا اليوم فى الجلسة المسائية فتبين للصهاينة أن المشروع سيفشل اذا ماتم الاقتراع فى هذه الليلة » (٢٥) .

فبذلوا كافة المحاولات والضغوط لتأجيل الجلسة ونجحوا فى ذلك .

« وقد وافق اليوم التالى لهذا التأجيل عيد الشكر عند الأمريكيين ، وبالرغم من انه ليس من الأعياد الرسمية التى تعطل فيها أعمال الأمم المتحدة ، فان رئيس الجمعية العامة ـ آنذاك وقد كان معروفا بميوله الصهيونية ـ قرر ولأول مرة فى تاريخ الأمم المتحدة أن لا يعقد اجتماعا للجمعية العامة فى هذا اليوم ، وأن يعقدها فى مساء اليوم الذى يليه . وهكذا توفر للصهياينة ومؤيديهم ثمان وأربعون ساعة للمناورات والضغوط ومحاولات الاقناع والتأثير والاتصال بالوفود المشكوك فى موافقتها من التقسيم ..

وحينما استأنفت الجمعية العامة اجتماعها بعد ظهريوم١٩٤٧/١١/٢٩ تم التصويت على مشروع القرار فحصل على ٣٣ صوتا مقابل ١٣ وامتناع ١٠ أصوات وبذلك حصل على أغلبية الثلثين التى تطلبها المسائل الهامة طبقا للمادة ١٨ من الميثاق » (٢٦) .

***

وما كان مشروع تمزيق فسطين ليحظى بموافقة الجمعية العامة دون استخدام كافة أنواع الضغوط والاغراء والتهديد واستخدام سياسة « لوى الأذرع » وكلها أمور تشكل نقطا سوداء كبيرة وخطيرة لحقت بالأمم المتحدة منذ تاريخها المبكر .

---

(٢٥) المرجع ١٤ ـ ص ٢٧٠
(٢٦) المرجع ١٤ ـ ص ٢٧٢

ويصف أحد المسئولين الأمريكيين وهو سمنر ويلز الصورة العامة لتلك الضغوط فيقول :

« ان الأمريكيين استخدموا كل شكل من أشكال الضغط المباشر وغير المباشر بعد تلقيهم الأوامر المباشرة من البيت الأبيض ، على الدول الاعضاء فى الأمم المتحدة من غير الدول الاسلامية والتى كانت حائرة بين معارضة التقسيم أو الامتناع عن تأييده . وقد استخدم البيت الأبيض عددا من الممثلين والوسطاء للتأكد من الحصول على الأغلبية المطلوبة لاقرار الجمعية العامة لمشروع التسيم » (٢٧) .

ويقول الصهيونى دافيد هو روفيتز : « ان الطريقة التى تم بها تحويل التصويت النهائى فى الجمعية اعامة يجب أن تعزى لوزن نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية الذى مارسته فى الساعة الأخيرة » (٢٨) .

واذا ما أردنا الدخول فى تفاصيل لصور الضغوط التى وقعت على بعض الدول لاجبارها على الموافقة على مشروع التقسيم ، لانتقل بنا مسرح الحوادث فجأة من أروقة وقاعات الأمم المتحدة الى أزقة وشوارع خلفية يكسوها الظلام وتفوح منها الروائح الكريهة وتمارس فيها الأعمال القذرة . وعلى سبيل المثال نذكر ماحدث لحكومات ليبريا وهايتى والفلبين .

*

فبالنسبة لحكومة ليبريا يقول الدبلوماسى الأمريكى كرمت روزفلت :

« انه بعد أن وضح موقف ليبريا من التقسيم ، قام اقتصادى مشهور — وهو روبرت ناتان — ومن المقربين للبيت الأبيض والمرتبطين بالصهيونية بممارسة سلطاته فى اقناع الوفد الليبيرى ، فأدى ذلك الى تغيير موقفه » (٢٩) .

وذكر جيمس فورستال وزير البحرية الأمريكية السابق فى عهد ترومان : « ان شركة فاير ستون للمطاط قامت بالابراق لشركتها فى ليبريا للقيام بالضغط على الحكومة الليبيرية للتصويت فى صالح التقسيم » (٣٠) .

(٢٧) Sumner Welles ; WE NEED NOT FAIL , Boston, 1948,p 63

(٢٨) David Horowitz : STATE IN THE MAKING, New York, 1953. p. 301.

(٢٩) Kermit Roosvelt: THE PARTITION OF PALESTING, The Middle East Journal, Vol. 2; No. 1, p. 14

(٣٠) The Forrestal Dairies, p. 346.

وذكر الكاتب اليهودى الفرد ليتنتال أن هارفى فاير ستون صاحب الأعمال والمصالح الواسعة فى ليبريا قام بالاتصال تليفونيا بالحكومة الليبيرية للادلاء بصوتها فى صالح التقسيم » (٣١) .

وكانت النتيجة من وراء ذلك كله هو تحــول ليبريا من معــارض للتقسيم الى مؤيد له .

وما حدث لحكومة ليبريا حدث مثيله لحكومة هايتى التى اضطر مندوبها أن يعلن والدموع فى عينيه أنه تحول من معارض لتقسيم الى مؤيد له بعد أن قام الوسطاء مثل « أدولف بيرلى الذى استغل وعد أمريكا لهايتى بالمعونة الاقتصادية لهذا الغرض » (٣٢) .

كذلك كان الحال مع حكومة الفلبين ، فبعد أن هاجم مندوبها الجنرال روميلو مشروع التقسيم وقال « ان حل شكلة تخلص أوربا من اليهود يجب الا يكون على حساب عرب فلسطين ، وفى اقامة دولة يهودية فى بلادهم » وانه لذلك سيقترع ضد التقسيم — اذا بحكومة الفلبين تضطر الى تغيير موقفها وتبرق الى الجنرال روميلو بالعودة الى بلاده وتحل محله السفير الفلبينى بواشنطن « بعد أن تلقى رئيس جمهوريتها تهديدا من السفير الأمريكى فى مانيلا بأن الكونجرس الأمريكى لن يوافق على القوانين السبعة المعروضة عليه والمتعلقة بالفلبين ، اذا لم تبدل حكومته موقفها من قرار التقسيم » (٣٣) .

وبهذه الطرق القذرة استطاعت القوى الصهيونية ومؤيديهــا من الحصول على موافقة الجمعية العامة للأمم المتحدة على تقسيم فلســطين وانشاء دولة اسرائيل .

***

وتوجد الكثير من المآخذ والاعتراضات على مشروع قرار التقسيم الذى أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة نكتفى منها بذكر ثلاث هى :

---

(٣١) Al f red Litienthal : WHAT PRICE ISRAEL ? Henry Regnery Co : Chicago, 1953. p 66.

(٣٢) المرجع ١٤ — ص ٢٨٨

(٣٣) المرجع ١٤ — ص ٢٨٩ — ٢٩٠.

١ — يعتبر مشروع التقسيم الذى أقرته الجمعية العامة ظلما صارخا لحق بالعرب أصحاب البلاد الشرعيين ، اذ انه يعطيهم « مساحة قدرها ١٢٢٠٠ كيلومتر مربع فقط ، أى بنقص قدره ٢٢٠٠ كيلومتر مربع عما خص به اليهود ، وفى ذات الوقت يقيم الدولة اليهودية فى منطقة يسكنها ما يزيد عن ٤٩٠ ألف عربى يملكون ثلثى الأراضى والعقارات مقابل ما يقرب من ٥٠٠ ألف يهودى يملكون ثلث الأراضى والعقارات فحسب . وبمعنى آخر يقيم الدولة اليهودية فى منطقة يتكون نصف سكانها تقريبا من العرب وكل امكانياتها فى يدهم — بينما نجد الدولة العربية يبلغ عدد سكانها من العرب ٧٢٥ ألف بالاضافة الى ١٠ آلاف يهودى . وهذا التقسيم الشاذ غير الطبيعى قصد منه أن تضم الدولة اليهودية كل الأجزاء التى يملكها ويسكنها اليهود فضلا عن ضم مناطق عربية كبيرة يملكها ويسكنها العرب . بينما تضم الدولة العربية اقل عدد ممكن من اليهود » (٣٤) .

٢ — ويعتبر مشروع التقسيم تجاوزا من الجمعية العامة للأمم المتحدة لسلطاتها التى خولها لها الميثاق ، اذ أنه لم يعطها « فى أى نص من نصوصه خلق دولة لشعب غير مقيم فى أرض مأهولة . فهذه الهيئة حصرت صلاحيتها بحسب الميثاق فى البحث والمناقشة واصدار التوصيات غير الملزمة ، أى لا يحق لها اتخاذ قرارات .

وعندما طلبت الجمعية العامة من مجلس الأمن الذى له حق اصدار هذه القرارات أن يطبق المادة ١٠٦ على هذا القرار ، قرر مجلس الأمن فى ١٩٤٨/٣/٥ أن يحيل الى الدول الخمس الأعضاء الدائمين وفقا لنص هده المادة موضوع تنفيذ تلك التوصية ، لكن هذه المحاولة أخفقت وانتهى الأمر الى رفض مجلس الأمن ذاته الموافقة على أن يتولى تنفيذ مشروع الجمعية العامة الخاص بالتقسيم بالقوة .

٣ — « عند التصويت على مشروع التقسيم فى الجمعية العامة ، لم يصوت مع هذا المشروع أية دولة آسيوية أو أفريقية فيما عدا بلد آسيوى واحد (الفلبين) ، وبلد افريقى واحد (ليبريا) — بالاضافة الى جنوب افريقيا وهى دولة ينبذها المجتمع الدولى بسبب سياستها العنصرية — ولم تصوت كل من الفلبين وليبريا مع هذا المشروع الا بعد أن خضعتا لضغط كبير من جانب الولايات المتحدة الأمريكية .

---

(٣٤) المرجع ١٤ — ص ٢٦٦ ، ٢٨٣

ومن هذا يتبين أن الدولة اليهودية قد غرست فى نقطة التقاء آسيا وافريقيا دون الحصول على تأييد حر من أى بلد فى الشرق الأوسط أو آسيا او افريقيا ــ عدا جنوب افريقيا » .

وبذلك تكون دولة اسرائيل عضو غريب زرعته قسرا قوى الاستعمار العالمى فى الجسم الأسيوى الافريقى ، وفرضته جار سـوء وأداة عدوان يستخدمها الاستعمار الجديد . واذا كان الجسـم البشرى يلفظ القلوب الغريبة التى تزرع فيه بعد مدة ــ سواء طال زمنها أو قصر ــ رغم انهـا أعضاء بشرية تتشابه كثيرا مع قلبه السابق ، فكيف يكون الحال مع دولة اسرائيل التى زرعت بالدم والحديد والنار وسط الشعوب العربية وفوق أرض الوطن العربى ؟؟

***

ان شعوب العالم مطالبة اليوم أكثر من أى وقت مضى أن تراجع موقفها وتقوم بالتزاماتها ازاء الشعب الفلسطينى المقهور ، فتمكنه بكل الوسائل والأساليب من استعادة أرضه وثرواته .

ان دول العالم مطالبة بتحمل مسئولياتها تجاه قضية السلام العالمى والعمل على تخليصه من أسباب التوتر وأدوات العدوان .

ان دول العالم مطالبة باعادة النظر فى القضية الفلسطينية من جديد على ضوء الحقائق والمآسى التى ترتبت على انشاء دولة اسرائيل منـذ عام ١٩٤٨ حتى الآن ، وعلى ضوء روح العصر ، ومطالب قضايا التحـرر الانسانى .

لقد حدث فى المـاضى أن راجعت بريطانيا موقفها من فكرة التقسـيم واعلنت فى بيانها الصادر فى ٩ نوفمبر عام ١٩٣٨ ــ بوصفها الدولة المنتدبة على فلسطين : « ان الصعاب السياسية والادارية والمـالية التى ينطوى عليها الاقتراح القائل بانشاء دولة عربية مستقلة وأخرى يهودية مستقـلة هى عظيمة لدرجة يكون معها هذا الحل للمعضلة غير عملى » .

وفى ١٧ مايو ١٩٣٩ أصدرت الحكومة البريطانيـة بيانا بخطتهـا السياسية فى فلسطين أكدت فيه صرف النظر نهائيا عن مشروعات التقسيم واعلنت « ان الهدف الذى ترمى اليه حكومة جلالته هو أن تشكل خلال عشر سنوات حكومة فلسطينية مستقلة .

وان الدولة المستقلة يجب أن تكون دولة يساهم العرب واليهود فى حكومتها على وجه يضمن صيانة المصالح الأساسية لكل من الفريقين » .

أما الولايات المتحدة الأمريكية . وهى المسئولة عن جميع الاجراءات الهامة والأخيرة التى أدت الى قيام دولة اسرائيل — ابتداء من اتخاذ القرارت التى « تحبذ فتح ابواب فلسطين لهجرة يهودية غير محدودة ولاستعمار يهودى واتخاذ سياسة من شأنها أن تؤدى الى انشاء كومون ولث يهودى ديمقراطى هناك . » والعمل على ادخال « مائة ألف لاجىء يهودى اضافى الى فلسطين » ، ثم الضغط بكل ثقلها وراء مشروع التقسيم حتى استطاعت أخذ موافقة الجمعية العامة للأمم المتحدة عليه فى نوفمبر ١٩٤٧ — فانها مع ذلك كله راجعت موقفها على ضوء الأحداث الدامية التى جرت فوق أرض فلسطين ، مما دفعها الى تقديم مشروع قرار الى مجلس الأمن فى ١٩ مارس ١٩٤٨ تطالب فيه بالغاء قرار التقسيم ، وكان هذا نصه :

« انه طالما بدا واضحا أن قرار الجمعية العامة لتقسيم الصادر فى ٢٩نوفمبر ١٩٤٧ لا يمكن تنفيذه بالطرق السلمية وانمجلس الأمن ليس لديه الاستعداد لتنفيذه ، فان المجلس يوصى :

أولا — بفرض وصاية مؤقتة على فلسطين تحت وصاية المجلس .

ثانيا — يطلب المجلس عقد جلسة خاصة للجمعية العامة .

ثالثا — والى أن تعقد هذه الجلسة يجب أن تصدر تعليمات الى لجنة فلسطين لتوقف جهودها لتنفيذ مشروع التقسيم .

رابعا — دعوة العرب واليهود الى اجراء هدنة فى فلسطين .

خامسا — مناشدة بريطانيا البقاء كدولة منتدبة تحت اشراف الأمم المتحدة الى حين التوصل الى حل نهائى لقضية فلسطين » (٣٥) .

ولقد وافقمجلس الأمن بالاجماع علىمشروع القرار ،وابلغه للسكرتارية العامة لتنفيذه .

وهكذا نجد أن أمريكا والعالم قد تراجعوا جميعا عن فكرة التقسيم ، وقرروا البحث عن حل آخر لقضية فلسطين . ثم ما لبثت أمريكا أن تقدمت بمشروع قرار فى ٢٠ أبريل ١٩٤٨ يهدف الى وضع فلسطين تحت

---

(٣٥) المرجع ١١ — ص ٩٢١.

وصاية هيئة الأمم المتحدة الى أن يتم وصول العرب واليهود الى اتفاق ينقل الى الجمعية العامة وتنتهى بعده الوصاية، أو أن يبقى نظام الوصاية سارى المفعول لمدة ثلاث سنوات يقرر بعدها نوع الحكومة عن طريق الاستفتاء العام (٣٦) .

*

فاذا كان هذا هو موقف أمريكا وبريطانيا فى الماضى القريب من المراجعة واعادة النظر فى انشاء دولة اسرائيل ، فلماذا لا تعيد دول العالم النظر من جديد فى القضية الفلسطينية على ضوء التجربة المريرة التى نتجت عن خلق وجود عسكرى اسرائيلى بفلسطين ، جلب ولا يزال يجلب عليها الكثير من المآسى والنكبات منذ أكثر من عشرين عاما حتى الآن .

ان اعادة النظر فى القضية الفلسطينية واجب يلتزم به الضمير العالمى، وانه لحق لكل عربى فلسطينى يطوق عنق العالم ممثلا فى شعوبه ودوله . وحين يتحقق ذلك — وتبدو فى الأفق بشائر لوضع حد للصراع الدامى الذى ان ترك وعلاجه التقليدى فلا بد أن يستمر الى أكثر من ١٠٠ عام — فلسوف يجد العالم أن فى قيام الدولة الفلسطينية الديمقراطية الموحدة ، الحل الوحيد لأزمة السلام وآلام الانسان فوق هذه البقعة المنكوبة من الأرض .

***

أما بعـد :

فمهما طال الزمن ، وتعثرت المسالك ، وتكاثرت النكبات ....

فلا بد أن يزول الباطل ونتاجه ، وتذهب كل الأباطيل ...

ولابد أن يبقى الحق وتظهر أنواره فتضىء طريق السلام للعالمين ...

السلام القائم على العدل ، وليس السلام المراوغ الذى تفرضه قوى الظلم بالبطش والارهاب .

*

ما أشبه اليوم بالأمس القريب حين وقف هتلر يدعى أن غزو بولندا كان ضرورة اقتضتها مطالب تأمين الوجود والحدود الألمانية .

واليوم تدعى اسرائيل أن عدوانها المستمر أو المتقطع على الدول العربية انما هو حرب وقائية وضرورة يقتضيها تأمين وجودها وحدودها .

---

(٣٦) المرجع ١١ — ص ٩٢٧

وعمل هتلر على جلب المستعمرين الجدد الى الاراضى المحتلة المجاورة، وانشأ بها المستعمرات بدعوى اقامة مجتمع جديد يعمر الصحراء الاسيوية .

وتعمل اسرائيل على جلب يهود العالم الى أراضى العرب المحتلة، وتقيم بها المستعمرات بدعوى اقامة مجتمع عصرى متقدم يحقق الرخاء لتلك الأرض. وكان هتلر يحقر تلك الشعوب المهزومة ويسفه خصائصها ومقوماتها ، ثم يفتخر بمنجزاته العلمية وتفوقه التكنولوجى .

وتردد اسرائيل اليوم نفس أقاويل الباطل والغرور ، فتعمل بكل وسيلة على تحقير العرب وتشكيكهم فى قدراتهم ، وتتهمهم بالعجز عن ملاحقة ركب التفوق التكنولوجى الحديث .

واخيرا وليس آخرا — كان هتلر يتحدث بعد عدوانه — عن السلام فى الشرق والغرب ، ويعمل على فرضه بالقوة حتى يستطيع أن يجنى ثمار عدوانه .

واليوم تكثر اسرائيل من الحديث عن السلام — بعد العدوان — لكى تحقق أطماعها العنصرية فى السيطرة والتوسع .

*

ان اسرائيل هى النازى الجديد ، والفاشيست الجديد بل وكل نظام عنصرى ظهر فى الماضى ، حيث تعيد اسرائيل تمثيله اليوم من جديد ، بتركيبه وأفكاره وأحلامه المجنونة .

ان هذا هو ما يقرره الخبراء والمحللون من غير العرب ومنهم الكاتب الالمانى جونتر جراس الذى كتب مقالا نشرته له بنيويورك صحيفة INTELLECTUAL DIGEST بتاريخ ١٩٧٢/٣/٢٨ حيث قال :

ان قوى الاتجاهات النازية تظهر الآن فى اسرائيل حيث توجد عقدة التفوق اليهودى وحلم اقامة اسرائيل الكبرى . وهذه النظرة العنصرية الى تفوق الجنس اليهودى والحلم بدولة كبرى لاسرائيل — نموذج للنزعة النازية .



واذا اردنا ان نعرف ماذا ينتظر اسرائيل — نتاج زيف الاستعمار

والصهيونية وأباطيلها — فان علينا أن نراجع دروس التــاريخ ونبحث عن مصير قوى البغى والعــدوان التى اقامت دولا ، بل وامبراطوريات أقوى واكبر بكثير من اسرائيل ، امتد وجودها طيلة العشرات من السنين ، ثم كانت نهايتها جميعا الى زوال .

ان ذلك ما تؤكده أنباء قوى : الهكسوس ، والتتار ، والفاشست ، والنازى .

واذن لن يكون مصير هكسوس القرن العشرين — اسرائيل — بأفضل من مصير أسلافهم الغابرين .

***

لو راجع الاسرائيليون أنفسهم قليلا ، وتلمسوا الحل للمشاكل المعقدة التى حدثت نتيجة لوجودهم فوق أرض فلسطين على هيئة كيان عسكرى شرس ، جلب على العرب واليهود الكثير من المآسى والنكبات — ولو كان الاسرائيليون راغبين حقا فى سلام حقيقى يحل بتلك البقعة المعذبة من الأرض ومن عليها من البشر ، لأعلنوا للعالم ما تهمس به ضمائر ذوى الضمائر منهم من ضرورة العمل من جديد على خلق دولة فلسطينية واحدة يتآلف بين جوانبها كل من العرب واليهود .

ان الشىء المؤكد هو أن ما ارتكبه الاسرائيليون فى حق العــرب من جرائم طيلة بضع عشرات من السنين لا يمكن أن يمضى دون عقاب تنزله بهم عدالة السماء .

فاما رجوع الى الحق واما نذير يتلوه عقاب .

تلك سنة الله فى خلقه فى جميع العصور والأجيال ، ولا حاجة بنـــا للاستشهاد لهذا بنص من سفر أو كتاب .

فان كانت اسرائيل لا محالة متمسكة بالنصوص والأقاويل فلتسمع ما يقوله الكتاب :

« أرسل الرب قولا فى يعقوب فوقع فى اسرائيل ..

صار مرشدو هذا الشعب مضلين ، ومرشدوه مبتلعين .. كل واحد منهم منافق وفاعل شر ، وكل فم متكلم بالحماقة ..

لأن الفجور يحرق كالنار .. بسخط رب الجنـــود تحرق الأرض ، ويكون الشعب كمأكل للنار » (٣٧) .

*

واذا كان عدوان عام ١٩٦٧ قد مكن الاسرائيليين من أصطياد القـدس فلم يكن ذلك الا من سوء حظ المدينة المقدسة — مدينـــة الصلاة — التى انتهكت بها كل الحرمات ، وامتلأت بالفجور والموبقات ، واعتدى فيها على أماكن العبادة والصلوات .

« طوفوا فى شوارع أورشليم وانظروا واعرفوا وفتشوا فى ساحاتهـــا هل تجدون انسانا أو يوجد عامل بالعدل ..

انهم يحلفون بالكذب .. صلبوا وجوهم أكثر من الصـــخر . أبوا الرجوع .. كسروا النير جميعا وقطعوا الربط .. ذنوبهم كثرت . تعاظمت معاصيهم .

كيف أصفح عن هذه ؟؟

لـــا أشبعتهم زنوا ، وفى بيت زانية تزاحموا . صاروا حصنا معلوفة سائبة . صهلوا كل واحد على امرأة صاحبه .

أما أعاقب على هذا . يقول الرب ؟؟!!

أو ما تنتقم نفسى من أمة كهذه ؟؟!!

ها أنذا أجلب عليكم أمة من بعد يا بيت اسرائيل يقول الرب .

أمة قوية ، أمة منذ القديم .. جعبتهم كقبر مفتوح . كلهم جبـــابرة فيأكلون حصادك وخبزك .. يهلكون مدنك الحصينة التى انت متـــكل عليها » (٣٨) .

*

ان الحق هو ما يقوله يوحنا للاسرائيليين حين يطلب منهم أن يراجعوا أنفسهم :

---

(٣٧) اشعياء : ٩
(٣٨) ارمياء : ٥

« يا أولاد الافاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا ابراهيم أبا ..

الآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر . فكل شجرة لا تضع ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار » (٣٩) .

والحق ما يقرع به المسيح سمع الاسرائيليين حين يقول لهم :

« انكم تشبهون قبورا مبيضة تظهر من خارج جميلة وهى من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة .

هكذا أنتم أيضا من خارج تظهرون للناس أبرارا ولكنكم من داخل مشحونون رياء واثما ..

أيهاالحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من ديونة جهنم ؟! » (٤٠)

***

وبعد : أن أساسيات الدين ــ كل دين ــ وحقائق التاريخ تؤكد أن ما قام على الشرور والأباطيل لن يلبث أن يذوى ويزول ، ولو سحر الناس بريقه من عل ، كما يجذب الأنظار زبد الربى .

« **كذلك يضرب الله الحق والباطل .**

فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

كذلك يضرب الله الأمثال » .

ومهما طال الزمن أو قصر فسوف يأتى اليوم الذى يقف فيه المؤمنون المجاهدون بين يدى الله ويقولون بلسان الحمد ورضاء النفس :

« **قطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** » .

***

(٣٩) انجيل متى : ٣
(٤٠) انجيل متى : ٢٣

قائمة المراجع الرئيسية

١ — الكتاب المقـــدس .

٢ — تاريخ العرب العام — تأليف المستشرق الفرنسى ل . أ . سيديو (كلية سان لويس) — مترجم عن الفرنسية — دار احياء الكتب العربية — القاهرة — ١٩٤٨

٣ — تاريخ العرب — تأليف الدكتور فيليب حتى وآخرين (جامعـــة برنستون) — مترجـم عن الانجليزية دار الكشـــاف — بيروت — ١٩٤٩

٤ — تاريخ الأمة العربية — عصر الانحدار — تأليف محمد أسعد طلس — دار الأندلس — بيروت — ١٩٦٣

٥ — الشرق الأدنى القديم : وادى الرافدين — تأليف الدكتور نجيب ميخائيل — دار المعارف — القاهرة — ١٩٦٣

٦ — فضل العرب على أوربا — تأليف الدكتوره سيجريد هونكه — ترجمة عن الألمـــانية للدكتور فؤاد حســـــنين على — دار النهضة العربية — القاهرة — ١٩٦٤

٧ — تاريخ الفلسفة اليونانية — تأليف يوسف كرم — لجنة التـــأليف والترجمة والنشر — القاهرة — ١٩٥٨

٨ — مذهب الذرة عند المسلمين — تأليف الدكتور س. بينس — نقله عن الألمـــانية محمد عبد الهادى أبو ريده — مكتبة النهضــــة المصرية — القاهرة — ١٩٤٦ .

٩ — مقالات الاسلاميين : تأليف الامام ابى الحسن الاشـــعرى — طبع بمطبعة الدولة باستانبول عام ١٩٢٩ .

١٠ — التصوف وفريد الدين العطار — تأليف الدكتور عبد الوهاب عزام دار احياء الكتب العربية بالقاهرة — ١٩٤٥ .

١١ — ملف وثائق فلسطين — وزارة الارشاد القومى — القاهرة .

١٢ — العقد الفريد — لابن عبد ربه — القـــاهرة — ١٢٩٣ هـ — الجزء الأول .

١٣ — من الفـكر الصـــــهيونى المعاصر — مركز الأبحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية .

١٤ — التصويت والقوى السياسية فى الجمعية العامة للأمم المتحدة — تأليف مصطفى عبد العزيز — مركز الأبحـــاث بمنظمة التحرير الفلسطينية — بيروت — ١٩٦٨ .

*

— ENCYCLOPEDIA AMERICANA, Volume 3, (١٥)
1959.

— ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA, Volume 3, (١٦)
1960.

— Sabatino Moscati : THE SEMITES IN ANC- (١٧)
IENT HISTORY, Cardif University of Wales
Press, 1959.

— H. Polano : THE TALMUD, English Trans- (١٨)
lation, Frederieh Warne & Co. London &
New York

— James Parkes : A HISTORY OF THE JEW- (١٩)
ISH PEOPLE, Penguin Books, Harmondsworth.
Middlesex, England, 1964

— W.F. Albright : FROM THE STONE AGE TO (٢٠)
CHRISTIANITY, Anchor Books, New York
1957

— R.K. Harrison : ARCHAEOLOGY OF THE (٢١)
OLD TESTAMENT, The English Universities
Press, London, 1963

— Hugh J Schonfield : THE PASSOVER PLOT, (٢٢)
Hutchinson of London, 1966

— J. C. Fenton : SAINT MATTHEW, Penguin (٢٣)
Books; 1963

— Bertrand Russel : POWER, Union Books, (٢٤)
London, 1965.

— Alan Bullock : HITLER, Penguin Books, (٢٥)
1964.

— S.D. Goitein : JEWS & ARABS, Schocken, (٢٦)
New York, 1955.

— Alfred Guillaume : ISLAM, Penguin Books, (٢٧)
1964.

فهرس الكتاب

***

تصويب

توجد بعض الأخطاء المطبعية التى ترجع أساساً إلى حدوث زيادة أو نقصان فى حروف بعض الكلمات — وهذه من السهل تداركها بمعرفة القارىء .

لكن هناك أخطاء أخرى رؤى من الواجب تداركها بهذا التصويب .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧٠	١٤	بالإسرائيليين	ببنى إسرائيل
١٣٠	٩	فالسومريون	فالسوريون
١٤٦	٢٤	غيره . واذكروا	غيره .. واذكروا
١٧٢	١٠	وكال	وكان
١٨٧	٢٤	« كأنه العرجون القديم »	« كالعرجون القديم »
١٨٨	١	٢٧٩٣فى على الترتيب ٣٦٧٥	٣٦٧٥،٢٧٩٣ على الترتيب
١٩٩	١٠	أما	أم
٢٠٧	٢٢	ويحرص	ويحرصون
٢٠٧	٢٨	الأرص	الأرض
٢٦١	١	٣٦١	٢٦١
٣٠١	٢٠	الآمئة	الآئمة
٣١٧	١٥	إنما فى	إنما هو فى
٣٢٠	١٢	الساعة	الساعات

هذا الكتاب

□ يعتبر دراسة لقضية فلسطين من زوايا العقيدة والتاريخ ــ من أجل ذلك فانه يعتمد على النصوص المقدسة ، والوثائق والتقارير التى تزداد قيمتها بما تتضمنه من أقوال المتخصصين من غير العرب .

□ ويبدأ الكتاب بكشف « **المخطط الاستعمارى والعمل الصهيونى** » وتحالفهما لاغتصاب فلسطين ــ ثم دراسة مركزة « **لأسفار العهد القديم** » باعتبارها المرجع الرئيسى الذى تستخرج منه النصوص والتأويلات ــ و « **ابراهيم** » صاحب العهد الالهى ــ يعقب ذلك عملية مسح « **للتاريخ الاسرائيلى بفلسطين** » ــ وتاريخ شعوب الشرق الأوسط القديم ، الذى يؤكد أن « **فلسطين عربية** » وأن عروبتها قديمة تمتد جذورها لأكثر من ٥٠٠٠ عام .

□ وفى عرض لشيء من « **الحضارة العربية** » نجد أن العرب قد اسهموا ايجابيا فى مختلف فروع العلوم ، حتى **الذرة** كان لاسهامهم فيها شأن ملحوظ حين قرروا حقيقتها قبل أن يكتشفها العلم الحديث بأربعة عشر قرنا ، مما جعل علماء الغرب يشهدون بأن العربى عنصر حضارى بطبعه ، على عكس ما تحاوله الدعايات المسمومة من الصاق تهمة التخلف المتوارث بالعرب .

كذلك فان دراسة « **القضية بين الحق والقوة** » تؤكد وضوح الحق العربى فى فلسطين ، رغم اصطدامه بالقوة الاسرائيلية الغشوم التى لاتحمى سوى المزاعم والأباطيل .

□ ومن ثم فان الحل الحتمى لهذه القضية هو اقامة الدولة الفلسطينية الواحدة الخالية من التعصب والعنصرية ، وهى دولة تمتد بحدودها الفلسطينية المعروفة **من البحر الى النهر** . ان هذا هو الحل الذى يفرض نفسه على « **اسرائيل .. والعرب .. والعالم** » .

□ ويسر **مكتبة وهبه** أن تقوم بنشر هذا الكتاب ليكون « **شمعة** » تنير الطريق أمام المشتغلين بقضايا العالم العربى عامة ، وقضية فلسطين بوجه خاص .

مكتبة وهبة

الثمن ٨٥ قرشا